

د. سيات موسى

ميلاد العصور الوسطى



ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد
مراجعة: د. السيد الباز العريني

1 / 479



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

الإشراف العام
الدكتور/ سمير سرخان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
أحمد صليحة

مستشار التحرير
عزت عبد العزيز

الإخراج الفني والغلاف
طيار محمد

مِلَادُ الْعَصْرِ الْوَسْطَى

٣٩٥ - ٨١٤

قَالَيف

هـ. سانت ل. ب. موس

رَاجِعُهُ

الدكتور السيد الهادي العربي

تَرْجُمَةُ

عبد العزيز توفيق جاديد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٨

هذه ترجمة كتاب

THE BIRTH OF THE MIDDLE AGES

395 — 814

تأليف

H. ST. L. B. Moss

محتويات الكتاب

الصفحة		الصفحة	
٦٧	الخلافات الكنسية	١	المحتويات
	العداء بين القسطنطينية والإسكندرية	٥	قائمة الخرائط والصور
٧٠	نشاء الديرية	٦	كلمة المترجم
٧٣	الفصل الثاني	٩	مقدمة الكتاب
			القسم الأول - (الرومان والبرابرة)
٧٥	عالم البرابرة		الفصل الأول
٧٥	الغزوات		
٧٧	تطوّر المبكر لمانيا	١٥	العالم الروماني
٨٤	القوط الغربيون	١٦	الصناعة والتجارة
٨٩	البرابرة في فرنسا وأسبانيا	٢٠	الشرق والغرب
٩١	الوندال	٢٣	الإمبراطورية في خطر
٩٣	الهون	٢٦	دقلديانوس وقسطنطين
٩٧	نهاية إمبراطورية أتيلا	٢٨	الوثنية في عهدها المتأخر
٩٨	القوط الشرقيون	٣٣	ديانة القرن الرابع
	الفصل الثالث	٣٧	وحدة الإمبراطورية
		٤٠	الحدود
١٠٤	التقاء الحضارتين	٤٤	الجيش
١٠٦	القرن الخامس في الغرب	٤٥	غلبة البرابرة على الجيش
١١٠	الشرق والشرق	٤٨	الإمبراطور
١١٣	كلوفيس وفتح غالة	٥٢	الهيئة السناطورية
١١٦	الممالك الجرمانية الرومانية	٥٥	اضطراب شئون الزراعة
١٢٠	فرنسا في عهد كلوفيس	٦٠	اضمحلال الطبقات الوسطى
١٢٤	إيطاليا في زمن ثيودوريك	٦١	حياة الطبقات العليا

الصفحة	الصفحة
١٨٨	القوط والرومان
١٩١	الأبوسية الجرمانية
١٩٥	المؤامرات الكاثوليكية في فرنسا
١٩٧	ثيودوريك والكنيسة
	القسم الثاني انتصار جستنيان
٢٠١	الفصل الرابع
٢٠٤	البيزنطية
٢٠٨	الحدود الشرقية
	روما وفارس
	الفصل السابع
٢١٢	عواقب حكم جستنيان
٢١٣	الغزو اللومباردي
٢١٦	إيطاليا البيزنطية
٢٢٠	الحركة الانفصالية الإيطالية
٢٢١	ممتلكات البابا
٢٢٦	بحوري السكيه
٢٢٨	خلفاء جستنيان
٢٣١	الإمبراطور هرقل
٢٣٣	روما تنتصر على فارس
	القسم الثالث - ظهور الإسلام
	الفصل الثامن
٢٣٩	العقيدة
٢٤١	بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)
٢٤٣	حياة محمد عليه الصلاة والسلام
٢٤٥	العقيدة
١٢٧	القسطنطينية
١٣١	ميدان السباق
١٣٣	الخضر والزرق
١٣٧	ثورة نيقا
	كنيسة القديسة صوفيا
	أصول الفن المسيحي
	المؤثرات الآسيوية
	التجارة البيزنطية
	الحياة في العاصمة البيزنطية
	الفصل الخامس
	جستنيان والغرب
	الإمبراطورة ثيودورا
	فتح إفريقية
	عوامل ضعف القوط الشرقيين
	فتح إيطاليا
	بيندكت أسقف نورسيا
	اضمحلال روما
	الفصل السادس
	جستنيان والشرق

الصفحة	الصفحة
٢٩٩ (٣) بينظلة والبحر المتوسط	الفصل التاسع
٣٠٠ إصلاحات الأسرة الإيسورية	٢٤٧ الفتوح الإسلامية
٣٠٢ نضال مناهض عبادة الصور	٢٤٩ فتح الشام
الفصل الثاني عشر	٢٥١ فتح وسط آسيا
٣٠٧ الفرنجة	٢٥٢ فتح مصر وشمال إفريقيا
٣٠٩ المير وفنيجيون الأوائل	٢٥٤ فتح شمال إفريقيا
٣١٢ برانيلدا وشلبريك	٢٥٧ الخطر على بينظلة
٣١٣ وقعة تيرتري	الفصل العاشر
٣١٧ البابوية والكارولنجيون	٢٥٩ الحضارة الإسلامية
٣١٩ حكم الرومان والجرمان	٢٦١ سقوط الدولة الأموية
٣٢٣ الفن والآداب والخرافات	٢٦٢ الإمبراطورية الإسلامية
الفصل الثالث عشر	النظام الإداري في حكم العباسيين
البابوية	٢٦٤ التجارة
١ - نفور البابوية في إنجلترا وألمانيا وفرنسا	٢٧٠ الأدب الإسلامي
٣٢٦ روما والكنيسة الكلتية	٢٧٣ الفن الإسلامي
٣٢٨ ٢ - توازن القوى في إيطاليا	٢٧٥ عنصر الانتقاء في الفن الإسلامي
٣٣١ اللومبارديون	القسم الرابع — عصر شرلمان
٣٣٤ السياسة الإيطالية	الفصل الحادي عشر
٣٣٩ تدخل الفرنجة	الأوضاع الأوربية
٣٤١ منحة قسطنطين	(١) الغزوات الأنجلوسكسونية
٣٤٣ البابا والكارولنجيون	٢٨٣ جغرافية بريطانيا
الفصل الرابع عشر	٢٨٤ حضارة نورثمبريا
٣٤٦ شرلمان	٢٩٠ (٢) المد الصقلي
٣٥٣ حروب الافار ورونيديفال	٢٩٦ انتشار الصقالبة
٣٥٦ نظام الإدارة الكارولنجية	٢٩٨ زوال إمبراطورية الاتحاد

الصفحة		الصفحة	
٣٨٧	الحكومة الشيوقراطية	٣٦٠	القوانين الكارولنجية
٣٨٩	التغير الثقافي	٣٦٤	بلاط شرميان
٣٩٢	الآداب واللغة	٣٦٦	النهضة الكارولنجية
٣٩٥	التطورات اليونانية	٣٦٩	الحياة في آخن
٣٩٩	الرمزية والمجازية	٣٧٠	عيوب سياسة شرميان
٤٠٣	الكنيسة والحركة الإنسانية		الفصل الخامس عشر
٤٠٦	الوثنية والحرافات		أوروبا في مرحلة انتقال
٤١٠	تراث روما	٣٧٤	حركات الاقوام
٤١١	تذييل (ا)	٣٧٥	التجارة والصناعة
٤١٧	تذييل (ب)	٣٨٠	الزراعة في الغرب
٤٢٣	جدول الابطرة والبابوات	٣٨٣	الطبقات الاجتماعية

قائمة الصور والخرائط

تواجه صفحة

- ١ - صورة الإمبراطور فاليريان وهو يركع أمام سابور الأول ٢٤
- ٢ - خريطة الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع ٤٠
- ٣ - خريطة غارات البرابرة ٧٢
- ٤ - (أ) صورة تيجان أعمدة من عهد الميروفنجيين ٨٨
(ب) صورة تبين العمارة في عهد الأسرة الكارولنجية
- ٥ - جواهر البرابرة ١٢١
- ٦ - (أ) صورة آل سيماخي (مدرسة الإسكندرية) ١٣٦
(ب) صورة عبادة المجوس (المدرسة السورية)
- ٧ - فتوح جستنيان ١٨٤
(أ) خريطة الإمبراطورية الرومانية في عام ٥٢٦ م
(ب) خريطة الإمبراطورية الرومانية من ٥٣٣ - ٦٠٠ م
- ٨ - خريطة الحدود الشرقية ٢٠٠
- ٩ - خريطة العالم الإسلامي ٢٤٨
- ١٠ - (أ) صورة فيفساء من المسجد الكبير بدمشق ٢٦٤
(ب) صورة نقش محفور من المشتى
- ١١ - أنواع المآذن (١) من شمال إفريقية (٢) عراقية (٣) فارسية
(٤) مصرية (٦) من القسطنطينية (٥) هندية ٢٦٥
- ١٢ - خريطة إنجلترا في عهد الأنجلوساكسون ٢٨٠
- ١٣ - خريطة انتشار الصقالية ٢٩٦
- ١٤ - خريطة فرنسا في عهد الميروفنجيين
(أ) من ٥١١ - ٥٦١ م (ب) ٥٦٨ م ٣١٢
- ١٥ - خريطة إيطاليا من القرن السابع إلى الثامن ٣٢٨
- ١٦ - خريطة إمبراطورية شرلمان ٣٢٩
- ١٧ - صورة صليب بيوكاسل ، نقوش على وجهه الشرقي ٣٦٠

تفويه : صورة الغلاف تمثل القائد بليسايريوس ممتطيا جواده

كلمة المترجم

إن نظرة واحدة إلى هذا الكتاب توضح أهميته . فهو ينتظم حقبة طويلة من الزمن تبلغ قرونًا أربعة . تبدأ بعالم البرابرة ، ويأخذ في دراسة تاريخ أوروبا قرنًا فقرنًا ، ودولة في إثر دولة ، مستعرضاً قبائل البرابرة ، إذ تظهر في موجات متلاحقة متداخلة : القوط والآفار والجرمان واللومبارد والفرنجة وغيرهم وغيرهم . والكتاب يحدد لكل هؤلاء وغيرهم في الصورة مكانًا معينًا لا يخرج دراسته عن التناسب السليم بينه وبين غيره من الأجزاء التي تقع معه في إطار واحد . ولم يغفل المؤلف أمر العرب ، فلم يتجاهل أثرهم في تلك القرون ، وأنه كان لهم ضلع كبير في تاريخها ، وكانوا عاملًا فعالًا في حضارتها . ومن ثم فهو يفرد لهم قسمًا كاملاً من كتابه يدرس فيه عقيدتهم وتاريخهم ، وما أسهموا به من فضل في خدمة الحضارة .

* * *

والآن ما قصة هذه العصور الوسطى ؟ أين مبتدأها ومنتهاها ؟ وكيف يكون لحقبة ابتداء وميلاد ، والتاريخ تدرج وتطور حينًا ، وانتقال وتحول أحيانًا ، وتوقف وجود بل حتى موت حينًا آخر ؟ بل إن تقسيم التاريخ إلى حقب يكاد يكون — كما ألمع المؤلف نفسه في مقدمته — تعسفا والتماسا للبحال .

على أن المؤرخين ، التماسا للتسهيل على أنفسهم وعلى قرائهم ، كانوا يستقرون العناصر والظواهر الغالبة على فترة من الفترات ، ويجمعونها بمجموعات يصدرون بها أحكامًا عامة ، ويطلقون عليها أسماء ترجيح القارىء والمؤلف جميعا .

فالعصور الوسطى هي الفترة الممتدة بين العصور القديمة التي يرى المؤرخون أن أغلب ظواهرها ومعظم معالمها انتهت عند قريب من نهاية القرن الرابع الميلادي ، وبرزت ظواهر أخرى واشتدت وغلبت على الناس والزمان حتى أصبحت طابعا واضحا لها ، ولها صفاتها وميزاتها التي أجمع المؤرخون على تسميتها باسم العصور الوسطى . وظلت تلك الظواهر والمميزات حية قوية ما لا يقل عن عشرة قرون ، إلى أن انبثقت أحوال أخرى في فكر الناس وطريقة عيشهم وأسلوب تصرفاتهم في الحياة ومعالجاتهم لثئون الفنون والأدب والتجارة والاقتصاد والمعيش

والاجتماع ، بحيث أصبح واضحاً ظهور عصر جديد في تاريخ الإنسانية ، عصر ثقافة وخضارة من نوع جديد هو الذى اصطلح الناس على تسميته باسم عصر النهضة .

على أن المؤلف - كما هو واضح من عنوان كتابه - لم يتسع مجال بحثه ليشمل بنظراته العصور الوسطى بأكملها بل قصر جهوده على فترة أربعة قرون فقط هى التى ذر فيها قرن تلك العصور إلى أن قامت على سوقها نباتا غضا ، وبافعا فتيا ثم لم يتجاوز بحثه تلك المرحلة .

وإن مؤرخا فى منزلة الأستاذ العلامة « موس Moss » من المؤرخين المحدثين لا يمكن أن يأخذ نفسه إلا بأسلوب الدراسة الحضارية . فهو لا يقتصر على سرد التاريخ فى صورة حقائق وحروب ووقائع وعلوك وأفراد ، بل يأخذ على عاتقه - أولا وقبل كل شيء - دراسة الأحداث والشعوب والعلوم والحضارات والثقافات وخبرات الأمم وتفاعلاتها مع ما يحيط بها من ملاسات ، وردود أفعالها لإزاء ما يصطك بها من عوامل ومؤثرات خارجية . ولا غرو فهذه هى الطريقة الحديثة فى دراسة التاريخ ، تهتم بالامة قبل الملك ، وبالمجتمع دون البلاط ، وتهتم بالعلوم والثقافات اهتماما بالشعب وأساطيره وأحلام طفولته التى تتكون منها عقليته البدائية .

* * *

والمؤلف يقسم كتابه أقساما أربعة : جعل عنوان القسم الأول منها الرومان والبرابرة ، وتحدث فيه عن العلاقة بين روما والبرابرة ، وكيف أنها بدأت بالتجارة وانتهت إلى زج الإمبراطورية فى أفدح المعاطب . وأما القسم الثانى فتحدث فيه عن عصر جستنيان فى أربعة فصول ، وفاه فيها حقّه ، وتناولوه وعصره من جميع نواحيه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية ، ولم يفته أن يبين ما جرت به سياسة ذلك الإمبراطور الكبير على الدولة من أضرار . وكما سبق أن ذكرنا أفرد للإسلام - وهو حقيقة من أبرز الحقائق فى العصور الوسطى - قسما كاملا ، تحدث فيه عن عقيدته حديثا لم يرقنا بعض ما فيه فأعملنا فيه القلم لإحقاق الحق ، كما تحدث عن مآثره العسكرية وفتوحه ، فضلا عن حديثه المسهب عن حضارته وثقافته وعن الزيت الجديد الذى أضافه ذلك الدين القيم إلى مشعل الحضارة حين النقطة باهتا خابى الضياء من سبقه من فرس وروم فسطع وأشرق بمن انضم إلى ركه من عظماء الإسلام ، ما بين عالم ومشرع ، وفنان ومعمارى ، وفيلسوف ومفكر . ثم يتحول

المؤلف في القسم الرابع إلى عصر شرلمان فيحدثنا عن الأوضاع التي مهدت لعظمته، ويفرد فصلاً كاملاً للفرنجة والجرمان وعاداتهم وعرفهم وتشريعهم . ولم يفت الكاتب - في طول كتابه وعرضه - أن يتحدث عن البابوية وعلاقتها بالأحداث والشعوب والأمم والأباطرة على كر القرون الأربعة التي هي مجال الكتاب .

ومن الظواهر الرئيسية التي عالجها المؤلف في كتابه : مسائل العراق بين السلطين الزمنية والدينية بعد القتال الدموي الذي نشب بين المسيحية والوثنية ، وهما من أعظم معالم التاريخ في تلك الحقبة ، بل هما يكادان أن يكونا المحورين الرئيسيين لأهم شئون الناس . وبالقضاء على الوثنية تم القضاء على مابق في العالم من عقل حر يفكر طليقا ، ويد حرة تتفنن بغير إيسار ، وقلب حر يعتلج بغير كآج ، ووقع الناس في أغلال التزمّت في الدين ، وتخلوا عن الأصالة في الفن ، والتزموا الجود في الإبداع الأدبي . وظلت الإنسانيّة أسيرة لتلك الأغلال التي قيدت يدها ، ووضعت على قلبها أكنة ، إلى أن جاء عصر النهضة لحطم التزمّت ، ومزق أغطية العيون ، وهتك أكنة القلوب .

ولكن من ذا الذي يستطيع أن يقول إن العصور الوسطى كانت عصر تأخر محض ؟ إن كل ما في الأمر أنها كانت عصر توقف أو فترة جود ، وإلا فبماذا تسمى ما حدث من ضمّ برايرة أوروبا بمختلف قبائلها إلى حظيرة المسيحية ، وصبغهم بصباغ الحضارة الأوروبية القائمة ؟ وكيف تفسر النهضة العلمية والأدبية التي قامت في بريطانيا وغالة وجرمانيا ؟ إن نظرة مقارنة واحدة تضع ما كتبه تاكيتوس عن جرمانيا إلى جنب ما كتبه غيره عنها في عهد شرلمان لتوضح ما طرأ على الجرمان من فرق هائل . فالقول إذن بأن العصور الوسطى في عداد عصور الظلمات قول مردود ، لأن طبيعة البشر تأتي إلا التطور . وقد لا يكون السكون إلا فترة انكماش لهجوم أو اختار لتفاعل .

وقد حرصنا على ترجمة الكتاب ترجمة عالية صحيحة تجعله صورة صادقة للأصل الإنجليزي ، بحيث يستطيع الاستفادة منه قارئ عام مثلبا يفيد منه طالب جامعي ، وعينا بتزويده بنفس الصور والخرائط التي وردت في الطبعة الإنجليزية إتماماً للفائدة وتنويراً للقارئ وأمانة في النقل . والله يهدي إلى سبيل الرشاد .

عبد العزيز توفيق جاريد

مصر الجديدة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٦٧

مقدمة الكتاب

تفصل بين العالمين: القديم والوسيط فجوة كبيرة، قد لا يسد ثغرتها - من حيث اهتمام القارئ العام - إلا ذلك السفر الجليل « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » الذى دمجته براعة جيبون . وعلى الرغم من الأبحاث المستفيضة التى تمت فى السنوات الأخيرة ، فإن من العبث أن ننكر أن القرون المعروفة باسم « العصور المظلمة » لا تزال من أشد مراحل التاريخ الأوروبى غموضا . ومع ذلك ، فلا شك أن الجهود المبذولة فى استجلاء كثير من المسائل الرئيسية قد أحرزت بعض التقدم . فإن بعض الآراء قد نبذت نبذاً قطعياً ، إذ يرى النقات اليوم مثلاً ، أن الإمبراطورية الرومانية لم تنته بسقوط عاصمتها الغربية ولا يخلع رومولوس أو غسطلولوس . وتفسير زوال العالم الرومانى بأنه حادث فجائى يفسح المكان بعد المزيد من التحليل ، لنظرية تطورا قائمة على قسط أكبر من الاستدلال . كما أن ما أسدته بيزنطة فى التاريخ من جلائل الأعمال أخذ ينال حظه من الإنصاف ، فضلاً عن التقدير الذى نال العناصر الأصيلة للحضارة التى واصلت حمل لواء التقاليد الرومانية على ضفاف البوسفور .. ولم بعد أحد ينظر إلى الهجوم الإسلامى من خلال أعين خصومه فى القرون الوسطى ، الذين ضرب تهديده لعقيدتهم على أبصارهم غشاوة ، أعتمتهم عن الأصل المشترك للثقافتين المسيحية والإسلامية . ذلك لأن الدراسة العميقة النقادة لفن ذلك الزمان وأدبه^(١) أفضت فى كثير من الحالات إلى ازدياد تقدير الإسلام ، كما أنها أفضت دون ريب إلى تعميق الإحساس باستمرار الصلة بين النظام القديم والنظام الجديد .

(١) يقصد المؤلف هنا لفظة الأدب بمعناها العام الذى يضم جميع ما حوته اللغة من المصنفات والمؤلفات .
(المترجم)

وازداد وضوح كبار الشخصيات في ذلك الزمان عن ذى قبل ، كما أن مستكشفات علم الآثار القديمة (الأركيولوجيا) والاهتمام الحديث بالأحوال الاقتصادية ، هيأت للخيال الناشط صورة أكثر إشرافاً للحياة اليومية للمجتمعات والأفراد. وقد حاولنا في الصفحات الآتية تقديم خلاصة موجزة لقرون أربعة من التاريخ الأوربي كما تشاهد في ضوء تلك النتائج .

ومن الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى تأكيد ذلك الطابع التعسفي للمصور التاريخية التي ليست في الواقع ، من نواح معينة - سوى وسيلة ممتازة للحفاظ والتذكر . فالمعاملات العضوية لا يمكن أن تشتر شرطاً باتاً بلسة قلم ، ولا يكاد عاقل يتوقع أن تتطور جميع أشكال النشاط البشرى بنسبة واحدة متساوية . ولذا وضع العلماء تواريخ مختلفة لبدء العصور الوسطى ، تتراوح بين القرن الثالث والقرن الثامن ، ولكل من هذه التواريخ من المبررات ما يتفق مع ما يرتبط من أهمية يظهر من مظاهر الحضارة الأوربية . وبناء على هذا ربما كان يحق لعام ٣٩٥ أن يعد تاريخاً لبدء تلك العصور مثلما يحق لأي عام آخره ، ذلك أن وفاة ثيودوسيوس الكبير حدثت في لحظة بالغة الأهمية لأوروبا . فإن ثيودوسيوس ظل إبان السنوات الثلاث الأخيرة من حياته يحكم دون منازع في الأملاك الرومانية . ومنذ تلك اللحظة أصبح تقسيم الإمبراطورية إلى شرق وغرب نهائياً ، على الرغم من أن الإمبراطورية لم تبرح من الناحية النظرية متحدة . ففي مدة حياته كان في الإمكان اعتبار بريطانيا وبلاد الغالة وأسبانيا أجزاء متكاملة من الإمبراطورية الرومانية ، ولكن ثلاثهن انتقلن في أقل من جيل واحد إلى قبضة فاقحين من المتبربرين الهمج ، وسقطت روما فريسة في يد القوط الغربيين . وهذا الإمبراطور المقاتل الذي هلك اثنان من أسلافه

المباشرين صرعى في ميدان القتال على الحدود ، خلفه على العرش سلسلة من الحكام الضعاف ، وانتقل السلطان الحقيقى فى الدولة الرومانية إبان ما يقارب القرن من الزمان إلى قبضة أمراء الجند . ولو نظر المرء إلى الدولة من ناحيتها الداخلية لما وجد فيها إلا تغيرات طفيفة لا تكاد تستلفت الأنظار . ذلك أن غارات المنبربرين ، وإن اتسمت بالفظاعة النامة ، لم تزد على أن عجلت بالفوضى والمحن التى كابدت العناء منها معظم الولايات الغربية منذ بدء نشوب الفوضى فى القرن الثالث . ولم تكن الإصلاحات الخطيرة التى أنجزها دقلديانوس وقسطنطين ، والتى أنهت هذه الفوضى ، إلا تحقيقا إلى حد كبير للنزعات كانت واضحة للعيان فى عهد الإمبراطورية الأولى - وذلك لأن نهاية القرن الرابع لم تحدث أى انقطاع حقيقى فى نظام الحكم الإمبراطورى . وكل ما فعلته أنها اعترفت صراحة بحقيقة واضحة هى أن : « أسرة قيصر » خلّفت فعلا الهيئة التنفيذية الدستورية التى ورثتها الإمبراطورية عن الجمهورية الرومانية . ومع ذلك ، فهناك تغيير واحد كانت له أهمية أعظم من أى تغيير آخر فى مستقبل أوربا أدخله قسطنطين حين أشرك الكنيسة المسيحية فى حكم الدولة . إن هذه الخطوة هى الفاصل بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى . ذلك لأن اعتناق العقيدة الجديدة قد غير اتجاه عقول الناس وحدد سياسة حكاهم . ولم تكف الإمبراطورية الرومانية نهائياً عن المحافظة على التوازن بين المسيحي والوثني إلا فى عهد ثيودوسيوس ، ولذا فإن النتائج الكاملة لإجراء قسطنطين الثورى لم تأخذ فى الظهور إلا فى تلك الآونة . لهذا السبب ، إن لم يكن لغيره ، يجوز حقاً لهذا البحث الذى نضعه بين يديك أن يتخذ من وفاة ثيودوسيوس الكبير مؤسس الدولة المسيحية نقطة بداية .

وربما وجب علينا أن نذكر أن الفرض من الخرائط التخطيطية والصور التي يحتويها الكتاب هو التوضيح والإشارة . وسيجد القارئ في قائمة المراجع إحالات إلى بعض الأطالس التاريخية والمراجع المصورة للفن في أوائل العصور الوسطى .

وأود أن أعبر عن شكري للأستاذ العالم ن . هـ . باينز على ما بذله من مساعدة وتشجيع مشملي في أثناء تأليف هذا الكتاب، وإلى المستر أ. ل. ودوارد والأستاذ العلامة هـ . ا . ر . جب والمستر د . بيرلي والمستر ج . ن . ل . مايرز على ما قدموه من نقد نفيس واقتراحات قيمة ، وإلى القائمين على مطبعة كلارندون لقاء كرم أخلاقهم وسعة صدورهم .

هـ . سنت . ل . ب . م

أغسطس ١٩٣٥

القسم الأول
الرؤى والبراهين

الفصل الأول

العالم الرومانى

إن إجمالة الفكر فى روما الإمبراطورية تعرض أمام عين الخيال صورة للحرب والفتوح وللكتائب الزاحفة فى ظل النسر المظفر لإخضاع الشعوب القصية . على أن الحقيقة البارزة التى يتسم بها القرنان الأولان من الحقبة المسيحية ، هى ذلك السلام العميق الذى ران على حوض البحر المتوسط ، وعم الشطر الأكبر من أوروبا الوسطى والغربية . وفى عهد أوغسطس كانت الإمبراطورية امتدت فعلا إلى أقصى اتساع لها ^(١) ، ومن ثم لم يعد لهم خلفائه منصرفا فى معظم أمهم إلا إلى ربط أطراف البلاد بعضها ببعض . وامتدت داخل الحواجز العظيمة المحصنة على الراين والدانوب والفرات ، شبكة من الطرق تغطى ممتلكات روما المترامية ، وتوصل بين تخوم اسكتلندة وبين الصحارى العزبية . وكانت تسرى فى هذه الطرق حركة مرور وتجارة لم تبحر فى ازدياد مستمر ، لا يقتصر أمرها على الجيوش والموظفين ، بل تتجاوز ذلك إلى التجار والسلع ، فضلا عن السائحين . وسرعان ما نمت حركة تبادل للسلع التجارية بين الولايات المختلفة ، ولم تلبث تلك الحركة أن بلغت مرتبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ ، ولم تنكسر ثانية على صفحته إلا منذ بضعة قرون خلت . وكانت تحمل فى هذه الطرقات : المعادن المستخرجة من مرتفعات أوروبا الغربية ، والجلود والأصواف والأنعام الحية من مراعى بريطانيا وأسبانيا

(١) مع بضع استثناءات هامة قليلة مثل بريطانيا والمناطق الواقعة شمال الدانوب وشرق القرات الأعلى .

وشواطئ البحر الأسود والحمر والزيت من بروفانس وأكيتانيا ، والخشب والقار والشع من جنوب روسيا وشمال الأناضول ، والفواكه المجففة من سورية والرخام من سواحل بحر إيجه ، وأهم من ذلك كله الحبوب من مناطق زراعة القمح بشمال إفريقيا ومصر ووادي الدانوب سداً لحاجات المدن الكبرى ؛ كل هذه السلع كانت تنقل بملء الحرية من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها ، في ظل نظام للنقل والتسويق بالغ الكفاية والدقة .

الصناعة والتجارة

تلقت صناعة السلع المعدة للتصدير بالجملة أيضاً دفعة قوية ، فنمت الصناعات الزاهرة بكل ولاية من الولايات . وكانت التجارة وأعمال المصارف نشطت منذ عدة قرون في العالم الهلينيستي ، وكان الطرف الشرقي للبحر المتوسط أول من أفاد من النظام الجديد . وجملة القول ، إن هذه الولايات الشرقية كانت مناطق الإنتاج والصناعة ؛ على حين أن الغرب كان مستودع المواد الخام . وهكذا كانت دمشق وأنطاكية والإسكندرية تصدر البطاطين والبسط والسجاجيد ونسيج الكتان وأرقى أنواع الخزف وصنوف الزجاج ، الرخيص منه والنفيس ، والجواهر والعطور وأدوات الزينة ومع ذلك فإن القرنين الأولين شهدا حركة انتقال للصناعة نحو الغرب . وأخذت الثروات تتكدس بأرض الحنطة ، فضلاً عن مناطق إنتاج الخيامات مثل بلاد الغالة وأسبانيا وإيطاليا وإفريقية ، ورغبة في تلبية طلبات الطبقات الثرية والمترفة ، تزايدت هجرة اليونانيين والمصريين والسوريين إلى الغرب ليمارسوا مهاراتهم أطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين وصاغة للفضة . وكان السورديون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان ؛ فإنهم كانوا ينتشرون في كل أرجاء أوروبا ، مغامرین أفراداً ،

أو كجمعات من التجار ، أو يوجدون بمدن أفريقية وأسبانيا ، أو يشند تزارهم على امتداد طرق التجارة بوادى نهر بو أو حوض الراين . ففي القرن الخامس نفسه ، يلاحظ جيروم بمرارة وجودهم ، ويقرر أنهم يواصلون حركتهم المربحة بين أنقاض عالم منهار . أما تقدم الصناعة فأكثر ما يدل عليه دلالة مباشرة ، ظهور مصانع في الغرب ذات حجم ضخم ، منها مثلاً مراكز لصنع الخزف والزجاج بوسط فرنسا وجنوبها ، وبوادى نهر الراين أو ببريطانيا ، حيث تمكنت السلع المنتجة على أساس الإنتاج الكبير من القضاء على حب الأفراد للتصميمات الكنتية أو توجيه ذلك الحب وجهة أخرى .

وفضلاً عن ذلك لم تكن التجارة تقتصر بأى حال على داخل حدود الإمبراطورية . فإن الحدود لم تكن من هذه الناحية حداً فاصلاً ، بل كانت على العكس من ذلك خط مستوطنات خارجية قائمة على التخوم ، يصل بين نهايات الطرق البرية الرومانية ، ويهيء للبرابرة النازلين خارجها أسواقاً خاصة بالسلع . كانوا يقيضون زينات الخيول ورشماها والجواهر والنقود والخزف وحليبات البيوت والأدوات والآلات الزراعية على ما لدى البرابرة من رقيق وكهرمان وجلود الحيوان ، فنقل من مصانع الغاليين الرومان^(١) (Gallo - Roman) على نهر الراين وتنفذ إلى أعماق وسط ألمانيا ، وتشق طريقها إلى معاقل الرؤساء بالدانيمركة أو جنوب السويد . وكانت السفن التجارية الرومانية ترسو بالموانئ الإيرلندية ، أو ترتاد جنوباً ساحل أفريقية الغربية المكسو بالغابات . على أن التجارة مع الشرق كانت تنطوى على قدر أكبر من الاحتمالات الرومانسية . وكانت تنتهى في البحر الأحمر عدة

(١) الغاليون الرومان أو (النالو رومان) هم الرومان النازلون ببلاد غالة أى فرنسا (المتروم)

خطوط ملاحية عظيمة ، وكان ذلك البحر يتصل بالإسكندرية بمرفأ وقناة وطريق للقوافل يجرس بكل عناية بقوات من الشرطة ، وهو مزود بمستودعات مخزن وصهاريج مياه . وكان أحد هذه الخطوط الملاحية في البحر الأحمر يمتد جنوباً عبر بلاد الحبشة والصومال حتى أوغندة ، وإلى الجنوب منه كان تجار العرب يحتفظون في يدهم بزمم احتكار التجارة ، وكان العاج وجمار السلاحف والزئوج الأرقاء المجلوبون من الداخل ، يُجمعون مقايضة على الزجاج والأقشة الزاهية الألوان ، فضلاً عن الفئوس والحلى المصنوعة من الشبهان^(١) والنحاس . وكان الركن الجنوبي الغربي من بلاد العرب يصدر البخور والأفاويه إلى الغرب ، وينقل فوق ذلك محاصيل بلاد الهند والصين كالقطن والحرير وخشب الساج والآبنوس وخشب الصندل ، التي تفرغها السفن بموانئ البحر الأحمر وبالمراقي الواقعة عند رأس الخليج الفارسي ، ومنها تنقل بطريق القوافل حتى تصل آخر الأمر إلى الإسكندرية ، أو إلى أحد المراكز التجارية السورية كدمشق أو أنطاكية . ثم لم يلبث القوم أن وقفوا إلى اكتشاف الرياح الموسمية ومنفعتيها لهم في التجارة ، وأن بدعوا التجارة المباشرة مع الهند ، وهي حال استبعدت الوسيط التجاري العربي ، وسرعان ما وظف فيها تجار الإسكندرية وسورية أمواهم . وقد علم استرابون أن عدداً من السفن لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كان يسافر منها كل عام إلى الهند ، وتتحدث مصادر أخرى عن مستعمرات التجار الأجانب الذين استقروا بمدن شاطي مالابار الساحلية ، وعن الموانئ العظيمة بجنوبي الهند وسيلان ، بما تحويه من نظم للنفارات وخدمات من المرشدين ، ومستودعاتها الضخمة وأرصفتها ، وعن

(١) الشبهان والشبه : النحاس الأصفر - كما ورد بالمعجم . (المترجم)

وصول السفن التجارية^(١) الرومانية الضخمة إليها ، وهي تنزل شحناتها من الغلمان الغنيين والقيان المرسلين إلى حريم أمراء الهند ، وعن أوانها الفضية ونسيجها الكتاني الزاهي ، وعن نبيذ البحر الأبيض الذي تحمله ، وكنوز العملة الذهبية الإمبراطورية ، التي تُدفع منّا لجوانق^(٢) الفلفل الضخمة وباللات القطن الثقيلة ، وشتى صنوف الجواهر من ماس ولؤلؤ وزبرجد ، والعقاقير والعطور التي كانت تحملها تلك السفائن إلى العالم الغربي . وأخذ التجار يتوغلون برحلاتهم رويداً رويداً نحو الشرق ؛ حتى عرفوا مصب الكانج وشبه جزيرة الملايو ، ثم استطاع تجار الإمبراطورية الرومانية إنشاء علاقات تجارية مع الموانئ الصينية عام ١٦٠ لليلاد على أن أيام عظمة التجارة الرومانية كانت ولّت آنذاك ؛ فإن الزمن أعد عند ذلك لأوروبا قروناً مترادفة من الفوضى ، فلم تتحقق من ثم احتمالات تأثير الصين على حضارتنا .

وكان لسهولة المواصلات ويسر تبادل السلع أثرهما القوي في نشر الوحدة ، بل إذاعة الانساق في الدولة الرومانية . وكانت نتيجة ذلك أن اقتسمت غالبية سكانها مستوى مشتركاً للعيش ، فلم يكن الفارق كبيراً بين الأدوات التي تستعملها الدور (الفيلات) بجنوب إنجلترا ومثيلاتها بالجزائر ، مثل المصاييح وأكواب الشراب ووسائل التدفئة والزخرفة الداخلية . وكان الدينار الذهبي يحظى في منطقة الراين بنفس الثقة التي يلقاها في بلاد القرم وفي أسواق السنجال (Cingal) وتحددت معايير اللغة بأن سادت اللاتينية في الغرب واليونانية في الشرق ؛ واختفى اللسان الوطني اختفاء تاماً في كثير من الأصقاع . وكانت النظم المشتركة

(١) وكان يدير هذه السفن رعايا من الرومان فيما يعتقد من شهادتهم من الهنود ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا سوريين أو مصريين جنساً .

(٢) الجوانق : هي الزكية والغرارة كما ورد في المعاجم (المترجم)

التي تعيش في ظلها شعوب الإمبراطورية مصدر رابطة أخرى لوحدة تلك الشعوب ، وذلك لأن الحكم بالأقاليم المختلفة ، وإن كان يتكيف طبق الظروف المحلية ، كان نظاماً واحداً في جوهره يدار من مركز الدولة ، وهو فوق ذلك نظام ينزع إلى تزايد الاتساق بين الأجزاء وإزالة التخالف . وآية ذلك أنه بمقتضى مرسوم كرا كلا الصادر في ٢١٢ ، صار غالبية رعايا الإمبراطور مواطنين رومانيين ، واختفى من الوجود « الوضع المنحط » لساكن الإقليم . وعلى الرغم من أن النظام الإداري بايطاليا نفسها ، احتفظ لها طويلاً بامتيازات خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، فإنه سوَّى في النهاية بنظام الأقاليم ، كما أن اعترازاها بمنزلتها في الغرب — وقد تحدته كل من بلاد الغالة وإفريقية وأسبانيا في ميادين الأدب والتجارة — لقي من هذا الإذلال عناء أشد وأكبر . وما نسوق هذين الأمرين إلا ليكونا مثالين لتطور أبعد أثراً وأوسع مجالا . ولما تزايدت الأخطار المحدقة بالإمبراطورية عمد رجال السياسة والتدبير فيها إلى مضاعفة جهودهم للمحافظة على الصرح المترنح بتحويله إلى بنيان متجانس ، وشد بعضه إلى بعض « بمنطق » حديدي ، قوامه القوانين والشرائع الجائرة ، غير مباليين بما اتخذوه من صرامة مسرفة ولا بقمع جهود الأحياء وما يثيره ذلك من رد فعل مضاد ، ولم يحفلوا إلا بإقامة كتلة متماسكة متينة غير متميزة من المادة الصلبة .

الشرق والغرب

ولم تكن الشدائد ولا الأخطار التي حاقت بالدولة في عهدها الأخير هي التي خلقت مواطن الضعف والتعرج في النظام الإمبراطوري ، بل كانت هي التي كشفت عن تلك المواطن . والحالات الاجتماعية والاقتصادية المصرية

المشابهة لما كان في العالم العهد كثيراً ما فضلنا ، وذلك لأنها تنزع إلى إسدال الغموض على نواحي حضارته التي هي أكثر بدائية . وقياساً على معايير زمننا الحاضر ، لا بد أن عدد سكان أوربا في ذلك الزمان كان مفرط الصغر ؛ إذ إن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية لم يتجاوز ربع أعداد السكان الذين ورثوا الأقطار التابعة لها . ولم يكن توزيع السكان متعادلاً ، فالشطر الشرق لم ترجح كفته فحسب في كثافة سكانه بل أيضاً في مستواه من الثروة والحضارة . ولم يكن بالغرب من المدن ، باستثناء روما وقرطاجة ما يعدل المدن الزاهرة ، بآسيا الصغرى وسورية ومصر والتي أربى سكان الكثير منها على مائة ألف نسمة . فالولاية الأخيرة (مصر) كانت على الرغم من صغر حجمها ، تضم ما يقارب سبع سكان الإمبراطورية بأكملها ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الإمبراطورية كانت تؤديه الأقطار المطلة على البحر المتوسط الشرق . ومن الناحية الأخرى ، فالثابت قطعاً أن المجموع الكلي لسكان الإمبراطورية الرومانية ازداد قلة بعد ثلاثة قرون من قيامها . وكانت إيطاليا وبلاد اليونان أشد البلاد تعرضاً لنقص السكان ، كما أن مناطق مترامية من بلاد الغالة أصبحت خالية من الناس ، لما كابدهت من الطاعون والحروب الأهلية . ولم يكن تأثير روما الحضارى على الغرب موزعاً توزيعاً متكافئاً . فإن الطرق الرومانية ، شأن الدروب الجانبية والطرق الرئيسية الشريانية التي تكون شبكة المواصلات ، كثيراً ما كانت تهمس بين خيوطها مناطق مترامية ، لا تكاد فيها لغة السكان وعرفهم وعاداتهم تتأثر بأى حال بلغة غزاتهم الفاتحين وعاداتهم . وأكثر ما اتضح ذلك في إقليمى الشمال والغرب ، حيث تنارت قبائل من الرعاة والزراع البدائيين الموزعين توزيعاً خفيفاً بين المستنقعات والغابات ، بصورة لا تفي بالمطلوب لبيت المال والاستغلال التجارى

على عكس منطقة البحر المتوسط التي اتسع بها نطاق الزراعة . يضاف إلى ذلك أن النفوذ الروماني كان يزداد ضعفاً كلما اقترب من أطراف الإمبراطورية . ولا تنس أن معالم التخوم نفسها أخذت تنطس ، وتشيع أمراء الألمان وراء الراين بالثقافة الرومانية ؛ وسمح للجماهير غفيرة من البرابرة بالسكنى في الممتلكات الرومانية بشرق بلاد الغالة وفي الأقاليم الواقعة جنوبى الدانوب . بل لقد حدث فى عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية أن بعض المواطنين الرومان كانوا يفضلون الإقامة ببلاد حاكم أجنبي على مواجهة المطالب المتزايدة لجأى الضرائب الإمبراطورية .

وفى الشرق نفسه ، حيث دأبت الممالك الهلنستية التى نشأت عن فتوح الإسكندر على أن تنشر فى كل مكان المثل العليا للحياة بالمدن الإغريقية مدة ثلاثة قرون قبل أن تصل إليه روما — ظلت التقاليد الوطنية كامنة تنتظر ساعة الخلاص لكى تنفض وتجاهد . ولم يكن للإغريق سوى أقلية صغيرة بسورية ومصر ، حيث صارت لهم مكائهم بفضل تفوقهم الثقافى ، لا العدى . غير أن الحضارات القديمة بتلك الأحصاع احتفظت بحيويتها وإن غرمتها إلى حين ثقافة يونان ، كما أن نمو الأدبين القبطى والسورى ، اللذين أنعشهما قيام الكنائس المسيحية التى أصبحت ترجحانما يعبر عن العواطف الانفصالية والمحلية ، قد غذى شعوراً بالتباعد وعدم التجانس مع فلتحييم الأجانب ، كما زاد فى حدة المعارضة المريرة لسياسة الإمبراطورية وضرائبها . وغنى عن البيان أن فقدان الدولة فى النهاية لهاتين الولايتين إنما يرجع لمثل هذه الأسباب الداخلية ، فإن الغزاة الفرس والمسلمين فى القرن السابع وجدوا عوناً كبيراً من هيئات معادية كثيرة فى هذين الصقعين ، أما آسيا الصغرى فلم يصطبغ

بالصبغة الهلينية فيها سوى الحواشي المطلة على البحر . بيد أن المناطق الجبلية الداخلية التي كانت مستراداً لعصابات اللصوص والمنطقة الرئيسية لتجنيد الجند للجيش الروماني فيما عقب ذلك من زمن ، لم تكن لها أية تقاليد ثقافية تستطيع أن تكون بؤرة يتجمع فيها التدمير ، ومن ثم استطاعت بيزنطة الاحتفاظ بقبضتها على شبه الجزيرة كله إلى عهد متأخر من العصور الوسطى ^(١) .

الإمبراطورية في خطر

كشفت الضربات المتعاقبة التي تلقتها المنطقة المنحصرة بأوروبا منذ نهاية القرن الأول عن مكان الخطر على البنيان الإمبراطوري . وشهد عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) انحسار الرغد المرفرف على الدولة ، وأعقب حكم بيت الأنطونيين قرن من الفوضى والاضطراب تضععت فيه قوة الحكومة المركزية ، حيث كانت السلطة سرعان ما تنتقل من إمبراطور قصير العهد إلى آخر ، تتولى تنصيبه أو عزله القبائل الرومانية حسب ما يميله عليها جيشها أو تغلب أهواؤها . وظهر الحكم العسكري الاستبدادي قضي على آخر آثار « الحكم الشئاني » غير الواقعي الذي أقامه أوغسطس ، وتزايد نفوذ الجيوش مع ازدياد الحاجة إليها . ذلك لأن الحدود أخذت تتعرض لتهديد متزايد ؛ وأخذت القبائل الجرمانية الضاربة في الشمال من الأراضي المنخفضة إلى وادي الدانوب تضغط على الحواجز القائمة في سبيلها ، وكان للقراصنة السكسون في بحر المانش ضريب هو لصوص البحر من القوط في البحر الأسود وسواحل بحر إيجه الشمالية . وقشاً في الشرق خطر جديد عندما حل

(٢) انظر للمترجم كتاب : « الحضارة البيزنطية » تأليف ستيفن رانسيمان الذي صدر بمجموعة الألف كتاب ، فضلاً عن « الحضارة الهلينية بنفس المجموعة » . (المترجم)

آل ساسان (٢٢٧) ذوو النزعة العدوانية محل البارثيين في عرش فارس .
وعندئذ أصبح خط الفرات بحاجة دائمة إلى التعزيزات والإمداد ، ومنذ تلك
اللحظة كان لازماً على الدولة الرومانية التي لم يعد يتوافر لديها العدد الكافي
من الجنود ، أن تعالج مشكلة الجبهة المزدوجة . وبعد انقضاء فترة دامت نحو
سنة قرون ، جددت فارس محاولاتها لاسترداد سلطانها على غرب آسيا
بعد أن قضى عليها زحف الإسكندر الأكبر المكلل بالنصر . وهنا ظهر من
جديد ضريب الملك العظيم في أيام ماراتون ، مدعياً أنه ند للحاكم العالمي الآخر
نزير روما . وحدث أكثر من مرة إبان القرن الثالث أن راكبة الفرس
اجتاحوا سورية حتى أوشكوا بلوغ بحر إيجه ، فهددوا بذلك تجارة إقليم من
أغنى الأقاليم . وبلغ الأمر ذروته في حملة عام ٢٦٠ الفاجعة ، عندما أسر عاهل
الفرس خصمه الإمبراطور فاليريان .

ومن المحتمل أن هيبة روما في الشرق الأدنى لم تعد إليها قط بعد تلك
الضربة . ولا بد أن ذلك الفوز الساساني الذي جد الفرس في تسجيله حفراً
في الصخر وتصويراً جصياً (Fresco)^(١) على الجدران ، قد انتشر خبره انتشار
النار في المشيم ، في مدن ذلك العالم الذي امتدت فيه طرق القوافل من شرق
البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي ، الذي اجتمع فيه خليط عجيب من الترف
العالمي الباذخ والشظف الصحراوي الجاسي ، والمصالح التجارية ومناسر اللصوص
والتعصب الأعشى الشديد الأوار ، ما كان من أثره أن صيغت بعد ذلك بعدة
قرون حياة النبي محمد وتشكل تقدم الإسلام . فما كان لروما من قوة عاتية ،

(١) انظر « التفريغ من حفاثر دورا يوروبوس » الموسم الرابع (نيوهافن ١٩٣٣ ،
ص ١٨٣ - ١٩٩ والحفر البادز الذي لا يزال مرئياً قرب نقى رستم . أنظر اللوحة رقم ١



(١) صورة الإمبراطور فاليريان وهو يركع أمام ساپور الأول

رصفت طرق الصحراء بكنل الحجر ، وملأت حصون الواحات بالحاميات ، وواصلت بسط دائرة نفوذها أماماً على امتداد خطوط التجارة المجلوبة على ظهور الإبل من الهند والشرق الأقصى ، شغلت آنذاك في حرب القوات الإيرانية التي صارت نداءً لها ، ولم تعد تحافظ على نخومها التقليدية^(١) إلا بمسقة بالغة متزايدة . ومن آيات ضعف روما أن ظهرت على الفجاءة دولة تدمر (Palmyra) التي لم تعمر طويلاً ، والتي اعتمدت في حياتها على تجارة القوافل التي احتفظت باستقلالها المجيد والوجيز الأمد حتى تغلب أورليان على ملكتها زنوبيا^(٢) (Zenobia) . وكانت ظاهرة مماثلة لهذه تجزى في الغرب ، حيث نجحت ولايات الغالة التي خرجت على طاعة السلطة المركزية ، في مقاومة الدولة الرومانية مدة تربو على عشر سنوات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن إيطاليا نفسها تعرضت لغزو البرابرة : وتشهد أسوار أورليان العظيمة التي لا تزال تحيط بروما ، مثلما تشهد أسوار المدن الإيطالية الأخرى المبينة في ذلك الوقت ، بقرب تحول المدن المفتوحة في العالم القديم إلى معاقل القرون الوسطى^(٣) المحوطة بالخنادق والمحصنة بالأبراج .

وفي أثناء هذه السنوات بلغت الأزمة الاقتصادية في الإمبراطورية ذروتها ،

(١) عن تاريخ حدود القرات نينا أعقب ذلك من زمن ، انظر كتابنا هذا الفصل السادس .

(٢) وهي المهجرة عند العرب باسم الزباء (المترجم)

(٣) إن المدن المسورة لم تكن بطبيعة الحال شيئاً جديداً ؛ ولكن الأمن الذي أتاحتها « السلام الروماني Pax Romana » وتطور المواصلات في عهد الإمبراطورية الأولى قللت من الحاجة إلى التحصين وشجعت على انتشار الصواحر على امتداد الطرق الرئيسية . ولا بد أن التباين الواضح بين مظهر المدن القديمة ومظهر مدن القرون الوسطى بغرب أوروبا كان لافتاً جداً للأنظار .

واتفق أن الحاجة إلى المعادن النفيسة اللازمة لدفع أعطيات الفياق ، التي كانت سلطة الإمبراطور تعتمد على ولائها المشتري بالمال ، اجتمعت إلى نقص كارث في خام الذهب والفضة وهبوط عاجل في إيرادات الضرائب . والراجح أن الميزان التجاري في أثناء القرنين الأولين للميلاد كان يمنح لصالح دول آسيا المصدرة . وإن بين أيدينا الآن من الدلائل الأكيدة (وإن كانت التقديرات الدقيقة غير متيسرة) ما يشير إلى تسرب عملتي الذهب والفضة من الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق . وربما كان ثمة عامل أخطر من هذا ، هو هبوط إنتاج المناجم الأوربية . فإن من الأمور الملحوظة في ذلك الزمن فساد نظام العملة . فاختفى الذهب من التداول ، ولم تعد الفضة المعروفة في الأيام الأولى إلا مجرد عملة نحاسية عليها طلاء رقيق من الفضة . وعلى الرغم من انخفاض قيمة العملة فقد احتفظت الأسعار بشيء من الثبات حتى عهد جالينوس (٢٥٣ - ٢٦٨) ، وذلك بفضل النظر عن ارتفاع ضخمة ترتب على تخفيض قيمة السبيكة في الدينار . وعندئذ بدأت فترة تضخم مالي مفرط . إذ حُلقت أسعار الحنطة بمصر في عهد أورليان حتى بلغت أرقاماً خيالية ، وتبعها معدلات الأجور وإن كانت بدرجة أقل . وأغلقت المصارف أبوابها ، ولكنها أمرت بأن تعود إلى العمل ؛ وباتت المضاربة في العملة من الأمور المألوفة . وتأثرت التجارة مع الشرق تأثراً جدياً ، وهي التي كانت تقوم على عملة ذهبية كاملة الوزن والنقاء ، ولم تنتعش بعد ذلك إلا في عهد جستنيان ، على الرغم من أن تجارة البحر المتوسط ظلت تحتفظ بقدر كبير من قوتها السابقة

دقلديانوس وقسطنطين

ومن أوائل الأعمال التي قام بها دقلديانوس في أثناء اضطلاحه بإعادة تنظيم الإمبراطورية ، إعادة العملة الذهبية والفضية ، ولقي هذا الأمر من النجاح

مالم تصادفه محاولاته التالية لضبط أسعار المواد الغذائية بما أصدره من مراسيم. وهناك سؤال ربما كان من المستحيل تقديم الإجابة عنه : - وهو إلى أى حد يمكن القول بأن دقلديانوس أوقف تيار تحول الاقتصاد النقدي المعروف في الإمبراطورية الأولى ، إلى الاقتصاد « الطبيعي Natural » الذى اشتهرت به العصور الوسطى^(١) . وقد استمر الجيش وموظفو الخدمة المدنية يتلقون أعطيات هزيلة ، ولكنهم كانوا يعولون أنفسهم إلى حد كبير من مصادر أخرى - هى حصولهم على الإقامة والجراية ، كما أن النقل وخدمات أخرى غيره كانت مما يفرضه الجند على الناس ، كما كان الموظفون يحتمون على الناس دفع الأتعاب والحلوان وتسهيلات السفر والإقامة المجانية . ومن العسير علينا أن نحدد تقديراً للقيمة النقدية لكل هذه الأمور ، على أن ذلك النظام ظل معمولاً به لعهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ولم يكن الجهاز المالى الذى ابتدعه هذان العاهلان ، فى جوهره إلا مجرد تسويق قانونى لهذه التدابير شبه النظامية .

وعندى أنه ليس من الفض من قدر الخدمات الجليلة التى أسداها هذان الرجلان للذان أقنعت أعمالهما الإمبراطورية مما أحقق بها من انحلال ، أن نرى أن إعادتهما تنظيم الدولة لم يكن فى حقيقته سوى قبول واقعى للعوقف الفعلى الذى كانت تقفه البلاد ، لا ابتداءً لنموذج جديد للحكومة . على حين أتم من سبقوها من الأحكام التغييرات اللازمة للجيش ؛ أما التفرقة الشديدة بين جيوش الحدود التى كانت تنحط على الدوام فتصبح قوات حراسة مرابطة (Militia) من فلاحين مستقرين ، وبين الجيوش النظامية المؤلفة من صفوة المقاتلة الأشداء ، فلم تكن إلا اعترافاً بمحاجات الزمان ومقتضياته . ذلك أن

(١) انظر التذييل ب

قوة ضاربة سريعة الحركة يمكن إنفاذها في وقت قصير إلى أحد أقاليم الأطراف، تستطيع على الأقل أن تطرد المفجرين البرابرة الذين لم تستطع حمايتهم من التخوم منهم من الدخول إليها . ومما يشهد بضعف الحكومة المركزية استقلال حكومات الولايات عن السلطة المركزية ، حيث أنشئت وحدات أصغر التماساً للكفاية ، على حين أن مركز الإمبراطور نفسه - وقد غُض منه في العهد الأخير الاعتماد على أهواء الكتائب ، - كان يرفع عالياً فوق كل مصلحة محلية لأى قطاع في الدولة بازدياد مكانته شبه المقدسة ، التي سبق أن تكهن بها فعلاً بعض من سلفوها من الأباطرة ، كما أن التعبير عن ذلك التقديس ، بما كان يجري عليه من مراسم محكمة بالبلاط ، ربما كان متأثراً بالمثال الفارسي المسائل في بلاط كسرى . وحتى إنشاء القسطنطينية ذاته ، وهو أمر يسجل - والحق يقال - بداية حقبة جديدة ، يمكن من ناحية أخرى أن يعتبر بفاية البساطة مجرد اعتراف تام بحقيقة مقررّة . هي أن مدينة روما لم تعد مركز الإمبراطورية .

الوثنية في عهدها المتأخر

على أن هناك تجديدًا مثيرًا آخر قدر له أن يغير أساس الدولة الرومانية بأكمله - هو تحويل وضع المسيحية بفضل ما فعله قسطنطين - من ديانة محرمة إلى العقيدة المسكّنة للبيت الإمبراطوري . وكانت سلخت من عمرها وقتذاك قرونًا ثلاثة من النمو والتطور من نواحيها الاعتقادية (Dogma) والإدارية واتساع رقعتها الجغرافية . وبلغ عدد أنصارها بضعة ملايين ، كان ينتجى الجانب الأكبر منهم إلى الأماكن الشرقية ، وذلك فضلًا عن أن ما أشرنا إليه آنفًا من نشاطات اليونان والسوريين في أوروبا الغربية أفضى إلى حمل التعاليم الجديدة

إلى المراكز التجارية بتلك الأصقاع . فالمجتمعات البدائية الأولى حل مكانها منذ أمد بعيد بدايات النظام الطبقي في سلم الوظائف الأكليروسى ، الذى اتخذ له جهاز الإدارة المدنية لحكومة الأقاليم مثالا يحتذى ، وذلك على حين أن الأهمية السياسية والاقتصادية للحواضر العظيمة قيدت ، إلى حد ما ، السلطة التى يستمتع بها أساقفتهم وقرطاجه وأنطاكية وإفيسوس والإسكندرية وقد بدأت المسيحية بين أدنى طبقات المجتمع مرتبة ، وكان الالتئام إليها لا يزال قاصراً على الأميين غير المتعلمين ، وإن أمكن وجود المسيحيين فى كل فئات المجتمع ، بل حتى فى دوائر القصر نفسها . على أن ثلاثة قرون من الاتصال بينها وبين عالم الإمبراطورية الرومانية القديمة أفضت إلى إحداث تعديل عميق فى الطرائق التى كانت تعبر بها عن نفسها ، كما أن القرن الرابع بما مر به من صروف التغير أدى إلى التعجيل بنتائج ذلك التفاعل . على أنه لا بد من الإدلاء ببعض بيانات ، مهما يكن عدم كفايتها ، عن الجو الذى كان يسود العالم فى عهد ثيودوسيوس الأكبر .

وفى إبان هذه القرون تغيرت روح الوثنية تغيراً تاماً . ذلك أن الولاء الحق للآلهة دول المدن القديمة ببلاد اليونان وروما توقف من زمن بعيد بين أفراد طبقة المفكرين من المجتمع ، ولكن عروش تلك الآلهة لم تظل شاغرة . فإن التشكك وإن كان بارزاً فى الأدب المسطر ، كانت نحل محله على توالى الأيام فكرة مخالفة عن الدين ، مؤسسة على الرغبة فى الاتصال الشخصى بالمعبود المقدس . وما أكثر الأشكال والتجمعات التى ظهرت فيها نحل الأسرار الخفية السائدة فى تراقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وفارس ، وتبناها العالم

الرومانى ، هذا إلى أن الرطازات^(١) (Myths) الهلينية كانت (إن لم تنبذ) تنسج بطريقة ذات أسلوب خاص فى التكوين الجديد لهذه العقائد المركبة . وكانت الظروف السياسية تساعد على صهر العبادات المحلية فى التركيب الأكبر منها . بل حدث حتى فى البدايات السحيقة لدول المدن بأرض اليونان الأصلية ، أن كثيراً من آلهة القرى ذوى شأنها حتى أصبح اسمها مجرد صفات تضاف إلى اسم زيوس أو أثينا ؛ وحدثت عملية مماثلة لهذه فى روما ، وإن عوّضت النزعة إلى الوحدة هنا بما كانت تظهره من استعداد لتقبل الآلهة الأجنبية فى باثنيونها^(٢) المزدهم . وأفضى قيام الملوكيات الهلينية التى قضى على الحياة المشتركة للمجتمعات بدول المسن ، إلى تحويل أفكار الناس إلى دخيلة نفوسهم ، حيث شرع كل إنسان يبحث لنفسه عن سبيل إلى الخلاص الفردى ، على حين أن الاستبداد الذى ران على الممالك الجديدة التى قامت على النسق الأسيرى ، عود العالم الناطق بالإغريقية على فكرة عبادة الحاكم ، وهى فكرة تغذوها وترعاها بكل عناية الأسر المالكة المترتبة فى العروش ، بوصف كونها أداة قوية تعتمد عليها الدولة وجنت روما ثمار هذه الحال عندما أدخلت عبادة الإمبراطور ، كما أن المبدأ الرواقى القاضى بالاعتقاد « بالعناية Providence » البصيرة بكل شئء والمحسننة الخيرة ، ربما عاد بالعون على أبناء الولايات المتواضعين فى إذكاء فكرتهم التى تصوروها عن الإمبراطور القادر على كل شئء ، الذى كانت عدالته تتصرف فى حياة ورفاهية الجموع الهائلة من السكان .

(١) الرطازات (Myths) هى القصص التقليدية المهيمنة عن الآلهة والابطال ، وخاصة ما يقدمه العقل البدائى تفسيراً لحدى الحقائق أو الظواهر . (المترجم)

(٢) الباثنيون : معبد يجمع الآلهة جميعاً . (المترجم)

ولم يعد هو الفكر الفلسفي معادياً للمعتقدات الشعبية ، بل أصبح يعاون بقوة تيارات التوحيد المشوب^(١) التي كانت تعمل ناشطة في المشاعر الدينية . وقد بدأ الأمر بوضع المسوغات العقلية للراطازات القديمة ، ثم استحداث رموز لها ، ثم تلبث الظواهر المشتركة بين مختلف الملل والنحل التي اعتبرت معالجات لقوة إلهية واحدة ، - حتى مزجت في كتلة كالسديم حاول أفلوطين بتفكيره السليم أن يستخرج منها قاعدة منتظمة ، مستخدماً في ذلك قوانين الاستدلال العقلي عند اليونانيين ، ومطبّقاً إياها على مادة لا تتقبل مثل تلك المعالجة . على أن الأفلاطونية الحديثة كانت في يديه منهاجاً للحياة لا مبدءاً ونظرية . وحلت في الأنفس زعة تأملية محل النظرة الرواقية العملية ، وطريقتها في التشديد على الخلق ، ومع أنه لا ينبغي إغفال عنصر التسويغ العقلي (Rationalizing) عند أفلوطين ، وهو اقتراض الإغريق أن العالم ممكن الفهم ، لأن أدواره المتعاقبة إنما هي نتائج منطقية إحداها للآخرى ، فإن جوهر فكره إنما هو فهم تصوفي للحقيقة يكاد يكون حسيّاً ، أي أنه إدراك مباشر يتم دون تدخل من ملكة الاستدلال العقلي . ويتيسر هذا بفضل الوشائج الجوانية المتبادلة بين جميع مافي العالم من أشخاص وأشياء ، والتي ترقد متوالية تحت سطح الظواهر ، وبهذه النظرية أيضاً يصبح تفسير الظواهر الطبيعية كالنخاطر (Telepathy) والفأل واقتران النجوم ممكناً . على أن صنع المعجزات والتطهر اتباعاً للطقوس والعرافة ليس إلا جزءاً يسيراً من فلسفة أفلوطين . وقد تحتم على خلفائه في أثناء محاولاتهم تجميع قوى الوثنية كلها على العدو المشترك ، أن يدخلوا تلك الوسائل السحرية المساعدة لينهياً لهم اقتناص عواطف

(١) التوحيد المشوب (Henotheism) : هو الإيمان بالله واحد ولكن مع عدم انتفاء الإيمان بغيره . (المترجم)

الجاهل ، على حين أنهم التماساً للتقريب بين المفكرين راحوا يمزجون بغاية الأحادية بين العقائد والمذاهب التي قامت في العالم العهد ابتداء من أفلاطون وأرسطو طاليس إلى الرواقيين والكلبيين . وهكذا يتضح أن علم الكون (Cosmology) التصوفى الذى اشتهرت به الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وما حوى من فكرة عن الخلاص ، على صورته التى طورها إلامبليكوس (Iamblichus) ، يعتبر الشكل النهائى الذى اتخذته الوثنية المنظمة أداة فى أثناء كفاحها مع المسيحية ^(١) ، وينبغى ألا ينظر إلى الصراع على أنه معركة بين الإيمان والتشكك ، بل منافسة بين ديانتين غريمتين ذواتى خفايا وكل منهما تعبر عن زمانها ^(٢) . وبغض النظر عن الاعتقادات (Dogma) لا تكاد تكون ثمة ناحية غير مشتركة عند كل من الوثنيين والمسيحيين : - الزهد والصوم والتهجد والتطهر والطقوس والقدسين والملائكة والشياطين والاعتماد على الرؤى والتكهنات باستفتاح الكتب ^(٣) (Sortes) . والفن الوثنى والمسيحي يستخدمان طريقة رمز واحدة ، حتى ليسر التمييز بينهما ، إلا فى الحالات التى

(١) وهذا الوضع ينطبق بوجه رئيسى على الفرق ، حيث يتم مصطلح « الهلنستية Hellenism » الذى يطلقه المسيحيون على خصومهم ، على المحاولة الواعية وغير الناجحة ، لحقد تقاليد الثقافة الكلاسيكية . دفاعاً عن العقيدة القديمة . على حين أن مصطلح « الوثنية » ومى النظير اللاتينى للهلينستية فى القرب يشير إلى وجود الشائعات القروية البدائية بشكل متناثر . ولقد كانت روما بما اجتمع لها من ذكريات تاريخية من المكان الوحيد الذى صمدت فيه نحلة سياسية وأرستقراطية لعادة الآلهة القدماء .

(٢) إن جوليان نصير الوثنية بهاجم الكلبيين الآخذين بالذهب العقل الذين يخرون من الرطايات الكلاسيكية ، مهاجماً أكثر شدة ومرارة مما يهاجم أتباع المسيحية . أنظر ج . بيدي فى : « La Vie de l'Empereur Julien » (باريس ١٩٣٠) ص ٢٤٨ ع ٠

(٣) كان الأقدمون يستفتحون الكتب السماوية أو لإياذة هومبروس أو لإنيادة فرجيل التماساً للقال . (المترجم)

نستخدم فيها الموضوعات المسيحية البحتة ؛ وفضلاً عن ذلك ، فإن النقاد
العصرين يتجهون إلى تخفيض عدد هذه الحالات^(١) التي يفترق فيها
المسيحيون عن الوثنيين . إذ إن المسيحيين كانوا عندما هل القرن الرابع
تقبلوا الدراسات والعلوم الوثنية وتشربوها ، وشاهد ذلك أن المنازعات التي
دارت في المجالس الكنسية الكبرى تدور حول أفكار أفلاطون وأرسطو
التي كانت تلون أفكار الناس في ذلك العصر وتمدّها على نفس الشاكلة التي
ترسم بها نظريات النشوء والارتقاء وعلم النفس على العالم اليوم . ومما هو جدير
بالذكر أن جوليان في أثناء محاولته إعادة العبادات الوثنية الأولى كان يهدف
إلى تأسيس نوع من هيئة دينية أو « كنيسة » تشبه المنظمة المسيحية من أوجه
كثيرة ؛ فوضع لها مذهباً اعتقادياً مجدداً وأقام فيها سُلماً للوظائف الكنسية
ومجموعة من المستشفيات وبيوت الصدقات ومعونة الفقراء وسجلاً بالكتب
الحرمة^(٢) على المؤمنين (Index Expurgatorius)

ديانة القرن الرابع

والشاهد المقنع على قوة مركز المسيحية ، إخفاق جوليان في تحقيق هدفه
إزاء الرأي العام ومعارضته . ذلك أن الرطازات الموسّعة عقلياً والآلهة
المندبجة بعضها في بعض كان يعوزها التقبل الشعبي الحسن الذي تجده قصص
الكتاب المقدس ، وهي شيء أقرب في روحه وزمانه لعالم القرن الرابع .
ذلك وإن ما في الأفلاطونية الحديثة من نقاط دقيقة خفية ، وما يتصف به

(١) مثل رمز لسكة . انظر ف . ز . ج . دولبر في (Ixoye) (مولستر ١٩١٠ -
١٩٣٢) .

(٢) انظر يديه (Bidez) بالمصدر نفسه ص ٢٦٩ .

التقريب بين النحل عند الوثنية من ليونة وعدم تحديد وراحة نفسية ، كانا بمنزلة سواء ، من حيث ضعف قوتهما على إجبار القلوب على الإذعان . وكانت المسيحية في توحيدها القاطع النافي لكل ما عداها تشارك اليهودية في أنها مصدر قوى للاستقرار ، (على النقيض من سائر الديانات القديمة) . فهي عقيدة ليس فيها مكان لآلهة أخرى عدا ما يتوارى في زى الشياطين الشريرة . وكانت مذاهب العقيدة تتشكل وتشد صلابة على مدى الزمن ، يميزها في ذلك امتلاكها لكتاب مقدس معتمد ، وهنا أيضاً حققت المسيحية لهذا الزمان حاجة كان يطلبها ، وذلك لأن من خصائص المراحل المتأخرة في الفكر اليوناني الروماني ، ازدياد اعتماده على سلطان الشواهد المعتمدة . وغير خاف أن عبقرية بلاد اليونان الأصيلة القادرة على الخلق والابتكار اختفت من زمن بعيد ، وأن الانتصارات التي أحرزها الرومان في ميادين الأدب والفن والعمارة والهندسة بل حتى القانون ، كانت في أغلب أمرها ثمرة التطبيق الذكي لمبادئ مكتشفة من قبل^(١) . وكان الناس يحسون أن العصر الذهبي قد ولى . ومن الموضوعات المألوفة في كتابات ذلك الزمان ازدياد الشغف بالماضي والشعور بالنقص في الحاضر . فإن الإمبراطور قسطنطينوس طوى في نفسه عند زيارته روما لأول مرة في أخريات أيامه ، إعجابه بالسوق (الفوروم) التي أنشأها تراجان ؛ ولكنه رأى أنه ليس في وسع الإنسان الفاني أن يطاول مثل هذا العمل العظيم ، وصرح

(١) انظر الحكم القاطع الذي أصدره بيوري حيث قال : « لم يبتكر رومان الإمبراطورية شيئاً . وليس من النادر شيء أن تقول ، إن الصفة الغالبة على العالم الروماني من عهد أوغسطس حتى سقوط أوغسطولوس ، الاقتدار إلى الانسكار والعجز عن التفكير الجاد العميق ، وفرد التوقير للراجع المعتمدة » .

بأنه ليس كفواً إلا لمحاكاة حصان تمثال تراجان (Trajan) الذى يمثله فى هيئة^(١) الفارس .

وفوق هذا ، كان القرن الرابع عصرًا يسيطر عليه « المجهول » . فإن خيوطاً خفية كانت تسلك كل شىء فى العالم مجموعات من التعاطف أو التنافر . فالشمس والقمر يمارسان سلطانهما على المخلوقات التابعة لملكتهما ولصيحة الديك فى الصباح وشخص عين الزهر إلى ضياء الشمس معناها الخفى^(٢) . والإنسان نفسه ، ذلك الكائن الذى يولد فى ظل اقتران النجوم ، والذى ترافقه مدى الحياة الروح الحارسة ، اتخذ وضعه فى عالم كل شىء فيه — حتى الجمادات — له صفات سحرية ، وقد يعود عليه أقل الأفعال أو الأحداث بالشؤم أو الثبور . ولم يأت على الإنسان حين سمع فيه الصوت السماوى أكثر ولا أوضح منه فى هذا الزمان . وكانت الرؤى وتأويلاتها تزداد على الأيام بروزاً ، وأخذ عالم الأحلام يحتاج على الدوام ساعات يقظة الإنسان . واتخذ الفكر فى ذلك الزمن صبغة ذاتية قوية ؛ وازدادت قيمة ما انطوى عليه الإنسان من صراع داخلى وتجربة عاطفية ، بينما أخذ العالم الخارجى يختفى فى سحب الوهم والخيال . ولو أنك نظرت إلى العمل العظيم الذى ألفه القديس أوغسطين ، وهو عمل لا يمكن إيفاءه حقه من تبيان أثره على الناس فى العصور الوسطى ، لوجدته يتصف بهذه الصفة الشبيهة بالأحلام . وإن الأسنة المشحونة فى بيانه اللغوى الفاخر وللتناقض أيضاً فى كثير من الأحيان ، لتزود الجدلين فى مختلف المدارس بل حتى فى المدارس المتضادة بمستودع كامل للسلاح ، كما

(١) أميان فى ١٦ ، ١٠ س ١٥ .

(٢) نفس فى أعمال السحر بالصور الوسطى آثاراً لكثير من هذه الوثنية المتأخرة .

أن مزاعم البابوية والإمبراطورية في غرب أوروبا والتي لم ينصورها خيال أوغسطين قط ، كانت تدور المناظرات فيها على أساس جدلياته. ولكن ينبغي لنا أن نفرق بين أوغسطين ابن القرن الرابع وبين البناء الجديد الذي شيدته على أساساته طاقات قادرة على التنظيم ظهرت في القرون التالية . وإن أوغسطين ليقتف وسط العالم القديم تحده حدود الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فهو يملك جميع موارد الثقافة الغريبة . على أنه في الحين نفسه يقف بمعزل من هذا العالم ، ملففًا في حلقة الجليل بمدينة سماوية ليس من فيها من القطن إلا غراب وحجاء على هذه الأرض . وكان هذان المظهران جميعا : وأعنى بذلك وحدة الحضارة الوثنية والمسيحية من ناحية ، والصدع العميق القائم بينهما من ناحية ثانية ، غريبين جميعاً عن العصور الوسطى ، يوم لم يعد خضوع الحضارة الوثنية والمسيحية السابق لأباطرة الرومان سوى ذكرى في غرب أوروبا^(١) ، ويوم ذوى نهر الدراسات الكلاسيكية حتى أصبح مجرد بضعة جداول قليلة توجه بعناية إلى قنوات الكنيسة ورجالها . ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » الذي وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيذاً حاراً للتدخل الإلهي في الشؤون البشرية ، أكثر منه « فلسفة للتاريخ » : ووجدناه رؤيا وجدية أكثر منه صوغا تكنيياً للحدود القادمة مستقبلا للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى عن الحقائق المحزنة التي يحتويها زمانه ، بما دمج من وصف لمجتمع مثالي ، يقوم على مبدأ العدالة الحققة ، فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدينة مرمدية لم تبناها يد^(٢) .

(١) إن الأثر العميق لتلك الذكرى معروف مشهور : ولكنه أثر يمارس في عالم الفكر لا الحقائق .

(٢) انظر المقارنة التي عقدها المستشرق جرونيوم في كتاب « حضارة الاسلام » الذي صدر للمترجم بمجموعة الألف كتاب ، - بين القديس أوغسطين وبين الإمام الغزالي س ٣٤٨ (المترجم)

وحدة الإمبراطورية

عند وفاة ثيودوسيوس ، قسمت الإمبراطورية بين ولديه ، أركاديوس وعمره ١٨ سنة وقد ورث الجزء الشرقى ، وهنوريوس وعمره ١١ سنة ونال الجزء الغربى . ولم يكن فى ذلك التقسيم شيء جديد . إذ كانت هناك دوما فروق معينة بين الولايات الغربية ، التى كانت ثقافتها وحياة المدن فيها مما أفسأته روما ، والمناطق الشرقية التى كانت لا تزال تحتفظ بالتقاليد الهلينية . وقد كان تنظيم الإمبراطورية فى عهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ذلك التنظيم الذى مهد السبيل لتولى إمبراطورين فى الإمبراطورية ، تهباً له أن يستقر بوصفه التنظيم الطبيعى للأمور ، الذى استطاع أن يثبت على اضطرابات القرن الرابع^(١) . ولذا كان أول ما قام به فالنتينيان من أعمال (٣٦٤) عندما تولى عرش الإمبراطورية ، أن عين فالنز إمبراطوراً شريكاً . ومنذ تلك الساعة أخذ شطرا الإمبراطورية فى الافتراق السريع . ولم تهباً إلا فرص قليلة ، وعلى أزمئة متباعدة لقيام الشطرين بعمل موحد ؛ ولعل آخرها الحملة البحرية الكبرى التى سيرت فى ٤٦٨ على جزيريك (Gaiseric) فاتح أفريقية الوندالى ، الذى كانت قرصنته تهدد تجارة البحر المتوسط بأكملها ؛ على أن هذه المحاولة القائمة على التعاون انتهت بالإخفاق التام .

ومع ذلك فمن الأمور الهامة أن يتذكر القارئ أن الإمبراطورية ظلت فى عين معاصريها ، وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم . ومن الأمور الزائفة والغريبة عن أفكار ذلك الزمان التحدث عن « الإمبراطورية الشرقية

(١) انظر مايل فى هذا الفصل بعنوان « الإمبراطور » . إذ عادت الإمبراطورية منذ عام ٤٨٠ فأصبحت من جديد تخضع لامبراطور واحد .

والإمبراطورية الغربية « ؛ ذلك أن الناس كانوا يفكرون في شطرى
الإمبراطورية باعتبار كونهما : «الجزئين الشرقى أو الغربى» (Partes orientis
(Veloccidentis) . ومن الأمور الشائعة قولهم إن «الإمبراطورية الغربية»
سقطت في ٤٧٦ عندما خلع أودواكر الإمبراطور رومولوس أوغسطولوس ،
بيد أن ذلك القول ينطوى على غلطة مزدوجة . ذلك أن رومولوس كان مفتصباً
للعرش . إذ إن الإمبراطور الشرعى للأجزاء الغربية الذى لجأ إلى الدالماشيا
قبل ذلك يبضع سنوات ، قد مات في ٤٨٠ . وكان معنى ذلك من الناحية
الدستورية أن زينون أصبح يحكم آتئذ الإمبراطورية كاملة غير مقسمة من
بيزنطة . واعترف المتبربرون بمبدأ استمرار الإمبراطورية ذاك ، كما أن بعض
زعمائهم كانوا يناصرون ذلك المبدأ مناصرة حقة^(١) . ومن شواهد ذلك أيضاً ،
أنه حدث بعد ٤٧٦ بزمان بعيد أن السنوات لم تزل تؤرخ باسمى القنصلين ،
الذين ينزل أحدهما بروما ويقطن الآخر القسطنطينية ، كما أن الإمبراطورية
لم تبرح تُعلن باسم الإمبراطورين كليهما ، وإن كان الذى حدث
بعد ٤٥٠ هو أن القوانين الغربية لم تعد تفشى في الشرق . فإن الإمبراطورية
كانت من الناحية النظرية دولة واحدة (Respublica) ، يعقد البرابرة معها
المعاهدات ، على أننا نصادف مرتزقة البرابرة (Foederati) في الشرق يقاتلون
مرتزقة الغرب من البرابرة . وحدث ذات مرة أن استيليكو قائد هونوريوس
اعتبرته القسطنطينية «عدواً للدولة» لأنه حاول أن يفصل إقليم (Prefecture)

(١) أمثال ألاماريك وأتوانف وثيودريك . انظر القوط الغربيون بالفصل الثانى وانظر مملكة
ثيودريك بالفصل الثالث . ومن الحقائق البارزة طوال الصور المظلمة ، أن حكماً بيزنطياً ظلوا
على الدوام يؤكدون إدماءهم الحق في ممارسة السيادة على ممتلكات روما بأوروبا الغربية ؛
وأن مركز شرملة لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى ذلك الادعاء . بل إن ثروخا بيزنطياً كتب في
القرن الثامن نفسه يقول إن فرنسا قسم من الأقسام الإدارية (Diocese) بالإمبراطورية الرومانية .

إليريا (Illyrium) عن الشرق ويضمه إلى نصيب سيده . ولم يتردد الإمبراطور زينون في شهر السيف على إيطاليا ، يوم استطاع بإرساله ثيودوريك لمهاجرة أودواكر ، أن يخلص تراقيا من شر قومه من القوط وأن يرحم الخزانة البيزنطية من النفقات الطائلة التي يدفعها لهم أعطيات .

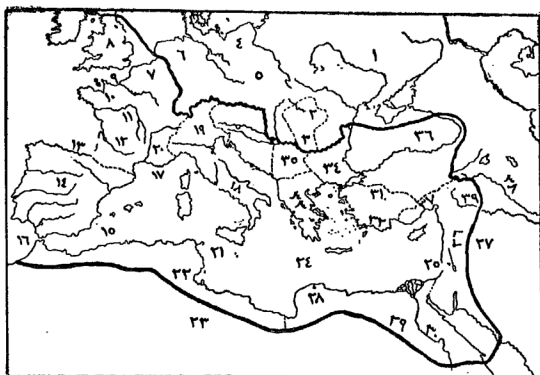
ومنذ أن افتتح قسطنطين عاصمته الجديدة في (٣٣٠) أخذت القسطنطينية تنمو على حساب روما . وكانت من الناحية التجارية أهم منها كثيراً ؛ ذلك أن مركز التجارة العالمية انتقل إلى شرق البحر المتوسط ، وظهر في الأفق منافس قوى لأنطاكية والإسكندرية . وكانت عظمة الأساقفة تطابق إلى حد كبير عظمة مدنها ؛ وبذا صار كرسي القسطنطينية الأسقفى الذى كان تابعاً أول الأمر لهرقلية مثار حسد المطارنة ، ثم صار آخر الأمر يفوق في المكانة كرسي الإسكندرية وأنطاكية جميعا ، ولا يسبقه سوى كرسي القديس بطرس بروما ، وذلك لأن : « القسطنطينية هي روما الجديدة » . وكانت المدينة من الناحية السياسية مركز القيادة العليا لنظام عسكري وإداري عظيم . بل لقد كان لها مجلس شيوخ خاص ، وإليها كان يرد القمح من مصر ، وقد كان الحصول عليه امتيازاً لروما في أحد الأيام .

وفي أثناء المائة الأخيرة من السنين ، لم يدخل روما سوى أباطرة ثلاثة ، وهو أمر يتفجع عليه الشاعر كلوديانوس . ذلك أن روما أصبحت مدينة إقليمية . وظلت ميلانو التي تقع على مسافة دانية من الحدود الإيطالية ، مقراً للإمبراطور حتى انسحب منها هونوريوس خشية سطوة الأريك ، إلى مستنقعات رافنا ، التي أصبحت قبضة الحكم نيفا وقرنا من الزمان . وقد كانت غيبة الأباطرة سبباً في أن روما صارت في قبضة البابوات ، الذين شرعوا

آنذاك رويداً رويداً في تنمية سلطاتهم في أثناء القرون الوسطى . كان الباباوات يستطيعون في الحين المناسب أن يتحدّوا الإمبراطور ، وأن يتفاوضوا مع المتبربرين ، وأن يرفعوا الرأس عالياً لزاء البقية الباقية من الأرستقراطية الرومانية التي يتزعّمها والى (Prefect) المدينة رئيس جماعتهم ، بعكس بطارقة القسطنطينية الذين كانوا يعيشون في ظل القصر . ولما أن سقطت روما أصيب العالم المتحضر بهزة شديدة ابتداء من أوغسطين في هيبو إلى جبروم في بيت لحم . ولكن الصدمة قد أصابت العواطف وحدها (وإن لم تكن زغم ذلك إلا صدمة حقيقية) . إذ إن روما كانت المدينة المقدسة : التي استودعت كلا من النظام القديم والعقيدة الجديدة ، ففيها كوخ رومولوس وقبر بطرس القديس . ولكنها لم تعد منذ زمن بعيد المركز الفعلي للإمبراطورية .

الحدود

وفي (٢٩٥) أصبحت الأقاليم الشمالية الغربية من الإمبراطورية على عتبات تغيرات هامة . ففي بريطانيا بات الدفاع عن « الشاطئ » السكسوني ، أي صفحة البحر المعرضة لهجمات السكسون في بحر الشمال وعلى كل من جانبي بحر المانش ، أهم مصدر لقلق روماني أثناء القرن الرابع ؛ إذ يبدو أن مجموعة من القلاع امتدت قرب نهاية ذلك القرن على ساحل يوركشير . ولكن الجيوش الرومانية انسحبت في (٤٠٢) لتسهم في الدفاع عن إيطاليا . وفي (٤٠٧) عبر مرشح للعرش اسمه قسطنطين حدود بلاد الغالة بمعظم القوات الرومانية ، وهناك هزم هزيمة تامة ولقي مصرعه على يد قواد هونوريوس . ولم تعد الجنود إلى موطنها ، ثم انقضت مائة سنة لم يسمع فيها إلا القليل عن بريطانيا . ويشهد علم الآثار ولا سيما ما عثر عليه من النقود بما حدث من التخلي عن المواقع



(٢) خريطة الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع

١ — القوط الشرقيون	٢ — داكيا	٣ — القوط الغربيون
٤ — اللومبارد	٥ — الوندال	٦ — السكسون
٧ — الفرنجة	٨ — إقليم بريطانيا	٩ — نهر السين
١٠ — باريس	١١ — بلاد الغال	١٢ — بوانتييه
١٣ — بوردو	١٤ — إقليم أسبانيا	١٥ — قرطاجنة
١٦ — أشيلية	١٧ — مرسيليا	١٨ — إيطاليا
١٩ — ميلان	٢٠ — ارلس	٢١ — قرطاجة
٢٢ — إقليم إفريقية	٢٣ — الماوريون	٢٤ — البحر المتوسط
٢٥ — بيت المقدس	٢٦ — إقليم الشرق	٢٧ — العرب
٢٨ — بركة	٢٩ — إقليم مصر	٣٠ — نهر النيل
٣١ — آسيا	٣٢ — أزمير	٣٣ — مقدونيا
٣٤ — تراقيا	٣٥ — إقليم داكيا	٣٦ — إقليم بنطش
٣٧ — إيساوريا	٣٨ — الدجلة	٣٩ — نهر الفرات

الرومانية ويأحرق المدن ، وأخذ اسكتلنديو إيرلندة يلاحقون الساحل الغربى بالغارة والدمار ، وفى إحدى غاراتهم سيق باتريك أسيراً من مصب نهر السيْفون فما يرجع . واندفعت القبائل التوتونية فى أودية الأنهار وعلى الطرق الرومانية شرقاً وجنوباً . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تصل إلى العالم الرومانى عن بريطانيا سوى الشائعات والأساطير . إذ إن بروكوبيوس فى القرن التالى يعدها بلاداً تكاد تمتلئ "بالتعابين ، وجزيرة أشباح لا يقطنها إلا الموتى، تنقل إليها الأرواح عبر البحر من بريتانى .

وكانت حدود الراين أيضاً على شفا الأنهار . وكان جوليان (يوليانوس) أعاد إليها النظام فى (٣٥٧) بسلسلة من الحملات الباهرة على الفرنجة والألمان المهاجرين ، وواصل فالنتينيان الكفاح ونصّب البورجنديين الوافدين حديثاً لمقاتلة الألمان ، وتمكن استيليكو فى (٣٩٥) من توكيد الدفاع عن بلاد الغالة ، فضلاً عن بريطانيا - مدة عشر سنوات أخرى . ولكن النواحي الشرقية اصطفت بصباغ جرمانى ثقيل . فقامت مستوطنات لأقوام من التوتون على جانبي الراين ، وكان الدفاع عن تلك المنطقة موكلاً إلى الجند المرتزقة أو الفرق المساعدة (Foederati) وهم القبائل المتبريرة الذين كانوا يظهرون فى كل يوم استعداداً لقتال أبناء قرابتهم أو منافسيهم لقاء أعطيات الرومان أو ما يقطعهم الرومان من أرض ، ثم ينضمون فى اليوم التالى إلى أعدائهم بالأمس ، أملاً فى ابتزاز السلب ، أو الحصول من الإمبراطورية على شروط أفضل . وعندما استدعى معظم حرس الحدود للدفاع عن إيطاليا من الأريك ، استطاعت قبائل بأكملها عبور النهر وقد تجمد ماؤه فى ليل بهيم ، وأن تدخل الأراضي الرومانية دون التعرض لشيء من العقاب . وعلى هذا النحو عبر الراين حشد

مختلط من الواندال والسويف والألان حوالى (٤٠٦) ، فقصوا على مقاومة الفرنجة ، وشرعوا يجونو لو فى أرجاء بلاد الغالة ردها من الزمان ، وهم يهبون معظم المدن ويتسبيون فى الفوضى والمجاعة ، حتى تمكنوا فى النهاية فى (٤٠٨) من عبور جبال البرانس ، واستقروا بأسبانيا ، محدثين بها نتائج مماثلة لتي أحدثوها بغيرها وإن كانت هنا أذوم . ومن الجلى أن قبضة الإمبراطورية على ممتلكاتها وراء جبال الألب أخذت تهن وتقلقل . فإن شئنا سوق دليل آخر صرح أن نلتسمه فيما فعله قسطنطين المنتصب القادم من بريطانيا ، إذ تمكن من أن يطلق على نفسه اسم سيد بلاد الغالة مدة أربع سنوات ، لمجرد تجنبه لقاء البرابرة المنجولين . وإن حملات قسطنطين وغيره من زعماء الرومان على قواد هونوريوس لتتسم بحجى من الزيف واللاحقيقة عندما نتبين أنه فيما عدا ولاية بروفانس والركن الشمالى الشرقى من أسبانيا ، كانت هذه الولايات تنقل فعلا واسما إلى قبضة البرابرة .

ومع ذلك فإن هذه الحقائق لم تنضج فى (٣٩٥)^(١) ؛ إذ إن الضغط الرئيسى كان مركزاً فيما يبدو على منطقة الدانوب . إذ حدث فى (٣٧٦) أن القوط وقد دفعهم إلى الأمام غزو الهون ، تدفقوا على الحدود ، وعاثوا فساداً بمقدونيا ، وتمكنوا فى (٣٧٨) فى معركة أدرنة السكارثة من إنزال الهزيمة بجيش روماني وقتل الإمبراطور . ومن الجلى أنهم قد وصلوا فى زحفهم هذا إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ومع أن ثيودوسيوس تمكن من الاتفاق معهم ، فإنهم ظلوا يهددون العاصمة . إذ إن أعداداً غفيرة منهم كانت

(١) إن كلوديانوس وهو شاعر معاصر ينفى بثقة تامه بما أحرزه استيلكو والجيش الرومانية ببريطانيا وغالة من انصارت باهرة ، مقارنا لإياها بما أنزله ماريوس ببائل الكيمبرى والتيوتون من هزائم ولكن لا يهرب عن البال أنه كان شاعر القصر وداعية ماهراً ذكياً .

تعمل في الجيش الروماني ، بينما نزلت جموع المحالفين منهم بداخل الإمبراطورية بوصفهم وحدات وطنية تطالب بإعانات ضخمة .

ولكن القسطنطينية نجت من الهلكة . ولم يكن ذلك إلا لشيء واحد كما سنرى بعد : هو أن القوط حولوا وجهتهم نحو الغرب ؛ ولسبب آخر هو أن الحدود الشرقية خيم عليها الهدوء طوال القرن الخامس بأكمله . وقد اقتسمت أرمينية في (٣٨٧) بعد أن ظلت « دولة حاضرة » بين روما وفارس منذ عهد أوغسطس ، فانهى بذلك النزاع الطويل على اكتساب « مناطق نفوذ » - وإلى أبعد من ذلك جنوباً ، أى بأرض الفرات ، ظل خطر الدفاع هادئاً لا يكدره مكدر ، وذلك لما أحقق بفارس من تهديد أعداء آخر بمنطقة نهر آموداريا ؛ كما أن سلسلة القلاع الرومانية كانت كافية لردع شراذم الأعراب المتجولة بتلك المنطقة .

وحافظت الدولة في إفريقية أيضاً على حدود الصحراء من البدو المغيرين ، على الرغم من تضاؤل كفايتها ؛ وشاهد ذلك أن سينيذريوس (Synesius) أسقف برقة (Gyrene) وجد القوات النظامية أجبن من الجند المحلية التي كان يجمعها من جيرانه ويقودها بنفسه . فإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا السكان المغاربة واليونانيين^(١) قد اغتنموا فرصة الاضطرابات^(٢) الاجتماعية والدينية للتخلص من نفوذ الرومان .

(١) المغاربة (Moors) واليونانيون : هم الفنيقيون وأحفادهم النازلون بـشمال إفريقيا (المترجم)

(٢) انظر ص ٢٧ الفصل ثمة بعنوان الهون ومناعبهم .

الجيش

وكان الجيش في قريـب من ٤٠٠ للـيـلـاد مرآة تعكس الأحوال العامة التي تشيع في الإمبراطورية . فقد كان معروفاً رسمياً أن البنيان الأساسي لإصلاحات دقلديانوس وقسطنطين كان لا يزال قائماً . وكان الغرض من هذه الإصلاحات هو أولاً - تشجيع الكفاية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وثانياً المحافظة على الحدود بإقامة خط متصل من المعسكرات ، على حين أن زهرة الجيش (بغض النظر عن فرق الجند الإقليميين على اختلاف أنواعهم) كانت تؤلف قوة متحركة تستطيع أن تبادر بالتحرك إلى أية نقطة تتعرض للغزو^(١) . وتزايد إبان القرن الرابع الفرق في النوع بين جيش الميدان (Comitatus) وقوات الحدود أو الثغور (Limitanei) ؛ فإن الأخيرين ، وكانوا موزعين على معسكرات دائمة أو مستوطنات صغيرة ، ألحقت بها بعض الأرض الزراعية ، ما لبثوا أن أصبحوا تقريباً جند رديف من الفلاحين ؛ وكثيراً ما كانوا أقواماً أشبه بالبرابرة بسبب تزاوجهم المخلط بالأجانب والتسرب المستمر بين الناس على امتداد مناطق الحدود ؛ ولا يختلفون كثيراً عن سكان المستوطنات النامية البربرية (Lacti or Gentiles) الذين منحت لهم بالاستقرار في نواح مختلفة داخل الإمبراطورية ، مقابل قدر معلوم يؤدونه من الخدمة العسكرية . وكانوا ، على أحسن الأوضاع ، يعدنون جنداً من الدرجة الثانية ، وتقيضاً غير كريم للجند النظاميين .

وتبين قوائم الجيش زيادة كبيرة في عدد الكتائب ؛ ولكننا نستشج

(١) انظر التذييل ١

تقلا عن مصادر أخرى أن الكثير من هذه الكتابات لم تكن موجودة إلا على الورق فقط ، أو كانت مجرد فصائل من نفس الكتبية . إذ الواقع أنه في تلك الأيام صار العدد المألوف للوحدة الفعالة ألف رجل لا ستة آلاف . ولم بعد يقودها آنشد وال (Prefect) بل تربيون . وكثيراً ما كانت تستخدم وحدات أصغر من أنواع مختلفة هي الفصائل (Nu meri) تتكون من حوالى خمائة رجل . ويبدو أن الأعداد الفعلية لقوات الميدان الرومانية في أثناء القرن الخامس كانت بالغة القلة ، وكانت تزداد عادة باستئجار الحلفاء المتبريرين . وهم قوم لا يعتمد عليهم في الغالب كما أنهم يتقاضون دائماً أجوراً باهظة .

غلبة البرابرة على الجيش

وبلغ من تغير الجندي الروماني في ذلك الزمان أن زميله من جنود الإمبراطورية الأولى لم يكن ليستطيع تمييزه كجندي ، إذ لم يكن يرتدى الزرد سوى الخيالة وقلة من المشاة . وحل محل الترس المثلث القديم ، درق مستدير مجوف ، غالباً ما كان يحمل شارة الفرقة . وكان السيف القصير (Gladius) المستخدم في الطعن لا يزال يستخدم ، ولكن النصل العريض (Spatha) الطويل ، وهو من أسلحة البرابرة ، أخذ يحل محله . ونذر الآن حمل حربة الرمي الثقيلة (البيلم Piltum) فلم تعد تستخدم إلا عند الجند البرابرة . وكانت دبائيس^(١) (Pikes) القرون الوسطى آخذة في الشروع ، وأصبح جميع الرماة في القرن التالي يحملون المزاريق ونقل القوس عن البارثيين ، ولم ينقض طويل زمن حتى صار سلاحاً للفارس والراجل على السواء . وحدث

(١) الدبوس آلة حربية تشبه الحربة طويلة الفتاة مدببة الظية . (المترجم)

تقدم فعلى فى الخيالة فى أثناء القرن الرابع : إذ أظهرت أهميتها (أى الخيالة) كرامةً أدرنة ، وظهرت الفرسان المدرعة للقرون الوسطى فى صورة الخيالة الثقيلة (Cataphractarii) لأول مرة ، وما لبنت منذ تلك اللحظة حتى صارت القوة الفاصلة فى المعارك . وتسرب إلى الجيش كثير من الكلمات والعادات الألمانية فإنا نسمع اسم الدرانجوس (Drungus) ، وهو نوع من تشكيلات الجيش : على حين أن صيحة الباريتوس (Barritus) وهى صيحة حرب كانت تبدأ بهمة خافتة وتنتهى بزئير رهيب ، قد انتقلت آنئذ من الجند المساعدة (Auxilia) الألمانية إلى صفوف الجيش بأكملها .

ومما يلفت النظر إلى المظهر غير الرومانى الذى اتست به القوات الإمبراطورية فى تلك الفترة ، - عَلمَ الكتائب الجديدة المنقول فيما يرجع عن كتائب الفرقة الرومانية الكاملة القديمة ، التى تكاد الكتائب الجديدة تضارعها فى العدد . وكان العلم على هيئة أفعوان (Draco) - وهو شارة لعلها اقتبست عن الداكيين (Dacians) ، وهو مخلوق ضخم بربرى الشكل يمتلىء بالهواء وينبت على رأس رخ .

وهذه الشارات البربرية ليست إلا أعراضاً لتغير بالغ العمق . فإن الجندى الرومانى كان يحارب آنذاك على قدم المساواة مع الهمجى المتبربر . وكان فى الأيام السالفة يقل عن المتبربر عدداً وقوة احتمال ؛ ولكن كانت له وقتذاك الغلبة على المتبربر بفضل تدريبه ونظامه الكامل وتفوقه فى السلاح ووسائل المواصلات . فإما الآن فإن ذلك كله قد ذهب . إذ إن التكتيك المعقد لم يعد فى مكنة الرومان ؛ بل إن المعسكرات العظيمة التى كان الفيلىق الرومانى يقيمها كل ليلة - وبها كان يزيد روحه المعنوية قوة وحركته سرعة - لم تعد مألوفاً

في ذلك الحين . وكان كثير من البرابرة مزودين بسلاح أفضل ، بل لقد خدم بعضهم في القوات الرومانية فترة من الزمن . هذا إلى أن الجهاز الإمبراطوري كان يتداعى . وكانت إدارة المهمات الحربية مقلقة الأسس ، والأعطيات مضطربة ، وكان الجو مفعماً بالاضطراب وسوء النظام .

وهناك نتيجة ترتبت على ذلك ، هي نمو عدد الأتباع الشخصيين ؛ وأصبح القانون ألعموبة في يد كبار الملاك يتناولونه بالعبث كيف يشاءون ، وصاروا يدفعون الأجور لأتباعهم ويسلحونهم ويطعمونهم . ونمت تلك العادة متأثرة فيما يحتمل بنظام حراس الأمراء أو الأتباع (Comitatus) الألماني الذي يصفه تاكيتوس^(١) . لم يلبث نظام الأتباع أن أصبح معترفاً به في عهد جستنيان ، يوم أصبح جميع القواد ، بل حتى الموظفين المدنيين والأفراد العاديين يتخذون من البقلار أتباعاً لهم (Buccellarii)^(٢) . وبلغ عددهم عند بليساريوس (Belisarius) مثلاً ٧٠٠٠ رجل ، ولكن كانت تلك حالة استثنائية . إذ لم يكن لدى نارسيس (Narses) سوى أربعائة .

كانت الكتائب الرومانية مكونة في الأصل من الإيطاليين ؛ ثم استدعت الحال فيما بعد اللجوء إلى أبناء الأقاليم ، حتى ترامى الأمر إلى أن أصبحت أقل أجزاء الإمبراطورية مدنية مثل بلاد الغالة وإليريا وإيسوريا

(١) انظر الفصل الثاني في عنوان ألمانيا الباكورة وتاكيتوس : (٩٠٠ - ٩٢٠) مؤرخ روماني ذائع الصيت [المترجم] .

(٢) يظهر أن كلمة البوقلار أو البوقلارية مشتقة من لفظة Buccella ، وهو ضرب من البسكويت ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم كانوا يحصلون على طعام أفضل من الوجبات الخفيفة التي كان يعطاها الجنود العاديين .

(Isauria) — مناطق التجنيد الرئيسية في الدولة . أجل إن التجنيد الإجبارى كان لا يزال موجوداً في الإمبراطورية — إذ كان يتختم على الملاك تقديم عدد معين من الرجال ؛ ولكن نظراً لأنهم كانوا يرسلون أقل الرجال صلاحية أو يستمضون عن رجالهم بما يؤدونه من الأموال ، فإن هذا الإجراء كاد يطل . وعندئذ صارت المادة التى يأتلف منها الجيش مكونة من أسرى المتبريرين والقبائل التى خضعت بشروط ، والشعوب التى أنزلت على الحدود أو بالقرب منها أو الجند المتبريرين المتحالفين (Foed erati) الأحرار وما إلى ذلك . وكلما كان الرجل متبريراً أكثر ، كان جندياً أفضل . وبلغت الأمور نقطة التحول عند نهاية القرن الرابع . إذ سمح ثيودوسيوس بأن يدخل البلاد عدد جارف من القوط ، فلم يعد من الممكن بعد ذلك أن ينالوا أى نصيب من العلم — بالطرائق الرومانية ، ولو كان ذلك عن طريق توزيعهم بين مختلف الوحدات .

أما القيادات العليا ، فقد تولى الجرمان نصفها على الأقل منذ عهد جوليان ، فضلاً عن أن كثيراً من الباقين كانوا من أرومة بربرية . وكاز القوم على الدوام يستخدمون اللغة الدارجة للملاءمتها لحقائق الموقف . فكانت الخزانة العسكرية تسمى بالخزانة البربرية (Fiscus baricus) . وبما له دلالة ومعناه أن أما مصرية تذكر فى التماسها تسريح ولدها أنه « انطلق مع البرابرة » وهى تعنى بذلك أنه قد انحرف فى الكتابات الرومانية .

الإمبراطور

إن مركز الإمبراطور فى ذلك الأوان كان — بمعنى ما — النتيجة المنطقية لماعمله أو غسطنس . فإن ما يسمونه باسم « الحكم الثنائى » (Diarchy) أو اقتسام سلطة السيادة العليا بين الإمبراطور (Princeps) ومجلس الشيوخ ،

كان منذ البداية أقصوة إلى حد كبير ، وصرف عنه النظر قبل عهد دقلديانوس ، ومنذ تلك اللحظة أصبح الإمبراطور هو المنحكم في كل المجالات ، وبذا يمكن القول بأن حكومة الإمبراطورية كانت حتى سقوطها في ١٤٥٣ حكومة استبدادية مطلقة (أوتوقراطية) . ولكنها مع ذلك كما قال مومسن^(١) : « حكومة مطلقة يلطف من عنفوانها الحق المشروع في الثورة » . وكان الإمبراطور يخشى على الدوام ظهور منافس له . وبناء على النظرية الأصلية التي رسمها أوغسطس ، كان مجلس الشيوخ والشعب ينتخبان الإمبراطور ويوليانه مهام منصبه . ثم تعدل هذا الوضع عملياً بمناداة السناتو والجيش بالإمبراطور ، وإن بقي المبدأ الأصلي قائماً في يزنطة على صورة احتفال يقام بحلبة السباق (Hippodrome) على أعين العالم كافة . وإن استطاع منافس أن ينصبه جزء من الجيش إمبراطوراً ، صار له « وضع دستوري فرضى ، إما أن يثبتته الاحتفال وإما أن يلغيه » (فيما يقول بيورى) ، فإن أخفق فيما قام به من انقلاب (Coupd' etat) عُدّ ثائراً متبرداً . وإن نجح كان الإمبراطور الشرعى .

بيد أن هذا لم يكن الإجراء العادى الذى يتم عند وفاة أحد الأباطرة . إذ كان لكل واحد من هؤلاء الحكماء شريك يصغره موجود عند موته ، وفي تلك الحالة لم يكن هناك أى انتخاب . وهذا المبدأ الذى عملت به الأسر المالكة والذى تجلى ظاهراً في سياسة أوغسطس ، أصبح عرفاً معترفاً به :

(١) هو ثيودور مومسن (Mommsen) (١٨١٧ — ١٩٠٣) : وهو عالم ألماني بالعلوم الكلاسيكية ، بحث بإيطاليا في النقوش الرومانية . وتولى أستاذية التاريخ القديم بجامعة برلين منذ (١٨٥٧) وله عدة مؤلفات عظيمة . [المترجم]

إذا كان للإمبراطور « الحق في نقل المنصب الإمبراطوري إلى الغير » .
وعندئذ يكون شريكه أو شركاؤه خاضعين له ، وليس للإمبراطورية إلا حاكم
أعلى واحد فقط . (وعلى هذا الاعتبار ، تكون المدة من دقلديانوس إلى
يوليوس نيبوس (المتوفى ٤٨٠) حالة استثنائية)^(١) . وهكذا بقيت ولاية
العرش الانتخابية قائمة على الدوام من حيث المبدأ ، ولم يكن السناتو يلعب
في ذلك دوراً هاماً إلا في حالات استثنائية فقط .

وثمة قيود أخرى كانت مفروضة على سلطة الإمبراطور . فعلى الرغم من
أن الإمبراطور كان من الناحية النظرية فوق القانون ، إلا أنه كان عليه التزام
غير مكتوب بأن يحافظ على الأنظمة والقوانين الرومانية . وينبغي أن يكون
مسيحياً أرثوذكسياً . وقد تم انتزاع هذا الالتزام حينما تولى العرش الإمبراطور
ناستوسوس (٤٩١) ، وكان معروفاً بأرائه الإلحادية ، ثم جرى العرف
فيما عقب ذلك من أيام بأن يحلف الإمبراطور ميمناً عند تنصيبه . بيد أن
الكنيسة لم تكن تواصل على الدوام ادعاءها السيادة على الدولة ، كما حدث
في الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن ثم لم تكن بيزنطة في حاجة إلى
أمثال دانتي أو ألكام لصياغة النظريات المحكمة في هذا الصدد ، إذ لم تكن
الكنيسة هنا إلا إدارة من إدارات الدولة ؛ وكان الإمبراطور رأس
الكنيسة ، وكان البطريرك وزيره في الشؤون الدينية ، والحاكم يلقى هنا
سلطته من ربه مباشرة ، ومع أنه لم يكن يعبد شأنه في اليهود الوثنية ، إلا أن
قصره ومخدعه أسبغت عليهما صفة القداسة في المراسم الرسمية . وربما أمكن
لمس المؤثر الفارسي في هذا الأمر ؛ ومن المحقق أنه واضح في تفاصيل مراسيمية

(١) انظر ص (١٤) .

أخرى . وكان الناج وهو شريط أبيض مطرز باللؤلؤ ، قد أصبح أهم شارات الملك شأنًا ؛ كما كانت الأحذية الأرجوانية أيضاً جزءاً من ثياب الإمبراطور . وكان الخصيان والنساء يسيطرون على بلاط أركاديوس وهونوريوس . وكان كبير الأمناء واحداً من أبرز أربعة من الموظفين ذوى الأهمية ، وهو (Peaedositus Sacri Cubieuli) من الخصيان . وكان الإمبراطور يحاط بسياج من آداب اللياقة والمراسم (كان التعبير عنه يتطلب حشداً ضخماً من رجال البلاط والخدم) كما كان محوطاً بسياج يبعده عن كل اتصال بالحياة الواقعية .

ومن المفارقات العجيبة أن المركزية الإدارية بلغت في الحين نفسه أقصى ذروتها . فكان الإمبراطور يمسك بيده خيوط الحكم جميعاً ؛ فهو المصدر الوحيد للقانون ، وقفهاؤه هم الذين يفسرونه ، كما أن مجلسه كان يتكون من رؤساء الإدارات الحكومية الكبرى في الدولة ولم يعد في الإمكان التفريق بين إيرادات الدولة ودخله الخاص : وكان الإمبراطور يستخدم هيئة ضخمة من العملاء المخصوصين (Curiosi or Agentsimrebus) وهم مكلفون بالبحث في كل نقطة من نقاط الإدارة وتقديم التقارير إليه رأساً . وإن مجموعة قوانين ثيودوسيوس التي نحن مدينون لها بالشيء الكثير مما لدينا من معلومات عن ذلك العصر ، لتحفل بالأوامر الإمبراطورية التي يقصد بها إلى معالجة الظلم وإساءة التصرف . ومع ذلك فإن مجرد تكرار تلك الأوامر نفسه يدل على الفشل . والحق أن الجهاز الحكومي بلغ من الفخامة والتعقيد مبلغاً عطل نشاط كل فرد . وكان من المحال تغيير حركة أصغر ترس في تلك الدواليب المتداخلة بعضها في بعض . هذا إلى أن الجهاز نفسه كانت تهدده قوى بالغة الضخامة ؛ إذ صار وقف زحف البرابرة على الدولة في الاعتبار الأول . وكان رؤساء الجند

(Magistri militum) أصحاب النفوذ والسلطة الحقيقية في أثناء ذلك القرن ، كما أن أى إمبراطور غير ميال للحرب لا مفر من أن يُجعل في المرتبة الثانية بعد قائد الجيش .

الهيئة السناتورية

وقد انحدرت منزلة سناتو روما فأصبح مجلس بلدية ، يرأسه والى المدينة (Prefect) وهو المهيم على الخزانة (Aerarium) ، التى لم تعد منذ زمن بعيد خزانة الدولة ، وأصبح الآن يشرف على سقايات المساء بالمدينة وتزويدها بالمؤن . وتحلى انحدار مكانة السناتو بعد انتقال البلاط الإمبراطورى إلى ميلانو أولاً ثم إلى رافنا في النهاية . فالهيئة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية لم تعد تحفل إلا بالجامعة وبسجلات العاصمة . ومع ذلك فإنه لم يرح من الناحية النظرية محتفظاً بسلطاته الأولى ، وربما أظهر في أيام الأزمات أنه عامل حاسم في الأمور . فأما بيزنطة ، فنظراً لشدة نزعتها المركزية ، لم يعد ثمة فارق بين السناتو ومجلس الإمبراطور (Consistorium) . وظلت الوظائف القديمة : وظائف القنصل والبرايتور (Praetor) موجودة لم تمنحها يد الزمن ، وتعتبر أن أعلى المناصب التى يتطلع إليها نبلاء العاصمة أو الأقاليم . وعلى الرغم من أن أعباء هذين المنصبين لم تعد تتجاوز ما يعرض على السكان من الألعاب أو الحفلات .

وكان مجلس الشيوخ (Senatus) أو السناتو نفسه يضم نسبة ضئيلة جداً من رجال طبقة أعضاء السناتو (Ordo Senatorius) ، وهى الطبقة الكبيرة من الملاك الأغنياء الذين كان لهم بكل أرجاء الإمبراطورية سلطة ونفوذ عظيمان

رغم أن هذا النفوذ لم يكن إلى حد كبير يستند إلى صفة رسمية لهم ، فما لم يكن الرجل من هؤلاء منسباً إلى تلك الطبقة بحكم مولده ، فإنه كان ينتظم فيها بأمر خاص من الإمبراطور أو السناتو ، أو حتى أصبح عضواً بإحدى طبقات الأشراف الثلاث : وهى الوجهاء ، والناهبون ، والصفوة النبلاء (Spectabilis, Illustris, Clarissimus) . وكان لكل منصب رسمى هام فى الإمبراطورية لقب مرتبط به أو يصح الحصول عليه عند التقاعد . وكانت هذه الألقاب تتغير باستمرار ، وتزداد عدداً على الدوام فى أثناء القرنين الرابع والخامس . ولم تكن الألقاب ألقاب تكريم وشرف وحسب ، بل كانت تسوغ لحاملها أنواعاً مختلفة من الإعفاء من الضرائب ، ومن ثم كانت موضع التقدير والاهتمام . وبهذه الطريقة كانت طبقات بأكملها من الموظفين تنتقل آلياً إلى عقد رجال السناتو . ومن العسير أن نصف بالتفصيل سلم الوظائف . على أنه كان يلى الطبقات الثلاث سالفة الذكر طبقة الأكمل (Perfectissimi) وهى طبقة تتألف من صغار الموظفين ومن رؤساء هيئات معينة ، وكانت فى كثير من الحين معراجاً يرقى به إلى طبقة السناتو . وفيما يلى هذه الطبقة ، انتظم السكان فى أقسام تقوم على الحرف والأعمال كما سنرى بعد .

وبعد حدوث الفوضى الجالطة التى رانت على القرن الثالث ، أصبح الاستقرار الشغل الشاغل والهدف المرموق ، وتم بلوغ ذلك بإقدام الحكومة بعزم قوى على توطيد النظام الإدارى وتبسيطه . وقد اشتد غلاء المواد الغذائية ؛ فحاول دقلديانوس ضبطه بإصدار الاوامر بتنفيذ لأتمحة عامة لأعلى الأسعار ، وأدت المحاولة إلى تقديم كثير من الناس إلى المحاكاة ، ولكنها لم تلق أى نجاح يذكر ، وخفضت قيمة العملة وأصبح الذهب والفضة نادرين ؛ وأدخل قسطنطين عملة الصولدى (Solidus) الذهبى ، التى لبثت عدة قرون العملة

المعيارية للدولة ، على الرغم من أن وحدة القيم الحقيقية هي وزن الرطل من الذهب . وكان أساس تقدير الضرائب إبان الإمبراطورية الأولى هو العرف السائد بمختلف النواحي ؛ وهو نظام شديد التعقيد ، إذ إن معظم الإيرادات كان يحصل من الضرائب غير المباشرة ومن إنتاج المزارع الإمبراطورية الكبرى . على أن أفصح الأعباء هو تلك الضرائب الاستثنائية التي كانت تفرض على الناس نقداً وعيناً لتزويد الجيوش الرومانية والموظفين المسافرين بالميرة ووسائل النقل . وتزايدت هذه الفرائض المحتمة زيادة هائلة في أثناء اضطرابات القرن الثالث يوم كاد كل إقليم يقيم لنفسه إمبراطوراً أو مدعياً للعرش ، وكادت التجارة المنتظمة تكون مستحيلة . ولكن دقلديانوس بدلاً من أن يعود إلى النظام القديم قرر أن يواصل العمل بهذه الإجراءات ، وذلك في ضريبة الميرة (Annona) ، كما قرر أن يستعاض عن نظام التقدير القديم بطريقة بالغة البساطة والسذاجة في الحساب وهي طريقة الربط (Iugatio) ، وهي طريقة لا تحفل إلا قليلاً بالخصائص^(١) المحلية . إذ لا بد من إنقاذ الإمبراطورية على حساب شعبها . ولم يكن في الإمكان إحراز هذا الإنقاذ إلا بتحويل الأمة كلها إلى آلة مقننة لإنتاج النقود وضروريات الحياة ، وذلك بقصد مواجهة النقص المتواصل في الإيرادات والتجاوة وعدد السكان بل حتى في الابتكار والمبادأة .

وكان الفلاحون قاعدة الدولة التي عليها تقوم . ومن ثم فقد وجب قهرهم ووجبت مع ذلك حمايتهم . ولم يعد معظم الفلاحين الصغار (Coloni) من الملاك ؛ إذ إنهم أصبحوا بحكم العقود أو التشريعات - من ناحية ، ولكن

(١) انظر التذييل

بالأكثر بحكم الحاجة الاقتصادية من ناحية أخرى تفوق الأولى ، - مستأجرين في مزارع كبار الملاك . وقد انتقصت آنذاك حريتهم الشخصية ؛ فربطوا هم وأبنائهم بالأرض ؛ وإن فكروا في الفرار والإبقاء^(١) وضعوا في الأغلال . ولكن سادتهم (Patrohus) ينبغي ألا يسرفوا في تجريدهم من غلة الأرض دون ترك فائض لهم بما يفرضونه عليهم من إيجار فاحش ؛ ولا يجوز لهم أن ينقلوا الفلاح الصغير إلى مكان آخر إذا باع السيد الأرض التي يعمل عليها الفلاح . ثم صار الملاك آخر الأمر مسؤولين عن جمع الضرائب التي يدفعها مستأجروهم وبذلك تم إخضاع صغار الفلاحين . فإنهم أصبحوا عند ذلك يؤلفون طبقة من أشباه الأحرار ، تقع في منتصف الطريق بين المواطنين الأحرار والأرقاء .

اضطراب شئون الزراعة

ومما يشهد بالحالة المؤسفة التي بلغها الكساد الزراعي ، ويدل على أهميته لدى الإمبراطورية ، الإجراءات المتنوعة التي لجأت إليها الحكومة لمنع الناس من التخلي عن زراعة الأرض ، فنقرر فرض إيجار اسمي على حيازة الأرض البور الموروثة التي يتعهد حائزها بزراعتها زيتوناً وكرماً (Emphyteusis) وهذا النوع من الحيازة هو المعروف بأرض الطعمة . وتحم على مالكي المزارع الضخمة أن يضيفوا إلى أملاكهم قدراً معلوماً من الأرض غير المزروعة ويؤدوا عنها ضريبة (Epibolé) . وهناك عدد من البرديات التي اكتشفت حديثاً بمصر ، توضح لنا وضوحاً لا لبس فيه المصاعب التي تنجم عن اتباع هذا النظام ،

(المترجم)

(١) أبق العيد أبناً وإبناً : مرب

الذى استمر معمولاً به إلى العصر البيزنطى ، فكل من ظهرت عليه أمارات اليسار جعلت على كاهله قطع من هذه الأرض البور ، وأفضت المطالبات الرسمية المتواصلة بتقديم الإبل والأسلحة والقوارب والأرقاء ووسائل المواصلات الأخرى ، إلى القضاء على كل تجارة ، ونحول الآبقون إلى قطاع طرق ، وتركوا زملاءهم يؤدون الضرائب الفادحة ، وأخذت رمال الصحراء تطبق فعلاً على حقول القمح وعرائس الكروم التى تركها أصحابها يباباً بلقماً .

وقام الفلاحون بثورات فى أصقاع مختلفة . فى غالة وأسبانيا أشبت عصائب الثائرين (Bagaudae) حروباً متقطعة فى أثناء القرنين الرابع والخامس ، وكانوا فى أحوال عديدة يقدمون العون للبرابرة . إذ إن سالفين وهو قسيس فى جنوب غالة وصف هؤلاء الثائرين ، ويتحدث أيضاً عن رجال فروا إلى البرابرة للتخلص من جاني الضرائب . وثار الأرقاء فى بعض المناطق على أسيادهم ؛ ويروى بريسكوس^(١) الذى عاش فى منتصف القرن الخامس والذى أرسله الإمبراطور فى سفارة خاصة إلى أتيلا بمسكوه شمالى الدانوب ، أنه وجد تاجراً يونانياً يعيش بين ظهرائى الهون ، وأن التاجر أدلى إليه بأسباب مفصلة لإيثاره العيش فى ظل البربرية على خفض الحضارة . واشتد فى إفريقية بغض الفلاحين للدولة الذى كانت تزيد فى أواره المشاعر العنصرية المغربية واليونانية (الفينيقية) ، ولم يلبث حتى ثار شرده ناراً ولهباً نتيجة للانشقاق الدوناقى^(٢)

(١) بريسكوس (Priscus) عن تفاصيل رحلته الشاقة إلى معسكر أتيلا ، انظر المترجم المجلد الثانى من « معالم تاريخ الإنسانية » تأليف هـ. ج. ولز ص ٦٥٢ ط ٢ لجنة التأليف (المترجم)
(٢) الدوناتيون : طائفة مسيحية قوية نشأت بشمال إفريقية وخرجت على كنيسة القسطنطينية ثم انشقت على نفسها ولم تزل فى شقاق قروناً عدة حتى قضى عليها الفتح العربى فى القرن السابع (المترجم)

كما أن عصابات الجلادين^(١) وغيرهم من المتعصبين المهوسين وهم المسومون (Circumcelliones) أحدثت من الاضطرابات ، ما مهد السبيل للغزاة الوندال . هذا وإن الازدهار الفجائي الذي أصابه الفن الكلتى ببريطانيا والأدب القبطى والسريانى بمصر وسورية ليشهد بأن الثقافات المكبوتة بمواطن أخرى كانت ترقب ضعف قبضة الحكم الرومانى لتواصل نشاطها . غير أن هذه الحركات كانت استثنائية . إذ إن التبدل كان الصفة الغالبة على الفلاح الذى لم يكن يتراءى له فيما يحيط به من آفاق أية بارقة تبشر بمآل أحسن ، والذى كان همه الوحيد منصرفاً إلى تجنب الهلاك جوعاً في سفته التالية .

وأخضعت التجارة والصناعة أيضاً للسيطرة الحكومية . وقد عرفت مصر في العهود الهلينيستية هيئات مكونة من طوائف من أصحاب السفن والتجار تقوم في خدمة الدولة . حتى إذا جاء عهد كلوديوس كانت تلك الممارسة قد امتدت إلى جماعات أو نقابات (Collegia) أخرى من البحارة (Navicu Larii) والتجار (Mercatores) في الموانئ الإيطالية ؛ ومنذ عهد أورليان ، نالت نقابات جميع الحرف اعتراف الحكومة وحمايتها ورقابتها . على أن هذه الجماعات ، فيما عدا تجارة القوافل السورية لا تمت بأى شبه للشركات العصرية ذات رأس المال المشترك ، وكل ما كانت تفعله أن تقيم لنفسها « شخصية قانونية » سهلة ومريحة عند التعامل مع الدولة . أما الصناعة طوال تلك الفترة فكانت أساساً في أيدي الأفراد .

ولعل نقابات البحارة أذيعها صيتها ، وذلك استناداً إلى كثير من النقوش ،

(١) طائفة الجلادين : فئة دينية ظهرت في إيطاليا تؤمن بتعزية أجسادها وتعذيبها بالسياط .
(المترجم)

وربما أمكن اتخاذها مثالا . وقد طلب دقلديانوس منهم أن يشتركوا فى نقل المواد الغذائية ، لا لسكان العاصمة فحسب ، بل للجيش أيضاً . وكانت ممتلكات هذه النقابات تعد رهينة لسلامة وصول الشحنات . وكان عليهم أن يسلكوا أقصر الطرق ، وألا يتوقفوا بمكان ما لم تقض عليهم بذلك ضرورة ماسة ، وكانت حرقهم وراثية . وكذلك أيضاً انتظم الخبازون وتجار لحم الخنزير وموردو الخشب لأفران الحمامات وحرف وصناعات أخرى بالعواصم والمدن الصغيرة فى نقابات على نفس الأسس التى لم يكن يجوز لأحد الانسلاخ منها . وكانت ذخيرة الجيش ومعداته تنتجها مصانع للدولة يعمل بها عمال أرقاء كادحون مرهقون عملا .

وصارت الإدارة المحلية وجباية الضرائب أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الجهاز العظيم . كما أن أعضاء مجالس المدن (Curiales) المسؤولين عن الإدارة المحلية وجباية الضرائب ربما كانوا أكثر تعاسة من أية طبقة أخرى فى المجتمع . وقد كانت الإمبراطورية تتألف (فى ناحية واحدة فقط) من مجموعة ضخمة من البلديات تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال . ولكن ذلك الاستقلال قد انتقص على عهد تراچان ، إذ تقرر إنفاذ مندوبين إمبراطوريين (Correctores Curatores) لتنظيم مالية بعض المدن ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . وبنو هذا الإجراء اضطلعت وطنية المدن والغيرة على استقلالها ، وأصبحت الأعمال الخيرية نادرة واستثنائية ؛ كما أن قيام المسيحية الذى أفضى إلى هدم معابد آلهة المدن (Polis) ، التى ظلت قروناً عديدة قبله وبؤرة لولاء المجتمعات وعبادتها ، عاون على القضاء على القوى التى حافظت على حياة دولة المدينة (City-state) القديمة ، ولكن الحاجة إلى الحكم المحلى ظلت قائمة ؛ ومن ثم

بات من الضروري إجبار أعضاء مجالس المدن (Curiales) ، وهم الموسرون من أهل المدن وأصحاب الأملاك الذين يصح انتخابهم أعضاء بمجلس سناتو المدينة أو لتولى الوظائف التنفيذية ، على مواصلة القيام بالتكاليف (Munera) المتوقعة بهم كالتقضاء فى المسائل الطفيفة والانتدابات لبعض المهام وفحص المباني وخدمة البريد والنقل ، وجمع الضرائب إلى غير ذلك ، وهى أعباء لا يتقاضون عنها أية مرتبات. وقد أقيم تمييز رسمى بين التكليف (Munera) والتشريف (Honores) ، إذ كان المصطلح الثانى يطلق على الوظائف التى هى فى حد ذاتها مكافأة مشتهة لشرف قدرها . ومما له دلالة على حالة الشعور العام أن ذلك الفرق لم يعد قائماً .

وكان من أشد الأعمال وطأة على الناس تقدير الضرائب الإمبراطورية أو جبايتها . وأعضاء مجالس المدن (أو مندوبو البلديات) هم المسئولون شخصياً عن هذه الأعمال ، وذلك بينما طلبات الخزنة الإمبراطورية فى ازدياد مستمر . وكانت توضع فى طريقهم كل ألوان العقبات . فإن كبار الملاك كانوا يرفضون الإدلاء بأية معلومات ، بل كانوا يسلمون أتباعهم لى يطاردوا جابى الضرائب . وقد تتعرض طبقة أعضاء مجالس المدن بأسرها للدمار ، نتيجة لرداءة المحصول أو غارة جيش مغير ، وذلك لأنه لا بد لهم من تسديد النقص من جيوبهم الخاصة . ومما كان يزيد فى مرارة شعور الكراهية بين المدينة والريف ، ما اساق إليه أعضاء مجالس المدن مرغبين على اللجوء إلى الرشوة والابتزاز .

اضمحلال الطبقات الوسطى

ولو تأملنا على مر العصور الأوامر الصادرة من عهد قسطنطين إلى ماچوريان وهي التى تتضمنها مجموعة قوانين جستنيان ، لأمكننا أن نتعقب من خلال مائة وخمسين عاماً صدر فيها ١٩٢ مرسوماً ، التدمير البطيء الذى أنزل بالطبقات الوسطى . فإن محاولاتهم اليائسة للوصول إلى طبقة رجال السناتو والاستمناع بما لتلك الطبقة من مكانة وحصانة ، تُكبح كبحاً تتزايد شدته على كرا الأعوام — إذ تقفل دونهم أبواب الجيش والكنيسة والخدمة المدنية . وتصيح العضوية فى طبقة أعضاء مجالس المدن (مندوبى البلديات) وراثية ؛ ولكنها من ناحية أخرى تمجد بالألقاب الرنانة : فهى تسمى آونة «بالسناتور الأصغر» وآونة «بالمكانة الرفيعة» . وقد تقرر منع الأعضاء من السفر إلى الخارج أو السكنى فى الريف ، «إذ ينبغي لهم أن يظلوا بين أحضان مسقط رأسهم ، طبقاً لمقتضيات الروابط المقدسة المقدرة عليهم ، ولأنهم يحرسون السر الأبدى الذى لا يستطيعون التخلي عنه إلا بالتخلي عن التقوى» وهذا مثال طيب على لغة القانون وبيانه وعلى إنكاره التام لكل حرية شخصية . وتشهد مراسيم أخرى بمزيد من القيود ، وتوقف كل محاولة للهرب . ومن ثم صار الأعضاء (المندوبون) بمصر والشرق يفرون إلى صوامع النساك بالصحراء ؛ ولكنهم كانوا فى البلاد الأخرى يلتصقون الانضمام إلى نقابات أخرى أشد تواضعاً ، أو يضعون أنفسهم تحت رعاية مالك أرض قوى ، وكان كثير من صغار الملاك يفارقون مزارعهم خفية تحت ضغط الديون ، وينضمون إلى صفوف الفلاحين الصغار (Coloni) .

حياة الطبقات العليا

وعلى النقيض التام لهذه الأحوال المنوعة تنهض الحياة المترفة التي نعيمهاها الطبقات العليا . وقد زادت دخولهم في كثير من الحالات ، على حين تناقصت إيرادات الخزنة الإمبراطورية . كانوا يعيشون آمنين في معالهم الريفية ، ومن ثم كانوا يتحدثون جاني الضرائب ويؤلفون هيئة ضخمة من «الماسونية» المتسكنة المسكونة من المحافظين (الحكام) والموظفين ، ترتبط فيما بينها بأواصر الدم والطبقة بغية القضاء على أهداف العدالة ونحو أن كل مرسوم إصلاحى . ويتبدى فيهم خليط عجيب يجمع بين خصائص العصور القديمة والوسطى . ويحيط بالأسر الكبيرة في تلك الفترة جو إقطاعي واضح الشدى والعالم — ومثال ذلك أسرة أنيسكى (Anicii) في روما ، وبيت آبيوت ببصر وأرستقراطية جنوب فرنسا المتشابكة بروابط الصهر والقربى ، بما لها من الأملاك الضخمة المترامية التي أشبهت الممالك الصغيرة ، وقيامها بشئون القضاء قيام السادة المنصرفين ومالها من فصائل من الراكبة الأتباع . وتتجلى في الفسيفساء المنقولة من أرضية الفيلات الأفريقية صور ومبان تشبه القلاع أو البيوت الريفية المحصنة ؛ وفيها يقدم موالى الأرض خدماهم أو يدفعون دفعات عينية؛ ويمارس القوم ضرباً من «الاقتصاد» يقوم على الاكتفاء الذاتي ، ويواجهون جميع مطالب الحياة بالصناعة المحلية^(١) . وفي تلك الفسيفساء يظهر اللورد ورفاقه ممتطين جيادهم في أثناء خروجهم للصيد أو الاحتفاء برجال العلم . ويعطينا أوسونيوس وغيره صورة مماثلة للأحوال القائمة بجنوب فرنسا . ومنها يتبين

(١) يمكن هنا مقارنة هذا الوصف بالفيلا المنية في تشدورث بحبال كوتس ولانس (القرن الرابع) بما فيها من مكان للصباغة يثير الاهتمام . ويدل سجعها على أنه من المحتمل أن المقصود منها كان خدمة حاجات الحى .

أن أيام حياة المدن أخذت تنقضى . فإن المدن الرجعية القديمة ذات الشكل الكلاسيكى غير المسورة ، بما احتضنت من حمامات ومعابد وسقائف معبدة وأرباض (ضواحي) حافلة بالفيلات والقبور لم تلبث حتى صارت مكتنزة وأحاطت بها الأسوار والأبراج التى بادر القوم إلى تشييدها معاجلين بما انتزعوه من شواهد القبور ، ومن السكتل الحجرية التى أخذوها من بعض المباني العامة . وباضمحلال التجارة انتقل الثرف إلى الريف . فزخرت السبل بقطاع الطرق ، وتوقفت الطرق التجارية العظيمة الممتدة بين الولايات عن اجتلاب الخلف أو المصنوعات المعدنية إلى دار الفلاح أو الصانع المحترف (Artisan) . وأخذت حياة القرية تنمو حول الدار الريفية (Manor) للشريف : وإن كثيراً من الدساكر الفرلسية القائمة اليوم اتخذت اسمها من صاحب الأرض الرومانى الأصل الذى كان يعيش فى مزرعته فى ذلك الأوان والذى لم يكن يحضر إلى المدينة فيما يرجع إلا لقضاء عيد الفصح أو من أجل قضية هامة أمام دور القضاء . على أن القرن التالى هو الذى شهد التطور الكامل لهذه العملية . وعند نهاية القرن الرابع كانت التجارة المنقولة بحراً لا تزال ضخمة بالغة الأهمية . ولم تبرح أجزاء كثيرة من الإمبراطورية تهناً بالرغد واليسار ؛ إذ إن الحياة الحضرية المشرقة بمدن مثل أنطاكية والإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ، ومع أن الزراعة انحطت منذ زمن بعيد بكل من بلاد اليونان وإيطاليا ، إلا أن قدرة الأرض على الإنتاج لم يصبها هبوط عام . إذ إن سورية ومصر وشمال إفريقيا وأسبانيا وجنوب غالة كانت لا تزال تنتج محاصيل موفورة زاخرة . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أن الزراعة فى الإمبراطورية الرومانية كانت على الدوام أهم الحرف . فضلاً عن هذا ، فإن حياة الإقطاع التى وصفناها إن هى إلا إحدى مظاهرها . أما الجانب الاجتماعى ،

فإننا لو ألقينا إليه أول نظرة ، فربما تصورنا أننا رجعنا إلى الوراء إلى عهد جوفينال أو مارتيا ل أو بليسي الأصغر . وإن الشعر الساخر الذي ألّفه أميان وجيروم ليدور حول البنخ الذي يديه نبلاء الرومان في ثيابهم وولائمهم ، وحول حاشية البلاط والطفيّلين والأتباع والمبيد . وفي الشرق يجار يوحنا فم الذهب (Chrysostom) بصوت كالرعد مندداً بالحرير والجوهر والأثاث والعربات المموهة بالذهب والفضة ، ويصف الموابك المألوفة المنظمة في تشكيلة عسكرية والمكونة من الأرقاء والخصيان والعربات التي تجرها البغال (وهي التي يلحظ وجودها أميان بروما أيضاً) ، عندما يغادر النبيل من هؤلاء مدينة القسطنطينية أو أنطاكية إلى مقره الريفي ، وقد حمل معه الرياش الكثير والميرة الوفرة لقضاء بضعة أيام فقط . وإن ذلك المنظر ليدكرنا بمنظر عربات الملك^(١) الأعظم (Le Grand Monarque) ، حين تنطلق من فرساي على طريق مارلي ، غير أن الجو العام لا يفترق في جوهره عما كان في عصر تاكيتوس أو هوراس .

والسبب الرئيسي في هذه الروح المحافظة التي تتجلى في آداب سلوك الناس هو الأهمية الاجتماعية التي نيطت بشكل من أشكال التربية كان يمنح إلى الإبقاء على المعايير القديمة . فقد كانت دراسة النحو (الأجرومية) وعلم البيان ضرورية لإعداد الفرد ، لا للخدمة المدنية فقط — (ولا ينبغي أن معظم أفراد الطبقات العليا كانوا في حاضرهم أو ماضيهم موظفين في الإمبراطورية) — بل وأيضاً من أجل الاختلاط الاجتماعي المهنّب . فكان ينبغي للرجل المثقف أن يكون على معرفة جيدة بالنماذج الكلاسيكية شعراً أو نثراً ، وأن يقدّر تمام

(١) الملك الأعظم : بيني لويس الرابع عشر . (المترجم)

التقدير اكتفائها الفنى ؛ وكثيراً ما كانت الأبحاث الأثرية العتيقة أو مسائل الأجرومية مدار الحديث على المائدة أو موضوع الرسائل التى يتسع وقت الفراغ لتحريرها ، غير أن هذا الإصرار على الشكل دون المسادة ، هو الظاهرة الدالة على عيبين عظيمين فى فكر ذلك الزمان وأدبه . فالعيب الأول هو أن الفكر والأدب كانا غير واقعيين وعتيقين وأكاديميين . ولم تكن للكلمة المكتوبة إلا أضواء الملائق بلغة الحديث العلم ، التى أشهد انحسارها وقشذ نحر : « اللاتينية المتأخرة » التى ذاعت فى العهد الوسيط ، فإن رسائل سيماخوس إن هى إلا تدريبات واعية على التعبير الرشيق وليست أقوالاً أصيلة ، أما أوسونيوس^(١) الذى ينطعم أن يعبور منظراً من المناظر : كلرياد الماشية الماء ، أو صائد مملك يحمل قصبه ، أو مغرب الشمس على صفحة أحد الأنهر بكل ما أوتيته « بروسست »^(٢) Proust من دقة ، دون أن يستخدم إلا نموتاً قليلة ، فإنه يقدم معرضاً كاملاً من الصور الريفية مثل أساتذة بوردو وثررة الريف والعمات العنارى الجديرات بريشة كامبراي ، على أنه طالما أورد من الأساطير والأوصاف الكلاسيكية ما لعللاقة له بالموضوع . فإن منظر كرمه على ضفاف الجارون ، لم يكن محيى من أن يستثير منه إشارة إلى رودوى^(٣) وبنجابوس ؛ ولا مندوحة للدار الريفية أن تذكر الكاتب بجميع مبائى مشاهير المعاريين من ديدا لوس فصاعداً فى حقب التاريخ .

والعيب الثانى والأشد خطورة وجدية هو السلطان الجارف الذى كان لعلم

(١) أوسونيوس (٣١٠ — ح ٣٩٠) : شاعر لاتينى ولد ببوردو بحالا (بوردو) وعين لغيرته الأدبية مؤدبا لجرايان بن فالنتيان . (المترجم)

(٢) بروسست (١٨٧١ — ١٩٢٢) كاتب فرنسى كتب دراسة نفسية لحياته وزمانه . (المترجم)

(٣) رودوى : ولاية يونانية بغرب ترافيا بها مناظر جبلية . (المترجم)

البيان عليهم ، فإن جميع الاعتبارات الأخرى : كالإيقاع والحصيلة اللغوية والتوكيد ، تخضع كلها لهدف واحد هو إحراز الغلبة في الجدل . وهو المبدأ الخبيث الذي تمثله «عصائب الرعوس المقدسة المندورة» في رواية «السحاب» لأرستوفانيس^(١) ، وتتجلى آثاره في الكتاب المسيحيين والوثنيين على السواء فيما يقوم في الحليات الزاهية والمبالغة الرتيبة المنتظمة ، والحيف المنعمد مع الخوصوم ، وفقدان النزاهة بينهم جميعاً . وهي حال تفشو بدرجة متساوية في هجاء جيروم وبيانيات ليبانيوس^(٢) وفواصله المسجوعة ، كما تتبدى في أسوأ صورها في المجموعة الضخمة من الجدليين من رجال الكنيسة (الإكليروس) وحتى أوغسطين نفسه لا يسلم منها تماماً ، وإن توقد في كتابه «الاعتراقات» قسب إخلاص محموم ؛ ولم تكن نغمت الأرغن الفاخرة التي وضعها كلوديانوس^(٣) إلا موسيقى للعقل وحده لا القلب . وكانت أسرار العقيدة المسيحية ورمزياتها بحاجة إلى وسائل جديدة للتعبير ، هذا وإن التراتيل الفخمة لهيلاري وإمبروز^(٤) والغنائمات السحرية النابعة من براعة بروذنتيوس^(٥) ، أعظم شعراء المسيحية الرومانية ، لتصهر الأخيلة العبرانية ذات السمة الاستصراخية العجيبة الواردة في ترجمة التوراة^(٦) السبعينية (Septuagint) مع المسائل الرنانة غير المفهومة

(١) أرستوفانيس (٤٤٨ — ٣٨٠ ق.م.) مؤلف درامى فسكاهى بأثينا . (الترجم)

(٢) ليبانيوس (٣١٤ — ٣٩٢ م) سفسطائي يوناني وثني ، علم بالقسطنطينية ، من

تلاميذه فم الذهب . (الترجم)

(٣) كلوديانوس (٤٠٨ م) آخر الشعراء اللاتين العظماء ولد بالإسكندرية . (الترجم)

(٤) إمبروز من آباء الكنيسة اللاتين كتب كثيراً من التراتيل (٣٤٠ — ٣٩٧) .

(الترجم)

(٥) بروذنتيوس (٣٤٨ — ٤٠٥ م) من شعراء الكنيسة اللاتينية ، ولد بأسبانيا

وعاصر أوغسطين . (الترجم)

(٦) ترجمة التوراة السبعينية: أقدم نسخة إغريقية من العهد القديم ويقال إن واضعها ٧٠ عالماً.

(الترجم)

في الاعتقادات (Dogma) المسيحية ، وإن عقلية القرون الوسطى لتتجلى بالفعل في كتاب الجهاد الأكبر (Psychomachia) وفي كتاب المقسمة^(١) (Cathemerinon Liber) ، وهي عقلية يشهد ماهو محفور على أبواب مدينة شارتر ، بما ركب عليه عالمها المنتظم وما يتصل به من خطة الخلاص ومن مقابلة بين الفضائل والرذائل ومن دورات متعاقبة للمواسم والأعياد ، تلك التي جعلت موثلاً ركيناً يقي الناس مما تجلبه الفوضى التي تملأ الدنيا من أخطار شيطانية شريرة .

ومن نافذة القول أن نلخص في تجريدات آلية ميول ذلك العصر التقليدي النزعة في كل من الفن والأدب والدين والفلسفة والعلوم . وغنى عن البيان أن التفاعلات بين المسيحية والوثنية ، أي التقاء رواقد الثقافة الرومانية والإغريقية والشرقية ، لن يتيسر نقل صورة لها — إن كان ذلك ممكناً على الإطلاق — إلا بالإكثار من الأمثلة التفصيلية . على أنه يمكن استخلاص صورة لبعض خصائص الطبقات المتعلقة من كتاب القرنين الرابع والخامس ؛ نسوق منها التعامل الرشيق والتحررية المهمة والإنسانية الواهنة والوحدة الوجودية غير المحددة ، وفوق كل ذلك طائفة ضخمة من الخرافات الشائعة زحفت إليهم من الطبقات الدنيا عندما ضعف المذهب العقلي (Rotionalism) . وإذا نحن شئنا أن نبث عن التعبير الصحيح عن تلك الفترة ، وجب علينا ألا نطلبه عند الغلاة المنظرين . فإن سيماخوس العالم المتمكن من العديد الذي لا حصر له من النحل وفلافيانوس الذي يعتبر « آخر الوثنيين » ، والذي كان المدبر للانتعاش النهائي الذي أصابته الديانة القديمة في روما عشية انتصار

(١) انظر ف. ج. ١٠. رابي في « A History of Christ-Lat. Poetry »
(أو كسفرود ١٩٢٧) الفصل الثاني عن برودثيوس .

المسيحية^(١) على يد ثيودوسيوس ، إنما ينتميان إلى عصر سابق . أما أوغسطين وسمعان العمودي وأمبروز فهم المبشرون الآذنون بالمدرسانيين^(٢) (Schoolmen) والنسك والأجبار في العصور الوسطى . بيد أن الجمهرة العظمى من ذوى الرأى المتعلمين لاهى بالمسيحية ولا هى بالوثنية . ومما له دلالة أن عقيدة كثير من كبار الكتاب فى ذلك الزمن ، نذكر منهم أوسونيوس وكلوديانوس ونُتس على سبيل المثال لا الحصر ، لا تزال موضع أخذ ورد بين الباحثين .

الخلافاات الكنسية

على أن عهد ثيودوسيوس يعتبر مرحلة جديدة فى علاقة الكنيسة بالدولة . إذ ساد بينهما فى الداخل والخارج هدنة قصيرة من الهدوء النسبى . فى القرن الرابع انقسمت الكنيسة على نفسها نتيجة للهرطقة والانشقاق ، وزاد من حدتها اشتداد المشاعر العنصرية أو النزعات الوطنية المحلية . إذ إن الكراسى الرسولية فى أنطاكية والقسطنطينية والإسكندرية كانت تتنازع الصدارة على الشرق . وكان الدوناتيون بإفريقية والإرسكليانيون بأسبانيا وجماعات النسك التى تطوف بمصر والشرق الأدنى بما يشونه من آراء عن الطعام والزواج والملكية والملبس ، — يتلقون جميعاً تأييد السكان فى مناهضة السلطة . والمعروف أن هذه السلطة نفسها التى تمثل فى شخص الأباطرة كانت منذ وفاة قسطنطين إما أريوسية أو شبه أريوسية ، وكثيراً ما كان كبار رجال الكنيسة فى كثير من الكراسى الدينية يعزلون وفقاً لسياسة

(١) تمكن ثيودوسيوس الأول فى معركة فريجيدس قرب أكوليا من إزلال هزيمة ساحقة بجيش الغرب بقيادة أروجاست الفرنجى وإمبراطوره الضعيف يوجينوس .
(٢) المدرسانيون : هم فلاسفة أو لاهوتية العصور الوسطى . (المترجم)

الإمبراطور ، فإن تم ذلك على خلاف المشاعر الشعبية ، اقتسم ولاء المدن الكبرى أسقفان أو مطرانان أو أكثر لكل منهما أتباعه المستعدون للهباج .
 فقد حدث في روما أن حزب داماسوس البابوي — في إرهاب منه بقتن القرون الوسطى — اقتحم عنوة كنيسة أورسينوس البابا المغتصب^(١) ، وقتل نيفا ومائة من أتباعه في يوم واحد (٢٦ أكتوبر ٣٦٦) .

ومنذ أن عقد مجمع نيقية (٣٢٥) تكرر محاولات وضع صيغة الأركان الاعتقادية (Dogma) ، وأنتجت سلسلة من العقائد (Creeds) تمثل سنن المذاهب بمختلف ظلالها وتنتهى غالباً بصب اللاعنات على الخصوم . ولم يكن بد لما كان يحدث دائماً من عودة الأحزاب المختلفة إلى التجمع ، من إحداث الشعب ، وخاصة متى زادت أواره المصالح السياسية أو الشخصية أو الوطنية . على أن الأمور اتخذت في ذلك الحين مظهراً أكثر استقراراً . إذ كان الإمبراطور كاثوليكياً . ومن ثم اتخذت إجراءات صارمة لإزاء مختلف الزندقات (الهرطقات) . على أن المراسيم المناهضة للوثنية اتخذت مظهراً أقوى . إذ حدث في داخل الكنيسة أن عادت روما والكراسى الرسولية الشرقية إلى الوفاق مرة أخرى — واصطلحت القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية في اتفاق على الهدف . وصار مذهب أريوس قضية خاسرة داخل الإمبراطورية ، وإن تكاثرت أتباعه سريعاً بين البرابرة على حدودها . إذ لم يكن « مذهب وحدة طبيعة المسيح Monophysitism » قد ظهر بعد . وأخذ نظام الكنيسة يزداد استقراراً ، كما أخذت علاقتها بالدولة تزداد توثقاً . وتأسست — أو وسّعت —

(١) البابا المغتصب أو المارض Anti-Pope : هو جبر أعظم يصب لمناهضة بابا شرعى الانتخاب . (المترجم)

امتيازات منوعة مثل التحرر من أعمال عضوية مجالس المدن^(١) (Curia) أو الإعفاء من الخدمة العسكرية ، فضلاً عن حقوق الوصية والملكية . وأصبح للأساقفة اختصاصات مدنية ، على حين باشرت السلطة العلمانية الهيمنة على الانتخابات الكنسية بدرجة من النجاح متفاوتة رغبة في صيانة النظام العام وحفظ وحدة الإمبراطورية .

وفي القرن الرابع تركزت الخصومات المذهبية حول علاقة الابن بالآب ؛ وتمركزت في القرن الخامس حول طبيعة الابن . ولم تكن المسألتان منفصلتين إحداهما عن الأخرى . فأما مذهب أريوس ، فإنه عندما أخضع الابن للآب ، اعتبر عند أنصار اثناسيوس منكراً للألوهية التامة للابن . على حين أن مذهب سايلبيوس ، وهو النقيض لمذهب أريوس ، كان ينكر مالمسيح من صفة بشرية تامة — على غير أساس واف من التمييز فيما يرى أنصار أريوس . وقد عقد قسطنطين مجمع نيقية ، وهو المجمع الذي انتصرت فيه الإرادة الإمبراطورية والذي أُدين فيه أريوس . وحاولت مجامع مختلفة انعتدت في أثناء القرن الرابع أن تقرر مذاهب إما شبه أريوسية ، وإما غير ملتزمة بشيء حيال طبيعة المسيح . ثم عقد ثيودوسيوس آخر الأمر مجمع القسطنطينية (٣٨١) ، فأكد من جديد عقيدة نيقية ، ومنذ ذلك الحين اشتد قمع الآريوسية .

وفي القرن التالي أصبحت المنازعات تدور حول علاقة الناحية البشرية بالناحية الإلهية في طبيعة الابن وشخصيته . بيد أن أهميتها بالنسبة للتورخ

(١) أو مندوبى البلديات .

العام إنما تقوم إلى حد كبير في النتائج السياسية المترتبة عليها . ولعل أم تلك المنازعات التنافس الذي احتدم بين القسطنطينية والإسكندرية ، ولا شك في أن تطورات هذا التنافس توضح كثيراً نواحي الخصومات الدينية في ذلك العصر . وقد كانت الكنيسة منذ أول أيامها قد نظمت نفسها على خرار أقسام الدولة . فأصبحت المدن كراسى أساقفة ، كانوا يجتمعون في مجامع دينية (Synod) تعقد بعاصمة الولاية . وأصبح أساقفة هذه العواصم مطارنة ، يهيمنون على انتخابات من يليهم من أساقفة^(١) . وأخيراً يجيء دور المطران الأعلى أو البطريرك الذي يظهر في الكراسى الرسولية الكبرى بروما وأنطاكية والإسكندرية وإفيسوس ، كما أنه بدوره يشرف على انتخابات المطارنة . ثم دخل في الأمر عامل جديد أثار القلق حين أسس قسطنطين مدينته ، التي أخذت أهميتها تزداد منذ ٣٣٠ م . وكان أسقف بيزنطة من الناحية النظرية تابعاً لمطران هرقلية . وسرعان ما أصبح هذا الوضع شيئاً شاذاً بالنظر إلى الوضع السياسي ، وفي ٣٨١ أعلن مجمع القسطنطينية أنه لا يسبق أسقف بيزنطة في المسكنة إلا أسقف روما « لأن المدينة التي هو أسقف لها هي روما الجديدة » . وكان المبدأ واضحاً ، وكذلك كان الخطر الذي ترتب عليه بالنسبة للإسكندرية .

العداء بين القسطنطينية والإسكندرية

ومنذ ٣٩٥ يوم مات ثيودوسيوس إلى ٤٥٠ حين تولى مرقيان الحكم بعد ثيودوسيوس الثاني ، كان نجم مصر في صعود ، وذلك لأن من استولوا على العرش من الأباطرة كانوا ضعافاً ، على حين تولى كرسى أسقفية

(١) على أن هذه التطورات كانت لا تزال غير مألوفة في الغرب إبان القرن الرابع .

الإسكندرية مجموعة متعاقبة تكاد تتخذ هيئة الأسرة الكاملة من الأحرار المشهورين بالقوة والإقدام المجريين من كل خلق أو ضمير ، وكانوا يستخدمون طرقاً تقليدية تدخل فيها الرشوة وصب اللعنات واستغلال العداوة القومية وإرهاب المجامع باستخدام النوتية المسلحين بميناء الإسكندرية و رهبان طيبة . وتولى توجيه السياسة المصرية سلسلة من الشخصيات القوية ورجال اللاهوت الأكفاء ، واتخذ النزاع أربع مراحل : انتهت المرحلتان الأوليان منها بنصر حاسم للإسكندرية ، وحقت الثالثة مجرد النجاح ، بينما انتهت الرابعة بالسقوط والانحيار .

المرحلة الأولى : ٣٩٨ . وفيها فشل ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية في الحيلولة دون انتخاب فم الذهب بطريركاً لكرسى القسطنطينية بسبب تأييد يوتروبيوس الخصى تشريفاني أركادىوس لفم الذهب .

وفى ٤٠٣ استغل ثيوفيلوس غضب الإمبراطورة يودوكيا على فم الذهب الذى أساء إليها ، وأفاد من حنق بعض الفئات المناهضة له فى آسيا ، وتمكن بذلك من خلع فم الذهب فى مجمع البلوطة (Synod of The oak) . وانتهى الأمر بإرسال فم الذهب إلى المنفى .

المرحلة الثانية : ٤٣١ . مجمع إفيسوس وفيها تمكن كيرلس أسقف الإسكندرية بفضل استخدام نفس الوسائل من خلع لسطوريوس بطريرك القسطنطينية وحرمانه من الكنيسة ، بتهمة أنه قال بالانقسام الشديد فى شخصية المسيح .

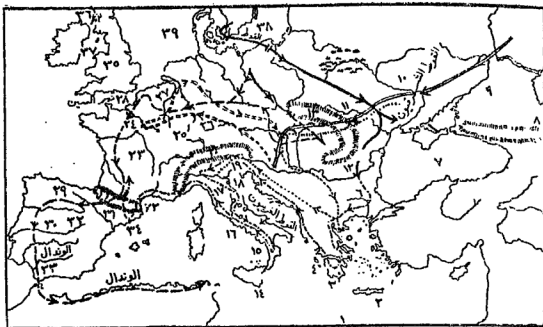
المرحلة الثالثة : ٤٤٩ . مجمع إفيسوس الثانى المعروف بمجمع اللصوص (Lotrocinium) . وفيه نجح ديوسقوروس أسقف الإسكندرية فى خلع فلافيانوس أسقف القسطنطينية وإعادة يوتيوخوس وهو راهب لم يقتصر

ساعة مهاجمة نسطوريوس على الأخذ بذهاب وحدة شخصية المسيح بل وبوحدة طبيعة المسيح أيضاً . ولم يتحقق ذلك النجاح فحسب برشوة الحاجب (التشريفاني) الخفي كريسافوس وغيره من رجال البلاط ، بل وأيضاً بقوة مسلحة استخدمت في الجمع . وفي هذه الآونة أصبحت روما معادية للإسكندرية بعد أن ساندتها في ٤٣١ بينما كانت أنطاكية تتردد في موقفها .

المرحلة الرابعة: ٤٥٠ مات ثيودوسيوس الثاني . وطردت أخته بولطيريا الحاجب كريسافوس ودعت إلى انتخاب مرقيان إمبراطوراً ، وإلى عقد مجمع خلقدونية (٤٥١) ، وفيه تقرر إدانة يوتيوخوس (أوتينا) ونفي ديسقوروس ، وبذا زالت نهائياً سيادة الإسكندرية .

على أن نتائج مجمع خلقدونية الأخرى كانت أهم من سقوط الإسكندرية . ذلك أن المجمع أقر مبدأ طبعتي المسيح الذي صاغه ليو (لاوون) بابا روما . فلقى ذلك مقاومة من حزب الإسكندرية ، وانتهى الأمر بأن انتشرت بكل من مصر وسورية هرطقة « وحدة طبيعة المسيح Monophysite » ، وهي منهج لا يعترف له إلا بطبيعة واحدة فقط . ومنذ تلك اللحظة صار لازماً على الأباطرة بالقسطنطينية الاختيار بين الاتفاق مع روما بعقيدتها السليمة وبين السلام مع إقليمي من أهم أقاليم الإمبراطورية ، وإذ أصدر زينون في ٤٨٢ رسالته في الانحاد (Henoticon)^(١) اختار بذلك سبيل السلم مع الإقليمين ومار على نهج الإمبراطور أناستاسيوس . أما جستنيان فاختر

(١) كانت رسالة الانحاد أو خطة الانحاد (Henoticon) محاولة لإيقاف كل خصومة دينية بد ذلك ، بإعلان كفاية العقيدة وفقاً لما تقرر في نيقية والقسطنطينية ، وتعبيراً في الحين نفسه عن الرغبة في استرضاء الكنيسة المصرية ومصالحها بالتخلي فعلاً عن قرار خلقدونية وجعله مسألة متروكة للبحث . وكان العامل الرئيسي في تحطيمها معارضة روما لها .



(٣) خريطة غارات البرابرة

١ - البحر المتوسط	١٤ - صقلية	٢٧ - تريف
٢ - كريت	١٥ - كوستانزا	٢٨ - نهر السين
٣ - اسبرطة	١٦ - روما	٢٩ - السوفيونيون
٤ - كورنثة	١٧ - فلورنسا	٣٠ - الآلان
٥ - ثرموبيلاي	١٨ - راقا	٣١ - نهر الإبرو
٦ - أدونة	١٩ - أكوبيليا	٣٢ - سرقة
٧ - البحر الأسود	٢٠ - جبال الألب	٣٣ - أشيلية
٨ - جبال القوقاز	٢١ - جبال البرانس	٣٤ - جزر البليار
٩ - الآلان	٢٢ - نربونة	٣٥ - الانجيل ساكسون
١٠ - نهر الدنيبر	٢٣ - الفرنجة	٣٦ - الاسكتلنديون
١١ - نهر الدنيستر	٢٤ - باريس	٣٧ - البربطونيون
١٢ - نهر الدانوب	٢٥ - البرجنديون	٣٨ - بحر البلطيق
١٣ - جبال الكربات	٢٦ - الآلامان	٣٩ - بحر الشمال

والخطوط تمثل هجرات القبائل وخطوط سيرها .

مسار القوط

..... مسار ألاريك وأتولف

..... مسار القوط الشرقيين

— — مسار الوندال

==== مسار الهون

=== مسار أتيليا في ٥٤١

ملحظة : المسارات المبينة تقريبية

الأخذ بالرأيين على التعاقب . على أن تلك المشكلة لم تنته إلا بعد سقوط مصر
وسورية في أيدي المسلمين .

نشأة الديرية

وكانت مصر مركز هذه المنازعات ؛ وكانت كذلك الموطن الأصلي
للرهبانية . وكانت الإمبراطورية - ولم تفتأ - تحوى بكل أجزائها منذ البداية
أعداداً ضخمة من الرجال والنساء (المعترفين والعذارى Confessors & Virgins)
تمارس الزهد ، وتواظب على أداء الصلوات في الكنائس . على أن أنطونيوس
(ح ٢٧٠) أصبح زعيماً لحركة خطيرة منذ أن هجر العالم والكنيسة المنظمة
أيضاً ، ولجأ إلى الصحراء فاسكا . واحتذى مثاله أعداد كبيرة من الناس ؛
ولم تلبث منطقة البحيرات الملحة بوادى النظرون وصحراء سقيط ، أن حوت
ما يزيد على خمسة آلاف من النزلاء ، فكان بهاتين الجهتين « أشد الزهاد
تمسكا بالفضائل » (Duchesne) . واستهوى تجلدهم ألباب الشرق واستولى
على خياله مثلما استولت أعمال قديسى الأعمدة على الأفئدة فيما عقب ذلك من
الزمان . واستحدث باخوميوس نظاماً أكثر ثمره في أثناء القرن الرابع .
فأنست مجموعات من الأديرة لكل منها قاعدة عامة ، وتخضع لسلطة واحدة .
وكانت تزورها جماعات من الحجاج يفدون إليها من روما وغالة وأسبانيا ،
ما لبثوا أن نقلوا طرائقها إلى الغرب . ثم ما عتمت منطقة سيناء وفلسطين
وسورية حتى امتلأت بالرهبان الذين يعيشون فرادى أو فى مجموعات . وفى
آسيا الصغرى ، وضع باسيليوس طائفة من القواعد تفوقت فى اعتدالها
ونظامها على قواعد باخوميوس ، وظلت منذ ذلك الحين إلى اليوم معمولاً بها
فى إدارة جميع أديرة العالم الإغريق والصقلي (السلاقونى) . وكان الرهبان

يتنازعون أحياناً مع سلطات الكنيسة والدولة جميعاً ؛ وكانوا يتسلحون بالهراوات ويهاجون الحجاج الديلية ويشتمونها ، أو يهدمون معابد الوثنيين أو المهرطقة أو محاربهم المقدسة . فالقومية النامية التي تؤذن ببزوغ فجرها الآداب القبطية والسريانية وجدت أبطالها في أشخاص مثل شنوده (Shenuti) ، الذي راح من أبراج ديره الأبيض القائم على رأس تل ، يقود مئات من الأتباع محرّضاً إياهم على مهاجمة من بمصر من الكفرة والآثيين والقضاة الظالمين وأصحاب الأملاك الجائرين .

على أن النفوذ السياسي للربان كان أمراً محلياً ومتقطعا . وأهم منه السلطة العلمانية المتزايدة التي أوتيتها الكنيسة بوصفها هيئة ضخمة ذات جيش من الأتباع ، تملك الأراضي والثروات والمؤسسات الخيرية ويرأسها أساقفة أصبحوا أهم الشخصيات في مدن الأقاليم . فان أكايوس في آمد (Amida) وسينيسوس في برقة (Cyrene) وسيدونيوس في أوفرنه (Anvergne) وغيرهم كثير ، هم الزعماء الطبيعيون للمجتمع ؛ فكانوا يرأسون السفارات إلى البرابرة وكانوا يحمون قطيعهم (المسيحيين) من المجاعة والعدوان ، بل لقد كانوا يتولون تنظيم المقاومة المسلحة للعدو .

الفصل الثاني

عالم البرابرة

الغزوات

تكفي نظرة واحدة إلى الخريطة لإظهارنا على الموقف الخطر الذي تعرض له الإمبراطورية في ٣٩٥ . فعلى نهر الراين حل محل القبائل المتناثرة التي عرفها قيصر وتاكيثوس ، خط قوى من أقوام أخذت تنقل ببطء نحو الغرب من منطقة البلطيق ، وكلما اقتربت من التخوم الرومانية ازدادت تماسكا وقيمة حربية . وكانت المجموعتان الفرنجيتان (Frankish) أقوى هذه الأقوام ؛ على أن الألمان الذين عرفوا طريقهم إلى الزاوية المنعكسة بين الراين والدانوب لم يكونوا أقل خطراً منهم، وذلك بسبب المركز الاستراتيجي الذي صار لهم . فأما الزاوية المنعكسة الأخرى التي كونها التواء الدانوب قرب بودابست وبلغراد صوب الجنوب ثم الشرق ، فإنها امتلأت إلى حد كبير عندما أنشئت ولاية داكيا (: ترسلقانيا ورومانيا) ؛ على أن هذه الولاية الأخيرة تركت للبرابرة بعد ٢٥٧ : فإن الوندال الأسدنيجيين (Asding) كانوا يملكون عند ذلك الشمال الغربي من هذا الإقليم ، بينما أخذ القوط الغربيون يضغطون جنوباً منذ ٣٦٤ على الدانوب ، وقد سد الاثنان الطريق على الجيبد (Gepids) . وكان القوط الشرقيون لا يزالون يتجولون في السهول العظيمة بجنوب روسيا ، ولم يكونوا فيما عدا بضع ثلث قليلة جواله منهم، قد احتسكوا مباشرة بالإمبراطورية الرومانية ولا اتصلوا بها . وإلى أقصى الشرق نزل

على نهري الدون والفولجا الآلان وهم شعب إيراني ، ومن وراء ذلك الخط الأول كانت تنزل قبائل أخرى قلقة مستعدة للقيام بدورها — منها السكسون على نهر انويزر والأنجل في إقليسي شازويج وهولشتين ؛ فضلا عن السويث على نهر الإلب واللومبارد في سيليزيا والميرون (Heruls) بالقرم والصلابة وراء مستنقعات البريت .

وكان كل قطاع من تلك الحدود الطويلة يتعرض في وقت من الأوقات لمغير يهدده بالاختراق أو يخترقه فعلا ؛ على أن الرومان كانت لهم خطوط مواصلات داخلية ، وكانت الجيوش تبادر إلى النقطة المعرضة للخطر . فأما الآن فلم يعد لذلك التدبير جدوى . إذ برزت قوة جديدة من أرض السهوب الآسيوية ، كان ضغطها هو المحرك لهجمات البرابرة ، التي أصبحت مستمرة بكل مكان ، والتي لم ينقض عليها أكثر من جيل واحد حتى حطمت الإمبراطورية في شقها الغربي . وكانت تلك القوة الضاغطة هي الهون . فالمعروف أن الهون بلغوا نهر الفولجا بعد ٣٥٥ بقليل ، فقهروا الآلان وردوا القوط الشرقيين إلى ما وراء الدينستر (ح . ٣٧) ؛ ودفع الضغط بالقوط الغربيين حتى عبروا الدانوب ، وكانت معركة أدرنة الكبرى فاتحة مصائب روما . وتوقف زحف القوط الغربيين بضع سنوات بفضل ثيودوسيوس ، فلما وافته أجله أخذوا يعيشون في بلاد اليونان تدميراً وانهاًباً (٣٩٦) ويستقرون في إبيروس (٣٩٩) فهددوا بذلك شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة اليونان ؛ ثم أوقفهم استيليكو حيناً من الدهر ، ما عتموا بعده أن استولوا في النهاية على روما (٤١٠) ، ثم تجاوزوها إلى أكتيانيا (٤١٦) حيث أقاموا في النهاية مملكتهم التولوزية (Tolosan) . وفي تلك الأثناء انحاز إلى الآلامان في أثناء فرارهم غرباً ، الوندال

الأسديجيون (٤٠١) ، الذين اكتظ بهم وادى النيس ، وأخذوا يتحولون إلى ديار ذوى قرباهم بسيليزيا ويزيدونهم عدداً . ويميزهم السويث ، وتقدم الشعوب الأربعة فتخترق حدود الراين عنوة (٤٠٦) وتتجول فى أرجاء غالة ثم تعبر جبال البرانس (٤٠٩) وتعيث بأسبانيا فساداً طيلة عشرين عاماً ، قبل أن يستولى الوندال نهائياً على مملكتهم بأفريقية ، وبعد مضى خمسين سنة استقر القوط الغربيون بإيطاليا ، واقتسم الفرنجة والبرجنديون بقية غالة . وبات الأنجل والسكسون منهمكين فى فتحهم لبريطانيا ، فإذا انتهى القرن الخامس كانت كل الأقاليم الغربية بأيدي البرابرة .

التاريخ المبكر لألمانيا

والتاريخ المبكر لألمانيا غامض يشاء الضباب شأن الغابات والمستنقعات التى كانت تغطى الشطر الأعظم من البلاد . فعلى شواطئ البلطيق بين نهري الإلب والأودر كانت تقوم المستقرات الجرمانية البدائية ، وهى مجموعات من الخصاص تنبى حينما قطعت الغابات أو فى المناطق المرتفعة وتسكنها قبائل تخترق الصيد أو الرعى . فاذا تزايد السكان أو ندر الصيد تحركوا غرباً ، دافعين أمامهم الشعوب الكلتية ، وهم السكان الأول لجنوب ألمانيا وغربها . فبلغوا الراين حوالى ٢٠٠ ق . م . ، وفى مدى قرن واحد لم تعد بافاريا كلتية السكان . على أن فتوح قيصر فى غالة وطدت حدود الراين ؛ فلما واجه الألمان الغربيون ذلك الحاجز لم يستطيعوا إحراز أدنى تقدم بعد ذلك . فتحنم عليهم أن يتخذوا وسائل بالغة الأثر فى إنتاج المؤن . وكانت نتيجة ذلك أن تطورت الزراعة وتبلورت النظم . وحل إليهم تجار الرومان أنواعاً جديدة من السلع

وضروباً أجنبية من آداب السلوك . ويصف تا كيتوس الذى كتب بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً نوعاً من الثقافة يفوق فى التقدم ما شهده قيصر .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل جرمانية أخرى تعبر البلطيق من شبه الجزيرة الإسكندنافية فيما بين القرنين السادس والثالث ق . م وتستقر على شاطئيه بين الأودر والثستولا . واتخذ هؤلاء الألمان الشرقيون لأنفسهم طريقاً آخر مخالفاً ، ففى أثناء القرون التالية التمسوا لهم طريقاً صوب الجنوب عبر أوروبا ، إما صاعدين القستولا إلى جبال الكربات وإما مخترقين بولندة ومستنقعات البربيت إلى السهول العظيمة التى تمتد شمال البحر الأسود . وقد ظلوا يتحركون على الدوام سعيًا وراء المراعى الجديدة ، فاحتفظوا بذلك بطرائق عيشهم البدائية على نقيض الجرمان الغربيين . على أن الصورة المركبة التى يصح استنتاجها مما سطره قيصر وتا كيتوس وغيرهما من الرحالة أو العلماء (Savants) ، الذين دونوا عجائب الشعب الجرمانى ، ينبغى ألا تطبق عليهم الآن إلا مع شيء من التعديل ، وذلك بمراعاة مختلف مراحل التطور التى ألمت بمختلف القبائل والتى لا نعرف عنها سوى النزر اليسير ، ومن العسير دائماً على المراقبين المتحضرين أن يتجنبوا نسبة الصلابة الشديدة والتمسك ، بالمألوف إلى الأجناس التى هى أشد بساطة ، ذات الأفكار المبهمة والعادات المتغيرة يضاف إلى ذلك ما كان من اختلاف جوهرى فى الثقافة بين الجرمان وسكان دول المدن فى البحر المتوسط . فقد أخضع الفرد فى تلك المدن ، للدولة منذ عدة قرون خلت ؛ فإن ابتعد عنها ، أصبح منبوذاً ، وصار غير مكتمل الإنسانية . فأما الجرمانى فى عزلته أو فى مستقر أسرته الصغير ، فكان قبل كل شيء فرداً يأبى كل تدخل فى شئونه ، ولا يعترف بأى التزام خلا التزام

الولاء لكلمته وعهده حين يمطيها لفرد آخر . ومن هنا غلبت عليه نزعة دأمة للابتعاد عن كل مركز أو بؤرة يجتمع إليها الناس ؛ ولو تنبهنه في كل مراحل تطوره الدستوري الأبر ، وجدنا أن جميع روابطه مع العائلة والعشيرة والدولة تتحطم . إذ لم يكن بد من حدوث سوء التفاهم بين الطرفين . وأضحى غدر الجرمان موضع التندر عند الرومان ، نظراً لخرقهم المعاهدات وشنهم الحروب الغادرة . كما أن الولاء الشخصي الذي لعله يكون التفسير الصحيح لخلق استيليكو المتذبذب ، ربما كان السبب في شعور الكراهية الذي يحسه خصومه إزاء ما لا يستطيعون فهمه .

وقد كانت كل قبيلة عند استقرارها فترة من الزمن تحتل منطقة تحدها العوائق الطبيعية كالستنقعات أو الغابات أو الأنهار . وكانت القبائل تنقسم إلى بطون (فروع Gaus) ، تغاوت في ضخامتها ، وتقدم للجيش بين ألف محارب وألف وخمسمائة . وكل بطن من هذه البطون تنقسم إلى ما يعرف بالمئين ، وهي جماعات خاصة ، تتراوح الواحدة منها بين المائة والمائة والعشرين من الأحرار ، وذلك لأغراض الحرب أو القضاء ، وترتبط بالعشيرة ؛ وهي مجموعة مؤلفة من عائلات تتراوح عدتها بين العشرة والعشرين . واستمر نظام المئين على الرغم من كل التغييرات التي حدثت ، وصار أساساً . (وما تلحظه هنا وفي مواطن أخرى من « سيمتية » ودقة لا ينبغي تطبيقه حرفياً) .

وكانت السيادة في يد الجمعية الشعبية (Thing or Mallus) ، وهي الاجتماع الذي يضم جميع المحاربين الأحرار ، وهي التي تنتخب الحكام وتبت في معاهدات الحرب والسلام ، وتختار أعضاء جددًا في المجتمع ، وكان يدعو إلى اجتماع تلك الجمعية ملك يرأسها أو رئيس البطن من القبيلة أو زعيمها

(في القبائل غير الملكية) ، وفيها يقدم القرايين كاهن أعلى وينزل العقوبات بكل من ينتهك هدنة الجمعية . وكان رئيس البطن (Gau) يقود كتيبة في الحرب ، ويوفر العدالة بمحكته بمساعدة رؤساء المئات (المثنيات) ، ويعطى كل عائلة نصيبها من الأرض . وكان الملك في الأيام الأولى سلطات بالغة التحديد . وكان لبعض القبائل ملكان ، ولبعضها الآخر ملك واحد . وكان بعضها ينتخب قائدا يقتصر عمله على قيادة حملة عسكرية واحدة ، أو يختار رئيس بطن (Gau) ليرأس الجمعية الشعبية : ونم قبائل أخلت فيها الملكية مكانها لحكم الكهان . ومن حق القبيلة أن تمزل الملك إذا أساء أو ظلم ؛ ومع أن الملوك كانوا يختارون عادة من عائلة بعينها ، فإن كل فرد منها كان يصح انتخابه . وكان كل شخص قوى الشخصية يستطيع أن يجمل للملكية قوة فعالة ، ولاسيما وقت الحرب ؛ ومما زاد في سلطة الملك اتصال القوم بالاستبداد الرومانى ، ولا سيما حينما تستقر القبيلة فعلا داخل الإمبراطورية .

أما الجيش الذى هو نفسه جماعة الأحرار شأنه فى تاريخ بلاد الإغريق وروما الباكر ، فإنه كان ينظم الآلاف والمئات والعشائر . وكان تشكيله فى المعركة يتخذ عادة صورة الإسفين (Cuneus) . والقاعدة الجارية أن الخيالة كانت أهم أسلحته ، على أن الفرنجة كان يغلب عليهم القتال راحلين . وكانت المعادن نادرة . ومما كانوا يستخدمونه فى المارك قلانس الجلد ، والتروس المستديرة المصنوعة من الخشب أو الأغصان المضفورة والمغطاة بالجلد الناشف ، فضلا عن المزاريق (وهى السلاح الرئيسى) . والهرارات والقسى وفئوس القتال . وكانت القلاع المستديرة المقامة بقنن التلال أو صفوف العربات هى تحصيناتهم . وتطورت صناعة السفن بين القبائل البحرية ، بادئة بالأشجار

الضخمة المحفورة ، التى تتسع لعدد قد يبلغ الثلاثين رجلا ، فتنقلة إلى الغلايين^(١) المصنوعة من الألواح على النحو المعروف عند الشيكنج ، والتى تتسع لأكثر من مائة ، إلى سفن القرصان السكسون ذات الشراع المصنوع من الجلد ، والتى أصبحت مصدر الفرع لموانئ بحر المانش .

وكانت أدنى طبقة فى المجتمع تتكون من شعوب مغلوبة تقوم على فلاحه الأرض ، وذلك فضلا عن وجود قلة من خدم المنازل معظمهم من أسرى الحرب ؛ وكان عدد أفراد هذه الشعوب الخاضعة يزداد كلما نمت الزراعة (وذلك لأن الجرمان الأحرار كانوا يأنفون ممارسة الفلاحه) . حتى جاء أوان أصبح فيه الهدف الأول من الغارات الحصول على هؤلاء العمال الزراعيين . وكانت الطبقة الثانية وهى طبقة الأحرار ، هى الجمهرة الفقيرة من السكان . أما النبلاء فهم عائلات الملوكة ورؤساء البطون . وكان لكل ملك أو رئيس الحق فى أن يتخذ له أتباعا (رفاقا Comitatus) وهم جماعة من الأتباع الأحرار الذين كانوا يتناولون الطعام على مائدته زمن السلم ، ويشكلون حرسه الخاص فى أثناء المعارك .

على أن البيان السابق ينطبق على جرمان الغرب المستقرين أكثر مما ينطبق على تلك القبائل البدائية التى نحن على وشك أن نرسم تيجولاتها^(٢) .

(١) الفليون معرب لفظة (galley) وهى لفظة مستخدمة من قديم الزمان فى حوض البحر المتوسط وتدل على طراز قديم من السفن التى تدفع بالمجاديف والأشرعة . (المترجم)
(٢) إن العادات العقلية التى أنتجت هذه الثقافة ، كانت مع ذلك شائعة الانتشار بين جميع الشعوب التيبوتونية ، كما أن النظم التى لم توجد إلا فى صورة بدائية فى أثناء فترة الهجرة ، مالت أن ازدادت تطورا عندما توقفت الهجرات . على أن الصراع بين هذه النظم الجرمانية وبين الحضارة الرومانية سوف يؤلف أساس الفصل التالى .

وكانت الماشية أهم مصدر للطعام في أثناء الزحف والمسير ، وفي ذلك إلى حد كبير تفسير للسرعة المدهشة التي كانت تنتقل بها الجموع المهاجرة ، فإن دوابهم لم تكن في حاجة إلى وسائل نقل ؛ بينما الواقع أن عرباتهم كانت تجرها الثيران فعلا . ومن العسير تقدير أعداد الشعوب الغازية ؛ ومن المحتمل أن الشعوب الكبرى منها كانت تضم أعدادا تتراوح بين الثمانين ألفا والمائة والعشرين ألفا ، على حين أن عدة الصغرى منها كانت تتراوح بين ٢٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ ويمكن اعتبار مقدار الحس من كل شعب رجالا مقاتلين ، إذ إن المعارك الكبرى التي كانت تنشب بين الجيوش الإمبراطورية وأعدائهم الجرمان كان يشترك فيها قرابة عشرين ألفاً في كل من الجانبين . ومن ثم يجوز القول بأن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لهجمات أعداد جارفة من الأعداء .

وليس من اليسير علينا أن نشهد صورة كاملة لهؤلاء القوم « على مألوف عاداتهم من العيش » . غير أن الرومان اهتموا بالناحية البشرية (الأنثروبولوجية) لهؤلاء الجرمان ، هؤلاء الأطفال الطوال ذوى الشعور الشقراء الذين يزينون أنفسهم بدمالج السواعد والسلاسل المصنوعة من الذهب ، وهم يرقدون أساييع ناعسين أمام النار ، عاكفين على الشراب أياماً كاملة بلباليها ، أو تجمش نفوسهم بالحزن أو الغضب المفاجيء ، فينفجرون بالبكاء أو يصرعون أحد الأرقاء ؛ أو يتصايحون مع جيرانهم ، أو يغيرون على الماشية ويحجون قاذتهم في المجالس بدق تروسهم بمزاريقهم أو يتبعونهم في معمعان المعركة حتى الموت . على حين أنهم يتراءون لنا متماثلين ؛ فيبدون للعين الباصرة برابرة يكتسبون الجلود ، ويبدون لعين العقل جماهير من الجياع تدفعهم قوى اقتصادية إلى الأمام . ومن العسير التفرقة بين أمة فيهم من أمة . فالو مبارد

يحملون فأس القتال (Barda) الطويلة ، ويتخذ الفرنجة الفراسيسكة (Francisca) القتالة ، ويشهر السكسون سيفاً قصيراً (Sah). ويكتب سيدونيوس في أخريات القرن الخامس عن البرجنديين بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبع أقدام ، وأنهم يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ ، ويشتهرون بالشراة في الطعام ويتحدثون بأصوات جهورية. والفرنجي أشهب العينين حليق اللحية أصفر الشعر ويرتدى سترة (Tunic)^(١) ملتصقة بجسمه . ومع ذلك فما أقل ما تبرز الشخصيات بين هؤلاء الأقوام . فإن ماربود (Marbod) وإرماناريك (Ermanaric) ، وهاسيدان أعليان لإمبراطوريات متناثرة لم يزيذا على كونهما مجرد اسمين . وأزمة الهجرات هي عصر البطولة عند الشعوب الجرمانية ، كما أن الشخصيات والأحداث التي كانت تمس أخيلتهم ، لا ترى إلا معتمة في شذرات من القصص الشعبي ، وحلقات الملاحم التي تعرضت إلى التشويه والالتواء في الأزمنة المتأخرة .

فإن أسطورة الأيلة^(٢) التي قادت الهون خلال مستنقعات القرم حتى فلبجأوا الآلان إنما تنطوي على شيء من الرعب السائد في ذلك الزمان . ولا يزال شخص ثيودوريك الجبار العاق وحصاره الطويل لمدينة راثنا الحافلة بالأسرار ينعكس في قصص ديتريتش فون برن^(٣) وراينشلاخت . كما أننا نلمح في ملحمة نيبالونجيليد (Nibelungenlied) بصيصاً ضئيلاً عن قصر جندريك البرجندی القائم على الراين وما اشتهر به من الفخامة والروعة .

(١) السترة أو التوق : جلباب روماني يعبه القميص . (المترجم)

(٢) الأيلة أنى الأيل وهو الوعل وجمعها أيائل (المترجم)

(٣) أعنى ثيودوريك الفيوني (Dietrich von Bern & Rabenschlacht)

القوط الغربيون

كان القوط الشرقيون والقوط الغربيون في الأصل شعباً واحداً . ويظهر من ثانياً أساطيرهم ودلالات أسماء الأماكن أنهم عبروا البلطيق قبل القرن الرابع قبل الميلاد من اسكنديناوه إلى مصب الفستولا . وحوالي ١٥٠ للميلاد شرعت بعض القبائل القوطية تنحرك صوب الجنوب الشرقي ، حركة دفعت بهم إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البربيت ، حتى بلغوا في النهاية حوض الدنيبر الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود . ومن ثم تفرعوا فرعين : اعتبر معنهما — بالنظر إلى ما تلا ذلك من أحداث — القوط «الشرقيون والغربيون» . وسرعان ما انتشرت قبائل القوط الشرقيين بأرجاء جنوب روسية ، على حين انحرف القوط الغربيون نحو الغرب ، ودأبوا على إيقاع الفساد بولاية دأكيا ، بل حتى بمقدونية وبلاد الإغريق . وأخيراً لم تعد روما تستطيع الاحتفاظ بدأكيا ، فانسحب تجارها وموظفوها إلى ما وراء الدانوب ، الذى صار من جديد ، بعد تحصينه ، حداً للدولة ، شأنه قبل عصر تراجان .

وفي ذلك الحين أخذت تتكشف تغيرات كثيرة : فقد دخلت إليهم المسيحية الآريوسية ، فأحدثت بينهم الشقاق الداخلى . وقدر لصورتها الإلحادية أن تلعب بينهم وعند سائر الشعوب الجرمانية دوراً عظيماً في شحذ الشحنة والعداوة بين الرومان والبرابرة . وكانت نتائج غزوة الهون أهم من ذلك كثيراً . وقد غلب الفزع على القوط الغربيين فحصلوا من الإمبراطور على إذن بعبور الدانوب إلى مويسيا الدنيا (بلغاريا) ، ثم ترمى بهم الأمر إلى الاستقرار داخل الإمبراطورية كوحدة قومية . وهذه هى البادرة الأولى للطريقة التى تمزقت على غرارها أوصال الأقاليم الغربية بعد زمن يسير . غير أن الاستقرار كان مؤقتاً ؛

ولم يتم فعلاً إلا بعد حرب استمرت أربع سنوات ، بسبب ما تعرض له هؤلاء اللاجئون من معاملة سيئة من قبل الموظفين الرومان ، كما لم تبلغ المسألة ذروتها إلا بكارثة (٣٧٨)^(١) العظيمة . ولمعركة أدركه أهمية مزدوجة . فإنها من أعظم ما منيت به روما من الهزائم على يد الجرمان ، ويمكن وضعها في مصفٍ فاجعة فاروس (Varus) التي حدثت عام ٩ للميلاد ، وموت الإمبراطور دكيوس في (٢٥١) . كما أنها البداية الحقة لحروب القرون الوسطى ؛ فمنذ تلك اللحظة أصبحت الجند الراكبة الثقيلة التي دهمت بسنابكها الفرق الإمبراطورية ، هي العامل الفاصل في المعارك ، حتى تحدى حملة الحراب السويسريون والرماء الإنجليز في القرن الرابع^(٢) عشر كل ما كان لها من تفوق .

ولعل أعظم الأحداث شأنًا انتخاب القوط الغربيين أَلاريك ملكاً لهم ، عُقِبَ وفاة ثيودوسيوس . وقد عمد أَلاريك شأن كثير من المقتدرين من الجرمان ، إلى التحلل إلى حد ما من أوامر الدم ، وانخرط في الجيوش المحالفة للرومان . ولعله كان يأمل في الارتقاء إلى مركز هام بالإمبراطورية ، كما فعل أرورجاست واستيليكو وغيرها ذلك بأن ما لجأ إليه من المداورات العجيبة إبان السنوات الخمس عشرة التالية يصح تفسيره على أن مصالحه لم تتفق في مجموعها مع مصالح قومه من القوط الغربيين (التي اقتصرَت على حيازة الأرض وتلقي المعونة المالية) ، بل كانت تتجه نحو إحراز وضع خاص داخل الإمبراطورية . فبدأ بإعمال التدمير والفساد بكل بلاد اليونان ، بما في ذلك شبه جزيرة

(١) انظر ص ٧٥ من اليونان النزوات .

(٢) على أن أهمية المحايلة تجلت في أوائل القرن الرابع ، وبخاصة في معركة مورسا (Mursa) في (٣٥١) .

البيلوونيز (المورة) . وكانت جند الرومان بقيادة استيليكو الذى لم يقم بأية مقاومة فعالة لعدة أسباب^(١) . وكانت الخطوة التالية هى تعيين أالريك « سيدا للجند » فى إلليريا (Illyricum) ، وهو أمر أرضاه مدة أربع سنوات . على أن ما كان يأمله من القسطنطينية من ترقيات أخرى ، ربما قضت عليه الأزمة التى ثارت ضد الإجرمان ، وهى الأزمة التى كانت تتفرز بها تلك المدينة^(٢) ، ومن ثم حول وجهته نحو الغرب . ولكن حظه فى الغرب لم يكن أسعد منه فى الشرق . فلو خامرته بعض الآمال فى الوصول إلى تسوية مع استيليكو ، فإنها تبددت يوم وقعت فى الغرب أزمة مناهضة للإجرمان كالتى وقعت فى الشرق أعقبها مقتل استيليكو وملاحقة البرابرة بالقتل والدبح بكل أرجاء إيطاليا . وعندئذ لم يعد يبدو محتملاً تحقيق شئ من مطمئ أالريك وهما : — توفير مستقر من الأرض لقومه والحصول على منصب سام لنفسه فى الشق الغربى من الإمبراطورية . ومن ثم زحف بجيوشه على وسط إيطاليا . وكانت الحكومة الرومانية تتخذ أحياناً طريق العناد وتنزع أخرى إلى الإذعان . وارتاب أالريك فى الأمر ، وخشى الخيانة فنارت تأثيره ، وما نشب أن فرض الحصار على روما ، التى سبق أن أدت له إتاوة مقابل رحيله عنها — ولم تلبث المدينة الإمبراطورية أن سقطت فى ٢٤ أغسطس (٤١٠) . قهبت دور النبلاء وأحرقت ، ولكن الأنفس التى أزهقت كانت قليلة . ونجحت الكنائس من كل ضرر (فإن أالريك كان مسيحياً أريوسى المذهب) ولم يحق بالآثار القديمة ضرر بليغ . ولكن أخبار الكارثة تردد صداها بكل أرجاء العالم المتحضر ؛

(١) انظر ص ٧٦ وانظر ما ورد بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ف ٣ .

(٢) انظر ف ٣ بعنوان تصادم الحضارات .

فترامى للكثيرين أن نهاية العالم قد أزفت^(١)

وعندئذ اقترح أларيك عبور البحر إلى إفريقيا ، إما بقصد إسكان شعبه بصفة دائمة في ذلك الإقليم الفنى أو التحكم في إيطاليا بوضع يده على مستودع قمحا . ولكن سفن النقل حطمتها عاصفة مباغتة ، كما أن أларيك نفسه مات قبل نهاية العام . على أنه لا بد أن نتذكر أن غزوته لم تكن هجوماً معادياً موجهاً على الإمبراطورية ، فإنه شأن بقية الجرمان كان يعد الإمبراطورية نظاماً ضرورياً ، له ولقومه فيها حق طبيعى فى الحصول على مكان . وتتبدى هذه الفكرة بشكل أدعى للعجب عند أتولف شقيق أларيك وخليفته . فإنه سمع وهو يقول إنه كان يأمل أن « يحول رومانيا إلى قوطيا » ويجعل من نفسه إمبراطورا قوطيا عليها . ثم عاد بعد ذلك وقد اقتنع بأن القوط أبعد الناس عن احترام القانون وأشد الناس شتما ، بحيث لا يصلحون ورثة الرومان ، فحول على استخدام شعبه فى خدمة الإمبراطورية واكتساب لقب معبد مجد العالم الرومانى (Restitutor orbis Romani) . ولعل عدوله هذا عن رأيه قد حدث عندما انتقل إلى بلاد غالة ، وخاض الحرب لصالح الإمبراطورية وتزوج فى ناربون^(٢) من جالا بلا سيديا شقيقة الإمبراطور ، التى كانت أخذت أسيرة من روما ، ومع ذلك فإن هذه الفعلة الأخيرة كدرت هونوريوس ؛ وعندئذ قطع أسطول رومانى الطريق على ميرة القوط ، فاقنادهم أتولف

(١) إن أعظم أعمال أوغسطين وهو كتاب « De Civitate Dei » أى مدينة الله كتب استجابة لما أحسه المسيحيون من حاجة إلى فلسفة للتأريخ تستطيع تفسير هذه الكارثة ، وتعليل الحقيقة المزجة : من أن المدينة التى عاشت بعد أباطرتها الوثنيين ، قد وجب أن تسقط أخيرا عندما اعتنق حكامها الدين المسيحى .

(٢) يسميها مؤرخو العرب أربونة (المترجم)

إلى أسبانيا ، حيث مات في السنة التالية . وانتقم القوط من الرومان على هذا التصرف ، فأنزلوا كثيراً من الإهانات بجلال بلاسيديا ، ثم توصل « واليا Walia » الملك التالى الذى عقبه فى الملك إلى عقد اتفاق مع روما : تقرر بمقتضاه أن تعود جلالا بلاسيديا إلى وطنها مقابل حصول القوط على ما يلزمهم من طعام ، فضلا عن قيام القوط الغربيين بتطهير أسبانيا من المغيرين من الوندال والسويف والآلان. حتى إذا أفضى القوط الغربيون الوندال السيلنجيين ومعظم الآلان ، حصلوا على مستقر دائم لهم ، تقرر أن يكون بفرنسا لا بأسانيا ، حيث صارت لهم الغلبة والسيطرة بدرجة يخشى شرها . وهند تلك اللحظة عملوا فى الدولة جنداً مرتزقة محالفين (Foederati) ، وأصبح فى حوزتهم ما يسمى اليوم باسم أكتانيا (اكويتين) وهو الإقليم الواقع بين نهري اللوار والجارون . وهذه المنطقة التى كانت تضم بواتيه وبوردو وتولوز ، كانت لا تزال جزءاً من الإمبراطورية ، كما أن سكانها الرومان ظلوا خارج سلطان القوط الغربيين كما ظلوا خاضعين للإدارة الإمبراطورية ، على الرغم من أنه تحم عليهم أن يتنازلوا عن ثلثى أرضهم للوافدين الجدد .

وفى تلك الأثناء كان البرجنديون وهم من الجرمان الشرقيين الذين نفذوا إلى سيليزيا قرابة ١٥٠ لليلاد ، ثم دخلوا وادى المين بعد ذلك بمائة سنة ، — قد شقوا طريقهم بين ظهرانى الألمان إلى نهر الراين ، فبلغوه فى نهاية القرن الرابع . وفى ظل حكم أسرة جيبيتشنج (Gibichung) (وهو اسم رددت صدها موسيقى فاجنر) التى كانت ورمز مقر حكمها ، — أجاز لهم الرومان حيازة ما يقع على جانبي النهر (الراين) من الأراضى بقصد حماية التخوم من غارات الألمان ، وفى أقصى الشمال ظلت مجموعتا الشعوب المعروفة باسم الفرنجة الساليانيين والريبواريين ، مصدر خطر مستمر نحو



٤ - (١) صورة تيجان أعمدة من عهد الميروفنجيين



٤ - (ب) صورة تبين العمارة في عهد الاسرة الكارولنجية

مائتي سنة ، ولم تبرح تستغل كل ما يلزم بالإمبراطورية من أزمات لعبور النهر ، من أجل الإغارة والنهب . وتمكن الإمبراطور جوليان من إعادة الأمن إلى نصابه (٣٥٧ — ٣٦٠) وأجاز للساليين أن يملكوا ببلاد البلجيك رعيا للإمبراطورية .

على أن الريبواريين دفعوا لفترة من الزمن إلى ما وراء الراين ؛ ولكن الضغط لم يفتربل زاد شدة وبخاصة بمنطقة كولونيا ، وعلى الرغم من تحصين تلك المدينة العظيمة مرات عديدة ، فقد كان مصيرها محتوما . وانتقلت العاصمة الإدارية لغالة من تريف إلى آرل في مطلع القرن الرابع ، على أن تريف تعرضت في مدة عشرين عاما لثلاث هجمات عنيفة .

البرابرة في فرنسا وأسبانيا

ومع ذلك فإن هونوريوس جدد المعاهدة مع الفرنجة ، فأضحت غالة سنة ٤١٦ في سلام من الناحية الرسمية . وبدا لروما فترة من الزمن أنها توصلت إلى حل مشكلتها وأن الجوع الغازية سيتم تمثلها بسلام في الأقاليم الغربية . وقد استقرت في فرنسا آنذاك ثلاثة شعوب بربرية (الفرنجة الساليون والبرجنديون والقوط الغربيون) ، كما استقر شعبان آخران بأسبانيا (الوندال والسويف) وستعقب بعد هذا هجرات الوندال حتى مستقراتهم بأسبانيا وما يليها (شمال إفريقيا) .

وكان الوندال من الشعوب الجرمانية الشرقية وقد غادروا ساحل البلطيق في وقت سابق على تحرك القوط ، ثم نجدهم عند حلول القرن الأول الميلادي فازلين بسيليزيا وبوهيميا . وترتب على الاضطرابات التي أثارها حرب الماركومان (حوالي ١٦٦ م) ، أن تعرضت الأقوام للفرق والتشتت ، فتحرك صوب

الجنوب إلى هفغاريا شعب الوندال الأسدنيجيين ، الذى اشتق اسمه فيما يحتمل من اسم البيت المالك فيه . وبقى الوندال السيلنجيون بسيليزيا ، التى يظهر أن اسمها ليس إلا صيغة صقلبية للاسم القديم « سيلنجيا » ، وبعد مدة تقارب القرن ، هاجر عدد منهم إلى الحوض الأوسط لنهر المين . وأضعف الأسدنيجيين فترة من الزمن ما وقع من صراع بينهم وبين القوط . ولما اكتشفوا حوالى عام ٤٠٠ أن الأرض التى يعيشون بها على نهر النيس تضيق بمحبتهم ، غادروها جانب كبير منهم بقيادة ملكهم جوديچيل وانحازوا إلى الآلان (الذين هربوا غرباً فراراً من هجوم الهون) ثم عبروا الدانوب الأعلى . على أن مسيرهم توقف عند هذا الحد ، وظلوا يسكنون داخل الإمبراطورية مدة خمس سنوات بوصفهم جنداً مرتزقة (Foederati) . غير أن الدولة الرومانية اضطرت فى ٤٠٦ أن تجرد حدود الراين من الجيوش لمواجهة خطر الأاريك وقومه من القوط وسرعان ما انتهز أعداؤها الفرصة على الفور . فإن الوندال الأسدنيجيين والآلان ، عبروا النهر المتجمد (الراين) وقد زادت أعدادهم زيادة ضخمة بمن انضم إليهم من السويف والوندال السيلينجيين إلى آخر ليلة من السنة . وظلت جماعاتهم المتناثرة من الخيالة مدة سنتين تعمل التدمير فى الشطر الأعظم من فرنسا ، دون أن تلقى أية مقاومة منظمة ، على أن تولوز قاومت جميع هجماتهم بفضل أسقفها الذى دافع عنها باقتدار وكفاية . والشعر المعاصر لتلك الأحداث يمرض بالكلم صور ذلك الغزو . فإن مدناً حصينة تستسلم للسيف والنار : وتقع بأيدى البرابرة صياص^(١) نجم فوق صخرات وعرة وبيوت لساك قائمة بمفردها فى أكناف الغابات ، وكنائس تحرسها آثار القديسين

(١) الصيصة : الحصن والقلة كما ورد فى القرآن الكريم (المترجم)

والشهداء . « لقد كانت بلاد الغالة تتصاعد إلى السماء دخاناً لحريق واحد متصل^(١) »

الوندال

بيد أن العاصفة أخذت في الهدوء . ففي ربيع ٤٠٨ عبر الوندال وحلفاؤهم جبال البرانس وهبطوا أرض أسبانيا ، حيث واصلوا إفسادهم مدة سنتين آخرين . وعندئذ تدخلت روما ، وعقدت تسوية مؤقتة في (٤١٠) ؛ وأُنزل الأسديجيون والسويف بمقتضاها في غاليسيا ، والسيلينجيون في اندلوسيا ، على حين استقر الآلان في البرتغال وشمال شرق أسبانيا . ومع ذلك ، فإن روما لم تنس سياستها القديمة : « فرق تسد » ؛ فعمدت إلى استخدام خير ما جربته من وسائل التعامل مع أعدائها بأن عهدت في ٤١٦ إلى « واليا » ملك القوط الغربيين بمهاجمة البرابرة بأسبانيا . وكانت ترجو من وراء ذلك إقناص أعداد الطرفين . وقام واليا بمهمته بنجاح باهر محقق به السيلينجيون من الوجود محققا ، واضطرت بقايا الآلان أن تندمج في الوندال الأسديجيين . وعندئذ اتبعت السياسة الرومانية سبيلها المألوف . فاستدعى القوط الغربيون من أسبانيا ، حيث اشتدت قوتهم أكثر مما ينبغي ، ومنحوا مستقرات في أكتانيا . ثم منحت الدولة عونها للسويف لمناهضة قوة الوندال والآلان المتزايدة ، فهزم الأخيرون ودفعوا إلى جنوب أسبانيا . وهنا جمعوا شنتهم رغم ما حدث لهم وصدوا جند الرومان ، ولم تلبث المدن الساحلية القوية التحصين أن سقطت في أيديهم الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات هجماتهم من البر والبحر . وما يدل على أن روما رأت بوضوح خطر قوة البرابرة البحرية ، ما بذلته

(1) Uno Fuma Vit Gallia tota rogo

من محاولات للاحتفاظ بالسواحل الجنوبية لفرنسا وأسبانيا ؛ ومما له دلالة صدور قانون بالقسطنطينية حوالى ذلك العهد ينص على إزال عقوبة الإعدام بكل شخص يُعلم البرابرة طريقة بناء السفن . غير أن الدولة الرومانية عجزت تماماً عن تجنب ذلك الخطر . فاستولى البرابرة على أشبيلية وقرطاجنة^(١) ونهبهما ، وعندئذ تطلعوا إلى مغامرة أعظم .

وفى (٤٢٨) أصبح جزريك (جايبريك) ملكاً على الوندال . وهو من أعظم شخصيات ذلك الزمان ، ولا شك أنه كان سياسياً بارعاً فاق كل زعماء البرابرة باستثناء ثيودوريك وكلويس ، فضلاً عن كونه مقاتلاً موقفاً لا يجد الخوف إلى قلبه سيلاً . وهو الذى أدار دفعة غزاة إفريقية ، والراجح أنه وزن العواقب وزنها الصحيح . فإن تلك البلاد كانت غير مستقرة الأحوال ؛ إذ كان سكانها البربر (Moorish) فى ثورة ، وزاد الانشقاق الدونائى الاضطراب شدة . ولم يكن لدى الكونت يونيفاس قائد الرومان قوة كافية من الجند ، والواقع أنه لم يكن قادراً على صد الغزاة . يضاف إلى ذلك أن من يسود إفريقية بمسك يديه مفتاح إيطاليا . وتلك مسألة معترف بها من زمن بعيد ، إذ إن امتلاك تلك الأقاليم (الإفريقية) كان جزءاً جوهرياً من استراتيجية كل من فسبازيان وسيثيروس من بعده . وأصبحت روما بخسارة فادحة لما ترتب على فتح جزريك من ضياع الجزية التى تؤديها لها إفريقية ، وأشد من ذلك خطورة أن موارد قبحها أصبحت وقتذاك تحت رحمة ذلك البربرى . وبنو قوة الوندال البحرية لم يعد الأمر قاصراً فحسب على عجز الجيوش الإمبراطورية عن بلوغ إفريقية ، بل إن جميع الموانئ وجميع تجارة غرب البحر المتوسط ، أصبحت معرضة لانهاب القراصنة ، على حين أن قوات الوندال ربما هبطت فجأة بأية نقطة بإيطاليا أو صقلية .

(١) قرطاجنة هذه مدينة أسبانية ومى غير قرطاجة الموجودة بتونس . (المترجم)

وفي عام (٤٢٩) قاد جزيريك قومه ، وعدتهم حوالى ثمانين ألفا ، عبر مضيق جبل طارق . فبادر إلى اجتياح السهول الغنية والاستيلاء عليها ، غير أنه لم يتمكن من فتح قرطاجة وبعض مآقل أخرى . وعززت القوات الرومانية ، فأُنزلت بجزيريك هزائم فادحة ففقد مع الرومان معاهدة ، استقر بمقتضاها الوندال هناك بصفة جند مرتزقة محالفين . ومن الجلى أن تلك الحركة قد تمت بتقدير محكم . فلم تمض أربع سنوات حتى استولى جزيريك فجأة على قرطاجة . ولمنع الرومان من الإقدام على هجوم مضاد ، أرسل عمارة بحرية قوية لإعمال الدمار فى صقلية وسردينية (اللتين كانتا تعتبران آنذاك المصدر الرئيسى لمؤونة الرومان) . وفى (٤٤٢) ، اضطرت روما أن تعترف بجزيريك حاكماً مستقلاً للشطر الأكبر من الأقاليم الإفريقية ، وكان ذلك هو الثمن الذى دفعته فى مقابل السلام . وبذلك صار وضعه مختلفاً تماماً عن وضع ملوك القوط والبرجنديين ، الذين كانوا لا يزالون رعايا للإمبراطورية الرومانية .

الهون

ويحدث بين الفينة والفينة فى التاريخ الأوروبى أن تفتح نافذة على مصراعها بفتة فنطل منها على إقليم مجهول من سهوب مترامية ، أو صحراوات من حصباء أو رمال أو مناطق من الحجر الأسود البراق أو مراعى فوق الجبال الشاخطة . وتتحرك فوق سطحها ثلل صغيرة من الراكبة ، وهى تسوق أمامها قطعانا من الشاء وأراعىل من الخيل . فإذا حل الصيف وجدتهم بعداً فى أقصى الشمال ينتجعون السهول العظيمة التى تمتد حتى غابات الصنوبر السيبيرية . فإذا اقترب الخريف قوضت الخيام وحملت وانطلقت الخيماآت المسكونة من خمس أو ست عائلات فى طريقها نحو الجنوب ، وهى تخرق على التعاقب سهوب الطفل

العظيمة والسهوب الملحة وصحراوات الحصباء ، وفيافي الرمال المتنقلة ، حتى يصل القوم إلى حوضى بحر قزوين وبحر آرال . وبعض هذه القبائل تبحر حوالى عشر درجات من خطوط العرض فى كل عام ، وهى مسافة قد تصل إلى ألف ميل ذهابا ومثلها إيابا . والرحلة ضرورية ، إذ إن السهل الشمالى يغطيه فى الشتاء طبقة سميكة من الثلج ، فإذا حل الصيف جفت حرارته كل ما فى الجنوب من كلاً . وقد أفضى قيام هذه الظروف على كركرون إلى نشوء الثقافة البدوية (الترحلية) . ولكن يتم بسرعة قطع مسافات مترامية من الأراضى الصحراوية ، رُبّى جنس من الخيل يستطيع العدو عشرين ميلا فى الدفعة الواحدة ، وأن يقطع فى اليوم الواحد أكثر من مائة ميل . ويقضى الرجال حياتهم على ظهور الجياد . فتتحرف أقدامهم إلى الخارج ، ولا تصيب (سمانة) الساق إلا خطأ ضئيلا من النمو . وهم قوم من العنصر المغولى مكتنزو الأجسام كبار الرؤوس قحيو اللون عيونهم مشقوقة وأفواههم كبيرة وشعرهم أسود صلب ، ولا يمكن استخدام الثيران هنا — إذ إنها لا بد أن تهلك فى الصحراء ، وذلك فضلا عن شدة بطئها . ولا تنس أيضاً أنه يستحيل على البدوى الحق ، أن يمارس الزراعة . إذ إن طعامه الأساسى هو لبن الأفراس والأغنام بعد تجهيزه بطرائق شتى . وشهوته للطعام هائلة ؛ ولكنه فى بعض الأحوال يستطيع تحمل العطش أياماً والجوع أسابيع . وهذا أمر يتمشى مع ظروف حياته ، التى تكاد تبلغ حد المجاعة شتاء والوفرة التى لا حد لها صيفا . والخيم هو وحدته الاجتماعية : إذ إن أراضى الرعى والآبار لا تكفل العيش لما يزيد على ذلك ، ولكن الخيم جزء من العشيرة ، والعشيرة جزء من القبيلة والقبيلة جزء من الشعب . وقد تظهر الأيام فى بعض الأحيان (خاناً) عظيماً يلم شمل الشعوب فى رهط حاشد : فإن كان الرهط أضعف من الأرهاط المجاورة له ،

دُفع من منطقة السهوب قهبط على فارس وأرمينية وجنوب روسية أو هنغاريا . وربما تفرق شمل الرهط عند وفاة «الخان» ؛ أو تظل الشعوب المكونة له تنزل الظلم مدة قرون بالعنصر المغلوب على أمره ، بأن يعودوا كل شتاء للمطالبة بالمؤن والنساء . فتتخط الحضارة بتلك المناطق ، ويصبح السكان خونة أذلاء . على أن الغزاة لا يلبثون حتى يتحولوا رويداً رويداً إلى جنس مختلط ، وحتى يفقدوا إلى حد ما خصائصهم المغولية . وهذا ما حدث مع الإسكنديين الذين عرفهم القدماء ومع المجرين في عصرنا هذا .

وغنى عن البيان أن غزوات هذه الشعوب الألطائية تختلف اختلافاً بعيداً عن الهجرات الجرمانية . إذ إن التيوتوني والروماني جميعاً كانوا ينظرون إلى الهون نظرة الرعب المشوب بالخرافات ويحسون نهمهم بنفور وتقزز . ونظراً لما اشتهر به الهون من السرعة الخارقة ، نسبت إليهم قدرات سحرية ، وبلغ في عدد أفرادهم مبالغة عظيمة . والواقع أن الجزء الأعظم من مقاتلة الهون كان يتكون من أفراد القبائل المهزومة ، ولا سيما الجيبيد ومن معهم من الآلان والقوط والصقالبة وغيرهم ، الذين جرهم الهون معهم في أثناء تقدمهم من جنوب روسية إلى أوروبا الوسطى^(١) . واتخذ الهون مركز قيادتهم في هنغاريا ؛ فإن أتيلاً ، الذي ورث الحكم في (٤٣٣) مع أخيه بليدا ، الذي يظهر أنه أهمله آخر الأمر ، - كان يفرض سلطاناً قوياً وغير محدود ، ولكنه فعال على كل من القوط الشرقيين والصقالبة المقيمين بجنوب روسية وسائر القبائل الجرمانية النازلة على ضفاف الدانوب . واستطاع من موقعه المتوسط أن يهدد شطرى الإمبراطورية بدرجة سواء ، فدأب على المطالبة بعودة اللاجئين ،

(١) انظر أول الفصل الثاني ص ٧٥ .

وعلى أن ينتزع من الإمبراطورية إتاوة ضخمة من الذهب . وإذا انصرف في السنوات الستة الأولى من حكمه إلى الفتوح الصقلبية فإنه امتنع عن الهجوم الصريح على الغرب ، حتى لقد حدث أنه أعار الرومان جنداً مرتزقة من الهون ليقاتلوا عنهم البرجنديين والقوط الغربيين ؛ وفي الحين نفسه استطاع أن يفرض على القسطنطينية معاهدة كلها مثله وهوان . غير أن العلاقات ازدادت سوءاً بعد (٤٤٠) وشابها شيء من العداوة ؛ وعندئذ هوجمت حدود الدانوب وتعرض شمال بلاد اليونان للنهب الشديد . ولما عقد الصلح في (٤٤٧) طولبت الدولة بتعويضات ضخمة وتقرر جعل الحد الفاصل بين الطرفين عند نيش ، التي تقع على مسافة بعيدة ، جنوب الدانوب .

ثم حدث تغير في (٤٥٠) . إذ تولى الإمبراطورية في الشرق مرقيان ، وأبى أن يدفع للهون بعد ذلك أية جزية . ولم يلبث الغرب أن حدا حذوه . ويبدو أن أتिला عزم في تلك اللحظة على أن يقوم بفتح حاسم . فشق طريقه عنوة عند نهر الراين الأدنى في عيد الفصح من عام (٤٥١) وتقدم إلى أورليان . وكان يأمل أن يلزم القوط الغربيون في أكيثانيا الحياذ . ولكنهم قرروا أن يقاتلوا في صف روما ، فأدى ذلك إلى قلب ميزان المعركة . والتحم الطرفان في سهل مورياك قرب تروى (Troyes) . فلقى ملك القوط الغربيين مصرعه ، ثم اضطر أتिला إلى الارتداد في النهاية إلى معسكره بعد أن تسكبد الطرفان خسائر فادحة ، وبذلك انتهت الأسطورة التي تزعم أن الهون قوم لا يقهرون . على أن آنتيوس قائد الرومان أدرك وقتذاك أن القوط الغربيين أشد خطراً على الإمبراطورية من الهون ، وعندئذ أتاح للهون فرصة للنجاة .

وكثيراً ما اعتبر ذلك القتال من المعارك الفاصلة في التاريخ ؛ ولكن
الراجح أن جيش الهون كان على كل حال محتوماً عليه القشتت السريع عند
وفاة حاكمه وقائده . والواقع أن جغرافية أوروبا ، لا العوامل السياسية ولا العسكرية
هى التى أنقذتها من قبضة الحضارة البدوية ، هنا وفى سائر المعارك الأخرى ،
ودفعت عنها المصير الذى تعرضت له آسيا ، التى ظلت إلى يومنا هذا غارقة
فى الهمجية . « فلو أن ألمانيا أو فرنسا كان بها من السهوب ما لهنغاريا ، حيث
كان المترحلون يستطيعون منها تزويد أنفسهم بما يلزمهم من طعام ، ثم ينطلقون
من ثم إلى ما هم عليه من تدمير ، فالراجح أن ضياء الحضارة الغربية ما كان
إلا ليخبو من زمن بعيد ، كما أن العالم القديم لم يكن بد من أن يتبرر ،
ولم يكن بد للصين الراكدة الآجلة اليوم من أن تكون على مفرق الحضارة . »
(بايسكر Peisker) .

نهاية إمبراطورية أتيتلا

تراجع أتيتلا عند ذاك إلى هنغازيا ، ثم عاد فى السنة التالية فغزا شمال
إيطاليا ، فسقطت أمام هجماته أ كويليا ومعظم القلاع الأخرى (وإن لم تسقط
رافنا بفضل المستنقعات التى كفلت لها الأمن) . ولكن زحفه على روما لم يتم .
ذلك أن انتشار المجاعة والمرض بين جنده ووصول الإمدادات الإمبراطورية
من الشرق ، كانت أموراً عززت بقوتها البراهين والحجج التى قدمتها بين
يديه بمعسكره على نهر منكيو سفارة الرومان برئاسة البابا ليو الأول بجلاله
وقوة أثره . وعاد أتيتلا إلى وطنه ليتجهز لقتال القسطنطينية ؛ ولكنه مات
فى السنة التالية .

واقسم أبناؤه ميراثه ؛ ولكن شعوب الدانوب فطنوا إلى الفرصة

الساحة لم وانقضوا كالثاب الضارية على سادتهم المكروهن . وتزعم الجيبيد سائر قبائل القوط : الروجين (Rugii) والسويك والهيرول ، فأنزلوا بالهون هزيمة ساحقة على نهر نيداو (٤٥٣) وطردوهم إلى سهول روسيا ، ولم يبق منهم بهنغاريا سوى شراخم متناثرة . وظلت منطقة الدانوب بعد ذلك مائة عام مسرحاً لدوامه دواره من الشعوب المتصارعة ، وكانت دبلوماسية الدولة الرومانية الشرقية تشجع النزاع ، بما نهجنه من خطط تقليدية تجاه البرابرة . وعندئذ سيطر الجيبيد وهم من شعوب الجرمان الشرقيين على هنغاريا ورومانيا ، وتنازعوا مع القوط الشرقيين النازلين آنذاك في غربهم على امتلاك مدينة سيرميوم (وهي لا تبعد كثيراً عن بلغراد) التي كانت تتحكم في الطريق الروماني العظيم الممتد من الغرب إلى الشرق . ويظهر أن الجيبيد بلغوا مرادهم عند وفاة ثيودوريك العظيم في (٥٢٦) ؛ ولكن ظهر في ذلك الوقت مطالبون جدد بالسيادة هم اللومبارد ، فقبر موقف الدانوب بأجمعه . فتألف تحالف بين الجيبيد واللومبارد ، ولكن المصالح المتضاربة كانت أقوى من كل شيء . ونشبت بين الفريقين حروب مريرة طويلة الأمد ، انتهت في (٥٦٧) بهزيمة الجيبيد نهائياً ، فلم يلعبوا بعد ذلك دوراً في التاريخ .

القوط الشرقيون

وكانت الأراضي الممتدة شمال البحر الأسود بين نهر الدنيستر غرباً ونهر الدون شرقاً (أي بين منازل القوط الغربيين ومنازل الآلان) يحتلها في قريب من (٣٥٠) القوط الشرقيون المعروفون بشدة المراس بقيادة ملكهم إرماناريك ، الذي لم تكن له إلا سيادة ضعيفة على قبائل الصقالبة النازلة إلى الشمال منهم . وقضى الغزو الهوني على تلك الإمبراطورية ، ودفع القوط غرباً ،

فساروا ثلثاً من اللاجئين إلى البلقان . على أن كثيراً من القوط الشرقيين لم يلبثوا بعد وقفة غير موفقة لهم على نهر الدنيستر ، أن انحازوا إلى أقاليمهم القوط الغربيين فعبروا جميعاً نهر الدانوب^(١) ، وأسهموا في القتال الذي نشب في أدرنه (٣٧٨) . وفي (٣٨٠) عقدوا حلفاً مع ثيودوسيوس الأول ، ومنحوا مستقرات بهنغاريا الدنيا . ومع أنهم لم يزالوا تحت سيطرة الهون الذين كانوا بسطوا سلطانهم على هنغاريا ، فإنهم باتوا الآن متحدين تحت ملك واحد ، ثم تحت حكم أبنائه الثلاثة من بعده ، ولم يشذ عن ذلك إلا جماعات متناثرة دخلت في خدمة الرومان ، أو أولئك الذين انحازوا إلى الجيوش المختلطة التي في خدمة راداجيسوس والتي شنت هجوماً مباغتاً وخطيراً على إيطاليا (٤٠٤ - ٤٠٥) فسحقهم استيليكو على مرتفعات فيسولي . وقد كانوا بوصفهم حلفاء تابعين يقاتلون مع أثيلا عند سهل موريالك ، ولكنهم لعبوا دوراً بارزاً في ائتلاف الشعوب الذي قضى على الهون بعد وفاة أثيلا ، وازدادوا صلابة وصموداً فيما تلا ذلك من حروب مع قبائل الدانوب . وفي (٤٧١) أصبح ثيودوريك الملقب فيما بعد بالعظيم — من زعمائهم . والمعروف أن ثيودوريك قضى عشر سنوات من حياته وهو صبي رهينة بالقسطنطينية ، ولا بد أنه قد تعلم الشيء الكثير عن تنظيم الدول المتحضرة ، شأن ألياريك (الذي تماثل حياته حياته من كثير من الأوجه) ، وإن ظل حتى نهاية أيامه أمياً لا يكتب ، فإذا شاء التوقيع باسمه اضطر إلى استخدام روسم^(٢) من ذهب .

وبعد أن استنفد قومه كل موارد بانونيا تحرکوا حوالى ذلك الزمن

(١) انظر ٢ بعنوان القوط الغربيون ص ٨٤

(٢) الرسوم لوحة مثقبة الحروف المطلوبة لكتابة الاسم . (المترجم)

إلى جوار سالونيكاً، ومن هناك ظلوا يمارسون ضغطاً مستمراً على العاصمة (القسطنطينية) . وشهدت السنوات العشر التالية صراعاً ثلاثياً مستمراً بين الإمبراطور زينون وبين ثيودوريك وبين ثيودوريك آخر لقب استرابون (وهو أيضاً قوطي شرقي) كان قائداً لكتيبة من بني قومه تعمل في خدمة الرومان. وكانت سياسة الإمبراطور تأليب ثيودوريك هذا على سميّه . ولكن عند وفاة ثيودوريك استرابون في (٤٨١) ، لم يكن بد من البحث عن وسيلة أخرى لتخليص القسطنطينية من المعونات المالية الفادحة التي لا بد لها من أدائها . وقد حكم أودواكر^(١) إيطاليا منذ (٤٧٦) ولكن زينون لم يعترف به إلا اعترافاً شكلياً ، وظل يتربص سنوح فرصة يسترد بها سيطرته على الغرب . ولسنا نخال بعد الذي خبره زينون من ثيودوريك ، أنه توسم فيه أن يكون أطوع كنائب ملك من أودواكر : على أنه جعل الاعتبار الأول لتخليص إلاليريا من ذلك الكابوس الساحق ، فقدّر أنه إذا دمر كل من أودواكر وثيودوريك أخاه ، كان في ذلك الخير كل الخير .

وتقبل ثيودوريك المهمة المنوطة به وانطلق إلى إيطاليا في (٤٨٨) سيداً لجند الإمبراطور ، يقود جيشاً مخلطاً من القوط الشرقيين ومن غيرهم من الغامرين . والتخّم الطرفان في المعركة الفاصلة على نهر أدا في أغسطس (٤٩٠) فهزم أودواكر هزيمة منكرة فبادر بالالتجاء إلى رافنا المنيعّة . وعند ذلك قرر مجلس السناتو الروماني أن يؤيد ثيودوريك ، واعترف به حاكماً على إيطاليا . وكانت هناك عدة مدن لا تزال تناصر أودواكر وتسانده ، فنجح ثيودوريك في استئثار السكان الرومان للقيام بمنجحة شاملة في حمايتها البربرية . وفي تلك

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان : « القرن الخامس في الغرب » ص ١٠٤ .

الأثناء كان الوندال أيضاً يعيشون فى صقلية فسادا وتدميرا ، وبعد قتال مرير أجبروا على التخلي عن مطالبهم فى الجزيرة . ولكن كان هناك فى النهاية شخص أودوا كر وله وزنه الذى لا بد للقوم أن يحسبوا حسابه . واستهل ثيودوريك آخر مرحلة من فتوحه عندما بدأ حصار رافنا الذى دام ثلاث سنوات .

وقد تأثر خيال الجرمان بهذه المدينة العجيبة ، إذ تشيد بذكراها حلقات المجموعة الملحمية العظيمة التى تدور حول ثيودوريك . ولم تكن رافنا حتى الأمس القريب إلا مدينة خربة خيم عليها الصمت، وكانت تتألف من مجموعة من أبراج الأجراس تقع فى سهل وخم موحل من المستنقعات الويثة بالملاريا وحقول الذرة التى تخترقها القنوات البطيئة التى كاد يسدها القصب (البوص) وأزهار النيلوفر المائية . وهى لا تزال تحتفظ إلى اليوم بشيء من مجدها السابق . فإن كنيسة القديس فيتالى — وهى ألخم كنائسها — المتوهجة بالفسيفساء المرصعة بالجواهر والرخام الشفاف ، إنما ترجع إلى عهد جستينيان يوم ارتقت رافنا ذروة جلالها . ومع ذلك فإن صيتها ذاع طوال أربعة قرون باعتبارها مقراً لقيادة أسطول روماني . لقد كانت مياه الأدرياتى تتخللها وكانت معابدها ومخازنها تقوم على جزر تحيط بها القنوات شأن البندقية اليوم . وانحسر البحر عنها شيئا فشيئا ، ولكن المدينة لم تكن فى تلك الأيام متصلة بإيطاليا نفسها إلا بطريق مكون من جسر طويل يخترق المستنقعات ويمضى إلى داخل المدينة نفسها فيقود المسافرين إلى معاقل مرفأ كلايسيس البحرى ومنارته . وقد ظلت المدينة زهاء قرن مستقراً ومقاماً للإمبراطور وحاشيته . فأقام بها هونوريوس وقالنتيان الثالث الإمبراطوران الوانيان اللذان لم يكونا سوى أطياف ظلال . وقضيا

فيها حياتهما الوداعة ، بين مؤامرات النساء والخصيان والقساوسة ورجال البلاط ، بعيداً عن منار النقع ودوى الضجيج في عالم متقلب متغير ، عالم قاد فيه استيليكو وآنتيوس آخر كتائب الرومان على المغيرين .

وهنا في بناء صغير بشكل الصليب تأتلق على جدرانهِ وسقفهِ نجوم من الذهب مرصعة فوق خلفية لا زوردية داكنة ، يرقد «الناوروس» الضخم الذي يضم رفات جالا بلاسيديا . وهذه الأميرة الرومانية التي كانت حياتها مرآة تعكس تاريخ زمانها ، هي ابنة ثيودوسيوس الأعظم وشقيقة أركاديوس وهو نوريس إمبراطور الشرق والغرب . وقد أخذت أسيرة يوم نهبت روما ، وأصبحت زوجاً لآتولف ملك القوط الغربيين ، ثم صحبته إلى فرنسا وأسبانيا . ثم تزوجت بعد ذلك قسطنطيوس القائد الروماني ، وبعد وفاته و وفاة أخيها هو نوريس أصبحت الحاكم الفعلي للغرب مدة خمس وعشرين سنة في أثناء الوصاية على ابنها الصغير المتأنت فالننتيان الثالث فضلاً عن مدة حكمه الضعيف . وإن جمالها الذائع الصيت ، وتقلبات الحظ بها ، صورة تشبكت اشتباكاً عجيباً بمصائر أوروبا الغربية ، لتجتمع لتجمل منها أشد شخصيات ذلك القرن رومانسية . بيد أن لها ناحية أخرى لا تقل دلالة على الزمان . فبتأثيرها ، أصبح جو البلاط كثيفاً بما انعقد فيه من سحب بخور التصوف الديني . ولعل ميادين المعارك الدائرة على الحدود ليست هي الموضع الذي نلمس فيه ما حفلت به هذه الفترة النامضة من التاريخ من أطياف معتمة ، بل في ظلام مقبرة جالا بلاسيديا . ذلك بأن دوافع تلكم الأطياف ستظل سراً دفيناً إلى الأبد ؛ غير أن بصيصاً من الفهم قد يطرق على الفجاءة أبصارنا عندما تقع على الرموز السرية والأشكال المقدسة للهام والغزلان والشاة والعيون والأزاهير والكروم المنضفرة المتشابكة

بعضها في بعض ، والإنجيليين والقديسين ، التي تلمع وسط الظلماء وتتكهن
بسعادة غير دنيوية .

وكانت رافنا آنذاك تحتفظ بأسرارها كشأنها اليوم . ولما لم يستطع
ثيودوريك اختراق الحصون ، تفاهم مع أودوا كر . واتفقا على شروط الصلح.
وبمقتضاه أصبحا شريكين في الحكم في إيطاليا معاً بدرجة متساوية . ويبدو أن
الأول منها (ثيودوريك) كان يضمر في نفسه الغدر . فبعد دخوله بعشرة أيام
دعا أودوا كر إلى وليمة . وبينما هما مستويان إلى المائدة ، ركع رجلان بمظلمة أمام
أودوا كر وأمسكا بيديه . فاندفع جند ثيودوريك المختبئون ، ولكنهم ترددوا
في القضاء على الرجل الشيخ . فتقدم ثيودوريك بنفسه وشهر سيفه . وصاح
أودوا كر قائلاً : « أين الله ؟ فقال ثيودوريك : « أنت فعلت هذا بأصدقائي » ،
ثم شقه بسيفه من الترقوة إلى القطن . ودهش ثيودوريك للضربة التي صدرت
منه فصاح قائلاً : « ليس للشقي عظام في جسده » . وكانت الأوامر صدرت
قبل ذلك بإعمال الذبح في المرتزقة الأعداء ، ومن بعدها لم يلق ثيودوريك
أية مقاومة لادعائه السيادة العليا بإيطاليا .

الفصل الثالث

التقاء الحضارتين

القرن الخامس في الغرب

عالج الفصلان السابقان عالم الرومان وعالم البرابرة في (٣٩٥) . وكان زاماً علينا تسلف الحوادث بترسم خطى الشعوب البربرية الرئيسية كلا على حدة بقدر الإمكان . فماذا كانت نتيجة الصدام بين التقاء الحضارتين الرومانية والجرمانية ، كما يتجلى في التاريخ المضطرب في القرن الخامس ؟ ولعل الأفضل أن تسمى العملية باسم عملية التعجيل بتطور تدريجي ؛ إذ لا بد لنا من تذكر أن سكان شطر عظيم من الإمبراطورية كانوا بالفعل برابرة ، وأن الغنصر الجرمانى قد غلب على الجيش الرومانى ، وأنه لم يكن بين زعماء المفيرين باستثناء جزريك (جايسريك) فيما يحتل ، من كان يريد للإمبراطورية السقوط .

ومن المستحيل أن ندلى بتفسير سيكولوجى لتصرفات الشخصيات الرومانية الرئيسية في هذه الفترة ؛ إذ كان الدخول محظوراً إلى بلاطات رافنا والقسطنطينية ، حيث كان يتربع ابنا ثيودوسيوس الإمبراطور المقاتل ، على عرشهما كأنهما أميران شرقيان محليان بالجواهر في غرفات مقدسة عليها حُرَّاس حراس يحمونها من العالم الخارجى . والحق إن « هذين الأميرين الصغيرين المسكينين ، وهما زهرتان شاحبتان من زهرات الشباب » ، كما يقول دو كين (Duchesne) لم يكونا إلا مركزاً للمؤامرات المعقدة التى

كانت تحاك في البلاط ؛ ولكن معرفتنا بهذه المؤامرات لا تزيد عن هذا بكثير . وكان أقرب الناس إلى الإمبراطور هو كبير الأمناء (الحجاب) ، وهو خصي ، بيده إدارة القصر الإمبراطوري . وكان بما يلجأ إليه من توسيع مجال عمله وإدارته يزيد في الحكم الشخصي للإمبراطور على حساب الإدارات الكبرى في الدولة . ولكن حدث في الغرب أن أصحاب الأملاك الإقطاعيين بفرنسا وإيطاليا بلغوا من القوة والنفوذ ما جعل الحكومة المركزية تعجز عن التغلب عليهم ؛ فأما في الشرق فإن رؤساء الإدارة الحكومية ، ومعظمهم من أصل وضعي — لم يظهروا إلا مقاومة ضئيلة لاستبداد الملكية البيزنطية ، فصار لكبير الأمناء (الحجاب) صاحب القوة المطلقة مثل يوتروبيوس ، الحرية في أن يختار زوجة للإمبراطور أو أن يتآمر مع القادة الخونة . ومع ذلك فإن رجال البلاط والموظفين بكل من القصرين كانوا يؤلفون حزبا قويا يدعو في بعض الأحوال بأعلى صوت إلى اتخاذ التدابير لمناهضة الهرمان . وكان لنساء القصر دور عظيم — ولكنه لم يبلغ من الضخامة المنزلة التي صورها خيال وعاطفة المؤرخين البيزنطيين الذين أرادوا أن يحملونا على تصديقه — فكثيرا ما كن يتحكمن في ضعاف الأباطرة بنفس الطريقة التي كان يتحكم بها فيهن مستشاروهن الروحيون . والجو كله مغم بالمشبهات والبحث عن المصالح الذاتية . والجواسيس منبثون في كل مكان وذوو الحظوة يرتفعون ويستقنون . ولا يتبدى في الجو تمسك بأى مبدأ خلقى ، ولا طمأنينة لأية صداقة .

وتقف قبالة هاته الخلفية طائفة من الشخصيات العظيمة ، هي شخصيات « سادة الجند » في القرن الخامس . وفي أيديهم السلطة الحقيقية ، إذ تعتمد

مصائرهم الإمبراطورية على الجيش الذى يخضع لسلطانهم . ولما كان معظمهم من البرابرة ، فلم يكن فى إمكانهم ، شأن القواد فى القرن الثالث ، خلع الإمبراطور والانشاح بالأرجوان . كانوا موضع الكراهية والخوف من الأباطرة والحزب المناهض للجرمان ، على أنهم كانوا سندا لا يستغنى عنه وقوة بالغة القدرة . وكثيراً ما كان هذا البغض يتغلب على سائر الاعتبارات الأخرى . إذ إن هونوريوس يأمر بإعدام استيليكو (٤٠٨) ويقضى قائلتيان الثالث على آثمئوس (٥٤٤) ولا يلبث حتى يلتقى نفس المصير بعد ذلك بقليل . وفى المرحلة التالية يكون المتصرف فى الشئون هو « سيد الجند » ريكيمر (المتوفى ٤٧٢) ، فهو الذى يقيم أباطرة ضعافاً فيقتلهم أو يخلعهم إذا أظهروا نفاقاً ومغالة فى الاستقلال . وأخيراً يتخلص أودواكر من الإمبراطور (٤٧٦) ويحكم إيطاليا حكماً شخصياً ككنايب ملك بالاسم للسلطة الحاكمة بالقسطنطينية .

القرن الخامس فى الغرب

ظل نجم استيليكو متربهاً فى كبد السماء من (٣٩٥) إلى وفاته فى (٤٠٨) . وقد ظل يتهم على الدوام بالخيانة : وليس عسيراً علينا أن نرى أسباب تلك الاتهامات . فإنه سمح لألاريك عدة مرات بالانسحاب ، وذلك ببلاد اليونان (٣٩٧) . وبإيطاليا (٤٠٣) على حين أنه كان بوسعه على وجه التحقيق أن يدمر قواته ويقضى عليها ، وبذا حال دون سقوط روما فى (٤١٠) . يضاف إلى ذلك أنه لم ينقذ غالة من الغزو الرهيب فى (٤٠٦) ، وهو موقف ترك ولايتين فريسة لتدميرات الوندال وحلفائهم . ويبدو أنه كان يدير سياسته على ثلاثة أسس . فإنه كان القراع المبنى لثيودوسيوس ، حتى لقد عين وصياً على ابنه الصغيرين فى (٣٩٥) . وكان الولاء الشخصى من خصائص الجرمان ، ولم يداخل التردد

قط قلب استيليكو في ولائه ليت ثيودوسيوس . أجل إنه ربما استخدم جميع الوسائل ليز أرКАДيوس ويعاو عليه ، ولكن شخص الإمبراطور لم يتعرض لأذى خطر . ومن الحقائق الجديرة بالذكر أن استيليكو لم يأذن بقيام أية مقاومة عندما أصدر هونوريوس أمره بإعدامه . وكان الأساس الثانى لسياسته ، وهو الأساس الذى لعله قد تبناه مؤخراً عندما حطم الانتقاض على الجرمان فى القسطنطينية آماله ، هو عقده العزم على الحصول لنفسه على الولاية (Prefecture) على إلبيريا^(١) - (وهى بلد حافل بالرجال اللازمين للجندية لا يُقَوِّم بشمن) - لضمها إلى الجزء الغربى من الإمبراطورية . ولكى يبلغ هذا الهدف عمد إلى استخدام قوات ألأريك ؛ وكانت نتيجة محاولته فى هذا الصدد أن أعلنت حكومة أرКАДيوس أنه عدو للشعب ؛ ومن أجلها ضحى بفالة وتركها فريسة للهجوم البربرى الذى كان واجبه يحتم القضاء عليه . وقد فرض الأساس الثالث عليه فرضاً لا شئ إلا لكونه بربريا . وطبيعى أن النمو السريع للتنفوذ الجرمانى فى أروقة الجهات العليا كان يحظى باستحسانه ؛ منذ كان للجرمانى الحق فى الحصول على نفس المكانة التى يرقى إليها الرومانى داخل الإمبراطورية . وربما كان فى هذا تعليل لرأيه فى ألأريك ، واعتباره إياه حليفاً نافعا ، لا عدواً عاما ؛ ومن المحقق أن ذلك الأساس هو الذى دفعه إلى تأييد جائناس والحزب الجرمانى بالقسطنطينية ؛ كما أنه يفسر تماماً عداوة المحافظين الرومان ، التى أوردته حقه آخر الأمر .

وشهدت المدة التالية (٤٠٨ - ٤٢٣) تأسيس مستوطنات البرابرة المحالفين بكل من غالة وأسبانيا ، ويرجع الفضل فى إدارة دفعة هذه الحركات^(٢)

(١) انظر التذييل .

(٢) انظر : « البرابرة فى فرنسا وأسبانيا » من الفصل الثانى .

بمهاره إلى قسطنطينوس « سيد الجند » الرومانى الذى تزوج من جالا پلاسيديا فى (٤١٧) ، فولد له منها فالنتينيان الثالث . وجهوده بإقليم غالة تعتبر فى الدرجة الأولى من الأهمية . فإن ما تفخر به فرنسا اليوم من أنها قطر لاتينى ينبغى أن ينسب جزئياً إليه ، فهو صاحب الفضل فى تمكين البرابرة من الاستقرار بدرجة نسبية من السلام بالأراضى الرومانية ، حيث تشرىبوا قوانين السكان ونظمهم . واتخذت ترتيبات عسكرية جديدة بشمال غربى غالة ، وهى إنشاء مجلس الأقاليم السبعة فرصة طيبة لإقامة بؤرة للتنفوذ الرومانى ، وكان ذلك المجلس يعقد فى آرل كل عام ، ويحضره ممثلون عن كل من المنطقتين الرومانية والقوطية الغربية .

وتوفى قسطنطينوس فى (٤٢١) ، ومات الإمبراطور هونوريوس فى (٤٢٣) . على أن خلا قوياً لآثتيوس « آخر الرومان » قد خيم على الثلاثين سنة التالية (٤٢٣ — ٤٥٣) . وهذا اللقب يبرره ما كان له من الشخصية وما قام به من أعمال . غير أنه دأب على معارضة « الحزب الرومانى » براثنا ؛ كما أنه نصب نفسه عدواً لجالا پلاسيديا والقائدين المنافسين له ، فيليكس وبونيفاس ، ولم يكن ذلك إلا بفضل مساعدة مرتزقته من الهون . وقد ركز كل اهتمامه على غالة ؛ ولما حاول القوط الغربيون بسط نفوذهم إلى إقليم بروقانس ردهم على أعقابهم ؛ أما مملكة البرجنديين بورمس التى كانت تغير على جيرانها للنهب فقد أزالها من الوجود (٤٣٦) بفضل جند الهون المرتزقة . (وكان واضعو ملحمة نيبيلونجيليد^(١) « Nibelunge lied » الجرمانية يعتقدون أن ذلك كان من عمل آتيل — ما لم يكن « إنزل » تركيباً

(١) قصيدة جرمانية عن القرون الوسطى كوت من مصادر أقدم منها وتتحدث عن ملوك وورمس وما حولها وعلاقاتهم بآتيل . (المترجم)

مزجياً لاسمى آنيلا وآثنيوس)، ومن ثم أقامت البقية الباقية منهم بإقليم سافويا. ومن سخریات القدر، أن آثنيوس هو الذى التقى بغزوة آنيلا فى (٤٥١)، وتمكن بمساعدة القوط الغربيين من تحويل وجهتها ثانية إلى وادى الموريالك — وبعد ثلاث سنوات طعنه فالنتينيان الثالث فى قاعة المجلس. ثم تم القضاء على بيت ثيودوسيوس بمقتل فالنتيان نفسه فى السنة التالية.

والآن بلغت الأمور آخر مداها. فجلس على العرش فى مدى عشرين عاماً ما لا يقل عن تسعة أباطرة ضعاف، ينصبهم ويخلعهم «سادة الجند» (٥) ريكيمر وخلفاؤه. فيهاجم الوندال إيطاليا دون أن يحسم قصاص، ويستولون على روما نفسها ويطلقون فيها أيديهم انتهاياً. ويضمحل كل أثر لسلطات الرومان فى غالة وأسبانيا بعد اغتيال الإمبراطور ماجوريان الذى أظهر من بالغ الكفاية ما لم يقزه ريكيمر صاحب الفضل فى إجلاله على العرش. ومنهم أودواكر أحد زعماء مرتزقة الجرمان المحالفين بإيطاليا، ما طلبوه من الحصول على مستوطنات فوق الأراضى الإيطالية، كما فعل غيرهم من البرابرة بإقليمى غالة وأسبانيا، فأعلنوه ملكاً عليهم فى (٤٧٦). وكانت نتيجة ذلك أنه أغفل رومولوس أوغسطولوس الإمبراطور الطفل الذى عينه سلفه (وذلك لأن نيبوس الحاكم الشرعى، الذى اعترف به الشرط الشرقى للإمبراطورية، كان قد فر إلى دالماتيا قبل ذلك بعامين). وظل أودواكر حتى مجئ ثيودوريك بحكم إيطاليا مثلما حكمها ريكيمر، غير أنه حدث بعد وفاة نيبوس فى (٤٨٠) أن السيد والإمبراطور الدستورى للبلاد لم يعد ملكاً ضعيفاً يقيم بروما أوراثناً، بل صار الإمبراطور الذى يقيم بالقسطنطينية، الذى كان أودواكر يعمل فى خدمته نائباً ملكياً من الناحية النظرية.

(٥) يقال للواحد منهم سيد الجند أو مقدم الجند. (المترجم)

الشطرن الشرقي

ومن الغريب أن تاريخ الشطرن الشرقي للإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس ، يسير موازياً لتاريخ النصف الغربي . بل إن الأزمات في الشرق تزيد - فيما يبدو - شدة وخطورة ؛ بيد أن الدولة تتغلب عليها بنجاح . وسنعمد الآن إلى قصص أوجه التباين بين الشقين الشرقي والغربي . ففي (٤٠٠) بلغ نفوذ الجرمان بالقسطنطينية أقصى ذروته . إذ أمكن التخلص من روفينوس والوالي البرايتوري والخصي يوتروبيوس كبير الحجاب . فأضحى الحزب الروماني رغم مساندة الإمبراطورة يودوكسيا عاجزاً لاحتول له ولا قوة . وهنا انتقلت مقاليد السلطان إلى يد جائناس « سيد الجند » المتبربر ؛ وكانت جنده تمسك داخل العاصمة ؛ وربما انتعشت آمال استيليكو في تلك اللحظة ، سيما وقد كان يتبع سياسة مماثلة لسياسة جائناس ومتفقة معها تماماً . ولكن العواصف والاعود كانت تملأ رحاب الجو . فإن جند القوط كانوا من الوقحاء ، وأنكى من ذلك وأشد نذيراً بالثبور أنهم كانوا من الأريوسيين المهرطقة . ولم تلبث العاصفة أن هبت في إحدى ليالي الصيف . إذ حدث بالمدينة شجار صاحب ، لم يلبث أن انتشر في كل أرجائها . وأغلقت البوابات وطارد السكان الجنود وأعملوا فيهم الدبج ، أو أحرقوهم أحياء بالكنيسة التي لجأوا إليها . وفي تلك الليلة انقضت قوة الجرمان إلى الأبد . وبعد ذلك بيضع سنوات تحرك إلى الغرب خطر القوط الغربيين بعد أن ظل منذ معركة أدرة كخيمة قماء تظلل البلقان ، تحرك غرباً عندما وجه ألامريك خطواته نحو إيطاليا .

وتولى العرش بعد أركاديوس وهونوريوس أميران لا يقلان عنهما ضعفاً وعجزاً ، هما ثيودوسيوس الثانى وفالنتينيان الثالث . وانغمس بلاط الشطر الشرقى ، بتوجيه الحشد الكبير الذى يعمره من النساء ، فى النزاع المذهبي بين القسطنطينية والإسكندرية ، وهى معركة ضخمة لما يترتب عليها من عواقب سياسية^(١) — وحوالى ذلك العهد اشتد ضغط الهون على الشرق أكثر منه على الغرب ؛ فأعملوا فى ولايات الشرق نهباً وتخريباً ، وأبھظوا سكانه بفادح الضرائب المدمرة ليحصلوا على المقررات المالية المطلوبة . ثم عاد الخطر فأنحرف للمرة الثانية غرباً ، ثم تلاشى عقب وفاة آتिला . بيد أن اقراض أسرة ثيودوسيوس تلاء ظهور أباطرة على جانب كبير من الكفاية (فى الشرق) ؛ على أن تدارك الموقف فى الغرب كان أوانه فات . فلم يستطع ماجوريان أن يفعل شيئاً لإزاء وجود بربرى مثل ريكيمر . أما فى الشرق ، فإن ما اجتمع فى أيدي سادة الجند من سلطة خطيرة ، قد تعرض لعواقب عديدة . فإكان لأمثال استيليكو أو آثنيوس من سلطة مطلقة على جميع الموارد العسكرية بالبلاد : الجيش الدائم وقوات النغور على السواء ، لم يكن أمراً تمييزه القسطنطينية^(٢) بأية حال . وكان تهديد الوندال لإيطاليا من الخلف يزيد من اعتمادها على جيوشها ؛ ولم تتعرض القسطنطينية لمثل هذا الخطر الدائم . فلما تحدد ظهور الخطر الجرمانى ، اكتشف الإمبراطور ليو (لاوون) وخلفاؤه من القوى المضادة الفعالة ما يردده ويكبح جماحه .

وكل ما كان يطمع فيه عادة سيد الجند من البرابرة هو أن يتزوج أميرة من البيت الإمبراطورى . وبلغ تلك الغاية أسبار القائد الآلافى القوى،

(١) انظر ص ٧٠ بعنوان الملاء بين القسطنطينية والإسكندرية .

(٢) انظر التذييل ١ .

الذى دبر عند وفاة الإمبراطور مرقيان (٥٧) تنصيب صنيعة ليو على العرش الإمبراطورى وأجبره بعد مصانعة طويلة للظروف ، أن يزوج ابنته من ابن أسبار ، راجياً بذلك أن يخلفه على العرش الإمبراطورى . ولكن ليو كانت لديه خطط أخرى قد دبرها . إذ استدعى إلى العاصمة فصائل قوية من الإيسوريين ، وهم عنصر جبلى شديد المراس من أحد أقاليم آسيا الصغرى ، فأضحي قائدهم تاراسيكوديسا (وهو الاسم الأصلي لزينون إمبراطور المستقبل) « سيداً آخر للجند » إلى جانب أسبار ، وتزوج من ابنة ثانية للإمبراطور ليو . وتآلف حرس خاص جديد للإمبراطور ، معظمه من الإيسوريين وبذلك قام جهاز يصلح لتدبير انقلاب عسكرى ، غير أن ليو تردد فى استخدامه . وكان نفوذ أسبار يزداد فى تلك الأثناء قوة ، على حين أن الدولة لم تستطع ، وقد أضعفها الإخفاق الباهظ الذى منبت به الحملة البحرية التى سیرت على الوندال (٤٦٨) — أن تقوم بأية مقاومة له . وأخيراً حانت ساعة العمل . فاغتيل أسبار غدرًا بإحدى الولائم وتمزقت شيعته بدءاً ، على حين أن الحرس الجديد قضى على محاولة قام بها أشياخ أسبار للهجوم على القصر (٤٧١) . على أن القبائل القوطية التى كان أسبار يعتمد عليها كانت تملأ تراقياً بما رحبت ، وظلت بقيادة زعيمها ثيودوريك استرابون^(١) تواصل على الدوام تهديد العاصمة . وكان الإيسوريون طائفة مكروهة من الناس ، وعندما عمد حزب البلاط بمساندة جند ثيودوريك ، إلى إقامة مرشح آخر منافس ، كان لزاماً على زينون ، الذى أصبح وقتذاك إمبراطوراً ، أن يفر إلى موطنه إيسوريا . وهنا أيضاً فى القسطنطينية كان العلاج الناجع فى متناول اليد . ذلك أن ثيودوريك الآمالى (الذى أصبح فيما بعد ثيودوريك الأكبر) ،

(١) انظر ف ٢ بعنوان : « القوط المرقيون » .

وهو ملك القوط الشرقيين في مقدونية ، كان على أتم استعداد لمنافسة سميّة (ثيودوريك استرايون) فيما يتطلع إليه من ألقاب القسطنطينية وأموالها . وبفضل معونته عاد زينون إلى العرش والسلطان ؛ وبثأليب الزعيمين أحدهما على الآخر ، لم تتحقق لأى منهما السيادة ؛ ولم يلبث زينون بعد وفاة ثيودوريك استرايون ، أن دبر أمر إيفاد ثيودوريك الآمالى لفتح إيطاليا^(١)

لقد زال الخطر الجرماني ؛ ولكن بقيت أخطار أخرى . ذلك أن إيسوريا كانت بؤرة عصيان وقتنة . وظهر البلغار المترحلون في حوض الدانوب الأدنى . وأخذت النزعات القومية تنمو ويصلب عودها بأرمينية وسورية ومصر . وأخذ العرب يغيرون على التخوم الشرقية والبلميون^(٢) (Blemmyes) على الأطراف الجنوبية . وقد شل قراصنة الوندال حركة التجارة في البحر المتوسط . ولكن هذه لم تكن إلا صعباً هينة . ولم تعد فارس مصدر متاعب للإمبراطورية لانشغالها بغزوات الهون . على حين أن نفوذ البرابرة داخل الإمبراطورية قد كبح تماماً . وبذا لم تبرح الإمبراطورية قائمة عند نهاية القرن.

كلوفيس وفتح غالة

ولم تنقض سنوات كثيرة حتى حاول المنحالفون في غالة بسط حدودهم^(٣) . فإن القوط الغربيين نزلاء أ كيتانيا ، الذين أحبط ماجوريان مجاولاتهم الاستيلاء على ساحل الريقييرا العظيم القدر ، حولوا وجهتهم إلى أسبانيا ، ولم يلبثوا حتى

(١) من شاء تفصيل هذه الأحداث فلينظر للمتّرجم . « الحضارة البيزنطية » تأليف والسيان (الألف كتاب) (الترجم)

(٢) البلميون . قبائل تسكن جنوب مصر . (الترجم)

(٣) انظر ف ٢ القسم المنون « البرابرة في فرنسا وأسبانيا »

احتلوا البلاد كلها عند (٤٧٦) باستثناء إقليم جليقية ، الذى صمد لهم فيه السويف . وحوالى ذلك تعرضت بروفانس لهجوم قوى . ولما لم تستطع إيطاليا إرسال أية مساعدة ، أصبحت ممتلكات القوط الغربيين بقيادة يوريك فى أقصى اتساع لها ، فامتدت من مضيق جبل طارق إلى مصب اللوار ومن المحيط الأطلسى إلى جبال الألب . وفى تلك الأثناء استولى البرجنديون فى سافوى على مدينة ليون ، وصار فى قبضة أيديهم حوض الرون بأكمله من جنيف إلى أفنيون . وكان جلياً حتى ذلك الحين أن الفرنجة السالين أدوا واجبه كجند مرتزقة متحالفين . وكان ممثل روما بشمال غالة شخصية بالغة الغرابة ، تمثل صفات ذلك الزمان . إذ إن آيچيديوس ممثل روما عين فى عهد ماچوريان قائداً للجيش الرومانية فى غالة . وانقطعت عليه السبل إلى إيطاليا بسبب وجود الممتلكات القوية التابعة للقوط الغربيين والبرجنديين ، فأصبح بذلك حاكماً مستقلاً ، ثم خلفه فى هذا الوضع الشاذ ابنه سياجريوس ، الذى اتخذ سواسون عاصمة له . وكان البرابرة يعرفونه باسم ملك الرومان (Rex - Romanorum) — وهى عبارة لا معنى لها عند الرومان . وكان شلديك وهو من رؤساء الفرنجة السالين أعان القوات الرومانية على اللوار فى صد السكسون المغيرين ورد هجمات القوط الغربيين المتجهة شمالاً . وأدرك بوضوح ميزة الاحتفاظ بشمال غالة مفتوحاً أمام زحفه . وفى تلك الأثناء كان الفرنجة الريبواريون ينتشرون على يمين الراين ويساره من مراكزهم فى كولن ومايتز .

وفى (٤٨٢) توفى شلديك ، وخلفه على العرش ابنه كلوفيس وقد بلغ من العمر ستة عشر عاماً . وقد كادت شخصية هذا المبقرى العجيب شيئاً من

النشوية من كثرة ما رُدَّت في ملاحم الساجا التي وضعها المعجبون المعاصرون له . فإنهم عبدوا فيه بطلا صورته أخيلتهم ؛ وهذا صيغ ما اشتهر به الفرنجة من وحشية ومكر وغدر في أبلغ صورة ممثلاً في شخصية كلوفيس الأسطورية . والراجع أن الصورة هنا أدق من تلك التي دمجها عنه الكاثوليك بوصفه المدافع التقى عن الدين ، الذي يشن حرب الهدى والتقى على المراقبة والوثنيين . ولكن واحدة منها لا تنصفه . فإن عظمتها الكاملة لا تتجلى إلا فيما أنجز من أعمال جليلة ، غيرت وجه بلاد غالة في أقل من ثلاثين سنة . فلم يعد للالتزامات التي تقيد بها المحالفون أية قيمة ، وكان سيلاجريوس أول غرض لهجوم المحالفين . وإذا تعرض سيلاجريوس لهزيمة ساحقة قرب سواسون، فإنه فر إلى القوط الغربيين ، غير أنهم أسلموه إلى كلوفيس تحت التهديد ، فأمر بإعدامه . وسرعان ما سقط في يد الفرنجة كل ما يقع من فرنسا شمال نهر اللوار (باستثناء إقليم بريتانى الذى حافظ على استقلاله قبائله الكلتيه يعاونها لاجئون رومانيون بريطانيون) وفي الآونة نفسها ، تمكن كلوفيس باستخدام أساليب القتل والفتح أو المكيدة الحربية من بسط سيادته على سائر السالين ، وما لبث أن تهيأ له بنفس الوسائل إضافة الفرنجة الريواريين إلى إمبراطوريته ، ثم دفع الألمان إلى ما وراء الراين بعد قتال مرير .

على أن حادثاً خطيراً وقع قبل إتمام هذه الأعمال - وهو تعميد كلوفيس على المذهب الكاثوليكي . وستظهر فيما بعد أهمية هذا الحادث . فمن نتائجه المباشرة أن تحول كل قسيس كاثوليكي بأرض القوط الغربيين أو البرجنديين إلى أداة تعمل على نصرة كلوفيس ، والحصول على تأييد السكان الرومان في غالة ، وجعله حليفاً مرغوباً فيه من وجهة نظر بيزنطة

ضد حكام الغرب الآريوسيين . وبفضل هذه الميزات ولضعف ألأريك الثانى الذى خلف يوريك على حكم القوط الغربيين ، قام كلوفيس بمهاجمة القوط الغربيين ، وبعد بضع حملات لم يحالفه التوفيق فيها ، استطاع آخر الأمر أن يقهرهم فى معركة فوجليه (Vougle) الشهيرة قرب پواتيه (٥٠٧) . فلقى ألأريك مصرعه ، وانتقلت أملاكه بغالة إلى قاهره (كلوفيس) ، وذلك فيما عدا شاطئ الريشير الذى بادر القوط الشرقيون إلى الذود عنه فى الوقت المناسب ، وبذا تمكنوا من الاحتفاظ به لإيطاليا . ومنذ تلك الساعة اقتصر حكم القوط الغربيين على أسبانيا . وكانت آخر ضحايا كلوفيس هى برجنديا ، ولكن فتحها لم يتم إلا بعد عشرين عاما من وفاته فى (٥١١) واستخدمت وسائل كثيرة ؛ منها الحرب الصريحة والارتباط بالمحالفات المبنية على المصاهرة ومساندة الأحزاب والخيانة والغدر والاعتقال . على أن برجنديا التى قامت بدفاع مجيد لم تخضع سنة (٥٣٢)^(١) إلا نتيجة لنفوق عدد قوات العدو .

الممالك الجرمانية الرومانية

ولا يخفى أن اتحاد ثقافتين إنما هو عملية بيولوجية ، وأن ما يترتب على مثل هذا الاتحاد من نتائج لا يمكن تحليله بدقة شأن خلق أى شخص وعدم إمكان تفسيره بنظريات مندل . ومع ذلك ، فإن ازدواج الثقافتين كان بالغ الوضوح فى المراحل الأولى . فإن معظم هذه الممالك سقطت قبل تحليل هذا الازدواج بزمان بعيد ، إذ إنه حتى مملكة الفرنجة نفسها لم تستكمل وحدتها التامة إلى أيام شارلمان . وكان الازدواج قطعة من طبيعة الاستيطان نفسه ،

(١) انظر ف ٣ القسم المعنون « المؤمرات الكاثوليكية فى فرنسا » .

الذى يعتبر من تراث الجمهورية الرومانية . إذ إن الجند المرابطين بالأقاليم كانوا ينزلون في بيوت الأهالى ، الذين كانوا يتنازلون لضيوفهم عن نسبة معينة من ممتلكاتهم (هى فى العادة الثلث) . ويمتضى نظام الضيافة (Hospitium) كان بكل إقليم تقريباً فى القرن الرابع جماعات من الجند المرتزقة المحالفة (وهم محالفون من الناحية النظرية) . والراجح أن القوط والوندال كانوا يعتبرون — فى البداية على الأقل — عند الرومان بكل من إيطاليا وغالة وأسبانيا ضعيفاً ثقيلاً ومؤقتاً من نفس ذلك النوع . وبهذا كان الانقسام حاداً بين الجرمان (البرابرة) والرومان ، فالسكان المدنيون ، فى جانب ، وهم يقومون بالإدارة والزراعة والتجارة ، والجند فى جانب آخر — وهم فى الأغلب من البرابرة المهرطقة — لا يخضعون إلا لقوانينهم ، وعرفهم ، ولا ينزلون بالمدن ولا يدينون بولاء إلا لزعمائهم .

وكانت الملكية (حكم الملوك) شائعة الانتشار ؛ ولكنها لم تكن من الطراز الرومانى ، الذى تطور عن فكرة أوغسطس «الجمهورية» فقد كان الملك أو الرئيس الجرمانى ينتخب قديماً على يد جمعية الأحرار ، الذين كانوا يرفعونه على ترس ، وبذلك ينادون به زعيماً لهم . فالملك ذو الشخصية القوية المنحدر من أسرة شهيرة مثل أسرة آمال أو بالثيد أو ميروفتنج ، كان بوسعه أن يتحدى حلقة المقاتلين الأشداء ، وإذا هو وفق إلى الظفر فى القتال أو الفوز تزداد قوته ونفوذه . فعندما اقتاد أليريك وجزريك وثيودوريك جماعات من أجناس مختلفة ونفذوا إلى الأراضى الرومانية ، لم يعد حكمهم قومياً ، بل تحول إلى زعامة شخصية تعتمد على أساس عسكرى . وزالت جمعية الأحرار من الوجود ؛ وأخلت الأرستقراطية العنصرية المكونة من صفار الزعماء مكانها لطائفة جديدة مؤلفة من النبلاء يقومون بالخدمة فى

الوظائف اجتمعوا حول شخص الملك بوصفهم محافظى قصر (صناعلة Seneschal) أو ماريشالات أو كوستبلات ؛ أو يتولون حكم أقاليم المملكة كالكونتات ، الذين جمعوا فى أيديهم السلطين المدنية والعسكرية .

ومن الواضح أن هذا النظام البدائى مخالف تماماً لسلم الوظائف عند الرومان ، فثلاً من الجائز أن يعمد إلى رجل البلاط عند الفرنجة القيام بهام خاصة . على أنه بقى من النظام المالى الرومانى بعض الآثار الجزئية ، حتى بمملكة الوندال نفسها . فبقيت الضرائب غير المباشرة — واستمرت المكوس على الكبارى والمعديات — وبقيت أيضاً رسوم الموانى ونحوها — واستمر السكان الرومان يدفعون ضريبة الدخل ما بقيت سجلات الدولة قائمة . على أن الجرمان لم يفهموا الضرائب المباشرة . ولم يكن نظامهم السياسى يستسيغها ، كما هو ظاهر لنا عند الفرنجة . كان الملك حاكماً مطلقاً : وكأن المملكة ملك خاص له يرثها ورثته ؛ وكانت لإيراداتها تذهب إلى « خزائنه » . وليس عليه نحو رعاياه واجبات ؛ ولم يكن ثمة من الخدمات العامة ما يجرى الإنفاق عليه . وإذا نظرنا إلى الضرائب فى هذا الضوء تبين أن الضريبة لم تكن إلا ابتزازاً غير مشروع ، يتولى جبايتها عادة القوات المسلحة . فإذا كان الملك بمن مست قلبهم التقوى أو أصابه مرض خطير ، التمس منه الأساقفة تخليص روحه من نار جهنم بإحراق سجلات الحسابات .

ومن الآثار الموروثة أيضاً عن نظام الاستضافة ، أن كلا من الجرمان والرومان ظلوا يخضعون لقوانينهم الخاصة^(١) . ومع ذلك ، فإن ذلك الوضع

(١) انظر الزراعة الفصل الخامس عشر .

المتعب قد خففه التزام الجانبين لشيء من المساهلة والوفاق . ففي ههناك القوط الغربيين والبرجنديين التي اشتد بها الطابع اليوناني ، اقتبست مجاميع القوانين التيوتونية الشيء الكثير من التشريع الروماني ؛ أما في مملكة الفرنجة فقد صار القانون السالي المختلف تماماً عن القانون الروماني ، سائداً بالمناطق التي يغلب في سكانها العنصر التيوتوني .

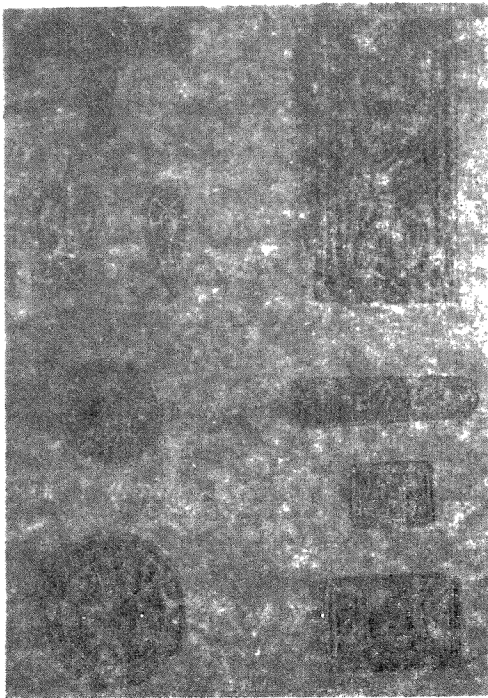
وكان المبدأ الرئيسي في القانون الجرمانى هو إبطال ما تأصل بين العائلات من عادة الأخذ بالثأر ليحل مكانها ما يكفله الملك من السلام . ولهذا الغاية وضعت قائمة مفصلة بقيم التعويضات . وكان لكل فرد دية (Wergild) التي تختلف باختلاف سنه ومكانته ، والتي يدفعها قاتله لدوى قرياه . ولكل أصعب ثمنه ؛ وكل جرح يقدر التعويض عنه بغاية الاهتمام . والقانون السالي يمتاز بالشمول والتفصيل ؛ بما خصص به من التفاصيل حول سرقات الماشية أو الخنازير وعمر الحيوان وحالته ، وموضع الحادث وظروفه . ومن الواضح أن هذه التسويات لا علاقة لها بالعقوبة والجزاء ، فلم يكن الغرض منها سوى الحيلولة دون تطور الأمور حتى تصل إلى حد العداوة والمنازعات . ومما يشهد بأهمية الأسرة كوحدة اجتماعية ، ما ورد في القانون السالي من نص مشهور يقضى بمنع الإناث من وراثة المزارع ؛ وبذا توزع الأرض بين الأبناء فقط بشرط ألا يخرج عن دائرة العائلة .

ومقدار الدية يمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم المجتمع الفرنجى . فإن دية رجل البلاط ، وهى ٦٠٠ صولدى (Solidi) ، ثلاثة أمثال دية المقاتل الحر ؛ ودية الرومانى الحر (من جميع الطبقات) تعتبر نصف دية الفرنجى الحر ، كما أنها تعادل دية الفرنجى شبه الحر (Laeti) ، وهو من طبقة تقع

بمنزلة وسط بين الأحرار والزريق ، وتقابل من بعض النواحي عند الرومان ، طبقة فلاحي الأرض الذين كانت ديتهم مع ذلك أقل من دية الرومان . أما الصنّاع غير الأحرار والأكثر مهارة مثل الصيّاع ، فتزيد ديتهم على دية سائر العمال . وإن مركز الروماني في هذا التصنيف ليدل على انحطاط قدره . بيد أنه كان يستطيع تحسين مركزه بالدخول في خدمة الملك ، كما فعل كثير من النبلاء الغالين الرومان (Gallo - Roman) .

فرنسا في عهد كلوفيس

والراجع أن قوة الغزو الكاملة اقتضت على بلجيكا وشمال فرنسا ويقع قلب مملكة الفرنجة شمالي نهر اللوار وشرقه ، ويضم مدن أورليان وباريس وريمز وسواسون وكبراي وكولن (كولونيا) . وفي إمكان المرء منا أن يتصور ما كان يتناثر في هذا الصقع من قرى وضياع : وهي مجموعات من بيوت ومخازن منخفضة البناء ومسقفة بالقش والقصب ، ومبنية بالخشب وأعواد الشجر والأقذار ، وتفصلها سياجات من غصون الأشجار عن الحدائق والبساتين والمروج والأرض المعدة للحرث . والواقع أن جميع ما نعرفه من أنواع اللحوم والفاكهة والخضر كان معروفاً وقتذاك ، كما يتبين من رسالة في التغذية كتبها لكلوفيس الطبيب البيزنطي أنثيموس ، الذي أرسله إليه ثيودوريك الكبير . ومن ألوان الطعام المحبوبة لحم الخنزير والبيض المسلوق طويلاً . ولكن البيض المسلوق لا يحظى باستحسان الطبيب . وهو يرى أن الجبن الطازج غذاء مفيد ، على أن ما كان قديماً وجافاً منه ، فليس سوى السم نفسه . ومما تذكره الرسالة السمك والدواجن ولحم الصيد واللحوم المطبوخة مع الخضروات وأنواع المشبهات المصنوعة من النبيذ والشهد ومركبات اللبن



(٥) جواهر البراءة

ثم الجملة وشراب العسل . وتقدمت الزراعة . وكان القوم يستخدمون الطواحين التي تديرها الثيران إلى جانب الرحى اليدوية ، كما أن استخدام الطاحون المائي الروماني أخذ ينتشر . ولم يكن يجري بتلك المنطقة إلا قدر ضئيل من التجارة : وكانت الواردات الأجنبية مقصورة على أدوات الترف كمصنوعات العاج والجوهر والقرنفل والفلفل والبصل والتين . وكانت الطبقة الحاكمة تعيش في معظم الأحوال بالريف : وكان للأساقفة سلطان كبير على سكان الشوارع الضيقة بالمدن المسورة ، وكانوا يؤيدون دولة كلوفيس تأييداً قوياً . وفي مقابل ذلك ظفرت الكنيسة بالهبات السنية . وشيد كلوفيس وأبناؤه الأديرة في باريس . وتمكن نيكيتيوس أسقف ترييف (Treves) من اجتلاب العمال الإيطاليين لتعمير الكنيسة البازيليكية القديمة وإن عمرها تعميراً رديئاً إلى حد ما . على أن أعمدة من الحجر الجيري حليت تيجانها بما حفر عليها من أشكال وجه الإنسان ، حلت محل أعمدة الجرانيت الكورنتية ، التي تحطمت عندما أحرق الفرنجية المدينة . ودهنت الجدران لمحاكاة الواجهات الرخامية السابقة . ومع ذلك فإن كنائس أخرى تزخر بالفسيفساء ورقائق الذهب والزجاج الملون . وفي (٤٧٠) أعيد بناء البازيليكية التي كانت تغطي قبر القديس مارتن بمدينة تور ، وهي مركز شهير للحج ، وأقيم بها مكان نصف دائري لجوقة المرتلين ، تقل طرازه عن مزارات الحج المقدسة في الشرق كالناووس المقدس ببيت المقدس . ولم يلبث هذا الشكل المعمارى حتى تمخض عن طراز الحنايا (Chevets) بالكاتدرائيات الرومانسكية والقوطية بفرنسا . وتنجلي أيضاً في حليات القوط والفرنجية مؤثرات شرقية ، هي مؤثرات الفن اليوناني السرماني المعروف بشبه جزيرة القرم ، بما فيه من أشكال حيوانية

تتخذ بأسلوب خاص ، ومن الجواهر القائمة المتلاثلة ، أو مكعبات الزجاج المركبة في مقببات الذهب . ويدبج لنا سيدونيوس صورة مشرقة لشاب من نبلاء الفرنجة وحاشيته في ثياب الاحتفالات والأعياد . وهو يشير إلى ستراتهم المخططة اللاصقة بأجسامهم والتي تملوها عباءات خضراء أرجوانية الحواشي ، ومن فوق هذه معاطف من الجلد ؛ وتبدو ركبتهم عارية وقد انتعلوا أحذية من الجلد ؛ وتأثلق زخارف خيولهم بما رصعت به من جواهر وهم بمحاملهم وسيوفهم ، وبما يحملون من البلط والحراب والتروس البراقة ذات السرر الذهبية والحواشي المفضضة ، يسرون خلف الأمير الذي ظهر بينهم في « عباءة قانية الحمرة كلهيب النار وسترة (توقة) حريرية ناصعة البياض مرصعة بالذهب ، وقد اتسق شعره الأشقر وحذاءه الحمراءوان وبشرته البيضاء مع ألوان عتاده وثيابه »^(١) .

والمرجع الرئيسى لدينا عن أحوال غالة الجنوبية في ذلك الزمان هو سيدونيوس أبولينارس ، وهو نبيل من النبلاء الغالين الرومان (G.R) وسياسى وشاعر ، أصبح فيما بعد أسقف كليرمونت في أوفرنيه (Auvergne) . والنظر الذى يصفه سيدونيوس منظر غريب التفت فيه آداب وطباع العصور القديمة والمصير الوسطى . وهو يشير إلى أن قلة من النبلاء قد اعتصمت بالقلاع القائمة فوق الصخور العالية ، بينما ظلت غالبيتهم يعيشون في دور ريفية ضخمة ، ويقضون نهارهم ، شأنهم أيام هادريان ، داخل مكتباتهم وحماماتهم وفي مزاولة اللعب بالأكر أو فى الصيد أو فى القيام بزيارة الأصدقاء . وكانوا يتناولون طعامهم تحف بهم الأستار الأرجوانية ويعبق الجو من حولهم بنفام

(١) من ترجمة المستر أ . م . دالتون لسيدونيوس .

البخور ، وعلى مواعدهم صحاف الفضة الخالصة والكثوس التي تزينا باقات الورود ، ويتلهون بالاستماع إلى نغمات القيثارة والناي ومشاهدة الراقصات الكورنثيات . ويتبادل القوم فيما بينهم رشيق القصائد ورفع الرسائل ، التي يتجاهلون فيها ماوسعهم الجهد ، وجود البرابرة « المتشحين بالجلود » ، والذين هم يقيسون في ممالكهم ، على أن انحدار مكانة روما أمر لم يكن خافياً . وربما أمكن المرء أن يهجو سراً أولئك البرجنديين الغلاظ ، أو أن ينكر الآداب المرعية في بلاط القوط الغربيين ، غير أنه لا بد للفرد في الحياة العامة أن يندل لهم كل الملقى . بل إن من الناس من تملك قلبه اليأس من روما فأخذت تراوده الأحلام بانفصال غالة عنها ، وجعلوا ثقتهم في البرجنديين والقوط الغربيين الذين اصطبغوا بالصباغ الروماني . وتمر أمام أعيننا في ثروة ضخمة من التفصيل كل طرائق العيش المتنوعة في غالة الجنوبية . فتمر بنا صورة بلاط القوط الغربيين وملوكهم الطويل المشوق وصيده ومواعيده وغرامياته ، وتمر أيضاً أشكال الحياة من سكسونية وهيرولية وفرنجية ؛ وفيها سادة الغاليين الرومان المتأدبون منهم والريفيون والأقبياء ؛ وهناك الأسقف والراهب والتاجر ؛ والكروم والمزارع والخنانات والمسافرون واللصوص والسياسة وشعر الحكمة والأمثال والمناظر الطبيعية والمشاهد العائلية . وعلى الرغم من أن سيدونيوس لم يشهد فتوح كلوفيس ، فالراجح استناداً إلى مصادر أخرى أنه لم يترتب عليها تغيرات جذرية . ذلك أن الحضارة الرومانية لم تستأصل من جذورها ، فإن البربري اقتطف في إعجاب الطفل الساذج الزهرة الواهنة التي قات أوان زهورها ؛ وإذا هي تذبل بين أصابعه .

إيطاليا في زمن ثيودوريك

على أن مملكة ثيودوريك الإيطالية تقف بمزمل عن ممالك غيره من الحكام العرمان . إذ إنها محاولة فذة لاستخدام نظام للضيافة في الاحتفاظ بالحضارة الرومانية كاملة غير منقوصة . كتب إلى الإمبراطور أناستاسيوس يقول : « إن مملكتي ليست إلا صورة مطابقة لمملكته » . غير أنه كان في الواقع في وضع مخالف تماماً . إذ إنه لم يكن ملكاً إلا على أتباعه من القوط الشرقيين وغيرهم . بينما كان يتولى الحكم على السكان الرومان بإيطاليا بوصفه نائب الإمبراطور الذي يحمل ألقاب « سيد الجند » و « البطريرك Patricius » شأن ما فعله من قبل استيليكو أو ريكيمر أو أودواكر . وتجنب ثيودوريك الحصول على إيضاح حول وضعه ذلك ؛ إذ إن ذلك كان ينطوي ضمناً على التسليم بحق الإمبراطور في الهيمنة عليه بل حتى خلع ، بوصفه مجرد موظف طارئ . على أنه التزم الناحية النظرية في كل أعماله . فإنه لم يسك عملة باسمه ؛ كما أن قراراته لم تكن تطبق إلا في الولايات الإيطالية . إذ لا يجوز لأحد عدا الإمبراطور أن يضع رسمه على السكة ، ولا أن يسن القوانين (Leges) السارية المفعول في الإمبراطورية . فبقيت الإدارة الرومانية المدنية سليمة لم تمس ؛ ولم يكن في البلاط صناجة^(١) ولا ماريشالات بل . والى البرايتوري وكبير الموظفين (Magister officiorum) وغيرها . وظل مجلس السناتو يعقد جلساته في روما ويلقى التبجيل من ثيودوريك . وظلت الولايات

(١) الصناجلة جمع صنجال وهو ناظر أو حاجب القصر الملكي عند الفرنجة .

[المترجم]

يحكمها ويحجب الضرائب منها موظفون من الرومان . على أن نجوة عميقة كانت تفصل بين القوط والرومان أى بين العسكريين والمدنيين . وكان الزواج بين المنصرين محظوراً . ولم يكن الفريقان يلتقيان إلا عند القعة فى شخص ثيودوريك الذى كان هو نفسه مواطناً رومانياً ، على الرغم من أنه ليس فى وسعه أن ينقل هذا الوضع إلى غيره . وكان القوط خاضعين لسكونتات (Comites) الأحياء ، شأنهم فى سائر الممالك الجرمانية الأخرى . واستحدثت وظائف جديدة تتمثل فى الحماة (Saiones) الذين يتولون وقاية الرومان من ظلم القوط وخص حالات سوء استخدام السلطة مثلما كان يفعل عملاء الإمبراطور (Agentes in rebus)

وإن « مرسوم ثيودوريك » ليعطينا فكرة واضحة عن سياسته . فإنه عبارة عن مجموعة قوانين مستمدة كلها تقريباً من التشريع الرومانى وليس بها إلا مبتكرات ضئيلة . وقد بذلت محاولة خاصة ، كما حدث فى القانون السالى للاستعاضة عن الأخذ بالنار بالالتجاء إلى الطرق القانونية . ويحافظ المرسوم على المركز الممتاز للملاك الأرض ، غير أنه انطوى أيضاً على تدابير لمنع الظلم الواقع على صغار الفلاحين (Coloni) . وقد صدرت قوانين صارمة لمناهضة الاختطاف وهى تعد دليلاً على قلة الأيدى العاملة . على أن الطبقات الدنيا أفادت بطريق غير مباشر ، لا بفضل الأمن والسلام اللذين أفاءها حكم ثيودوريك القوى فحسب (يقول معاصر معجب به : « لم تكن بوابات المدن تغلق قط ») ؛ بل بالإضافة إلى لأثرة الأسواق الدقيقة التى أصدرها وضبط أسعار المواد الغذائية . ولحرصه على أن تكون مؤونة الجيش رخيصة الأسعار ، منع ملاك الأراضى من الاستغلال فزاد انخفاض الأسعار . وكان الغرض العام من المرسوم المحافظة على القديم . فليس وراءه أية نظرية يقوم عليها ، إذ الهدف الأول

والأخير منه الاحتفاظ بالحضارة الرومانية إلى الأبد ، ثابتة دون تغيير ، وأمنة داخل حلقة الحراب القوطية .

وكان ثيودوريك سعيد الحظ بمادحه كاسيودورس ، الذى يمرض سياسة سيده فى عبارات ملتوية ، وهى وإن كانت تنطوى فى تكلف على فخامة اللفظ والخذلقة ، فإنها تعلو أحياناً إلى مرتبة الفصاحة الحققة ، ويتجلى فيها دائماً روح كريمة شريفة . على أن التدايير التى اتخذها تفصح عن نفسها . فإن الضرائب أُجلت ، وافندى المواطنون الرومان من قبضة المغيرين البرجنديين . وحصنت قلاع الحدود . وجددت الأسوار وسقايات المياه ودور التيارات^(١) بروما ورافنا وثيرونا . وحرصت الحكومة على ما اختصت به العاصمة من حق المجانية فى الحصول على الخبز ومشاهدة السيرك . وقام فى رافنا قصر فخم وكنائس عديدة ومقبرة فخمة ، وكان بلاط ثيودوريك فى رافنا مركزاً لحكومة قوية . وكانت أيضاً وسيطاً ينقل الثقافة إلى الممالك الجرمانية ، أو على الأقل ، بعض مظاهر المدنية والأعيها . فقد تلقى ملك برجندي ساعة مائية ، على حين حصل كلوفيس على موسيقار وطبيب يزنطى مع التحيات المناسبة . وانطلق شعراء كثيرون من إيطاليا يلتمسون حظهم عند ملوك غالة . وظهرت نهضة أدبية صغيرة . وكانت ميلان من مراكز تلك النهضة ، وازدهرت فيها مدارس النحو واللغة تحت رعاية الأسقف لورانس فكان يؤمها الصبيان من كل صقع حتى من غالة . فهنا وفى ميلان ورافنا كان الرومان أمثال كاسيودورس وإنودىوس يؤيدون حكم القوط . ولم يلق حكم القوط معارضة إلا فى روما

(١) التيارات : التيارات لفظة أقرأها بجمع اللغة العربية ونمرها بجمع الوسيط . وهى

فإن المدارس الشهيرة بالعاصمة بما تهبأ لها من تقاليد عريقة وأساتذة موفوري المرتبات ، كانت تعتبر المعقل الحصين للأسرات السناتورية العريقة وموئل التراث القديم . وكان لكثير من هذه العائلات صلات بالقسطنطينية ؛ ثم أخذ ثيودوريك فيما بعد يرتاب فيما يجري في تلك الناحية من مؤامرات على الحكم الآريوسى والقوطى .

ويعتبر بوينيوس أعظم الرجال في إيطاليا زمن القوط الشرقيين ، وهو من تلك الشخصيات النادرة الذين يجمعون في أنفسهم كل معارف زمانهم . فهو عالم وفيلسوف ولاهوتى وشاعر ، وقد أصبح قنصلا وهو فى الثلاثين من عمره ، وأدى خدمات هامة لثيودوريك . ولكن لعله يمثل عصره حق التمثيل بذلك التناقض بين ظاهر مركزه وحقيقة ذلك المركز . ففي تلك القصيدة المترعة بالحقد التى جعل عنوانها « عن بوينيوس وتقلده السيف » أظهر إنودىوس التناقض العميق بين ما كان للحزب الرومانى « من مزاعم ضخمة خيالية » وما كان جاريًا فعلا من تفوق القوط فى السلاح ، على أن بوينيوس فى كتاباته — رغم تفوقه فى الفنون الأربعة الحرة^(١) — واعتباره الشارح الصادق لأرسطوطاليس وفرفورىوس ، وميله إلى التعاريف والصفات المميّزة وكونه من رجال اللاهوت البارعين — لا يبدو أنه « آخر الرومان » وإنما هو النموذج الأول للعلماء والمدرسانيين^(٢) فى القرون الوسطى . وترجم الملك ألفريد إلى الإنجليزية

(١) الفنون الأربعة الحرة : (Quadrivium) هى فى التربية بالقرون الوسطى فروع الرياضيات الأربعة : الهندسة والحساب والفلك والموسيقى . (المترجم)

(٢) العلماء للمدرساتيون (Schoolmen) : هم فلاسفة العصور الوسطى أو علماء اللاهوت بها ، والمدوساية مصطلح وضعه المترجم للدلالة على هذا النوع من الفلسفة (المترجم)

أشهر أعماله وهو الكتاب المعروف باسم السلوى الفلسفية Philosophiae Consolatio . وكان أثره قوياً في فكر العصور الوسطى كأي كتاب آخر . وقد صنفه يوثينيوس وهو في سجنه . وأدرك ثيودوريك أن مسارعة ، النبلاء إلى قبول مراسيم الإمبراطور جستين المناهضة للأريوسية ، سوف تدمر كل ما قام به في حياته من عمل . فأمر — وقد أفقده المرض والشكوك توازنه العقلي — بإعدام يوثينيوس مع إنزال التعذيب القاسي به . واعتبره الكاثوليك شهيداً ، وإن كان الأخلق به أن يسعى بشهيد قضية السناطوريين . ويرجع ذلك إلى ما كان من الخصومة بين حزب الفاتيكان بمن انحاز إليه من رجال القانون من العامة (الپليبان) ، الذين أخذوا وقتند في وضع الأساليب والطرائق التي اشتهر بها بعد ذلك المجلس البابوي ، وبين الدائرة الصغيرة من الأسر النبيلة المستمكة بحكم نشأتها وتربيتها ببثل عليا أقدم عهداً وأشد تهدياً .

وتنقسم سياسة ثيودوريك الخارجية إلى فترتين ؛ ويعتبر ظهور كلوفيس حداً فاصلاً بين هاتين الفترتين . فكانت خطته أول الأمر أن يطمئن إلى سلامة التخوم الإيطالية بإبرام سلسلة من المحالفات مع الممالك الجرمانية الواقعة إلى الغرب منه . ذلك أن تلك الدول الآريوسية البربرية تشترك جميعاً في نوع المشاكل المتعلقة برعاياها من الرومان المستمكين بالعقيدة السلفية ، والمتصلة بعلاقتها بالإمبراطور (البيزنطى) السيد الأعلى اسمياً . وكان هدف ثيودوريك أن يقيم توازناً للقوى بين هؤلاء الحكام، وأن يقوم بدور الوسيط بينهم وبين القسطنطينية . وبهذه الوسيلة استطاع أن يكفل لنفسه الزعامة على الممالك الجرمانية ، وأن يجعل نفسه نافماً للإمبراطور . وكان يرجو من وراء ذلك أن

يكون مقاومة قوية لأية فكرة لاسترداد إيطاليا (Reconquista) تراود عقول رجال الدين أو الإمبراطور في بيزنطة . (فإنه لم ينس سقوط سلفه أو اودواكر) . ووفقاً لهذه الخطة تزوج ثيودوريك من شقيقة كلوفيس ؛ وزوجت إحدى بناته من ألاريك الثانى ملك القوط الغربيين ، وتزوجت أختها من مجسموند أمير برجنديا . وتزوجت أخته من ثراسامند ملك الوندال ، وبذلك أزال الخطر من جنوب إيطاليا . أما إقليم الدانوب الذى يصح أن تتنازه الجيوش البيزنطية فقد أمنه طرد الجيبيد من سرميوم المركز الاستراتيجى العام .

وتحطم الصرح المعقد بأكمله بضربة واحدة ، يوم انتصر كلوفيس والبرجنديون فى (٥٠٧) على جيوش القوط الغربيين فى وقعة فوجليه ^(١) . وعندئذ لم تعد هناك أية جدوى من كل ما اتخذته ثيودوريك من وسائل لتحذير ألاريك مما يحدق به من خطر ، ولعلزل برجنديا الدولة الحاضرة . وهنا علت فى غالة كلمة دولة كاثوليكية كبرى تؤيدها القسطنطينية فيما يبدو ، وكانت إسفينا بمتد بين الدول الآريوسية المذهب . وكان لا بد بأى ثمن من منعها من الوصول إلى البحر المتوسط . وذلك بأن يزحف ثيودوريك على غالة ، وينتزع إقليم بروقانس من البرجنديين . ويجعل نفسه قياً على حفيده القوطى وارث عرش أسبانيا . وتُعتقد محالقات جديدة مع الثورنجيين ، وهم الجليزان الأقوياء للفرنجة ، ومع الهيرول على الدانوب . وتُحصن قلاع الألب . وتُحل محل سياسة التوفيق بين المصالح المختلفة سياسة الصدام بين الدول . على أن هذه التدابير ، لم تصب - فيما يبدو - شيئاً من النجاح هى الأخرى . وتوفى كلوفيس فى (٥١١) :

(١) انظر : « الممالك الرومانية الجرمانية ف ٣ »

وعلى الرغم من أن العلاقات مع القسطنطينية كانت تتغير بلا انقطاع تبعاً لتغير
مزاعم البابا ودعاويه ، ولما كان من الخلافات المذهبية ومؤامرات السناتو
والمطامع الإمبراطورية ، فإن تلك العلاقات لم تلبث - فيما يبدو - أن استقامت
حينما تولى جستين سنة (٥١٨) العرش عقب أناستاسيوس . وكانت لثيودوريك
ابنة أخرى هي أما لاسونثا زوجه من يوثاريك ، وهو قوطى يجرى فى عروقه
الدم الملكى ، ثم بدا كأنما تأكدت له وراثته الملك يوم تبناه جستين رسمياً
وأصبح زميلاً له فى منصب القنصلية . ويحتم كاسيودورس تاريخه بذكر الحفلات
البهجة التى أقيمت فى روما احتفالاً بهذا الحادث . ولكن الجوتلبد وأذن
بالإعصار قبل وفاة ثيودوريك . فقد تولى العرش فى برجنديا أمير كاثوليكي ،
فأصبحت بذلك خاضعة لسلطان كلوفيس ، وأخذت تتفاوض مع بيزنطة تقدم
إليها مودتها . وأخذ يوم الصراع بين القوط الشرقيين والغرنجة يزداد قرباً
كلما اشتد ضعف الدولة الحاضرة . وفى تلك الأثناء أصبح الهيرول جنداً مرتزقة
محالفين للإمبراطورية ، وأخذوا يهددون الحدود الشمالية الشرقية . أما الوندال ،
وهم من أخطر الأعداء ، فقد أظهروا عداوتهم وكرهيتهم لثيودوريك . والآن
وقد اندمل الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، فإن البابا والنبلاء أصبحوا عند
ذاك يدلاً واحدة فى تأييدهم للإمبراطور . وأصبحت أيام الحكم القوطى الشرقى
معدودة ، ومن ثم لم يعد لما اتخذ ثيودوريك من إجراءات صارمة للقضاء على
كل مناهضة لحكومته من أثر سوى أن أضافت إلى ثيودوريك بطل الجرمان
فى ملحمة ديتريش (Dietrich) ، صورة أخرى وردت فى الحكايات الشعبية
الرومانية وسير القديسين لشخصية ثيودوريك الظالم المضطهد البشع الذى
تراعت له فى ساعة نزع الأخير ضحاياه ، وألقت به أيديهم النائرة فى نار
جهنم البركانية .

الآريوسية الجرمانية

حدث بعد (٣٤٠) أن أولفيلاس تمكن من هداية بعض القوط الساكنين عند مصب الدانوب إلى اعتناق المسيحية ، وكان أجداده قد نزحوا من قبادوقيا في إحدى الغارات وأكسبه عمله الكبير لقب « رسول القوط » . وقد ترجم الكتاب المقدس إلى لغتهم ، ولكنه أسقط من الترجمة سفر الملوك ، إذ رأى أن قصص حروب العبرانيين قد تبلغ من الإثارة مالا يحتمله هؤلاء القوم المعروفون بشدة الحمية . ولقد لقي أولفيلاس في البداية مقاومة عارمة ، ولعل ذلك يعود إلى عرضه المسيحية في صورة العقيدة المسالمة ، بيد أن الإنجيل لم يلبث أن انتشر بسرعة ، وانتقل غرباً مع القبائل الغازية إلى إيطاليا وغالة وأسبانيا وإفريقية . وكان أولفيلاس أريوسى المذهب ، وأصبحت هذه الهرطقة هي الصورة العامة للمسيحية الجرمانية ، على الرغم من أنها كادت تتوارى من الإمبراطورية نهائياً . وكانت النتائج السياسية لهذه الحقيقة بالغة الأهمية ؛ إذ إنها دقت بين الرومانى والبرابرة إسفيناً أقوى وأعق من العنصر والثقافة ، والواقع أن مذهب آريوس الذى أصبح يطابق وقتئذ المدنية الجرمانية ، — تعرض لتغيرات عديدة . إذ إن هذا المذهب ظهر أول الأمر على أنه خلاف لاهوتى . ولم يلبث أن تطور في أرض البرابرة إلى كراهية للاعتقادات (Dogma) زاد في أوارها — دون أدنى ريب — عجز الجرماني عن فهم أسلوب اليونان في التحايل الفكرى الخافى الذى كان في حد ذاته ثمرة تقاليد في الفلسفة الجدلية لا يقل عمرها عن ألف سنة ؛ وهذا البغض للاعتقادات يعتبر عودة إلى التعاليم البسيطة التى كانت سائدة قبل مجمع نيقية . ولم يقتصر الأمر على نقل الكتب المنزلة إلى اللسان القوطى ؛ بل تجاوزوه

إلى حد ما إلى الصلوات بالكنيسة . والزاجح أن تنظيم الكنائس الأريوسية ،
وهي المنقطعة الصلة بالنفوذ الكاثوليكي لاثامها بالزندقة ، فضلا عن فارق
الجنس ، — قد تأثر بالعرف الجرمانى ، على حين أن انزال الكنائس المستقلة
إنما يرجع إلى ضغط العرف الدستورى . وعلى غرار النظام الإدارى للأقاليم
فى داخل الإمبراطورية ، قام سلم وظائف الكنيسة الكاثوليكية المؤلف
من البطارقة والأساقفة . ولعل ما تبقى من آثار الروابط الوثنية القديمة بين
القبائل والسكانات المحلية كان له أثر قوى فى تحويل الكنائس الأريوسية
بكل مملكة من الممالك الجرمانية إلى كنيسة قومية لا تتجاوز دائرتها حدود
قومها وتخضع لنفوذ ملكها ويشدد حرصها على تقاليد هذا القومية .

وكان الرعايا الكاثوليك لدى ملوك الجرمان يلتقون تساعحا كبيرا فى المعاملة؛
فلم يكن ثمة ما يدعو للقيام بمحاولة منظمة لحملهم على اعتناق المذهب الأريوسى،
وذلك بسبب الانفصال التام بين الجرمان والرومان . إذ كان الإحساس الذى
ساد الجميع هو أن عقيدة الرجل هى عقيدة آمنه : وإن كلمة ثيودوريك
فى هذا الشأن المعروفة مشهورة حيث يقول : « نحن لا نستطيع فرض دين على
أحد ؛ فلا ينبغي إجبار أى إنسان على الإيمان بشيء يناقض إرادته » . ومع
ذلك فن العسير الفصل بين الدين والسياسة ، ومن ثم فإن جميع ما كان يتخذ
من إجراءات التمتع فى كل الممالك الجرمانية كان يستند إلى ما كان الرومان
يبدلونه من محاولات للاتئام مع إخوانهم الكاثوليك داخل المملكة
أو خارجها بقصد إعادة الحكم الإمبراطورى ، أو بقصد مساعدة ملك كاثوليكي
مثل كلوفيس فى فتوحه . على أن الارتياح فى وقوع الخيانة والكراهية
العنصرية ، طالما شحذت هذه الإجراءات فأحالتها إلى اضطهاد . وظهر بين

الوندال في إفريقية عامل آخر هو لهيب التعصب الديني - غير أنه ينبغي لنا ألا نبالغ في آثار هذه المسألة الأخيرة . ولم يحدث أى اضطهاد ديني مابق جزريك على قيد الحياة ، وإن تمخضت ظروف الفتح الوندالي بطبيعة الحال عن بعض المصاعب . وكاد جزريك أن يفشى من شعبه نواة مركزية تتجمع حول قرطاجة ، وينبغي أن تحتفظ بالطابع القومي^(١) . ومن ثم فإن الرومان المجاورين قد طردوا من ممتلكاتهم ، التي أصبحت « من نصيب الوندال » ؛ وتقرر أيضاً طرد رجال الدين الكاثوليك من المنطقة ، لكي لا تتسرب إليها مؤثرات رومانية ، وانتقلت أملاك الكنيسة إلى الأريوسيين ولم يبدأ الاضطهاد المنظم للكاثوليك إلا في (٤٨٣) وفي عهد هونريك الابن المقوت لجزريك ، فنشب أول الأمر بالمنطقة المحيطة بقرطاجة ، ثم انتشرت المملكة بأكملها ، وعلى الرغم من شدته فإنه انتهى بسوت الملك في السنة التالية .

المؤامرات الكاثوليكية في فرنسا

لم يكن القوط الغربيون يضعون في اعتبارهم سوى نقطة الخلاف السياسي . إذ إن ملكهم يوريك - وهو يسيطر نفوذه على أوفرنية - وجد أن من الضروري أن يأمر باعتقال سيدونيوس أسقف كليرمونت وزعيم الأرستقراطية الغالية الرومانية ؛ غير أن الاعتقال لم يكن بالغ الشدة ، ويظهر أن أشد ما كان يضايقه هو هذر عجوزين شحطواين تحت نافذة سجنه ، وكان يمتد خلف

(١) ومن قبل هذه المراكز تجمعات قوط أودواكر وثيودوريك حول رافنا وقيروما (وديريش البرق في اللعبة مونودوريك الفيروني) ومدن شمال إيطاليا ؛ وتجمع افريقية في شمال شرق فرنسا والسويش في جاليكيا .

الفزاة أثر طويل مما ينبعث من الكنائس المحترقة من الدخان وما ينمو في الهياكل المخربة من الأعشاب ، غير أن السكان الرومان في غالة وسائر الجهات ، لم يتعرضوا للأذى بعد أول هجوم عليهم سواء من الفرنجة أو القوط . على أن ظهور كلوفيس ، وهو جرمانى كاثوليكي غير وضع الأمور كلها . ذلك أن المقاومة الكامنة الناشبة بين الآريوسيين والكاثوليك في المملكتين الكبيرتين للقوط الغربيين والبرجنديين ، أصبحت وقتذاك جلية لا تخطئها العين . إذا اجتمعت في الكاثوليكية كل تقاليد روما وحضارتها . كانت الكاثوليكية قوة دولية ، وكانت الحلقة الأخيرة مع عواصم الإمبراطورية ، التي يرأسها كثير من عائلات غالة السناطورية^(١) ، وهي التي تتولى تخفيف ويلات المجاعة أو الفقر . وإزاء هذا الوضع وهذه المعارضة ، لم يكن بوسع الكنائس القومية الآريوسية التابعة لأقلية حاكمة من البرابرة ، بما طبعت عليه من روح جرمانية ونظام مركزي ، أن يكون لها في آخر الأمر السيادة .

وقام رجال الدين الكاثوليكي بكل من مملكتي القوط الغربيين والبرجنديين بمؤامرات متماثلة قصد بها العمل على زيادة بسط سلطات الفرنجة . فإن قيصريوس (Caesarius) أسقف آرل وهو من رجال العلم والسياسة ، قام بدور كبير في الأحداث التي تركزت حول حصار آرل المشهور بمن فيها من حامية من القوط الغربيين ، وذلك بفضل القوات المشتركة من البرجنديين والفرنجة . على أن الأسقف تعرض للثقي فترة من الزمن ، لاثهامه بمحاولة خيانة المدينة وتسليمها لبرجنديا . واستولى القوط الشرقيون فعلا على المدينة ،

(١) السناطورية : نسبة إلى مجلس السناطو ووجهه كما هو واضح . (المترجم)

وفشل بذلك قيصر يوس في تحقيق مراده ، حتى إذا انهزم القوط الغربيون قرب فوجليه ، لم تعد مسألة اعتراف فرنسا بأجمعها بسيادة كلوفيس عليها إلا مسألة وقت . وفي برجنديا ، كان يشغل أهم كرسى أسقفى بها ديلوماسى عظيم هو أفيتوس من فيينا (Avitus of Vienne) . وعلى الرغم من صلته الوثيقة بكلوفيس ، حرص على توطيد علاقته بجاندوباد ملك برجنديا الذى أحسن معاملته هو والكاثوليك ؛ ولكن أفيتوس لم يتردد فى العمل لصالح الفرنجة . وذلك لأنه كان يضع مصالح كنيسته فى المقام الأسفى . وربما جاز لنا أن ندلى إليك بالحقائق الأساسية فى هذا الموضوع . فالمعروف أن كلوفيس حاول أول الأمر فتح برجنديا (٥٠٠) بأن ساند ثورة شقيق جاندوباد ؛ ومن أسباب فشل الثورة تأييد القوط الغربيين لجاندوباد . على أن أفيتوس كان يستمتع بنفوذ جارف فى البلاط البرجندى ، حيث كان معظم أفراد الأسرة الملكية يعتنقون المذهب الكاثولىكى فعلا ، وُهل جاندوباد على تغيير سياسته من النقيض إلى النقيض ، والانضمام إلى قضية الكاثوليكىة الفرنجية ، بأن يتخلى عن الخطة التى سبق للملك القوط الشرقيين ثيودوريك أن اهتم بوضعها ، وتقضى هذه الخطة باتخاذ المصاهرة أساساً لعقد محالفات بين الممالك الجرمانية الأريوسية . وكانت تلك هى النقطة الحاسمة فى سقوط برجنديا . ذلك أن الفرنجة والبرجنديين اشتركوا فى تقويض مملكة القوط الغربيين فى معركة فوجليه ؛ ولكن برجنديا التى اتخذت أداة ماعمت أن فقدت كل ما اكتسبته من أراضى نتيجة لتدخل ثيودوريك الذى كان يده ساحل الريشير^(١) ، على حين أن الفرنجة أقدموا فى خسة ودناءة على اقتسام الغنائم

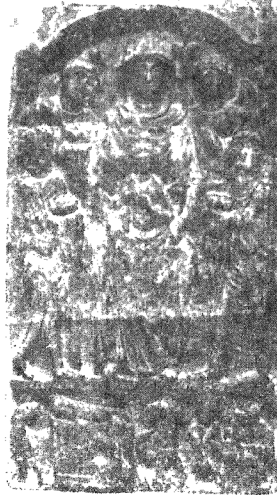
(١) انظر : « القوط والرومان ف ٣ » .

مع القوط الشرقيين . وفي عهد سجموند الملك النقي الضعيف ، اعتنقت
برجنديا المذهب الكاثوليكي رسمياً وبذلك صار لأفيتوس وشيعته من رجال
الكنيسة أكبر نفوذ . وعندما قتل سجموند ابنه ، وكانت أمه ابنة أخت
ثيودوريك ، حدث شقاق صريح بينه وبين القوط الشرقيين . وبادر الفرنجة
إلى اغتنام الفرصة ففزوا برجنديا . وهزم سجموند ولم ينقذه اسحابه إلى
أحد الأديرة من القتل لاهو ولا عائلته . فإن المغيرين قذفوا بهم في إحدى
الآبار . على أن أخاه جودومير نجح في صد الفرنجة فترة من الزمن ؛ وراح
بهمة عظيمة وعزم قوى يعيد تنظيم الجيش ويصلح المالية ، وأوقف
المؤامرات الكاثوليكية عند حدها ، بل لقد نجح في العدول عما انتهجه
جاندوباد من اتجاه مدمر في السياسة البرجندية بأن تحالف مع القوط
الشرقيين . ولكن ثيودوريك كان قد مات ، وحلت الاضطرابات بمملكته .
وزالت قوة القوط الغربيين من فرنسا ، ولم يعد ثمة مايوقف تقدم الفرنجة .
وفي (٥٣٢) عاود خلفاء كلوفيس الهجوم ، ومن ثم سقطت برجنديا بعد
أن قاتلت حتى آخر رمق - أمام هجمات الكاثوليك المظفرين . وعندئذ
تكلل ما بذله أفيتوس وقيصريوس من جهود بالنجاح بيد أن ما حصل
عليه رعاياهما من الكاثوليك من امتيازات لم يكن له أثر كبير في إرجاء
تدمير الممالك الآريوسية في غالة . وبقيت المسألة الكاثوليكية تشغل أذهان
حكام القوط الغربيين في أسبانيا إلى أن وحد ريكلارد (٥٨٦ - ٦٠١)
كلمة رعاياه وأمن حدوده باعتراف العقيدة السليمة .

وتوج كلوفيس عمله العظيم في غالة بإنشاء كنيسة قومية لها ، جمعت بين
الميزات السياسية للنظامين الكنسيين الآريوسى والكاثوليكي . إذ خضعت
ميلاد العصور الوسطى



(٦) ب — صورة عبادة المجوس
(المدرسة السورية)



(٦) ١ — صورة آل سيباخي
(مدرسة الإسكندرية)

للكنيسة لسلطة الملك ، وكان سلم وظائف كهنوها على اختلاف درجاته عونا عظيما لحكمه ؛ وكانت حدود السلطة الكنسية تطابق حدود مملكته تمام المطابقة ؛ ولم تكن مطرانية آرل تحظى إلا بمكانة شرفية على الرغم من الاعتراف بها كمثلة للكرسى البابوى . وفى الحين نفسه تأكدت مزايا الاتصال بروما وبيزنطة ؛ ولم يعد ثمة ما يدعو إلى الخوف من المؤامرات الكاثوليكية ؛ ومن الاعتبار الهامة أن كلوفيس لم يعد يخشى — شأن غيره من حكام الجرمان الوندال — من أن تطمس الشخصية القومية للجرمان تحت كثرة السكان الرومان الذين يفوقونهم فى العدد والحضارة . إذ كان بنو جلادته من الفرنجة بشمال اللوار موفورى العدد جداً ؛ كما أن أعداداً ضخمة من التيوتون كانت تنزل قريباً منه فيما وراء الراين ، وحصلت مملكة كلوفيس بإخضاعها الألمان على طابع جرمانى فتتحقق بذلك التوازن مع السكان الغاليين الرومان فى البلاد التى فتحها أخيراً .

ثيودوريك والكنيسة

على أن علاقة ثيودوريك برعاياه الكاثوليك عادت عليها أحوال البابوية بالتعقيد والضرر ، ولاسيما الانشقاقان الخارجى والداخلى ، اللذان أثرا فى اتجاهه نحو الرومان والقسطنطينية . وعلى الجملة وقع التنازع بين ثلاث دعاوى متصارعة ؛ الدعوى الأولى تتعلق بما يزعمه البابا لنفسه من الصدارة على الكراسى الرسولية ؛ وأن يكون المرجع الأخير فى كل ما يتعلق بالاعتقادات (Dogma) ، أما الدعوى الثانية ، فتتصل بما يطلبه البطريرك البيزنطى من المساواة مع روما والأسبقية على سائر البطريركيات فى الشرق ؛ والدعوى الثالثة والأخيرة هى

أن يكون للإمبراطور على الجميع السيادة العامة الشاملة . ولم يكن مفر من حدوث الاحتكاك بين الادعاءات الثلاثة ، ولم يكن مفر من أن يؤدي الاحتكاك إلى الانشقاق بين روما والقسطنطينية ، الذي امتد من (٤٨١ إلى ٥١٨) . ومن الطبيعى أن يشجع ثيودوريك هذا الصدع الذي منحه تأييد البابوية . وزاد نفوذه قوة عندما تمخضت الانتخابات البابوية عن ظهور مرشحين متنافسين ، التمس كل منهما المساندة من الملك الآريوسى . ولعل سيماخوس ، الذى كان عدواً للوفاق مع بيزنطة لم يظفر بالنجاح فى الانتخاب لكرسى البابوية إلا بفضل ثيودوريك، على الرغم من أن الانتخاب من الناحية الرسمية كان حراً . والواقع بعد ذلك أن ما حظيت به الكنيسة من الحرية زمن ثيودوريك يفوق إلى حد كبير ما نالته فى عهد كلوفيس أو جستنيان .

وقد اتحد البابا والسناو لمناهضة بيزنطة طوال حكم الإمبراطور أناستاسيوس المارق (٤٩١ - ٥١٨) . وترتب على ارتقاء جستين العرش فى (٥١٨) وعودة حزب العقيدة السلفية السليمة إلى تولى مقاليد السلطة ، أن قامت بروما حركة تدعو إلى عودة الوفاق مع ثيودوريك . إذ إن مصالح البابا والسناو والقوط الشرقيين ، لم تبرح واحدة ومنطابقة ، وذلك لأن ثيودوريك كان يطمح فى أن تعترف بيزنطة بأبنه يوثاريك خلفاً له فى السيادة على إيطاليا بعد أن طال رفض أناستاسيوس الاعتراف به ، وبذلك يزداد مركزه قوة . ومالبت ثيودوريك حتى حصل على هذا الاعتراف المنشود فى الوقت المناسب ، وبذلك انتهى الانشقاق . ومع ذلك لم تتحسن الأمور . فلم يلبث يوثاريك أن مات بعد فترة قصيرة . وجدد جستين التدابير لمناهضة الهراطقة الآريوسيين - وهى ضربة مباشرة سددت إلى المملكة القوطية . وبات التقارب بين نبلا

روما وبين بيزنطة شيئاً يكرهه ثيودوريك . وطفحت السنوات الأخيرة من حكمه بالشكوك التي ساورته والقساوات التي بدرت منه ، على الرغم من أنه لم يجر أى اضطهاد منظم للرومان أو للكاثوليك باستثناء ما كان من إعدام سيماخوس^(١) بوئيثيوس عضوى السناتو .

(١) يجب التمييز بين سيماخوس هذا الذى كان صهرأ لبوئيثيوس وبين أسقف روما الذى كان يحمل الاسم عينه (سيماخوس) كما يجب تمييزه أيضاً من سيماخوس عضو السناتو فى القرن الرابع وزعيم المعارضة الوثنية ونصير القديس أوغسطين ، وصديق أمبروز .

القسم الثالث
انضمار چتّیان

الفصل الرابع

القسطنطينية

كان ميدان الأوجستيوم هو سرّة القسطنطينية ، وهو ميدان رحيب مرصوف بالرخام ، لا بد أنه في شكله العام كان يماثل ميدان القديس ماركو (Piazza San Marco) بالبندقية . وكانت تعلو في جانبه الشمالى قبة كنيسة القديسة صوفيا ؛ وكانت تقوم في شرقيه أطواق^(١) دار السناتو المصممة ، أما البناء المنخفض الذى يقع إلى الجنوب منه واشتهر بأبوابه الثقيلة المصنوعة من الحديد ، فيعتبر المدخل المؤدى إلى القصر الإمبراطورى ، ويقع وراء الجدار السامق للمقصورة الإمبراطورية ، وهو بناء كانت طوابقه العليا التى تطل على ميدان السباق في الجهة المقابلة ، تكون المقصورة الملكية للإمبراطور ، وتتصل مباشرة بمبنى القصر بأروقة وسلم حلزوني . وفي الميدان يقع - بالإضافة إلى الصوّة^(٢) ، وهى بناء معقود تبدأ منه جميع الطرق الإمبراطورية ، - عمود باسق من البرونز يحمل فوق هامته تمثالا شامخا لجستينيان في هيئة فارس في عدته الحربية ، وقد أمسك بيده الكرة الأرضية ، وامتدت يده نحو الشرق ، كأنما يأمر البرابرة بأسيا بالألا يتخطوا حدودهم . وكان « الميزى Mese » أو الشارع الرئيسى الذى تحف جانبيه السقائف والتماثيل والقصور الفاخرة

(١) ورد في معجم الوسيط ما نصه الطاق ما عطف وجعل كالقوس من الأبلّة وجمها أطواق وطبقان . (المترجم)

(٢) الصوّة كما ورد في المعجم الوسيط : ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق والجمع صوى وأسواء . (المترجم)

يمتد من ذلك الميدان نحو الغرب على امتداد شبه الجزيرة إلى الباب الذهبي ، وهو مدخل محصن وفق الطراز الروماني يقوم في الأسوار الضخمة التي تجتاز البرزخ .

ولو نظرنا من ناحية البوسفور إلى ذلك النطاق الضخم الممتد حول القصر ، الذي يضم المنحدرات بين ميدان الأوجستيوم والشاطئ ، لوجد مرصعاً بمجموعات من القباب المذهبة والجواسق البيضاء والحمامات والشرفات والبيع (الكنائس) التي قامت بين الأشجار والنافورات وربط بينها مجاميع من درج الرخام .

وكان المدخل الرئيسى المؤدى إلى القصر يفضى من الأوجستيوم إلى قاعة عظيمة ذات قبة ، مزينة بالفسيفساءات التي توضح حروب جستينيان وانصاراته في المارك . ومن خلف تلك القاعة تقع غرفة العرش ، وكانت بعض السلام تؤدى من هذه الغرفة إلى قصر دافنى ، بغرفاته وشرفاته المطلقة الهواء التي تطل عبر المياه الزرقاء على قمم جبال بينينيا التي تكسوها الثلوج .

على أن قصورا إمبراطورية أخرى ، قامت لافى هذا الحى وحده بل فى خارج المدينة وعلى الشاطئ الأسيوى .

وكانت مجموعة المباني المؤلفة من القصر والميدان والكاتدرائية وميدان السباق تعتبر نقطة البداية ، لما حفلت به حياة العاصمة من مواكب وأزمات . فإذا كان عيد رأس السنة ، وكان الإمبراطور تنازل فقبل منصب القنصلية ، ازدانت واجهات المنازل بالطنافس ، ورفرفت الرايات الحمرية على سارياتها ، وغص الميدان بالنصائح الخشبية ، وازدحم بمجموع نقابات المدينة وأحزاب السيرك . وفى داخل القصر كان الإمبراطور يتلقى آيات الولاء من

بجلس السناتو . ويستمع إلى بدائع الخطباء ، وفي مقابل ذلك ينفضهم بسلام
ملوءة بقطع الذهب وكثوس من الفضة أو يمنحهم لوحات العاج (Diptychs)
التي تحمل رسمه . ثم تنفجر بوابات القصر عن المنافدين الذين يتقدمون الموكب
الطويل المؤلف من الموظفين ورجال البلاط والحرس يسرون صفوفاً عبر
الميدان إلى الكاندرائية ، وهناك يقدم الإمبراطور - بين أنوار الشموع
الكثيرة - هباته على الهيكل المرتفع ، ويتلقى البركات وذلك قبل أن يمضي ،
بموكب النصر إلى الكاينبول . وهذا الاحتفال لم يكن إلا واحداً من
احتفالات كثيرة مماثلة . غير أنها ما كانت تقصر على البلاط وحده ، مثلما
كان يحدث في مجلسه من الإناعام بالرتب أو التزيينات أو لاستقبال أمراء
القوازا أو الهيرول ، أو تلقى المبعوثين والسفارات من فارس والحيشة . وعندئذ
كانت المواسم البيزنطية تظهر في أبهى صور فخمتها . وكانت الجماعات
الصغيرة من الأجانب الذين كان يرشدهم موظفون دائمون معينون لذلك
الغرض ، يسرون وئيدا بين صفوف من الجند طوال القامة ، كأنها صفوف
متراسة من التروس والخوذات المذهبة والريشات الأرجوانية والحرايب
الللألاء ، حتى يبلغوا آخر الأمر الأبواب العاجية لغرفة الدخول . وتعقب
ذلك فترة انتظار طويلة . وعلى حين بقتة ترفع الستور وتكشف للأعين
منصة بالغة الروعة — يتجلى فيها الإمبراطور جالساً على عرشه بين النسرين
يحيط به حراس في ملابس بيضاء لها ياقات مذهبة ، وقد جلس حوله أعضاء
السناتو وعلية الموظفين في أرديتهم الحريرية . وبعد أن ينبطح السفراء على
الأرض ثلاثاً ، يسمح لكبيرهم أن يقدم هداياه للإمبراطور قبل أن يأذن له
بالانصراف في كلمات كريمة . ويلقى السفراء طوال مدة مقامهم إكراماً بالغ
الحد ، ويعرض على أنظارهم بقاية الاهتمام كل ما في المدينة من مناظر شديدة
الروعة .

ميدان السباق

وإذا كانت كنيسة القديسة صوفيا — كما قال بعضهم — ملكاً لله وكان القصر للإمبراطور ، فإن ميدان السباق كان ملكاً حالصاً للشعب إذ كان ميدان السباق محور الحياة البيزنطية ، نظراً لأن اتجاهه كان يحدد اتجاه كل من في الكنيسة والقصر . فهنا كان الناس يعبرون عما تبقى للشعب الروماني من حريات بما ينبعث من صيحات أحزاب السيرك ، وهي تطلب من الحاكم رفع المظالم أو إسقاط وزير مكروه من الشعب ، وفي هذا الملعب كان وندال إفريقية المنهزمون ، يساقون في أرجائه بين تهليل الظفر ، ويرغمون على السجود بين يدي الإمبراطور ، على حين تهتز جنبات حلبة السوق بالتهليل وأناشيد النصر . وهنا أيضاً كان يحدث بين الفينة والفينة تنفيذ حكم الإعدام في أعداء الدولة أو التنكيل بهم .

وكانت المنطقة الوسطى من ميدان السباق يقسمها في الوسط صف من المسلات والعمد ، كان يرتفع حولها مقاعد رخامية بيضاء وتقع لأكثر من ٦٠.٠٠٠ مشاهد . وفي الطرف البعيد من الميدان انتصب بناء ضخم منحرف فوق سقائف مقامة على أعمدة ضخمة فوق المنحدرات الدنيا . وفي منتصف الواحة الجنوبية الطويلة قامت المقصورة ، وهي المبنى المرتفع الذي يدلف إليه الإمبراطور من قصره ، وهو أشبه بمرساة بارزة يطل منها على الحشد الثائر من السكان دون أن يخشى شيئاً . إذ كانت المقصورة الإمبراطورية وما يلحق بها من حجرات ، من الارتفاع بحيث لا تبلغها قذفات الحجارة

ولا تعرض لهجوم الجماهير^(١). وكان يقف تحته في إحدى الطنف رجال الحرس والموسيقيون. أما خط النهاية الذي كان يعتبر نقطة النهاية والبدية أيضاً للمسابقين العربات، فيتألف من صف من مقاصير حجرية تحتلها الأسر الأرستقراطية البيزنطية، وفي أسفل المقاصير غرف تفصل بينها حواجز وتنطلق منها العربات للسباق، فتدور بشدة عظيمة حول العمود المخروطي — وهي الصرح الأثرى الذى يحدد الطرف الآخر للسباق، ثم تندفع راجعة على الجانب الآخر من المحور المركزى (Spina) تحت صيحات جموع المشاهدين الهائمين.

وحفلت الرحبات الفسيحة والسقائف المحيطة بميدان السباق بالسلالات والتماثيل الشهيرة، المنقولة من روما أو المنتزعة من مدن بلاد اليونان أو مصر وآسيا الصغرى والتي كانت تلکم الآثار تعتبر في يوم من الأيام من أعجافها التليدة. وكان بعض هذه الآثار من التماثيل الشاحخة التي كانت إمبراطورية الروم الشرقية البيزنطية مولعة بها؛ وكان بعضها من تماثيل أباطرة الرومان في هيئة الفارس. ومنها ما كان على الطراز الهليني في ألقى صورده، غير أنه لم يكن منها إلا عدد قليل من إنتاج مثالبين كفيدياس وليسيپوس. وكان أهالى القرون الوسطى الميالون إلى الإيمان بالخرافات ينسبون إليها قوى سحرية، وكانوا يستطلعون أسرار المستقبل في ازسوم الهيروغليفية المحفورة على الأعمدة المصرية.

وصهر الصليبيون الفرنجة برونز هذه التماثيل لتحويله إلى عملة؛ على أن

(١) ومع ذلك ففي الإسكان الدخول إليها عن طرق ميدان السباق كما تدل على ذلك فتنة نيقا. * يفرق المؤرخون بين ما هو هليني أى مرتبط بالإفريق القدماء ولتتهم وفنونهم وبين ما هو هالينسى أى منسوب إلى حضارة اليونان المشوبة بشوائب أجنبية بعد عهد الإسكندر (انظر المترجم كتاب « الحضارة الهلينية ») (المترجم)

أحدهم أشفق على تمثال عرقل الذى بدا حالماً حزيناً وعلى تمثال هيلين الذى كساه الجمال الوضاء ، « وقد انفرج فيها كالزهرة وبدا كأنما يريد أن يتكلم ، بينما كانت ابتسامتها تسلب روح من يشاهدها . ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يصور عينيها العميقتين ، وتقويس حاجبيها ورشاقة جسمها الممتع الجميل ؟ »^(١) .

ومن الطاقات العليا ميدان السباق كانت العين تمتد فوق المياه الصافية لبحر مرمرة فى الجنوب ، المغطاة لجانه بأشرطة سفن قادمة من ثلاث قارات ، ثم تنتقل إلى ما وراء هذه المياه من أحراش آسيا الصغرى وبيوتها الريفية وجبالها البعيدة ؛ وإلى الشرق كانت تقوم قلب القصر وحدائقه المتدرجة ، والمضيق الضيق والكنائس والدور المقامة فى جانبه الأقصى ، كما يشاهد فى الصدر الأوجستيم الذى تقع فى خلفه قبة القديسة صوفيا الفخمة . وترى إلى الشمال الطرقات والميادين وقناطر السقاية وأقواس النصر بالمدينة والسقوف المتلائة للكنائس التى لا حصر لها والأعمدة البرونزية العالية ذات الأفاريز الحلزونية ، وهى تعلو سطوح البيوت المتراحة ، ومن ثم تقتاد العين أماماً إلى خط الأبراج المربعة والأسوار الضخام والأراضى المترامية .

الخضر والزرق

على أن هذه المناظر الجذابة جميعها لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى النزاع العارم الناشب بين حزبي الخضر والزرق . ذلك أن أحزاب الملعب كانت مما ورثته الدولة عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ؛ وأصبحت بكل مدينة كبيرة

(١) نيفيناس من شونز (Chones) ، ٨٦٤ .

من مدن الشرق تمثل أهم حقيقة في حياة سكانها المشهورين بسرعة
الإثارة . وكان كل مواطن عضواً في أحد الحزبين اللذين اتخذوا مقاعدهما
في جانبيين متقابلين من ميدان السباق ، وقد اتسحا بالأردية الزرقاء
أو الخضراء ، وهما يتضرعان للقديسين بجمرة مبتلين بالنصر لحزبهم
أو بصرخون بالإهانات لخصومهم . فندفق في هذا المجرى العجيب جميع
مشاعر الوطنية وكل ما كانت تزخر به المدينة المستقلة من ولاء محلي للجنس
والطبقة جميع سموم العداوات التي كانت في الأيام الخوالي تستثير دم الإغريق
بله جميع العداوات الحزبية . بل تأثر بها كل شيء حتى الفنون نفسها ؛ فكانت
التماثيل والشعر تشيد بجمال وجرة رأكبي العربات مبهودى الجماهير . وكان
غوغاء أنطاكية أو القسطنطينية أقل اهتماماً بانتصارات الجيوش الرومانية
في المعارك الناشبة على الحدود السحيقة منهم بانتصار الخضر أو الزرق . ومن
المسير علينا تغقب ما ينطوى وراء نضال الحزبين المتنازعين من خصومة
سياسية أو دينية . وكان كل من الجانبين يقذف الآخر دون تمييز بهم الزندقة
والخيانة والسحر أو مجافاة الفضيلة والأخلاق ؛ ولم تسكن تلك التهم سوى
المظاهر المتداولة في حملات السباب البيزنطي . على أن ما ارتبط به كل من حزبي
الزرق والخضر بالمدن الكبيرة بالإمبراطورية من روح الزمالة الماسونية الخطيرة ،
وما ينيره سباق العربات من الانفعالات الخارية التي قد تصل إلى فتنة مفاجئة ،
بل إلى حد الثورة ، جعلت أحزاب السيرك قوة ضخمة في السياسة . وحفظاً
لمصلحة الدولة كان لابد من إجراء تنظيم دقيق لشئونهم . ومن ثم عين على
رأس كل حزب عدد كبير من الموظفين ، يتولى انتخابهم هيئة تقابل ما هو
معروف الآن بنادى الجوكية ، يتألف من مئات من الأثرياء ، الذين يؤدون
من الاشتراكات ما يكفي للإففاق على مؤسسات التدريب وعلى السباق ، فضلاً

عما كان يجري في أثناء فترات الاستراحة من تحرّيش الكلاب بالديبة والألعاب
البهلوانية . وكان لهؤلاء الموظفين امتيازات وواجبات خاصة في مراسم البلاط،
ولاسيما ما يتعلق منها بحفلات عيد ميلاد الإمبراطور وزواجه ، وكانوا مسئولين
كذلك عن حفظ النظام في ميدان السباق . وكان أتباعهم يكوّنون حرس
الشرف في المواكب الرسمية ، كما أن فصائل شرطة جند المدينة ، التي تتولى
ضبط الأمن بالعاصمة ، وتقوم بالدفاع عن كل ما يوكل إليهم حراسته من مختلف
أجزاء سورها ، كانت وثيقة الصلة بالمنظمات الحزبية . على أن أغرب ظاهرة
في هذه المنظمات جميعاً وإن لم يخل التاريخ من سابقة لها عند الرومان ، هي أن
الإمبراطور نفسه كان ينتهى إلى أحد الحزبين ؛ وكانت نتيجة ذلك أن أحد
الحزبين كان يلتقى الخطوة والإيثار ويسمح له بقتل خصومه أو إرهابهم
أو بتكوين جماعات من السفاحين (Mohocks) الذين يختالون بنباهتهم المعجبة
ويثيرون من الاضطراب ما يجعل المسير في شوارع المدينة محفوفاً بالخطر ،
وعلى حين أنه اجتمع في الحزب الآخر عند كل أزمة جميع عناصر المعارضة
للبيت الحاكم ، سواء أكانت معارضة شخصية أم دينية أم عنصرية أم أسرية ،
وهي المعارضة التي تثيرها فيما يبدو البقية الباقية من شرارات الديمقراطية
الإغريقية التي كانت تومض في عالم لا يعرف إلا الاستبداد والحكم المطلق .

وكان أناستاسيوس يؤثر الخضر برعايته ، بيد أن جستين وجستينيان
درجا على تقيض ذلك . وعندما كان مركز جستينيان غير وطيء ، مضى
في التحيز لحزب الزرق إلى أبعد الحدود ، بل إن دور العدالة نفسها قد أفسدها
المشاعر الحزبية . حتى إذا اطمأن جستينيان في مستهل (٥٣٢) على ملكه ،
أصدر الأوامر إلى المدن الكبرى بضرورة إخضاع كل اضطراب يصدر عن

أى من الحزبين . وكانت نتيجة ذلك أن أمر والى مدينة بيزنطة بإعدام سبعة من الخضر والزرقي ، اتهموا بالقتل فى أحد الاضطرابات التى وقعت حديثاً . ومن سوء الحظ أن حبل المشنقة انقطع مرتين ؛ واستطاع جمع من الساخطين أن ينقذ اثنين من المحكوم عليهم ، وقدم الحزبان الالتماسات إلى الإمبراطور بالعمو . فلما رفض الإمبراطور الطلب ، اتحد الحزبان ، وعندئذ بدأ الخضر والزرقي — مستخدمين كلمة السر « Nika اقهر » — الفتنة المعروفة باسم ثورة نيقا .

ثورة نيقا

ولم تنقضى بضعة أيام حتى تطورت الحركة متخذة شكلاً بالغ الخطورة . فقد أشعلت النار فى المباني المحيطة بالأوجستيوم . وانحاز إلى الحركة سكان الريف الذين أثارتهم الضرائب الفادحة التى قررت عليهم ، فأصبحت فتنة الأحزاب ثورة شعبية . وطالب الثوار بعزل الوزراء الثلاثة المفضين إلى الناس . وجزع چستنيان لما حدث من اضطراب فأذعن لمطالب الثوار ، بل إنه ظهر بشخصه فى المقصورة ، وأقسم على الكتب المقدسة بأن يرفع المظالم وينسج العفو العام ؛ ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان . فانسحب إلى القصر مشيحاً بصيحات الاستهزاء والإهانة — ولم تلبث الثورة الشعبية أن تحولت إلى ثورة . ولقى الثائرون تأييداً من كثير من النبلاء الذين كانوا منذ البداية ييفضون بيت چستين حديث النعمة ، وتوج ابن أخ لاناستاسيوس إمبراطوراً رغم إرادته ، واقتادته إلى المقصورة الجماهير الثائرة التى هرعت إلى ميدان السباق . أما الإمبراطور الحقيقى وهو چستنيان ، فصار محصوراً فى قصره وأضحى مركزه فى حرج . وكانت الشكوك تخيم على ولاء أعضاء ميلاد العصور الوسطى

السناتو باستثناء من كان منهم من صنائع الإمبراطور وأصدقائه : وكان الحرس في تردد ، فلم يكن الإمبراطور يستطيع أن يركن إلا إلى أتباعه الخصوصيين وإلى الجند من البرابرة الذين يخضعون لاثنتين من قواده . فبادر جستنيان إلى عقد مجلس عاجل واستعد للفرار . على أن الموقف لم يتقده إلا ثيودورا التي كان لخطابها الشهير رنين الصدق والإخلاص — رغم ما أضفاه عليه بروكوبيوس من طابع ثوسيديدس ، إذ قالت : « على الرغم من أن السلامة لن تتحقق إلا بالفرار فلن أركن إليه . وذلك أن من يلبسون التاج ينبغي ألا يعيشوا بعد أن يقدوه . ولا أحب أن أعيش حتى أرى اليوم الذي لا يهتف فيه الرجال باسمي إمبراطورة لهم . فأنج بنفسك إن شئت يا قيصر ، فإن لديك المال ؛ والسفن في انتظارك ؛ والبحر خال من كل حرس . أما أنا فإني باقية هنا . عملا بالمثل القديم القائل بأن الرداء الأرجواني هو كفن جميل ».

وتلى ذلك اتخاذ تدابير صارمة . وتقرر رشوة الزرق ليتخلوا عن الخضر ؛ وفي تلك الأثناء شق القائدان المواليان للإمبراطور طريقيهما إلى ميدان السباق عنوة من أبواب مختلفة ، وأعقب ذلك إجراء مذبة رهيبة . ولم تتوقف المذبة إلا عند حلول الليل ، وأسفرت عن مصرع ما يزيد على ثلاثين ألفاً في ميدان السباق .

ولم يلبث إنشاء إخوة أناسناسيوس التمساء — أن لقوا مصرعهم ، إذ بلغ من خوف جستنيان منهم أنه لم يبق على حياتهم ، وتقرر نفي عدد كبير من النبلاء . وكانت التدابير التي اتخذت — وإن خلت من روح الانتقام — كافية لضمان عدم تكرار ما من شأنه أن يفضي بأعضاء السناتو وبأحزاب السيرك إلى القيام بالأعمال التي أوشكت أن تحرم الإمبراطور من عرشه . وعلى حين

أن مركز الإمبراطور توطد فعلا وزاد قوة ، فقد قامت على أنقاض الحى المهدم المتمدن فيما بين سوق قسطنطين إلى أبواب القصر ، مجموعة من المأثر الرائعة تتوجها كنيسة القديسة صوفيا ، التى تعتبر ، مع مجموعة القوانين التشريعية التى تحمل اسمه ، أبقى ما خلدته جستنيان من آثار .

كنيسة القديسة صوفيا

وإن كنيسة القديسة صوفيا ، أى كنيسة الحكمة المقدسة ، قد أعترف بها منذ ذلك الحين أنها « أجل كنيسة فى العالم كله » على حد قول السير جون ماندفيل . وقد أشاد بوصفها بروكوبيوس فى فقرة رصينة ، كما أن بولس المعروف باسم داعية السكوت ، وهو من رجال البلاط والشعراء البارزين ، استطاع فى قصيدته التى ألفها ، بمناسبة ما قام به جستنيان من افتتاح مبنى الكنيسة من جديد والتى امتزج فيها الخيال الشعرى والتفاصيل المعمارية الدقيقة ، أن يعرض صورة رائعة للكنيسة ، وأهم ما انعكس لديه عن بنائها من طابع وأثر ، وما امتازت به من الرقة والخفة البالغة الخلد . فتراوت قبتها كأثما هى مدلاة من السماء ، إذ ترابط فى الهواء - فى شكل يبعث على الدهشة - كل أجزائها ، وقد تدلى كل جزء من الآخر وارتكز على الأجزاء التالية . وهذا التأثير أظهرته فى الواقع تلك القباب التى لم تكتمل استدارتها ، والتى استندت عليها من الشرق والغرب القبة الوسطى الكبيرة ، وما اجتمع لها من تناسب وتناسق رائع بين كل ذلك ، وزاد فى هذا التأثير ما كان ينفذ إلى الكنيسة من ضياء الشمس وما يصدر من إشعاع هادئ عن الرخام المتعدد الألوان الذى كان يكسو الجدران والأرض . ويجتاز الداخل إليها أقبية تحيط بها بناييع

وسقائف مقامة على أعمدة . فإذا تجاوز الداخل غرفة القربان المزدوجة بأبوابها التسعة ، تجل أمام ناظره طول المبنى بأكمله ، أما الساحة المربعة الوسطى التي ارتكزت قبئها على أربعة أعمدة ضخمة انتصبت كأنها حائط صخري قائم ، فيحف بها على الجانبين بهوان من الأعمدة من طابقين ومن خلفهما ارتصت مقاعد أعضاء البلاط ، بينما اتخذت النساء مقاعدهن فى الطابق العلوى . ووراء هذا المتسع كان يقوم منبر القراءة ، وهو يقف كجزيرة من العاج والفضة وسط بحردوار من الرخام المجزء بمخطوط خضراء يانعة أو حمراء قانية ، وقد انتثرت عليه النجوم الذهبية أو تطايرت عليه جداول بيضاء كاللبن على سواد براق ، أو كأنها « مثل زهرة الترنجان الأزرق النابت وسط العشب ، الذى ينثر عليه هنا وهناك شدرات من الثلج الأبيض » . ويتألف الطرف الشرقى من ثلاث حنايا ؛ احتوت الحنية المتوسطة على الهيكل الذى يحجبه حاجز الأيقونات الفضى الضخم ، الذى انتصبت عليه تماثيل الشهداء والملائكة بأجنحتهم ، وقد أحنوا رءوسهم . وكان المذبح من الذهب الخالص تتدلى فوقه أسجاف حريرية تحمل صوراً أو رسوماً ، وما يعلو المذبح من مظلة هرمية الشكل ، وما يقع خلفه من مناير منحنية معدة للبطريك ورجال الدين كانت تلمع بالفضة المكفنة أبديع تكفيت وأتقنه . وفى الليل كانت مئات المصابيح المعطرة التى انتظمت ثريات ، أو التى صيغت بشكل سفن أو تيجان من الفضة ، تضيء كل جزء من أجزاء الكنيسة ، بل يسطع ضياؤها خلال فتحات القبة فتؤلف مشعلا يسترشد به الملاح الذى يجتاز التيارات الماكسة فى البوسفور « وقد استبد به القلق وهو يتوقع - وقد شدت أطناب ساريتة - هبوب عاصفة من إفريقية » .

وبلغ فن العمارة المسيحية القدوة في كنيسة القديسة صوفيا ؛ فما اشتهر به الشرق من لاهوت تجریدی ، تجسد في الحجر « فما من أحد يدخل الكنيسة للتعبد ، حتى يدرك أن هذا البناء الرائع لم يبلغ الا كتمال بقوة الإنسان أو مهارته بل بفضل من الله وتوفيقه . هناك يرتقى العقل سمواً حتى يتصل بالذات الإلهية . وقد أحس أنه (جلت قدرته) لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك الدار ، بل كان لا بد أن يؤثر بوجه خاص أن ينزل المسكان الذي اجتباه .

أصول الفن المسيحي

وكما أن قبة تلك « الكنيسة الكبرى » التي تخلق عالية كأنها « برج شاخ » تمتد في كبد السماء ويشرف على المدينة من علي فإن الكنيسة نفسها فاقت في الأهمية كل ما ظهر حتى ذلك الزمان من كنائس لاحصر لها . ومنها كنيسة الرسل المقدسين بما حوت من قبور الأباطرة ، والتي لم تقل كثيراً عن كنيسة القديسة صوفيا في وفرة ما حوت من الزخارف ، كما أن أهميتها ترجع إلى أنها كانت النموذج الذي اتخذته كنيسة القديس مرقس بمدينة البندقية . ففي كل أرجاء الإمبراطورية ، كانت تشاد المباني من جميع الأوصاف ، واشتهر كثير منها بتصميمات أصيلة أخاذة — ومن هذه المآثر السقايات والصهاريج بإقليم الجزيرة ، ومنها الجسور المشيدة من الحجارة عند التقاء الطرق بآسيا الصغرى فوق الجداول التي احتفرتها السيول المتدفقة من الجبال ، ومنها الحمامات والنافورات في سورية ، ومنها القلاع الضخمة على أطراف إفريقية ، ومنها الأديرة المسورة فوق جبل سيناء ، ومنها الكنائس المنبثة حول أرجاء البحر المتوسط ، وعلى امتداد شواطئ بحر الأدرياتي إلى پارنزو ورافنا . وتسلط فن العمارة البيزنطي في أثناء القرن التالي بكل مكان

حتى بلغ روما ذاتها ، وبينما يمكن مشاهدة ذلك الفن ابتداء من قباب
بريجو (Périgueux) إلى عقود كنائس كنيثف المقبية (Cupola) ، ومن
آخن حاضرة ملك شلمان إلى واحات مصر العليا ، فإن مؤثراتها الزخرفية
وطريقة عرضها للأحداث والشخصيات المقدسة ، قد ازدادت اتساعاً وانتشاراً
حتى بلغت إرلندة ونورمبيريا وألمانيا ، فيما جرى حمله إليها من التحف العاجية
والمنسوجات والصور والرسوم الصغيرة .

كانت أصول الفن المسيحي على الدوام موضع جدال حاد لا يخلو من التحيز
الديني أو الوطني . إذ إن المسألة انخدت في الآونة الأخيرة شكلاً جديداً . فقد
أغفل ما كان سائماً من قبل من المقابلة بين الشرق والغرب ، وتغيرت طرق
معالجة المسائل بسبب المادة الضخمة التي توافرت ووضعت تحت الفحص
والموازنة والمقارنة . وعلى الجملة ، لم يعد أحد يعد التغيرات التي حدثت في
تلك القرون طوفاناً جالباً للكوارث يجتريف أمامه كل ما على الأرض من
معالم ، بل ينظر إليها على أنها روافد وتيارات عديدة متشابكة في مجرى مائى
متواصل المسير لا تقاس أهميته إلا بقوة الدفع الذى تنطلق به الروافد والتيارات
من خلال قنواتها جميعاً . ولا شك أن أشكال الفن المسيحي ، فضلاً عن روحه
إنما ترجع مصادرها إلى الشرق ؛ ولكن لم تكن هذه هي المرة الأولى التي
يظهر فيها التأثير الشرقى . فقد دأب كل من نهر النيل ونهر العاصي على صب
مياههما في نهر التير منذ عدة قرون خلت . فإن الإسكندرية ، وهي
مركز التقاليد الهلينيستية في التشكيل والزخرفة والرسم المثالى لهيئة الإنسان ،
كانت على سبيل المثال ، المنبع الأصلى لما انعكس في المقابر الرومانية القديمة
من زخرفة . أما أنطاكية التي تمثل أسلوب الساميين الواقعي الذى يساند
ما كان مثالى بابل وآشور من تقاليد عظيمة ، فقد علا نجمها وبرزت بعد أن

صارت المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأصاب الفن المسيحي من التغيير ما يجعله يوافق الأحوال الجديدة. فالتجلى في جصيات (Frescoes) المقابر الرومانية من البساطة في إظهار الفرح والحزن ، وما كان من رسوم آلهة الحب المتلاعبة وصور المتوسلين والمرساء والسمة والجمامة ورموز الميلاد الجديد الأورفية ، كل ذلك حل مكانه ما اقترن بالمناظر التاريخية والعقائدية من رهبة وعظمة . فلم يعد المسيح فتى يونانياً رشيقاً ، ولا راعياً يحمل شاة ، بل صار ملكاً مؤلفاً قديساً يحكم بلاطه الشرقي من ثنايا السحاب ، واتخذ صورة حزينة لرجل سامى ذى لحية يسهم فى آلام من لاحصر لهم من الشهداء الذين رسمت حكاياتهم بأوفى تفصيل على جدران الكنائس الباسيليكية^(١). وقد كان لعمائر قسطنطين الدائمة الصيت ، لاسيما ما شيد منها فى بيت المقدس أثر فعال فى كل من بناء وزخرفة الكنائس التى كانت تنشأ بكل إقليم من أقاليم الدولة ، كما أن المنمنمات (Miniatures) والتحف العاجية وتذكارات الحجاج قد نشرت فى كل أرجاء الغرب الطرز والأشكال (الرسوم) التى تصور على سبيل المثال مختلف الرسل وأيام الخليفة أو نواحي التماثل بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس — وهى المادة التى يتكون منها فن العصور الوسطى .

المؤثرات الآسيوية

ويكمن وراء هذين المؤثرين التوأمين : مؤثرى أنطاكية والإسكندرية ، مؤثر ثالث أقدم منهما عهداً وأكثر غرابة ، ويرجع الفضل العظيم فى إظهار أهميته إلى استرزجوفسكى (Strzowski) ، ويتمثل فيما كان لتقافات آسيا

(١) الكنائس الباسيليكية (Basilicas) كنائس فاخرة كانت تتخذ من دور المحاكم القديمة فى العهد الرومانى . انظر الحضارة البيزنطية . (المترجم)

البديوية من تقاليد واسعة الانتشار بما لها من أشكال سطحية ومن تصميمات شكلية لعساليج الكرم والزهور والحيوانات ، وما تتصف به من صفة تجريدية لا تمثيلية (أى لا تهدف إلى تصوير الأشياء) . وكما أن البدو الرحل الذين كانوا يظهرن بفتة من سهوب آسيا التى لم تتغير على كرقرون التاريخ ، قد خلفوا طابعهم فى الأقطار التى اجتاحتها ، فكذلك كان مؤثرهم الفنى قوياً محسوساً على يد الإسكنديين والآتراك والعرب ، على أن تأثيره امتد فى ذلك الوقت^(١) خاصة عن طريق شمال فارس ، فانتقل قوياً إلى أرمينية ، التى تعتبر من أقدم كراسى المسيحية ، والتى اشتهرت بما ازدهر بها من الأسقفيات والكنائس والأديرة . وتأثر الفن السورى والقبلى أعمق التأثير بهذه الأشكال الأسبوية ، وعن طريقهما تأثر الغرب : غير أن هذه المؤثرات الأسبوية اتخذت طرقاً أخرى للوصول إلى الغرب مباشرة . فالمعروف أن القوط أقاموا بسهوب جنوب الروسيا زمناً طويلاً يكتفى لأن يتدوقوا فيه ما ذاع رصمه عند الإيرانيين من أشكال الجواهر والحلى المتشابكة ، التى نشروها فى أثناء هجراتهم التالية فى شمال إيطاليا وغرب ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، حيث انتشر الطراز بين القوط الغربيين فضلاً عن الميروثنجيين واللومبارديين ، ومن الأمثلة الدالة على أثره تلك الحيوانات الغريبة التى تبدى فى بعض النحاتت الرومانسية . ولعل الشكل التجريدى لذلك الطراز استهوى أدواق الشمالين المتقاربة مثلما حدث بإرلندة التى كان يعوزها فن الأشكال المنحوتة ، إذ لم يلبث دخول المسيحية أن أعقبه ظهور أساليب فنية زخرفية شرقية ، امتزجت بما

(١) على أن فن التصوير أناسانى القائع بمجنوب لإيراد مشتق من مصادر عراقية (أرض الجزيرة) وهالينستية .

في الأنماط السكتية من أشكال القواقع الحلزونية والأبواق ، وتألف من ذلك ما اشتهر به كتاب المشبكات من تصميمات معقدة .

والفنان الإيراني حينما يتخذ صور أشكال الناس والحيوان والنبات ، لا يستخدمها إلا على أنها أجزاء مكونة لرسم زخرفي كما هو الحال في سجادة عجمية . وكانت رسومه مسطحة ليس بها شيء من إدراك التشكيل أو المنظور ، لا في التصوير ولا في النحت . فتقدير الأبعاد كان يجري تمثيله بجعل الأشكال في مناطق إحداها فوق الأخرى ، وكانت الألوان الزاهية توضع بعضها إلى جوار بعض دون تدرج في قوة اللون . وكان المثل الأعلى عنده هو الحرص على بقاء الخط المستمر ، الذي تظهره الألوان المتقابلة ، أو تعاقب الضوء والظل ، لاختطة متسقة تهدي النظر إلى بؤرة متوسطة . وهذه الخصائص ذاتها ، شاعت أيضاً في فن الإسكندريين وفن الشعوب التركية والمغولية . وإذا نحن نظرنا إلى التغيرات التي طرأت على الفن المسيحي وازداد بين الباسيليكا الرومانية الباردة ، وسطوحها العارية وبنائها المنظم النسق ، ونقوشها البارزة الناطقة التشكيل وتيجانها الفائرة الحفر ، وبين ما كان في هذا الزمن من الكنائس الجزلة الوهاجة والفسيفساء والجصيات (الفريسكوهات) الزاهية الألوان ، وأشكال الشهداء جادة التقاطيع ، وما كسا كل سطح من رسوم عربية وحليات مخزمة ، أو زخارف رخامية ، أو تيجان اتخذت كتلها شكل « الدانتلا » المتجمدة ، فلن يكون من العسير علينا دون الالتجاء إلى الإشارة إلى شواهد الأشكال المعمارية وإلى التحف العاجية والمنمنمات ، أن ندرك أهمية هذا المظهر الثالث للفن البيزنطي .

التجارة البيزنطية

ولا شك أن اسم الفن « البيزنطى » له كل ما يبرره ، وذلك لأن المدينة العظيمة (القسطنطينية) كانت فى ذلك الأوان ملتقى كل هذه المؤثرات وبوتقتها . وهى أيضاً مركز التجارة . « فإلى موانئها كانت تقلع كل السفن المشحونة بتجارة العالم يحدوها الأمل فى الربح ، بل إن الرياح نفسها كانت تعمل على جلب التجارة للماء أيدى سكانها بالثروات » .^(١) فكانت الفراء والجلود تأتى إليها من جنوب روسيا وحوض الدانوب ؛ ولكن الشرق كان المورد الذى تستمد منه ثرواتها الرئيسية . فكان البلاط والطبقات العليا تستهلك مقادير ضخمة من الحرار والتوابل وأخشاب العطور ؛ كما أن بيزنطة أصبحت فى نظر الغرب مدينة ترف سحرى عجيب عندما كان الإمبراطور يرسل هباته من المنسوجات الحريرية والجواهر الثمينة إلى ملوك البرابرة وكنائسهم .

وكان ثمة طريقان رئيسيان بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط . فأقدمهما عهداً وأقصرهما ، هو الذى استخدمته القوافل فى عبور الصحارى الكبرى بآسيا الوسطى ، وبعد أن تجتاز سمرقند وبخارى وواحات بلاد الصغد تبلغ الحدود الفارسية فى مائة وخمسين يوماً . وبعد رحلة تستغرق ثمانين يوماً أخرى عبر فارس تبلغ القوافل نصيبين (Nisibis) وهى مدينة تقع على الأطراف الرومانية . فأما الطريق الآخر الذى أمعن القوم فى استخدامه منذ ١٦٠ للميلاد ، فهو الطريق البحرى . وكانت جزيرة سيلان (سرانديب) هى السوق المركزية الكبرى ، التى يرد إليها - بحراً - الحرير والقطن وعود الهند والفلفل

(١) انظر بولس داعية الصمت ، ٢ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .

والقرنفل وخشب الصندل من الصين والملايو وجزر الهند الشرقية . ومن هذه النقطة (سيلان) اتخذت التجارة إلى الغرب طريقين بحريين . أولهما — وهو أهمهما — كان يتخذ طريق الخليج الفارسي إلى مصبي دجلة والفرات وإلى الأسواق الكبيرة بالحيرة . وكان الطريق الآخر يدور حول بلاد العرب ثم يجتاز البحر الأحمر إلى موانئ اليمن على شاطئه الشرقي ومرافئ الحبشة في الغرب أو إلى المدن الرومانية القائمة عند رأس الخليج ، وهي القازم (Clisma) بالقرب من السويس وأيلة (العقبة Aila) على الفرع الشرقي . والواقع أنه لم يتم زيارة الشرق من تجار سورية أو الإسكندرية إلا عدد قليل ، شاهدوا حجر الجشت الذي يضارع في الحجم كوز الصنوبر وهو يتألق فوق قمة المعبد بجزيرة سيلان ، أو رأوا ملوك الهند بما لهم من جيوش جرارة وقطعان من الفيلة . وترددت الأقاصيص عن جزيرة الساتير ، التي هي جزيرة بورنيو موطن الأورانج بوتان ، كما أن المصادر الصينية تشير إلى التجار الغربيين الذين يهبطون موانئها . وقد أقبل بعضهم لزاء الساحل الإفريقي ، ورأى ما كان لقوافل التجار من مراكز منيعة ، وما كان يدور بينهم وبين السكان في داخل القارة من المفاضلة الصامتة . وذلك لأنه كما ينبئنا كوزماس : في خارج الخليجان الأربعة العظمى بالعالم وهي البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسي وبحر قزوين (الخزر) يحيط بالعالم بحر كبير ، امتلاً بالضباب القتاتل والتيارات العنيفة ، وكان مصدر خطر دائم على المسافرين . وحدث ذات يوم ، أن ظهرت بعض طيور الفطرس ، على مسافة غير بعيدة من زنجبار . وبدأت السماء تنذر بالخطر ، وأخذ الركاب والملاحون يهتفون في رعب برهان الدفة أن يتجه بالسفينة إلى الميناء ، وأن يعود إلى الخليج ، لما تراءى لهم من أمواج المحيط . وتبعهم طيور الفطرس الصخاب على ارتفاع كبير ، وهي علامة تدل على أن المحيط قريب منهم .

وروى كوزماس الراهب ، وهو تاجر متقاعد من الإسكندرية قصصاً ممنوعة يصح الاعتماد عليها عن رحلاته وعن سبوع البحر والزراقات وغزال المسك وجوز الهند وشجر الفلفل وغيرها من الأشياء النادرة . على أن ما كتبه في علم الكون لا يقل عن ذلك إمتاعاً ولكنه أقل جدارة بالثقة . وحقيقة أمره كما يعبر عنه جيبون يتلخص في أن : « هراء الراهب عنده يختلط بالخبرة الواقعية للرحالة » . فهو يعمد إلى الأساليب والوسائل التي لاتزال مألوفاً لدينا فيستخدمها في تفسير الكتب المازلة تفسيراً يدحض بعض المبادئ الوثنية الضارة التي تزعم أن الأرض كروية ، وأن لكل جزء منها ما يقابله في الجهة الأخرى ، وعنده أن العالم مكون من صندوق مستطيل مؤلف من طابقتين اتخذ نفس أبعاد تابوت العهد الذي أنشأه موسى « العلم الكبير بوصف الكون » . أما النجوم فتحملها الملائكة : وتقرب الشمس خلف جبل عظيم ويعتبر كوزماس نموذجاً طيباً لما شاع بين الرهبان من الأفكار والتأملات ؛ غير أن نظريته الخاطئة لم تلق قبولا كبيراً .

وكان معظم التجارة العالمية في أيدي الفرس ؛ إذ إنهم يسيطرون على أسواق سيلان ويستمتعون هناك بامتيازات خاصة . وكان الملاحون الأحباش يقومون بتجارة البحر الأحمر ، وكانوا يزورون كذلك الموانئ الشرقية . أما تجارة الحرير بأكلها فكان الفرس وحدهم وسطاء نقلها ، وفي ذلك ما لا يخفى من الضرر . وهذه الحقيقة تحكم في سياسة چستيان التجارية . وبذلت جهود لإنشاء خط القوافل الشمالى الذى كان يجتاز بلاد التركستان ، ويعبر القسم الشمالى من بلاد فارس ويسير حول بحر قزوين ثم يهبط إلى الطرف الشرقى للبحر الأسود . ولجأت الدولة إلى استخدام خطة أخرى هي أن تتولى بنفسها الصفقات

مع فارس . وعقدت معاهدة تجارية قصرت استيراد الحرير على مدن ثلاث على النخوم : كالينكيوم في إقليم أوسروئيني ونصيبين بأرض الجزيرة وأرتاكساتا بأرمينية . وفرضت عقوبة صارمة على التهريب ، وحدد القانون ثمن الحرير الخام الذى كان يتولى شراءه موظفون من قبل الإمبراطور ، بينما تقرر فى الطرف الآخر من الرحلة وضع حد أعلى لأثمان المنتجات المصنوعة فى صور وبيروت . على أن هذه الإجراءات التى اتخذت لم تظفر بنجاح تام ، وذلك لأنه حدث فى بعض الأحيان أن فارس كانت ترفض البيع بالسعر المعروض ، فيعرض تجار الحرير السوريون من أجل ذلك للخراب . وكانت الحكومة البيزنطية تضطر فى النهاية إلى دفع السعر الأعلى ، ولكنها كانت تنتم تلك الفرصة لجعل التجارة احتكاراً بيد الدولة .

على أن جهود جستنيان الأساسية ، كانت موجهة إلى تجارة البحر الأحمر . إذ إن الإثيوبيين سكان أ كسوم اعتنقوا الكاثوليكية فصاروا من ثم حلفاء له . وساعدهم جستنيان فى استعادة سلطانهم على الساحل المقابل لبلادهم وأعفى به بلاد اليمن . وكانت تجارتهم الواردة من الداخل واسعة النطاق — تشمل البخور والأفاويه والزمرد والعاج — وحلوا الذهب والعبيد من أقصى الجنوب ؛ وكان ييدهم أيضاً زمام التجارة العربية وقدر كبير من الآسيوية . ولم يبدل جستنيان لهم من تكريمه ومساعداته إلا لفاية فى نفسه : هى أن تشتد المنافسة بين الحبشة وفارس على تجارة الحرير اللازمة للغرب . ولكن قبضة الفرس على أسواق الهند وسيلان كانت قوية متمكنة ، وإذا لم يكن لهذه المنافسة أثر كبير . على أن حادثاً مثيراً أدى إلى حل هذه المشكلة ، ذلك أن راهبين تمكننا من تهريب بيض دودة القز من بلاد الصين ، حيث كان القوم يحافظون

على سرها بكل تيقظ وغيره ، بأن أخفيا البيض في جوف عصيهم المصنوعة من الخيزران . ولم تلبث سورية أن زحرت أرضها بشجر التوت ، ولم تعد الإمبراطورية بعد زمن قصير تعتمد على ما يرد من الصين .

وعلى الرغم من التحكم الشديد والرقابة القوية التي اتخذتها الدولة فضلاً عن الرسوم الكثيرة التي تقرر جبايتها ، فإن التجارة البيزنطية ازدادت ازدهاراً . فكانت سورية ومصر خلايا عاملة تعج بالصناعة النشطة ، وكان البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه يجمع بسفن التجار ، التي تجلب كل غريب معجب من الفاكة والجواهر والأقمشة والأفاويه ، كما تحمل أنواع الميناء المدهشة والوشى المونق والمصنوعات المدنية الدقيقة الواردة من الشرقيين الأدنى والأقصى إلى موانئ أوروبا الغربية ؛ وكان الدينار البيزنطي (النوميزما) هو العملة الذهبية المتداولة بجميع أسواق العالم .

الحياة في العاصمة البيزنطية

حاولنا في الصفحات السابقة أن نخطط للقارى أصول السياسة الإمبراطورية التي انتهجها جستنيان ، مستخدمين لذلك رمزاً هو تلك المباني الضخمة التي أحاطت بميناء الأوجستيوم . واستكمالاً للصورة لا بد لنا أن نصف الحياة الاجتماعية لمختلف طبقات المجتمع البيزنطي . ومن هذه الطبقات النبلاء الذين ارتدوا الملابس الحريرية والذين اتخذوا لهم دوراً بالمدينة ومساكن بالريف وشغلوا وظائف في إدارة الدولة والجيش والكنيسة ، واشتهروا بما دبروه من مؤامرات من أجل الوصول إلى السلطة ، وخاضوه من نضال من أجل الصدارة والتفوق وبالإخراج للصيد أو لسباق الخيل فضلاً عن

أتجارتهم الأدبية وثقافتهم المنتفحة . أما الطبقة الوسطى فتمثلها دوائر الجامعة بأساتذتها الذين تدفع الدولة مرتباتهم . ومدارس الحقوق والبيان التي اشتهرت بكفائتها ، وكانت وثيقة الصلة بآلة الجهاز الموظفين القائمين بالإدارة المدنية الذين يصور يوحنا ليداس فسادهم وتحيزهم لنوى قرياهم بألوان قوية زاهية . ويلي هاتين الطبقتين فئة التجار وأرباب المصارف وأصحاب الدكاكين ، بما اشتهروا به من الاعتدال في حياة الترف والطباع المادية ؛ ولا مفر أيضاً من وصف الحياة العامة في المدينة بما حفلت به من الأبروشيات ورجال الشرطة والمطافئ والمحاكم والمدارس والمستشفيات وما حوت من أطباء مقيمين وهنابر منفصلة فضلا عن ملاجي أيتام ودور الصدقات والمحازير العامة وموارد المياه والصحاريح والسقايات والمجاري . وزخرت المدينة بالميادين الرائعة والشوارع الفسيحة والسقائف وأقواس النصر المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع ، وغصت المدينة بالتماثيل والخوانيت التي تعرض للبيع ما لديها من حرائر زاهية الألوان كلبيب النار ، ومن مصنوعات معدنية براق ، وازدحمت الشوارع الفسيحة بألوان مختلفة من الناس ، من نبلاء في عباةاتهم الثمينة وستراتهم ذات الأكام المطرزة بأجمل النقوش ، يسير خلفهم أرقاؤهم الذين ارتدوا القلائس والسترات القصيرة ، أو امتطوا صهوات جيادهم التي طرزت سروجها بالذهب ؛ ومن النساء في ثيابهن ومخامتهن الزاهية الألوان أو المتبتلين في مسوح شبهاء وسوداء ، ومن الرهبان والحجاج ؛ والبنايا والمنسولين والنشالين ؛ والحراس والجند المرتزقة من الصقالبة والجرمان والهون ؛ وشم تجار من سورية ومصر ؛ ومن المشعوذين والمنجبين والأطباء الدجالين الذين اتخذوا نواصي الشوارع مقرآ لهم ، ومن القصاص في الأسواق ، يروون قديم الأقاصيص الشعبية من آسيا أو يقصون أحدث أعجوبة أو آخر نكتة ، يروونها مقترنة بأسماء العظماء

حتى باسم الإمبراطور وقسمه في الحكم ، بينما اشتهرت الأزقة الضيقة الرعرة
الأنحدار بما يطل عليها من شرفات وبما حوته من دكاكين معتمة ، والمواخير
وهي تنحدر مؤدية إلى الميناء المزدهم — الذي يرتاده البحارة الأجانب
ويعتبر موطن الطاعون الذي يجتاح المدينة من حين إلى آخر ويقتل من سكانها
خمسـة آلاف كل يوم . وعندئذ تسير الأشباح في الشوارع الخالية وتنفذ من
كل شيء حتى الأبواب المخمكة الرتاج ، وتصدر الأصوات الرهيبة التي تحذر
الضحية من النهاية المفترية .

على أن الكنيسة تمثل قطاعاً مستعرضاً يمتد في كل الحياة البيزنطية ، بما
اشتهرت به من تعدد نواحي النشاط ، ابتداء من البطريرك ورجال الكليروسه
والوعاظ بالسكناس الكبري والمعترفين ، بدعة ذلك الزمان ، والقسوس العلماء
حتى الرهبان الفلاحين والزهاد الجاثلين . وزخرت المدينة وضواحيها بأديرة
الرجال والنساء ، ومنها ما أسسه بل نزل فيه أحياناً نبلاء من أعضاء الشيوخ
مع حريمهم ، ومنها ما كان ملجأ يأوي إليه المحتاجون فضلاً عن الفارين من
وجه العدالة . وذلك لأن الأديرة جزء مكل للدولة ، كما يبين ذلك تشريع
چستنيان . إذ جرى الإمبراطور هنا وفي كل مكان على ما كان لروما من نظرية
تقليدية . وإذ كان القيام على الوجه الأكمل بالشعائر المقدسة (Sacra) كفل
للجمهورية المحاصيل الجيدة (الخير والرخاء) ورد الأعداء عن أبوابها ، فإن
چستنيان أعلن أنه : « لو أن هذه الأيدي الطاهرة والنفوس المقدسة صلت داعية
للإمبراطورية ، لقوى الجيش ، وللازدادات رفاهية الدولة ورغدها ولازدهرت
الزراعة والتجارة بفضل رعاية الله وإحسانه الأكيد » (الإضافات القانونية
الجديدة ١٣٣ ، ٥) . ومهما غالينا في أهمية الدين في الحياة البيزنطية فلن نوفيه

حقه . فإذا كان ما يجري بين الإنجليز دائماً من حديث إنما يدور حول الجو ، فإن حديث الناس في بيزنطة يدور دائماً حول اللاهوت . وإذا كانت الأزمات الداخلية تعتبر أزمات اجتماعية واقتصادية ، فإن الأزمات الداخلية عند البيزنطيين كانت عقائدية . وتعتبر حروبهم صليبية ، ويعتبر إمبراطورهم نائباً عن الله في الحكم . وفي أزمنة الهدوء والاستقرار ، كان للأديرة بما اجتمع لها من جيوش من الرهبان وحشود من الأتباع دور كبير في تكوين الرأي العام . وكان للنساك العموديين الذين اتخذوا مقارم على رؤوس الأعمدة تأثير عظيم على السكان ، وكان الأباطرة يستجيبيون لمطالبهم ويلتمسون نصيحتهم . وكانت الكنائس تزدهم إبان الشدائد بالمبتهلين الضارعين ، وإن العنراء نفسها لترى وهي تدافع عن استحکامات مدينتها المقدسة .

وكانت بيزنطة بحاجة ماسة إلى عدتها الروحية جميعاً . ذلك أنها تعتبر أساساً مدينة يسهل حصارها ، وكان ما يترتب على توقع الحصار من ثائرة مكبوتة يتجلى دائماً في اتجاه سكان المدينة ونظرتهم إلى المستقبل . ففي كل مكان تذيع الطيرة ونذر القشاوم ؛ فالتمايل الوثنية تتحدث أو تسح بالعرق ، وتتنبأ النقوش القديمة بالمصائب الوشيكة الوقوع ؛ والأيقونات والآثار المقدسة تشفى المرضى وتدرأ سوء الحظ أو تزيج العدو اللدود بما يصيبه من موت مفاجئ . وتنشر الشائعات الخارجة عن كل معقول ؛ فالإمبراطور ساحر ، وهو يمشى في الليل بغير رأس وزوجته الملكة تلبسها شيطان . ويجن جنون السكان لما يحل بهم من زلازل وطواعين ؛ فهم يحملون متاعهم ويدفنون في جوف الأرض ما غلا ثمنه من أشياء ثم ثم يندفعون في الطرقات . والعدو قريب منهم دائماً ؛ وعلى مسافة تقل عن ثلاثين ميلاً ميلاد العصور الوسطى

يقوم السور البرى العظيم ، الذى ظل الناس موقنين أمد فترات طويلة من الزمن أنه ليس من الحكمة المخاطرة بتجاوزه . وكـم من جماعات خرجت للصيد ولم تعد عند المساء ؛ وكـم من قرية ودير وبيت ريفى حول العاصمة اشتملت فيه النيران فى أثناء الغارات المتعاقبة . وما القسطنطينية إلا برج يمتد بارزاً فى آسيا ، معرضاً لموجات الحشود البربرية التى تتوالى عليها من السهوب العظيمة أو الفياقى العربية .

وقد انخفضت القسطنطينية فى منمنمات العصور الوسطى صورة مدينة ترتفع فيها الأبراج تحت اسم مدينة القياصرة عند الصقالبة وميكليجارث^(١) عند الشماليين ، فهى فى خيال الغربيين ، يغمرها ضياء الشمس . غير أنها من وجهة النظر الشرقية ، تعد دائماً مصدر النحس والشرور . فإذا عصفت السماء التهمت القباب ، وامتلات الأسوار بالحراب ؛ ووقفت أمام التحصينات صفوف طويلة من خيام الآقار ، وأخذ الفرسان العرب يثيرون الرعب فى السهول المقفرة . وتضيق فى كل آن حلقة الخناق البربرى القامى ، وهم يتحرقون شوقاً إلى انتهاب « المدينة التى تهفو إليها قلوب العالمين »^(٢) .

(١) انظر هـ . جـ . ولز « معالم تاريخ الإنسانية » للترجم ج ٣ ص ٨٤٢ من الطبعة الثانية .
(المترجم)

(٢) انظر قسطنطين الرودى فى (Rev. des. Et. Grecques) ج ٩ (١٨٩٦) ص ٣٨ .

الفصل الخامس

جستينيان والغرب

توفي جستين في (٥٢٧) وخلفه في الحكم جستينيان ابن أخيه ، بعد أن ظل سنوات عديدة الحاكم الفعلي للإمبراطورية . كان جستينيان رجلاً متوسط القامة نحيل الجسم ، وكهلاً في منتصف العمر يغلب الصلع على رأسه وإن بقيت فيه شعرات مموجة وخطها الشيب ، وله وجه أحمر مستدير ، واشتهر بالبشاشة ولين الجانب وهدوء الطبع . كان شديد الدأب على العمل ، بالغ الاهتمام بتفاصيل الأشياء ، درج على أن يعد خطط ما ينفذه من حملات إلى الجهات النائية ، وما تجرى عمارته من القلاع بإفريقية ، وإعداد البرنامج الدقيق لكل ما يمارسه الفصل من ألعاب ، وتنظيم كل ما يدور من جدل حول وجوب الصيام في عيد الصوم الكبير . وغلب على سلوكه العام الوفاق والاعتزان وضبط النفس ، غير أنه يفتقر في بعض الأحوال إلى المبادرة والإقدام ، إذ ظهر ضعفه الشديد في أثناء ثورة نيقا ، وأكبر شاهد على ما اتصف به من التردد ما كان لثيودورا ويوحنا القيادوي عليه من تأثير — فإنه كان شجاعاً ولكنه متوسط الذكاء

Une âme de valeur plutôt médiocre على حد قول ديبل .

ومع ذلك فإن ما أنجزه هذا الرجل من جلائل الأعمال قد أكسبه لقب جستينيان الأكبر . ويذكر له التاريخ أنه المشيد لكنيسة القديسة صوفيا وواضع أساس القانون الأوربي ، وهو الذي استرد الممتلكات الرومانية من

عمودي هرقل^(١) إلى نهر الفرات فالسيادة الرومانية (Imperium Romanum) عنده هي سر نجاحه . إن ذلك الفلاح المقدوني استطاع حين انتشع بالأرجوان ، أن يضع أسس العظمة التي اشتهر بها أولئك الحكام الكماة ، الذين بذلوا من الجهود الفائلة ما أبقى على الإمبراطورية طوال خمسة قرون^(٢) . وكانت تتركز في يد القابض على زمام الإمبراطورية جميع سلطات الكنيسة والدولة والقانون والجيش والإدارة . كان مسئولاً عن رفاهية رعاياه ، سواء أكانوا في الأقاليم الشرقية من الدولة أم في الأقاليم الغربية ، التي نيط الحكم فيها فترة من الزمن بملوك الجرماني ، باعتبارهم نواباً عنه . كان الحامي للكاثوليك جميعاً داخل الإمبراطورية كانوا أو خارجها ، وكان العدو اللدود لكل المهرطقة والوثنيين . هذه هي النظرية التي تنطوي عليها كل أعمال جستنيان . إذ إن جمع القانون الروماني إبقاء على التعبير عن الحضارة التي تخلصت عن أيام الجمهورية ، وتعزيز المركز الدستوري للإمبراطور بوصفه مصدراً للقانون (Fons iuris) . وكانت المراسم المحكمة التفاصيل داخل البلاط ترفع من شأن المنصب الإمبراطوري ، وإن النقوش المدونة على مبانيه التي توافرت بكل أرجاء الإمبراطورية وإطلاق اسمه على مدن عديدة لتسجل للأجيال التالية عظمة جستنيان ومجده . ورأى الإمبراطور أن لا بد من تطهير الجهاز الإداري ، وليس ذلك فقط لأن الإمبراطور يدين لرعاياه بواجب حسن الرعاية ، بل أيضاً لأنهم يجب أن يكونوا في وضع يمكنهم من أداء الضرائب الفادحة التي لا بد

(١) عمودا هرقل هما الصخرتان العظيمتان اللتان تحرسان مدخل البحر المتوسط وهما جبل طارق وجبل سينه (المترجم)

(٢) انظر ف . و . بل في (Constit. Hist. of the Rom. Emp.) ج ١ ص ٢١٧ . « فأما الساهل نفسه فإنه عند توليه العرش ، فقد الكثير من شخصيته كثيرة الأمواء ، وأصبح ورثاً لروما ويجرد مفسر بسيط لسياستها الخالدة على الأيام » .

من إنفاقها على مشروعاته التوسعية . وفي قمة هذه المشروعات ، ما كان يراود
جستينيان من حلم كبير ، وهو استرداد أقاليم الإمبراطورية الرومانية —
إفريقية وإيطاليا وأسبانيا ، فضلاً عن غالة وبريطانيا . ويضطر الإمبراطور
إلى إهمال تخوم الدانوب والحدود الشرقية ، إذ يسحب منها الجنود لتقوم
بالحملات في الغرب . ويتزل سوط الاضطهاد والنفي بإقليمى مصر وسورية
صاحبتى مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysite) فينقر قلوب الناس
فيهما منه ، على حين يمد بعونه البابوية وكاثوليك إفريقيا وإيطاليا .
وتتحمط الولايات بكل من الشرق والغرب بما فرض عليها من ضرائب
لا تطاق ابتغاء تزويد الدولة بالمال اللازم للجيش والقلاع ، فضلاً عن
ذلك يزحف على الدولة من جديد الفساد والرشوة وابتزاز المال تحت ظل
إفلامها . ومن اليسير أن نوضح ما شمل البلاد حتى نهاية حكمه الطويل من
سوء حال : حيث فرغت الخزائن وتضور الفلاحون جوعاً وتضاوت
الجيش وأخذ الغرب يفصل عن الدولة جزءاً جزءاً ، والشرق يهدد ويتوعد
وتجردت الإمبراطورية من كل وسائل الدفاع بينما إمبراطورها الشيخ الفانى
لا يعنى إلا بالمنازعات اللاهوتية ، كما أنه من اليسير كذلك القول بأن سياسة
جستينيان جلبت الكوارث على البلاد ، وأن موارد البلاد لم تكن لتكفى
إلا لحماية حدى الدانوب وفارس . ذلك كله حق لا نزاع فيه ؛ ولكن ينبغى
ألا يغيب عن بالنا أن جستينيان لم يحمل هنا من صفاته وخلاله إلا العيوب
والمساوى . ذلك أن « عصر بيزنطة العظيم » الذى حفر لها أثراً خالداً على
قوانين أوروبا وفنونها ، إنما يرجع إلى أفكار جستينيان عن الإمبراطورية
الرومانية التى اقتضت استعادة الغرب ، وزعامة الكنيسة الكاثوليكية ،
فضلاً عن وضع القانون ، وإنشاء كنيسة القديسة صوفيا .

الإمبراطورة ثيودورا

والإمبراطورة ثيودورا تمثل أعجب تقيض لزوجها . اشتهرت بحب الترف والتعالى والفطسة وحب السيطرة والميل إلى الانتقام ، وكانت بعيدة النظر لا تحفل بالمثل والمبادئ ، فسيطرت باستمرار على تفكير جستنيان وقراراته عن طريق الإقناع أو بالتآمر والدسائس . ويمكن التعبير عنها بلغة عصرنا الحديث بأنها امرأة واقعية وأنها ممن يعتقدن في العمل المباشر ، وأنها قوة نافعة تقابل ما عرف عن جستنيان من الميل إلى التوسع ، ومن الخطط التفصيلية المحكمة التي يرسمها على الورق . ومن المستحيل أن تقرر مدى الصدق الذي يكن وراء الفضيحة التي يرددها بروكوبيوس بإسهاب ولذة عظيمة في كتابه « النوادر Anecdota » . وكيف أن لها ابناً غير شرعى ، وكيف كانت تهتم بكل ما يتعلق بالتجارة في أعراض النساء ، كما أن ميولها نحو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح تنفق دون ريب مع الحقائق الرئيسية الواردة في القصة بأنها كانت بغيا في بيزنطة ، ثم في الإسكندرية فأنطاكية ، حيث وقعت تحت سلطان زعماء ذلك المذهب . ولعل في إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم ، وفي الوقاحة المتمدة التي كانت توجهها إليهم ، تعويضا وانتقاما لنفسها من المعاملة المهينة التي لقيتها من أبناء طبقتهم .

ظلت ثيودورا حتى وفاتها في ٥٤٨ تشارك جستنيان فعلا حكم الإمبراطورية . وكان ذوو الخطوة لديها هم وخدم الذين تولوا مناصب ولاية المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات . أما أعداؤها فكانوا يمزلون أو يقضى عليهم ؛ بل إن يوحنا القبادوقى نفسه ذا القوة والسلطان ، لقي جزاءه

آخر الأمر . كانت تمتلك ضياعاً عظيمة ، ونحصل منها على دخل ضخم ، تمكنت بفضلها من إعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، بل لقد كانت يبلغ بها الأمر أحياناً أن تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور وعملاته دون أن يفوتها مع ذلك أن تصالح جستنيان وتسترضيه فيما بعد . ولعل أهم أعمالها وأبرزها نفوذها الهائل على السياسة الشرقية . ومن ثم فن الطبيعي أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزية الآخذة بمذهب وحدة الطبيعة ، وبلغ بها الأمر يوم أدل من تلك العقيدة وتعرضت هذه الكنيسة للاضطهاد على يد بيزنطة ، أن آوت إليها قساوستها وروهبانها ؛ ولكنها كانت أوضح من جستنيان إدراكاً للخطر السياسي الذي تتعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية آسيا وسورية ومصر إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها . وبفضل مشورتها انتهجت الدولة في أنسب الأوقات خطة التسامح والتنازل التي كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

فتح إفريقية

وبدأ فتح الغرب في (٥٣٣) عندما أفلح بليساريوس أبرز قواد الإمبراطورية إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف من المشاة وما يقارب خمسة آلاف من الفرسان . وذهب معه المؤرخ بركوبيوس ناصحاً ومشيراً ، فترك لنا رواية تفصيلية عن الحملة . وكان السبب الذي اتخذ ذريعة للحرب ، هو أن هيلدريك الملك الوندالي الضعيف ، الذي كان يميل إلى بيزنطة والكاثوليكية قد نجاه عن العرش چيليمر ، الذي كان يمثل الحزب المعادي لبيزنطة . وظهرت حجة أخرى مماثلة عندما حان غزو إيطاليا ؛ وامتدت المماثلة والمشابهة أيضاً إلى سير القتال . ففي كلتا الحالتين ، تبين أن الانتصارات السريعة

الأولى ليست ثابتة دائمة ، فلم يكتمل الفتح إلا بعد سنوات اشتد فيها القتال اضطراباً وارتباكاً . ففي إفريقية ، كان كل شيء في صالح خطة جستنيان الجريئة فإن أسطول الوندال وشطراً كبيراً من قواتهم قد توجه قبل فترة وجيزة إلى سردينية لقمع فتنة نشبت بها . فهبطت الجيوش البيزنطية دون صعوبة على الساحل الإفريقي وزحفت على قرطاجة متخذة طرقاتاً ظلية ، وهي تعسكر ليلاً بين حدائق ذات بهجة . واستقبلهم السكان الرومان بالترحاب . وكانت قوات الوندال تتألف من الخيالة الخفيفة ، والواضح أن الخطط الحربية السليمة تقضى هنا بالالتجاء إلى حرب العصابات إزاء خيالة خصومهم المدرعة ومشاتهم بطيئة الحركة . ولكن الملك جيليمر آثر الاشتباك مع أعدائه في معركتين حاشدتين . وانتصر بليساوريوس في كل من المعركتين رغم ارتكابه أخطاء خطيرة ، ولم ينقض زمن طويل حتى كانت قرطاجة في قبضة يده ، وحتى كان الملك الوندالي الذي جعل منه بروكوبيوس شخصاً رومانسياً ، متقلب المزاج عجباً ، قد سلم نفسه لينقذ أتباعه من مكابدة الآلام . وبدأت الأمور وكأنما قد انتهت كل شيء ؛ فترك بليساوريوس جيشاً صغيراً لاحتلال البلاد . ثم عاد إلى ييزنطة يتمتع نفسه بما حازه من النصر ، وقد حمل معه نبلاء الوندال ، الذين أخذ منهم كتبهم من الفرسان رابطة على الحدود الفارسية . وأخذت شتى الوسائل لإعادة الأحوال القديمة بإفريقية إلى نصابها . فأوثر رجال الدين الكاثوليك بكل حظوة ورعاية ، بينما تعرض للاضطهاد الدوناتيون والأريوسيون والوثنيون . وتقرر أن يسترد أصحاب الأملاك من الرومان أراضيهم ومزارعهم ؛ ولكن الدعاوى القانونية التي مضى عليها قرن كامل كانت تنطوي على صعوبات خطيرة . يضاف إلى ذلك أن التدمير مالم يلبث أن

ظهر عندما تحيل للناس أن كل ما يؤدونه من الضرائب ويسهمون به في إيرادات الإمبراطورية ، هي السبب الرئيسي في اهتمام جستنيان بهم .

على أن الأيام كانت تختزن للولايات الإفريقية مناهب باللغة العنف . فبينما كانت الميداليات والنياشين تصنع بالقسطنطينية ابتهاجاً بالفتح ، وتتردد في أرجاء ميدان السباق أناشيد النصر ، كانت تهدد قوة الرومان بإفريقية هجمات شيوخ البربر ، الذين دأبوا على الخروج من صياصيمهم الجبلية في غارات النهب والتخريب . على أن سولومون القائد البيزنطي نجح آخر الأمر في رد دم بل إنه تعقبهم في التلال ، غير أن خطط القتال عند البيزنطيين (وهم قوم كانوا يحاربون دائماً وفق قواعد معينة) لم تكن صالحة لقتال هؤلاء الخيالة الخفاف والمغيرين الذين يركبون الإبل . وظاهر أن الدروع الثقيلة التي كانت لدى الجيوش الرومانية لم يكن الغرض منها إلا الدفاع لا الهجوم ، وترتب على التوسع في استخدام القسي ، أن اشتد عكوف الرومان على القتال من مسافة بعيدة ، وهي حال لم تعد عليهم — بطبيعة الحال — بأى فحس في روحهم المعنوية . فذاع العصيان بين الجند وتوالت حوادث التمرد ، حتى لقد اضطّر القائد العام في بعض الأحيان إلى الفرار لينجو بحياته . غير أنه تعاقب على قيادة الجيش الروماني من الأبطال أمثال سولومون وجرمانئوس ويوحنا التروجلي ما هياً للدولة الرومانية أن تتغلب على تلك الأزمات ، وبفضل ما هو معروف بين شيوخ البربر (Moors) ، من الشقاق بسبب ما تقشى بينهم من عداوات وثورات دائمة ، لم يتيسر لهم القيام بعمل متحد ، ولذا فإن السلطة الإمبراطورية استتب لها الأمر بصورة مستديمة في (٥٤٨) وأخلدت إلى الراحة آخر الأمر الأقاليم التي تعرضت للنهب والخراب .

ولم يروكيوس ليروح في فقرة قوية وردت في كتابه «التاريخ السرى»
ينى على فتح إفريقية ، أنه تكلف على حد قوله خمسة ملايين من الألفس
ولم يؤد إلا إلى فقر البلاد وخلوها من السكان وجعلها فريسة لغارات البربر
وتعريضها للضرائب الفادحة الطاحنة والاضطهاد الدينى والعصيان العسكرى .
وهناك من الدلائل ما يحملنا على الظن بأن فى هذه الصورة شيئاً من المبالغة .
فالخرائب الكثيرة المتخلفة عن المدن الفاخرة التى لا تزال باقية إلى اليوم
بتلك المنطقة تشهد - بما حوت من أسوار وسقايات يرجع الكثير منها إلى تلك
الفترة ، - بما كان عليه جستنيان من بعد النظر . ولا شك أن قلاع الحدود
تسترعى الاهتمام لا فى حد ذاتها فحسب باعتبار ما تعرضه من مظاهر القلاع
فى ذلك العصر ، كالخندق والحصن والفناء والأبراج الجانبية الواقية للجناح
وفتحات الرماية - وكلها ترتبط عادة باستحكامات العصور الوسطى ، ولكنها
أيضاً تسترعيها باعتبارها جانباً من نظام دفاعى ضخيم يمتد إلى منحدرات جبال
أوراش ومرتفعات نوميديا ، وفى مناطق مسورة يلوذ بها الفلاحون فى أثناء
غارات البربر . ولا تزال الكنائس والأديرة الفسيحة الواقعة فى داخل البلاد
تحتفظ بطراز الباسيليكة الرومانى الذى تزينه الزخارف البيزنطية ، على حين
يغلب التأثير اليونانى فى المناطق الساحلية ، كما أنه ترك آثاره واضحة على النيجان
الرقية للأعمدة والزخارف الجانبية . أما الأرضيات المصنوعة من الفسيفساء
فإنها تصور بألوان مشرقة أنفعالات ميدان السباق وأزياء الزمان ، ويتجلى
نشاط الكنيسة فى شدة ازدهار المجامع الكنسية ووفرة الأدب أعنى المؤلفات
المتعلقة بالمناظرات الدينية . وتدل البقايا الكثيرة للضياع وأعمال الرى ومعاصر
الزيت ، على ما اشتهرت به البلاد من الخصوبة الواسعة الانتشار . ولعل خط
الساحل فى إقليم طرابلس إلى طنجة ، قد بدا فى عين الغزاة المسلمين بعد

هذا الزمن بقرن ، كأنما هو بستان واحد مستديم تناثرت فيه المساكن المتباعدة .

عوامل ضعف القوط الشرقيين

على أن التدخل الإمبراطورى فى إيطاليا جاء فى الوقت المناسب . وذلك أن التوازن الذى خيم على دولة ثيودوريك الثنائية قضت عليه وفاة تلك الشخصية العظيمة التى كانت ترفع بيدها ميزان الأمور . وتولت ابنته أمالا سونثا الوصاية على ابنها البالغ عشر السنوات ، والذى تولى العرش عقب وفاة جده . وتمخض حكم المرأة عن مشاكل ما لبثت حتى عجلت بانتهيار نظام ثيودوريك . فإن تربيته الرومانية جعلت المقاتلين القوطيين يرتابون فى أمرها ، على حين أن بيزنطة استخدمتها ، أداة وألعوبة فى سياستها الإمبراطورية ، بل لعلها لم تحفل بها عند وفاتها . ونظراً لأنها كانت تعد العرش حقاً خاصاً لأسرة آمال ، فإنها صممت وابنها لا يزال حدثاً تحت الوصاية أن تحتفظ بالعرش لو مات الصبي ؛ ولكنها كغيرها من أبناء شعبها كانت ضعيفة الإحساس بالوحدة القومية ، فلم تتردد قط فى التفاوض سراً مع جستنيان عندما أصبح مركزها حرجاً .

ومن الحقائق التى ترشدنا فى هذا المقام أن كل من تعاقب على العرش من

زعماء القوط أمثال : ثيوداهاد وويتيجيز وهلدياد وإيراريتش وتوتيل
كان يمد علاقاته بالإمبراطور أمراً شخصياً بحتاً ، لا يختلف فى ذلك عن
ثيودوريك مقدم الجنديشبه المستقل ، فى مساوماته مع الإمبراطور زينون قبل
خروجه لفتح إيطاليا . ولكنهم كانوا فى الحين نفسه يرجعون بصورة

متناقضة غير منطقية إلى التسوية التي عقدت مع أناستاسيوس^(١) معتبرين إياها نوعاً من الأساس القانوني لدولة رومانية قوطية . وقد فاتهم تماماً أن مركز ثيودوريك الذي لم يحدد قصداً لم يحفظه في الواقع سوى المحالفات الكثيرة التي عقدها مع الدول الأجنبية ، فضلاً عن الوفاق والانسجام الديني والسياسي الذي ساد في الداخل ، وبذلك تهيأ له أن يواجه بيزنطة بجمهة وطيدة . غير أن ارتفاع شأن قوة الفرنجة ومؤامرات الكاثوليك وتدمير طبقة رجال السناتو قد قوضت هذا البنيان فعلاً قبل وفاة ثيودوريك .

ولما لم تستطع أما لاسوننا الصمود تلقاء معارضة القوط ، صممت على أن يشاركها في العرش ابن عمها ثيوداهاد ، وهو طراز آخر للبربري ذى الطابع الروماني الطامع وإن يكن أعجب شأنًا . كان ثيوداهاد شغوفاً بفلسفة أفلاطون ميالاً إلى الهدوء والسلام ، وكان لديه عدا ذلك نزعة تسلطت عليه تماماً ، هي الحرص على امتلاك الأراضي . لقد كان على استعداد تام — كما أكد ذلك لجستينيان في مفاوضات تالية — لأن يتنازل عن إيطاليا في مقابل الحصول على مزعرة ومنصب في البلاط الإمبراطوري . وسجنت أما لاسوننا بأمره بجزيرة وسط بحيرة بولسينا ، حيث تم إعدامها بعد ذلك . وكانت تلك هي إشارة بدء الهجوم البيزنطي . إذ تقرر غزو إيطاليا براً من جهة دالماتيا ، وبحراً من إفريقيا . ففي (٥٣٦) استولت قوة إمبراطورية على سالونا عاصمة دالماتيا . على حين قاد بليساريوس جيشاً تقارب عدته ٧٥٠٠ رجلاً . ولا شك أن قلة عدد قواته شيء يسترعى الانتباه ، وذلك بالنظر إلى أهدافه ومنجزاته الكبيرة . ولكن قلة المدد كان يعوضها إلى حد كبير التنظيم الفائق والخطط

(١) انظر ص ١٢٤ .

الاستراتيجية التي قاوم بها جموع البرابرة غير المتماسكة . على أن قلة العدد منعتهم من الناحية العملية من الاشتباك في معركة حاشدة ، وهذا هو العنصر الذي تحكم في طبيعة الحرب التي تلعب فيها القلاع والحصارات دوراً بارزاً .

فتح إيطاليا

وفي هذه الظروف تجلّت عبقرية بليسايريوس العسكرية في أعلى ذراها . كان المثل الأعلى للجندى المحترف ، فكان شجاعاً في ساحة الحرب واسع الخيلة في أساليبه ، فتعلق به الجند على اختلاف عناصرهم في أثناء حملاته في القارات الثلاث ، ولهذا السبب ذاته كان جليل القدر عند جستنيان ، إذ لم تكن له مطامع سياسية ، ولم ينحرف قط عن ولائه للعرش . ومع ذلك فقد أثار نجاحه في نفس الإمبراطور شبهات قوية ؛ ففكر عليه في الرجال والمال . ولقي من حاسديه من رملائه في القيادة كل شر وعناء ، وكانت الحاسة السياسية لديه ضعيفة ، فأوقعه ذلك في أخطاء جسيمة ، كما أن اتقياده لزوجته أنطونينا ، الصديقة الحميمة للإمبراطورة ، قد ورطه في المؤامرات المعقدة التي كانت تحاك بالقصر . ولذا فإنه قصر دون بلوغ مرتبة البطولة الحقة . على أنالوازنا بين حدوده وعبوبه ما خفي منها وما ظهر ، بما حققه من أعمال رائعة لتبين أنه كان بحق أعظم قائد في زمانه .

سقطت صقلية دون تسديد رمية واحدة ؛ إذ كانت حاميات القوط فيها ضعيفة لا تكاد تفي باحتلالها ، كما أن أصحاب الأملاك فيها استقبلوا الجيوش البيزنطية بالترحاب . وكانت نابولي حاضرة القوط في كامبانيا هي الهدف التالي للقوات البيزنطية ، فلم تلبث أن أذعن للهجوم بعد حصار مثير ، ولم يخل الأمر من بعض الأحداث المؤسفة ، إذ كان سكانها - وهم من التجار -

أقل استعداداً من صقلية أو بروتيوم الإقطاعية للترحيب بالقوات الإمبراطورية،
التي يبدو أن من كان بها من هون وإسوريين وصقالبة، كانوا يبعثون الخوف
فيهم أكثر من القوط .

وفي تلك الأثناء استبد اليأس والفشل بالملك ثيوداهاد ، — فسي
للتفاوض مع الإمبراطور ؛ على أن انتصار جيوشه في دالماتيا دفعه إلى نبذ
العرض الذي أسلفناه إليك ، ومن ثم لم تسفر المباحثات بينهما عن أية نتيجة .
وكان سقوط نابولي هو الذي قزر مصيره المحتوم . إذ خلعه الجيش القوطي ،
وانتخب مكانه ويتيجيز أحد قواد ثيودوريك . وكانت المستقرات القوطية
الرئيسية تقع بشمال إيطاليا ، فبادر ويتيجيز إلى الانسحاب إلى رافنا لينظم قواته
بعد أن ترك روما مفتوحة للبيزنطيين ، فاحتل بليساريوس المدينة (روما) .
وقضى شتاء عام (٥٣٦ — ٥٣٧) في عمارة الأسوار المتخربة ، إدراكاً منه
لأهمية التمسك بالعاصمة ، رغم ما تراءى لكثير من الرومان ، من سخافة
الفكرة التي تجعل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل يتولى الدفاع عن محيط
مدينة يبلغ اثني عشر ميلاً من هجمات جيش يفوقهم في العدد عشر مرات
أو عشرين مرة . وإن قصة الحصار ليست إلا سلسلة من الأحداث الجذابة
المثيرة ، التي تبدأ بفرار بليساريوس على جواده الأشهب كلون الحديد ذي الفرة
البيضاء ، من الخيالة الذين تعقبوه ، ووصوله أمام أسوار المدينة ، التي أبت
أول الأمر أن تفتح أبوابها لتلك الركب المسربل بالدم والنقع^(١) . واستشرت
الخليانة والعرب في الداخل . وأوشك القوط أكثر من مرة أن ينفذوا إلى
المدينة ، بأن لجثوا إلى نقطة ضعيفة ، أو عمدوا إلى الزحف أسفل بهو الأعمدة

(١) النقع هو غبار الحرب كما في البيت المشهور . (المترجم)

بكنيسة القديس بطرس ، فيردهم أعداؤهم بمهاجمتهم لهم بالنماثيل المحطمة المنزعة من مقبرة الإمبراطور هادريان . واستمات بليساريوس في الدفاع حتى وصلته الأمداد المتأخرة ، وفي مارس (٥٣٨) رفع الحصار عن المدينة بعد أن دام سنة كاملة . فأضحى الطريق وقتئذ ممهدا لقيام بليساريوس بزحف جديد ، وهوجمت معاقل القوط المنيعه بوسط إيطاليا ؛ ولم تنه سنة (٥٣٩) حتى أطبقت الجيوش البيزنطية على رافنا . وتلى ذلك قصة عجيبه ، توضح بقوة أخلاق القوط والبيزنطيين . ذلك أن جستنيان لما شعر باحتمال نشوب الحرب بينه وبين فارس ، أظهر استعدادا لمح القوط شروط الصلح ، بأن يترك لهم الاحتفاظ بما يملكونه من الأراضي الواقعة شمال نهر بو . على أن بليساريوس أبى أن يتجرد من نصره فرفض التصديق على الاتفاق . وغضب القوط لذلك وجزعوا إذ وجدوا أنفسهم بلا أرض يستقرون فيها ففرضوا عليه التاج ، وقبل ويتيجيز التنازل عن عرشه . وقبل بليساريوس العرض ، ولكنه ما كاد يدخل رافنا حتى أظهر ما كان يضمره من الخيانة . وأسقط في يد القوط ولم يعد في إمكانهم أية مقاومة بعد ذلك . واقتيد ويتيجيز وحاشيته أسرى إلى بيزنطة . وأضاف جستنيان إلى ألقابه ، لقب ملك القوط (Gothicus) أيضا ، وأرسل من قبله واليا برايتوريا ليتولى الحكم في الإقليم الذي استرده ، على حين نقلت معظم القوات إلى الشرق .

وكان ما عقب ذلك من أحداث يعد في رأى بيزنطة مجرد عصيان . بيد أنه كان عصيانا عارما جدا . واحتاج رد إيطاليا إلى الطاعة إلى أربعة عشر عاما من الحرب الشعواء . إذ إن القوط بزعامه ثونيلا المشهور بصلابة الإرادة استطاعوا أن يجعلوا سلطان بيزنطة في شبه الجزيرة الإيطالية ، ظللا يتجاوز

ما كان لهم من حاميات بالمدن الساحلية والمعاقل المتفرقة . وكان هدفهم هو بسط سيطرتهم على السهول ، وبهذه الطريقة يضمنون لأنفسهم الحصول على الجزية . التي تؤدي إلى الخزانة البيزنطية . وفي الحين نفسه عمد القوط بمهارة إلى الإفادة من كراهية الشعب لليونانيين وتحويله إلى جانبهم ، فساندوا صغار الفلاحين على سادتهم . وكان أصحاب الأملاك الذين تجردوا من أملاكهم ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يؤيدون نظام الطبقات ، يمدون توتيلاً طاعياً وزنديقاً . أما الفلاحون الذين تخلصوا من كثير من أعمال السخرة الإقطاعية (Coivées) التي كانت تناط بهم ، فإنه هبط عليهم كنفذ أرسلته العناية الربانية . ولم يكن بوسع الجيوش البيزنطية الصغيرة أن تلتقي به في ميدان القتال ؛ وتعرضت روما للسقوط والاسترداد مرتين . وبعد قتال يائس لم يشتبك فيه الرومان إلا بوسائل ضئيلة حدث آخر الأمر أن تقرر استدعاء بليساريوس ، فكان ذلك اعترافاً صريحاً بالإخفاق . وفي (٥٤٩) رأس توتيلار رسمياً حفلة ميدان السباق بروما ، وبدأ في تجديد مباني العاصمة ، بينما أغارت أساطيله على شواطئ دالماتيا للنهب والتخريب . « فأضحي الغرب بأكله في قبضة البرابرة » . على حد قول بروكوبيوس .

وإذ بلغ الأمر هذا الحد قرر جستنيان أن يرسل للمرة الأخيرة ، من القوات ما يكفي فعلاً للقيام بحملة حربية . ولعل الذي حفزه على ذلك ، المهاجرون الرومان أصحاب النفوذ القوي في بلاطه . واستطاع القائد المحنك ناريسس الخصي بعد أن تعطل في دالماتيا أن يتجنب في سهولة ويسر ما أقامه توتيلار من استحكامات دفاعية ، بأن اتخذ الطريق الساحلي إلى رافنا . وكان الجانب الأكبر من جيشه مؤلفاً من البرابرة اللومبارديين

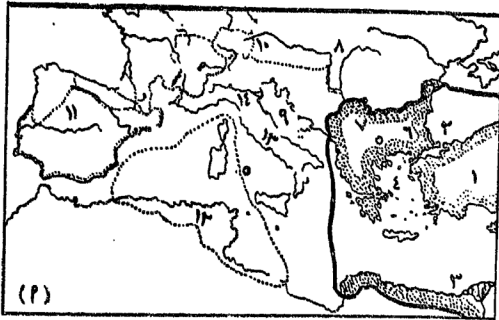
والهيرول والهون ، وكانوا من وفرة العدد ما يكفي لمواجهة العدو في الميدان ، بل امتازوا على العدو بما كان لنارسييس من دراية بالفنون العسكرية . وعند ذلك أصبحت المعركة الفاصلة وشيكة الوقوع . وسارع توتيلان من روما للقائه ، فهزمت القوات القوطية هزيمة ساحقة في معركة كبرى قرب بوسطا جالوروم (٥٥٢) بجبال الأبينين . ولقى توتيلان مصرعه . ووقف القوط وظهورهم إلى السور واستماتوا في القتال ، غير أن حاميات جنوب إيطاليا استسلت في (٥٥٥) ؛ وصمدت برسكيا وفيرونا حتى (٥٦٣) بفضل مساعدة قوات من الفرنجة .

ويقول مؤرخ ساذج إن نارسييس أعاد إلى إيطاليا « سالف مرحها وسرورها Pristinum Gaudium » . وإن « القرار التنظيمي » الذي أصدره جستنيان في (٥٥٤) إنساغو محاولة متعمدة منه لرد عقارب الساعة إلى الخلف ، فإن لم يكن الرد إلى (٤٧٦) فهو على الأقل إلى ما قبل المدة التي انتزع فيها توتيلان أملاك أصحاب الأراضي وحرر من لديهم من موالى الأرض (Serfs) . ومنذ تلك اللحظة استقر في رافنا نائب إمبراطوري Exarch له القيادة العليا على الإقليم كله ؛ وتقرر الاستغناء عن كل الموظفين والمدنيين وتعيين غيرهم ، واعتقد جستنيان أنه بفضل جهوده قد تم إرجاع البلاد نهائياً إلى سيرتها الأولى . غير أن ما فعله كان في الواقع شيئاً يختلف عن ذلك اختلافاً بليغاً . ذلك أنه بتدمير قوة القوط أزال الحاجز الوحيد الذي يمكنه الوقوف في وجه حشود اللومبارد البرابرة ، الذين تدفقوا على إيطاليا بعد موته بوضع سنوات .

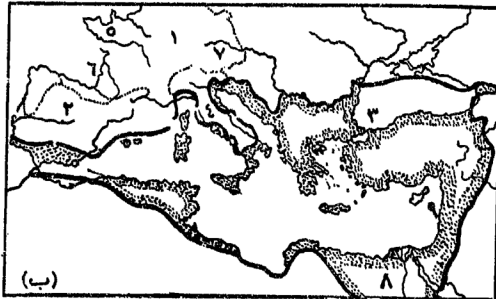
بيندكت أسقف نورسيا

على أن عمال الخراج عند جستنيان أتوا ما حل بالبلاد من الخراب والدمار . إذ خلت المناطق الريفية من سكانها وتداعت المدن . وصارت روما بعد أن سقطت خمس مرات في أثناء هذه الحروب مكاناً قفرآ ، انتشرت به الأطلال والخرائب . وولت تجارة روما ، فصار لزائماً على سكانها منذ ذلك الحين ، أن يعتمدوا في معاشهم على صدقات الحجاج وإحسانات البابوية . وتوقفت السقايات ، وبطلت الحمامات العامة ، على حين أن سهل كامبانيا الخصب لم يلبث أن تحول إلى ربيع موحشة ومبائة للملاريا ظلت تحيط بالمدينة حتى الأزمنة الحديثة . وزال كل أثر لما كان معروفآ في الماضي من «الخبز والملعب» . إذ إن آخر ما جرى من الألعاب كان في عهد توتिला . وقرر جستنيان آخر الأمر منع إرسال الميرة المجانية من القمح إلى روما . واختفى القناصل ومجلس السناتو رويداً رويداً . وهاجر كثير من النبلاء إلى بيزنطة ، تاركين قصورهم للخراب والأطلال .

وزحفت على إيطاليا كلها ظلال الاستسلام والتبليد . ولم يبق للرجل الذي يأنس إلى الحياة الهادئة ما يأمله في هذا العالم . ولم يعد له من ملاذ يلجأ إليه غير الدير ، وسرعان ما انتشرت ببلاد الغرب قاعدة الديرية التي وضعها بيندكت النورسى والتي سدت هذه الحاجة ، فحلت محل القاعدة القديمة التي سبق انتقالها من مصر إلى أديرة جنوب فرنسا . ومع أن قاعدة بيندكت نقلت من القواعد السابقة لها قدرآ كبيرآ ، فإن ما انطوت عليه من روح إذلال النفس ، والحياة المعتدلة المنظمة ، جعلها شديدة الاختلاف عما كان سائداً



- (أ) خريطة الإمبراطورية الرومانية في عام ١٠٦ م
- | | | |
|----------------------------|---------------------------|--------------------------|
| ١ — الإمبراطورية الرومانية | ٢ — القسطنطينية | ٣ — الإسكندرية |
| ٤ — أثينا | ٥ — سالونيك | ٦ — أدرة |
| ٧ — نيش | ٨ — اللومبارد | ٩ — مملكة القوط الشرقيين |
| ١٠ — البغاريون | ١١ — مملكة القوط الغربيين | ١٢ — الوندال |
| ١٣ — روما | ١٤ — رافنا | |



- (ب) خريطة الإمبراطورية الرومانية من ٥٣٣ — ٦٠٠ م
- | | | |
|-----------------------|--------------------------|-----------------|
| ١ — مملكة الفرنجة | ٢ — مملكة القوط الغربيين | ٣ — القسطنطينية |
| ٤ — مملكة اللومباردين | ٥ — بريطانيا | ٦ — بوردو |
| ٧ — الآلامان | ٨ — مصر | ٩ — بيروت |

(٧) فتوح جستنيان

بإقليم طيبة من التنسك الفردى ، الذى اُسم بالحماسة وروح المنافسة . إذ أجازت قاعدة بنيدكت لليريدى قدرًا كافيًا من الطعام والنوم والرياضة واللباس ، ولم تستلزم جهداً مفرطاً من الناحية الفكرية أو الجثمانية . ولم تكن ظهرت بعد صنوف الخدمات التى قدمها البنيديكتيون المتأخرون^(١) فى حقول التعليم والزراعة والبناء . ومع ذلك ، فقد أدخل كاسيودوراس نسخ السكيب فى دير أسكويلاس الذى أنشأه فى أواخر أيامه ، ولا شك أن شغفه الشديد بالأدب الكلاسيكى وجهه للسان اللاتينى اتقى الآخذ تقاؤه فى الزوال ، قد احتفظ للأجيال القادمة بشعر فرجيل وهوراس ، ونثر بيشرون وكوينتيليان ، فضلاً عن ذلك المزيج الممتاز من الفكر والأدب العميق الذى قدمه لقراء العصور الوسطى كل من لاكتانتىوس وجريروم وأمبروز وأوغسطين . والظاهر أن أتباع بنيدكت قد هادوا بعد وفاته بتبليغ إلى نسخ السكيب ؛ وإن لم يكن بنيدكت نفسه وهو الملقب بالعالم بالنظرة والمقل بالموهبة (٢) (*Scienter Nescius et Sapienter ind octus*) بمن يشجعون القيام بذلك . إذ واقع أن جوهر قاعدته هو السكوت المطلق (*Summa Quies*) . وهى حقيقة يمكن العثور عليها (نقلا عن الإيقاعات اللغوية الفائقة التى اختتم بها نيومان فقرته الذائمة الصيت) فى قول بنيدكت لا شيء يستحق الإعجاب (*Nil admirari*) ؛ وفى إغفال كل ما فى الدنيا من الخوف والرجاء ؛

(١) إن الدوم كثرت بلز يميز فى O.S.B. بوضوح بين فسكرة بنيدكت الأصلية وبين التطورات التالية التى ألت بها فى (*Benedictine Monachism*) الطبعة الثانية ف ٣ لندن ١٩٢٤ .

Greg. Dial. ii. Praef. (٢)

وفي الصلوات اليومية وفي القوات اليومى وفي العمل اليومى ، إذ لا يختلف يوم عن آخر ، إلا فى كونه أقرب من سابقه بخطوة إلى ذلك « اليوم المشهود » الذى سوف يبتلع الأيام جميعا ، وهو يوم « الراحة السرمدية » .

اضمحلال روما

على أن نجاح جستنيان فى مغامرته بالغرب اكتنفته بعض ظلال قاتمة . فإن الفتوح الباهرة التى أحرزتها قوات لا تتناسب وإياها مطلقاً ، كانت تنف قبالتها وتغض من شأنها ضروب شديدة من الضعف والمخاطر . وجملة القول ، إن قبضة بيزنطة على البحر المتوسط الغربى كانت قبضة دولة بحرية . فإن الدولة وإن تخلت عن الولايات الغربية بإفريقية ، لم تبرح تسيطر على المدن الساحلية التى فى يدها حتى مضيق جبل طارق . واستردت من القوط الغربيين المدن البحرية الواقعة بجنوب أسبانيا . وكان لإقليم بروقاس عند ذلك فى أيدي الفرنجة ، واقتصرت ولاية إيطاليا على شبه الجزيرة وحده ، فلم تعد رايكيا (Raetia) ونوريكوم فى أيدي الرومان . وترتب على الفتوح الوندالية أن انضمت جزيرة كورسيكا ومردينية إلى إفريقية ، بينما صارت صقلية تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . ودل سير الحرب القوطية على ما سوف يحقق بأجزاء إيطاليا الداخلية من مصير ، إذ لم تكن القوات الإمبراطورية كافية لحماية تلك الأجزاء من غارات أهل الشمال ، ولذا لم يلبث أن تألف منها بعد زمن قصير الدوقيات اللومباردية . على أن المناطق المحيطة بالبندقية ورافنا ونابولى وروما فضلا عن جنوب كالابريا ظلت تابعة لبيزنطة ، كما أن الحكومة الإمبراطورية (الأرجوانية) فى رافنا لم تزل من الوجود

إلا بعد قرنين من الزمان^(١) . وما يدل على ازدياد أهمية هذه المدينة ما حفلت به من كنائس رائعة يعود تاريخها إلى تلك المدة . على حين أن نتائج الأحداث التي استمرت نصف قرن ، والتي حولت روما ، أعظم مدن الغرب مجدداً إلى مدينة إقليمية مضمحلة متداعية ، وإلى تابع ذليل لمنافستها الشرقية بيزنطة ، تتجلى بقوة في النباتين الشديد بين ما في الفسيفساء في حنيسات كنيستي القديسين كوزماس وداميان (حوالي ٥٣٠ م .) من رسوم بالثة الروعة وشديدة الأثر ، وهي تعتبر الصورة النهائية للفن الروماني في قرون عديدة ، وبين ما في فسيفساء القديس لورنزو فيبوري لومور (حوالي ٥٨٠) من مناظر مستوية مجردة من الحياة . والراجح أنها من إنتاج صناع بيزنطيين يقولون رتبة ومهارة . أما البابوية نفسها فإنها فقدت كل استقلال . فقد عوجل أحد الأخبار بالعزل ؛ وحمل آخر إلى القسطنطينية قسراً ليلقى الإهانة والسجن^(٢) ذلك أن خلفاء جستنيان وأصلوا العمل بخطة « السيادة الدينية للقيصر Caesaropapism » التي رسمها ذلك الماهل ، حتى إن البابا جريجوري الكبير ألغى نفسه مضطراً إلى المبالغة في مداهنة الطاغية فوقاس . ومع ذلك فإن سلطة الكنيسة كانت في ازدياد مطرد ؛ إذ تزايد ما كانت يمارسه أساقفتها من سلطة دينية ؛ وتوافرت الأموال والضيايع المحبوسة عليها . وكان للكنيسة نظام دائم ، فكان بوسعها أن تفتخر حتى يكتمل إعداد الوسائل اللازمة لبسط النفوذ البابوي في أوروبا الغربية ، وهو العمل الذي تم على يد البابا جريجوري .

(١) قيل « إن مملكات الإمبراطورية والومبارد بإيطاليا بلغ من تداخلها أنه لم يعد في الإمكان قيام وحدة قومية . ومن هنا كان الفتح البيزنطي مسؤولاً إلى حد ما عن ضعف العمود القوي ، الذي كان له أثر كبير فيما نرى ذلك من تاريخ إيطاليا .
(٢) انظر ص ١٩٩ ، بعنوان مذهب الطبيعة الواحدة .

الفصل السادس

جستنيان والشرق

الإصلاحات الإدارية

من المعلوم أن جستنيان اتبع في الغرب سياسة هجومية ؛ بينما حرص على أن تكون أهدافه دفاعية في الشرق . وكان يرى ضرورة صيانة الاستقرار على الحدود بإنشاء مجموعات هائلة من الأسوار والقلاع ؛ فإن أعباءه الجليل مع البرابرة وجب شراء رحيلهم بالمسال . أما الاستقرار في داخل الإمبراطورية فكان في رأيه لا يتحقق إلا بالإصلاح الإداري . فإن هذا الإجراء فضلا عن تقليده من فرص الفوضى ، لا بد أن يحقق لجستنيان موارد مالية بالغة الأهمية ، بزيادة رضا السكان وتحسين الجهاز المالي . والواقع أن جستنيان لم يقصد التضحية برفاهية رعاياه في سبيل سد حاجياته المالية . وتقوم فلسفته على ما يلتزمه الإمبراطور (الحاكم) والشعب نحو الإمبراطورية من واجبات متعادلة ، بوصفهما الركنين اللذين تتألف منهما الإمبراطورية ، فالإمبراطور يتولى الغزو والفتح ، بينما يلتزم السكان مساندته في ذلك .

وقد بدأ جستنيان إصلاحاته بإصدار مرسومين عظيمين في (٥٢٥ م) . فصدرت تعليمات تفصيلية عن تنظيمات كل ولاية بمفردها ؛ والمقام لا يتسع هنا لغير المبادئ الأساسية . ومن أبرز المساوئ في عهد رسوم التوظيف (Suffragia) التي كان على الموظفين أن يدفعوها لكي يحصلوا على وظائفهم والتي هي في الواقع رسوم للتوظيفة أو ثمن مدفوع . وكانت نتيجة ذلك

اضطراهم إلى تعريض أنفسهم عما دفعوه بانتزاع الأموال وقلة الأمانة بجميع أنواعها . وكان كل الجهاز الإدارى ، ابتداءً من الوزراء الكبار بالعاصمة إلى أصغر شرطى وجندى بالأقاليم ، طامعاً بالرشوة والفساد . فهرع إلى التسطنطينية حشود من أصحاب المظالم . ولم يكن الموظفون المركزيون يستطيعون الحصول على أية معلومات صادقة عن الحكومة المحلية بالأقاليم ، فإذا جرت محاسبة الموظفين على تصرفاتهم التمسوا العذر فيما يتطلبه تأدية رسوم الوظائف من مقتضيات . والآن أبطل الإمبراطور هذه الحجة ؛ فلم يعد الموظف يؤدى عند الالتحاق بالوظيفة إلا رسوماً خفيفة . وصدرت أوامر صارمة لتنظيم النظام الإدارى . وصار لازماً على الولاة أن يكونوا ذوى « أيد طاهرة » — وهذه العبارة تردد ورودها كثيراً — كما هي لزمة ثابتة (Leit - Motif) فى كل ما صدر من مراسيم . ونتمتع عليهم توفير العدالة المتكافئة للناس جميعاً ، وحماية رعاياهم من غف العسكرين أو مما يبتزه صفار الموظفين من الأموال ؛ وحفظ التوازن بين الفنى والفقير ، والتزام العدالة فى احترام حقوق الكنيسة والدولة بدرجة متساوية . غير أن واجبه الأول هو « أن يعملوا على زيادة إيرادات الخزنة ، وأن يبذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مصالحها » . وكانت الأوامر تعزز بيمين رهيبية ، كان على كل حاكم جديد أن يقسمها ؛ فإن أخفق فى أداء واجبه ، تعرض « لشدائد يوم الحساب الرهيب » ، واستحق مصير يهوذا ، وبرص جيحزى والفالج الذى أصاب قابيل . « وأدخلت تبسيطات هامة فى الجهاز الإدارى ببعض أجزاء الإمبراطورية . وضمت الأقاليم حتى جعلت وحدات أكبر واخففت الأقسام الإدارية (Dioceses) . وكانت السلطات العسكرية والمدنية توحد فى بعض الحالات — وهو تغيير يمد إرهاباً بالالوية (الثيمات Themes) التى ظهرت فى التاريخ البيزنطى . وتقرر أيضاً

تبسيط الإجراءات القانونية ؛ فنبسر تقديم الالتماسات إلى حاكم الإقليم ، غير أن التقدم بالشكوى رأساً إلى القسطنطينية أحبط ببعض الصعوبات . وقد كفلت هذه الإجراءات تحقيق السرعة في القضاء المحلي ، على حين منعت اشتداد الضغط على محاكم العاصمة .

وكان چستنيان يرجو بهذه « الأفكار الفاخرة » أن يكون هياً للدولة « عصرآ جديداً زاهراً » . غير أن أحداث السنوات التسع والعشرين التالية أثبتت خطأ ظنونه . وأكبر شاهد على ذلك معاودة تجديد المراسيم سنة بعد أخرى طوال تلك المدة وتكرار ما بها من التهديدات والالتماسات بلا نهاية . لقد كان الوضع ميثوساً منه جملة وتفصيلاً . ويعود السبب في ذلك إلى النظام نفسه من ناحية ، وإلى السياسة الإمبراطورية من ناحية أخرى . فإن جهاز الحكومة المائل المعتد ، الذي تغفل فيه الفساد قرونآ عديدة ، كان بمثابة مقاومة شديدة لكل إصلاح ، كما أن ازدياد حاجة چستنيان المستمرة إلى المال ، كان من القوة بحيث يمنع كل إصلاح .

وتفيض كتابات المعاصرين بذكر ألوان الشقاء التي كان يقاسمها رعايا چستنيان التعمساء . فإن لكل ولاية قصصها التي ترونها عما حل بها من مظالم ، وعن الظالمين المعروفين بالسمة السيئة . وكانت تدور في الأسواق حول هؤلاء الرجال مجموعات لا آخر لها من الحكايات والقصص . فنهأ أن يوحنا « المنتفخ الأوداج » حاكم آسيا أهان الأسقف ، وما زال برجل شيخ حتى دفعه إلى الانتحار واغتصب أبناء الأعيان . وأشتهر يوحنا « القصص » بإيطاليا بمهارته في قرض العملة . وفي العاصمة نفسها استحدث يوحنا القبادوقى ، حينما كان رئيساً للإدارة المالية ، غرفة للتعذيب في سرايب

مقره الرسمى يزوج فيها كل ممنوع عن دفع الضرائب ، على حين أن تريبونيان ، وهو وزير العدل ، كان يتجر علناً فى أحكام المحاكم . وكلما زادت الحاجة تقرر فرض ضرائب جديدة ؛ وأضيفت الاحتكارات والتعريفات الجركية إلى الأعباء التقليدية المتمثلة فى ضريبة الأرض ، فضلاً عن الضرائب المتعلقة بنقل الجنود وإمدادهم بالطعام ^(١) . على أن مدن آسيا الصغرى التى استقرت أحوالها ، وازدهرت تجارتها فى أثناء القرن الماضى ، فهيات للإمبراطورية فى الشرق أن تتجنب الإفلاس الذى اجتاح الغرب ، — أخذت تحس الآن بالوطأة النامة لمطالب جستنيان : — ذلك بأن بلاد البلقان تعرضت للخراب والنهب على أيدي الصقالبة والهن ، وألحقت غارات الفرس الخراب بسوريا ؛ فلم يعد بوسع الحكومة أن تبرز مزيداً من الخراج من هذين الإقليمين . وعلى الرغم من كل شيء لم تكن الموارد كافية : حتى لقد انتهى الأمر بذلك الحكم الطويل إلى إهمال القلاع وتأخير أعطيات الجند ، وإلى تخفيض حاميات الثغور* ؛ ثم تم إغلاق حلقة الفساد المفرغة على عنق الدولة ، حينما ألزمت الإمبراطورية ، وقد تجردت من كل وسائل دفاعها أن تؤدى لجيرانها البرابرة من الجزيات والإعانات المالية ما زاد فى خراب اقتصادياتها الزائفة .

قوانين جستنيان

على أن ما اشتهر به جستنيان من الميل إلى النظام والاتساق ، وجد فى مجال التشريع منفذاً صالحاً . وكان الواجب المطروح بين يديه ضخماً هائلاً ، كما أن العمل الرامع المنجز كان جليلاً حقاً مع وضع مالقيه من الصعوبات

(١) انظر ص ٢٦ بعنوان دقلديانوس وقسطنطين .
* الثغور : كما ورد فى المعاجم : من المواضع التى يخاف العدو منها ، أى من مناطق الحدود . [المترجم]

موضع الاعتبار . وكان القانون الرومانى يتكون من مجموعتين تعرفان عادة باسم القانون القديم (*Ius vetus*) والقانون الجديد (*Ius novum*) . وكان القانون القديم يتألف أساساً من قوانين ولوائح الجمهورية والإمبراطورية الأولى ، ومن مراسيم السناتو فى أثناء الفترة نفسها ، ومن شروح الفقهاء المعاصرين . واجتمع من كل ذلك خليط هائل : وكان بعضها بعيد المنال لاسيلى إلى الوصول إليه ، وبعضها الآخر قد أصبح مهجوراً ، ومن ثم كثر ظهور التضارب والتناقض وصار من اليسير الاستناد إلى رأى فقيه آخر ، ومن هنا لم يعد القاضى ولا المحامى يشعر بالاطمئنان إلى أن رأياً غريباً قد لا يظهر أمامه فى المحكمة فيقلب حججه رأساً على عقب . أما القانون الجديد فاحتوى على أوامر الأباطرة فى الأزمنة التالية . وهنا أيضاً يفتقر الأمر إلى الصدق واليقين ، فربما صح أن يبطل مرسوم مرسوماً آخر ، إذا لم تجتمع حتى وقتذاك مجموعة كاملة من المراسيم . غير أن هذه المشكلة أكثر يسراً من المسائل الأخرى . وفى السنة التالية لتولى جستينيان العرش (٥٢٨) ، بدأ عمله العظيم بتعيين لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء لمراجعة القانون الجديد (*Ius novum*) ، وإزالة ما فيه من متناقضات وزيادات ، وجمع أئمن ما تبقى فى مجلد واحد مؤلف من عشرة كتب — وكان هذا هو المعروف « بمجموعة جستينيان القانونية » (*Codex Iustinianus*) الشهيرة ، وكان نجاح اللجنة مشجعاً للإمبراطور على المضى إلى القانون القديم (*Ius vetus*) . فأنلفت لجنة جديدة فى (٥٢٠) لمعالجة ما يدخل فى دائرة عملها من قدر هائل من الدراسات القانونية ، التى تتألف مما لا يقل عن أثنى بحث . وكان على اللجنة أن تختار من بين كتابات جميع الفقهاء المعترف بقدرهم نصاً واحداً للقانون عن كل نقطة ؛ وكان عليها أن تغير عبارات المؤلف كلما تطلب الوضوح ذلك أو دعت إليه مقتضيات

الزمان . ومن نتائج هذه العملية ظهور الحسین كتابا التي تعوى ما یسمى الموجز القانونی (Digest or Pandects) ، وهو أهم كتب القانون التي شهدها العالم ، لافي حد ذاته فقط بل في الأثر الذي خلفه في جميع التشريعات التالية . على أنه معرض للنقد من وجوه عدة . ذلك أن العمل تم في سرعة ، ولم يكن الترتيب والتنظيم مثاليًا . وهو ليس في الواقع تقنيًا أى إخضاعاً للقوانين السابقة لقاعدة منتظمة . وإنما هو أقرب إلى بعض مباني ذلك العصر ، التي كانوا يعمدون فيها إلى ما اشتهر به عصر متقدم من الرسوم الدقيقة الغائرة أو البارزة ، فيزجون بها بين الأحجار الخشنة ومباني القرميد التي غلب عليها طابع العجلة ، لكي تكون أحجارا عادية بحثة في مبنى قبيح . ولا شك أن أجل ما عبرت به روما عن نفسها وعن عظمتها يصح التماسه في فن التشريع . فما اتست به صيغها القانونية من الرشاقة ، وما انتشت به حلوها من الروعة والجمال ، أشياء لاسبيل إلى مباراتها . ولكن علماء القانون في القرن السادس لم يكتفوا بتلخيص ما أورده أسلافهم المشهورون ، بل أغفلوا كل ما استعصى عليهم فهمه من تفسيرات حاذقة ، وتعرضت العبارات الجوهرية للحذف والتشويه ودخل في النظام الروماني أفكار هيلينستية وشرقية .

وربما لم يكن هناك مفر من وجود هذه المعايب . إذ لا سبيل إلى أن يتحقق في زمن جستنيان وأحوال عهده ، ما يفوق القوانين التي صدرت . على أنها بحالاتها الراهنة ، إنما هي تعبير كامل عن الحقبة . وهي في إصرارها على استخدام اللغة اللاتينية والإفادة من التراث اللاتيني وفيما تضمنته من مبادئ عن الحكم الاستبدادي للإمبراطور ، إنما تنظر إلى ما خلفه القياصرة

من قبل من سجل حافل . وهى بما يتجلى فيها من زيادة السمات الإنسانية ، ومن اعترافها بحقوق الفرد وما تفرضه من قيود على السلطة الأبوية (Patriapotestas) ، إنما تسجل الشوط الطويل من التقدم الذى قطعه التفكير القديم وظهر تأثير الكنيسة واضحا فى ازدياد صرامة القوانين المتعلقة بالطلاق والاعتداءات الجنسية .

ولكى يتم جستنيان عمله التشريعى أصدر « الشرائع Institutes » ، وهو كتاب تعليمى ابتدائى وضع ليستخدمه الطلبة . وتقرر أيضاً إعادة تنظيم دراسة القانون ، فصدرت لوائح تنظيمية تفصيلية للجامعات الكبرى الثلاث فى روما والقسطنطينية وبيروت . فلم يترك الإمبراطور شيئاً تتحكم فيه الصدفة أو يلم به التغير . وحذرت السلطات الأفراد من إصدار شروح جديدة للقوانين ؛ وحتمت أن تكون جميع الترجمات حرفية . ولم يعد التشريع مباشراً إلا للإمبراطور نفسه . ومن سخریات الدهر العجيبة ، أنه على الرغم من الإصرار على أن تكون اللاتينية هى اللغة ، فإن معظم هذه القوانين الأخيرة صدرت باليونانية ، حتى « يحسن الأهالى فهمها » ، على حين أن العقوبات مهما اشتدت ، لم تستطع الحيلولة دون ظهور فيض من الشروح والتفسيرات اليونانية للموجز القانونى (Pandects) والدساتير التى لا سبيل الى تبديلها .

وفى الغرب ، لم يكد الناس يحسون بالأثر المباشر لمجموعة قوانين جستنيان . إذ لم يكن القانون الرومانى معروفاً إلا عن طريق القانون الذى أصدره قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة أأاريك ملك القوط الغربيين ، ولم يكن إلا مصنفاً عملياً وضع ليستخدمه رعاياه فى غالة وأسبانيا، وفيه وفق المشرع بمهارة بين المفاهيم القانونية الرومانية البسيطة وبين ظروف الزمان والعرف القبلى

لدى القوط . ولم بشرع الناس في دراسة مجموعة قوانين جستنيان دراسة منتظمة في بروفانس ولومباردى ورافنا وبولونيا إلا في أثناء القرن الحادى عشر . على أن القانون الرومانى لم يقتصر تأثيره لحسب على المناطق التى يغلب على سكانها الطابع الرومانى ، بل امتد أيضاً إلى ما استلزمه نمو التجارة ودعاوى الكنيسة وانتعاش الفكر القانونى من فروق بالغة الدقة ، ومن أطماط منطقية أكثر . وقد أصبح القانون فى الأزمنة التالية سلاحاً قوياً فى يد كل أمير طموح أو أسقف جشع ، يحاول الاعتداء على قيود الإقطاع بأخذ نفسه ما كان لإمبراطور كجستنيان من الامتيازات الاستبدادية

الوثنيون والهرطقة

ولعل الاستبداد الذى عنه نتحدث قد تجلّى فى أعظم صورة فى فلك الكنيسة ، حيث أدى إلى ما يسمى أحياناً باسم « الاستبداد الروحى الدينوى » . ولم يقنع جستنيان بتنظيم الكنيسة بما أصدره من تشريعات مفصلة؛ إذ كان يعمد فى المنازعات المذهبية إلى أن يستخدم إلى أقصى حد حقوقه كإمبراطور فى عقد المجمع الدينية وتعيين الحدود العقائدية وكان وزراء الإمبراطور يرأسون الجلسات ، وكان الرسل ينطلقون من القصر وإليه ، وإذا كان بالقرار شئ من الشك ، لجأ الإمبراطور فى بعض الأحوال إلى التدخل بشخصه ومع أن الكنيسة والدولة كانتا منفصلتين من الناحية الرسمية^(١) ، فالواقع أنهما كانتا شيئاً واحداً ، هذا إلى أن الاعتبار السياسية كانت الرائد الأساسى لجستنيان على طول الطريق الذى قادته فيه من قبل مصالحه

(١) القانون الجديد . ٦ ، Praef (عام ٥٣٥ للميلاد) .

اللاهوتية . وكانت « وحدة الإمبراطورية » في المقام الأول بين هذه الاعتبارات ؛ ولا تتحقق الوحدة إلا بوسيلتين : القوة والمصالحة . ولو تأملت المعاملة التي كان يلقاها الهراطقة لوجدتها تجمع بين الطريقتين ، وتعتبر في الوقت ذاته مثالا للوسيلة التي اختلطت بها الأمور السياسية والاعتقادية في السياسة الإمبراطورية . فالمعروف من الناحية النظرية أن المنهطق لإنسان فقد كل ماله من حقوق ، العامة منها والخاصة . قال الإمبراطور : « من العدل أن نحرم من متاع الدنيا كل من لا يعبد الإله الحق » . ولكن الواقع المعمول به ، هو أنه كان هناك كثير من الفروق والدرجات . فمن اليسير سحق كل الهراطقات التي ليس لها أهمية سياسية . فكان الموت هو العقوبة الوحيدة للمناويين ؛ وكانت العادة في شأنهم أن يحرقوا أحياء . أما الوثنية وهي ، في جل شأنها ، بقايا ضئيلة لخرافات متناثرة ، فكانت تؤخذ بالشدّة . على أن المعتقدات القديمة كانت لا تزال متوطنة في الأودية المنعزلة والمدن المنقطعة على التلال ؛ ففي بعلبك مثلا كانت مناسك عتيقة سحيقة القدم لا تزال تقام بمعبدها ، كما أن أمون المشتري كان لا يزال يدلى بنبوءاته في الصحراء الليبية ، على الرغم من تراجعه إلى واحة صعبة المرام ، حيث كان يعبد فيها مع الإسكندر الذي أضفى آنذاك إلهًا . وقد حول هذا المزار المقدس إلى كنيسة القديسة مريم ، وتحول أيضاً معبد إيزيس بجزيرة فيلة إلى كنيسة مسيحية . ولم يبرح للوثنية أنصار بين الطبقة المتعلمة ، ولذا تعرضوا للقوانين الصارمة . فلم يعد يجوز لهم الميراث ، أو إبرام العقود ؛ وحرم عليهم تولي أي منصب ، إلا ما يعد توليه عقوبة في حد ذاته مثل عضوية مجالس المدن (Curia) . وأسفرت التحريات بالقسطنطينية عن كثرة الوثنيين بين ذوى المسكاة ، كالأطباء وأساتذة الجامعات ، فتمرض كثير منهم للجلد والسجن .

وفي فلسطين كان اليهود قد فقدوا مركز عصيانهم . وخضعوا رغم احتجاجهم للمراسيم التي أصدرها الإمبراطور بتنظيم متون كتبهم المقدسة ؛ على أن السامريين — وقد أثارهم الضرائب الباهظة ، وفدحتهم اضطهادات المسيحيين لهم — عمدوا إلى إشعال الفتنة فوق رؤوس تلالهم ، فالتفت حياهم من الإجراءات التأديبية القاسية ما كاد يفنيهم . وفي الغرب ، كانت الاعتبارات السياسية أبرز من هذا قليلا . إذ تقرر حرمان الدوناتيين بإفريقية من ممتلكاتهم وكنائسهم ؛ فكانوا من ثم صفاً واحداً متحالفاً مع القوى المناهضة للإمبراطور . وكان رجال الكنيسة الأريوسية منظمين تنظيمًا قويًا ، وكان جستنيان ميالاً إلى الإبقاء عليهم على شريطة أن يعتنقوا العقيدة السليمة المقررة ، ولكن كراهية الكاثوليك لهم كانت حادة لا تلين بعد الذي لا قوة منهم من شديد الغناء ، خاصة وأن البابا كان يؤيد هؤلاء الكاثوليك . ولذا استجاب جستنيان لمطالبهم بالانتقام عن الأريوسيين . وفي إيطاليا ساعدت عوامل أخرى على الاستيلاء على كنائس الأريوسية . واتخذت ميولهم نحو القوط ذريعة يتعمل بها أعداؤهم ، كما كانت ثرواتهم الضخمة حافزاً لحسام الناهيين .

مذهب الطبيعة الواحدة

وكان لألصار مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysites) وضع مختلف تماماً . فإنهم كانوا يسمون حتى (٥٤١) باسم « المترددين » ، وكان جستنيان يناقشهم بالمنطق بوصفهم إخواناً خاطئين . ثم وافاهم بعد ذلك بإجراءات بالغة الشدة ، غير أنه كان دائماً يلوح لهم بالوفاق . وكانت المشكلة جوهرية الأهمية لسلامة الإمبراطورية . فن جهة كانت مدن الطبيعة الواحدة القوية الموفورة الرخاء تقع بمصر وآسيا الصغرى ، اللتين تعتبران العمود الفقري

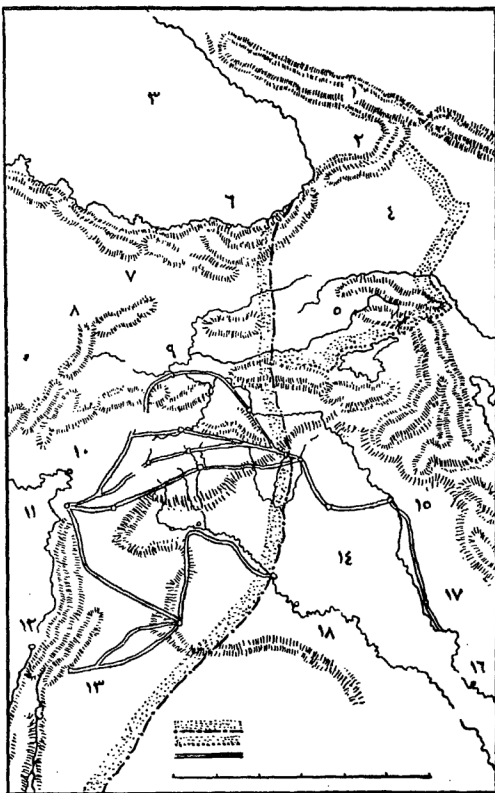
لميزانية الإمبراطورية . ومن جهة أخرى استقرت المعارضة الكاثوليكية بالقسطنطينية ، وبرزهم الجميع البابا—تأييده الغالبية العظمى من أساقفة الغرب . على أن الاحتفاظ بولاء الشرق وتبعيته ، بعد أن تهددته فعلا المصالح المتضاربة والعداوات القومية ، دون ضياع تأييد الغرب الذي تم فتحه حديثاً ، كان يعتبر عملاً عسيراً ، ربما كان لا رجاء فيه . ومهما تكن الحال ، فإن سياسة جستنيان المعقدة لم تكن غير جذيرة بإمبراطور عظيم . ولقي جستنيان في هذه السياسة مساندة صادقة من ثيودورا المعروفة بميولها نحو مذهب وحدة الطبيعة . وأظهرت السنوات الأولى من حكمه أنه كان على استعداد للتراجع عن الموقف الكاثوليكي المتطرف الذي اتخذته جستين . وتوقف اضطهاد أنصار الطبيعة الواحدة (Monophysites) في (٥٢٩) وأعيد المنفيون . وفي (٥٣٢) انعقد مؤتمر في بيزنطية . غير أنه أخفق في التوفيق بين الفئتين ؛ ولكن جستنيان لم يفقد الأمل ، وإن شعر أن الحكمة تقتضي بإصدار مرسوم يعلن تمسكه بالعقيدة الرسمية السليمة رغبة منه في طمأنة البابا . وفي (٥٣٥) كان نجم أصحاب الطبيعة الواحدة في صعود . وتعين أحدهم وهو أنثيموس أسقفًا للقسطنطينية ، فبادر إلى الاتصال ببطيركي الإسكندرية وبيت المقدس . وفي تلك الأثناء كان يوحنا من تلاس (Tellas) ، وهو مبشر شديد الحماسة ينشر مبادئ وحدة الطبيعة في أثناء طوافه بآسيا الصغرى وهرع رهبان وحدة الطبيعة إلى العاصمة ، وأقبل الناس على تعميد أطفالهم في كنائس وحدة الطبيعة ، وفي تكريم قسوس مذهب وحدة الطبيعة الذين يحملون بهم ضيقاً . على أن السنة التالية شهدت تغييراً كبيراً . ذلك أن البابا أجايثيوس وصل إلى بيزنطة في سفارة من قبل القوط الشرقيين . فلم يلبث حتى أصدر قرار الحرم على أنثيموس ، وتمكن بمناصرة الحزب الكاثوليكي من عقد مجمع ديني تقرر ميلاد العصور الوسطى

فيه خلع أنثيمبوس وبعض الأساقفة ، ثم حل جستنيان بعد ذلك على التصديق على القرار . ومن ثم بدأ الاضطهاد للمرة الثانية . وطورد رهبان وحدة الطبيعة في سورية وأرمينية وأرض الجزيرة وحرموا من الطعام وضربوا بالسياط وأحرقوا أحياء في الأسواق . وقبض أفرام أسقف أنطاكية على يوحنا التلاسي وأمر بإعدامه بالتعذيب البطيء . ثم مات البابا بعد ذلك بقليل ، ولكن قاصده الرسول القدير بيلاجيوس كان يحظى بنفوذ ضخم في البلاط البيزنطي . وحتى مصر نفسها فرض فيها الخضوع مؤقتاً لقرارات خلقيدونية على الأهالي الذين مس الوجل قلوبهم .

وعندئذ قامت ثيودورا بحركة انتقامية درامية . إذ إن روما التي احتلها وقتئذ بليساريوس ، أجبرت على قبول تعيين الشماس اللين العريكة فيجيليوس مرشح ثيودورا بابا جديداً عليها . وانتعشت من جديد آمال جستنيان في وحدة الشرق والغرب . واسترد حزب الطبيعة الواحدة في بيزنطة مركزه . وقام يعقوب بارادامبوس الراهب المونوفيزيقي الدعوى ، وهو الذي تنسئ إليه الكنيسة اليعقوبية — بالدعوة التبشيرية التي سبق أن قام بها يوحنا التلاسي بآسيا الصغرى ، وفاق سلفه فيما ظفر به من نجاح . ومنذ تلك اللحظة حالف الحظ أتباع الطبيعة الواحدة وازداد نفوذهم حتى وفاة ثيودورا في (٥٤٨) . وبلغ الكفاح ذروته في المسألة الشهيرة المسماة « بالفصول الثلاثة » التي دامت من (٥٤٣ — ٥٥٤)^(١) . وبغض النظر عن المؤامرات التي ارتبطت بها هذه المسألة ، فإنها تعد مرحلة جديدة في سلسلة الجهود الطويلة المبذولة للتوفيق بين الشرق والغرب ، والتي ابتدأت برسالة الاتحاد لزينون وانتهت بالحل الذي

(١) أظفر التنفيل ب في آخر الكتاب .

اقترحه هرقل وهو نظرية « تجمد الروح القدس Monergism » . ولم تلبث
الأقاليم المونوفيزية أى المؤمنة بوحدة الطبيعة أن انتقلت بعد ذلك إلى سيطرة
المسلمين ، وبذلك لم يعد ثمة ما يدعو إلى مناهضة النزعات الانفصالية في سوريا
ومصر . ولا شك أن ما اتبعه الإمبراطور من وسائل لتحقيق سياسة اتحاد
الدولة سياسياً ودينياً ، والتي لا بد لكل إمبراطور أن يتبناها ، يعد شيئاً
جديراً بالاهتمام . واستهل جستنيان النزاع بقرار أصدره في (٥٤٣) بإبطال
« الفصول الثلاثة » . وكان يرجو موافقة البابا على تصرفه ، غير أن البابا
فيجيليوس وقد استقر في الكرسي الرسولى ، لم يكن ليقبل المثلة . فكان
لا بد من اختطافه وحمله إلى بيزنطة وتعرضه لأنواع مختلفة من التهديدات
والإهانات حتى رضى في (٥٤٨) بإنكار « الفصول الثلاثة » . وكان
إصداره حكمه (Judicatum) على هذا النحو سبباً في إثارة عاصفة من
الاحتجاج بين أساقفة إفريقية ودماسيا وإليريا ، وفي (٥٥٠) أذن له
جستنيان بسحب « حكمه » على أمل النجاح في هذا السبيل بوسائل أقل
عنفاً . فلما أن حبط رجاءه ولم يتحقق منه شيء عاد فلجأ إلى القهر فعذب
الإفريقيين وأساء معاملته فيجيليوس الذى لم يكن في الحقيقة إلا سجيناً
في بيزنطة ، وكان ذلك عاراً وفضيحة عند المؤمنين . واشتدت
العلّة بالبابا فيجيليوس فلم يلبث في (٥٥٤) أن أذعن ، فأعلن آخر
الأمر بطلان « الفصول الثلاثة » . وعندئذ حاول جستنيان أن يفرض
إرادته على الأسقفيات الغربية ، ولكن إيطاليا أظهرت العناد . وخلف
فيجيليوس على الكرسي البابوى بيلاجيوس ، القاصد الرسولى بيزنطة ،
الذى كان تزحزح قليلاً عن موقفه الكاثوليكي ليهدى من نائرة جستنيان



(٨) خريطة الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية

- | | | | | | |
|------|---------------------------|------|-----------------|------|--------------|
| ١ - | جبال القوقاز | ٢ - | لازيكا (كولخيس) | ٣ - | البحر الاسود |
| ٤ - | أيريا | ٥ - | أرمينيا | ٦ - | طرايزون |
| ٧ - | بنطش الكبادوكية | ٨ - | أرمينيا الصغرى | ٩ - | كوماجيني |
| ١٠ - | كيليكيا | ١١ - | أنطاكية | ١٢ - | بيروت |
| ١٣ - | دمشق | ١٤ - | أرض الجزيرة | ١٥ - | الموصل |
| ١٦ - | اكتيسفون (طيشفون) المدائن | ١٧ - | دورا | ١٨ - | القرات |

على أن أساقفة شمال إيطاليا ، وقد امتلأت قلوبهم بالغيرة والحمية لمصادر من الكرسي الرسولي بروما من اعتداءات ، اغتسموا الفرصة ، فقطعوا ما يربطهم به من علاقات ، ودام هذا الالتصاق الصغير حتى نهاية القرن السابع .

وجملة القول أن جستنيان قد أخفق . فظل الشرق منشقاً عليه ، أما الغرب ، فإنه على الرغم من خضوعه ظل غاضباً متذمراً . وأخذت الهمسات المنذرة بالثبور تملو وترتفع في الأذان . وصرح فاكوندوس بإفريقية قائلاً : « إن المسيح وحده هو الملك والقيس . أما الإمبراطور فينبغي له أن ينفذ قانونات (Canons) الكنيسة وليس من شأنه أن يثبتها ولا أن يتعدها » . ومع ذلك فإن ما اتخذه جستنيان من مثل أعلى للوحدة كان عظيماً ؛ وينبغي ألا يفرّب عن بالناعند تقدير سياسته نحو الكنيسة ما يعتبر فيما يبدو أروع مظهر لها ، وهو البعثات التبشيرية في الخارج ، التي حملت عقيدة بيزنطة وثقافتها من وسط أوروبا إلى الشرق الأقصى ، وأقامت التقاليد التي استمرت طوال العصور الوسطى ، ووهبت صقالبة روسيا ودول البلقان من تراث الفن والعلوم ما يضارع في أهميته ما أسدته روما للأمم الغربية من العلوم والفنون .

البعثات التبشيرية والديبلوماسية البيزنطية

ومن آثار سياسة جستنيان وتديبره ، الإفادة من التجارة والتبشير والديبلوماسية مجتمعة . وأكثر ما يظهر ذلك في بلاد الغرب حيث تصادف قيام أوجه شبه عجيبة بين السياسة البيزنطية وبين السياسة التي تنتهجها الدول العظمى في الشرق الأدنى في العصور الحديثة . إذ امتد من دمشق إلى خليج

المقبة خط طويل من الأسقفيات ، كانت فيها بصرى والبتراء حاضرتين لمطرانيتين . ثم تجيء بعد ذلك الصحارى وساحل البحر الأحمر وبلاد الحجاز ، وإلى الجنوب من ذلك بلاد حمير ، وكانت تقيم بها جاليات يهودية كثيرة ، وقد تخلّى معظم الحميريين عن عباداتهم البدائية واعتنقوا العقيدة اليهودية . ورسخت قدم المسيحية في الخليج الفارسي بعد أن انتشرت من فارس التي ازدهرت بها أسقفيات عديدة ، بل لقد تغلغلت إلى اليمن وإلى نجد داخل الجزيرة العربية . وتصادمت المصالح الفارسية والبيزنطية في هذه المناطق بعضها ببعض ، وذلك لاهتمام كل منها بالتجارة الساحلية والهندية . وحدث قبل انتهاء القرن الخامس بفترة طويلة ، أن بيزنطة عززت جهودها الديبلوماسية . وشجعت حاكم أكسوم (الحبشة) على المطالبة بملكية حمير ذاتها . ثم اعتنق المسيحية ، ويرجع إلى هذا التاريخ قيام الكنيسة الحبشية التي لا تزال باقية إلى اليوم . وبفضل مساعدة بيزنطة ، امتد سلطان أكسوم على حمير سنوات عديدة ، على أن هذه البلاد كانت من البعد عن بيزنطة ما يجعل مساندتها لها ضئيلة الأثر . وفي قريب من (٥٧٠) شمت فارس من مؤامرات بيزنطة فاستولت على تلك المنطقة (بلاد حمير) ، وظل يحكمها حتى ظهور الإسلام مندوب فارسي . ولعب المبشرون المسيحيون بصعيد مصر دوراً لا يقل عن هذا أهمية . ذلك أن بعثة مونوفيزيتية حملت النوباد وهم قبيلة بدوية شرسة على اعتناق المسيحية حوالى سنة (٥٤٠) ، ثم استخدموا لكبح جماح جيرانهم البليمين الذين هم أشد شماساً ، حتى طردوا إلى الصحراء ، فخل محلمهم النوباديون على الحدود . ويبدو أن لونجينوس ، وهو شخصية جديرة بالإعجاب ، قد اجتاز تلك المناطق حوالى عام (٥٧٨) في أثناء رحلانه التبشيرية وأوغل حتى بلغ مياه النيل الأزرق العليا . وغنى عن البيان ، أن الإحساس بالفوارق الطائفية لا يكون بالغ الشدة في معازل الإمبراطورية الأممية ، وعرف جستنيان كيف يختار خير الرجال ، وكان

يبنل لأنصار مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيين) الذين يعملون في مجال التبشير من التأيد ما لعله كان يتردد في منحه لهم لو كانوا أقرب إلى دياره .

لقد كان الراهب جزءاً أساسياً في ديبلوماسيته . فكم في بلاط بربرى أضحى فيه القسوس البيزنطيون مستشارين موثوقاً بهم لدى الملك ، ومسيطرين على النساء الحريصات بفطرتهم على اعتناق دين ينطوى على الأسرار ، على حين أنه جاء في أعقاب المسيحية ثقافة جديدة ودنيا جديدة من الأفكار . ولم تكن الديبلوماسية تعوزها أيضاً الوسائل المادية . فإن شيوخ البربر كانوا يفتخرون بارتداء البرنس زياً للاحتفالات الرسمية وبالتيجان والقلادات والأوسمة وأحذية الأرجوان التي ينعم عليهم بها جزاء ولائهم . ولأسباب من هذا القبيل ، تقرر تعيين ملك لازيقا ببلاد القوقاز ، قائداً بالحرس الإمبراطورى . وأنتم على حكام آخرين بزوجات من العائلات البيزنطية النبيلة وكثيراً ما كان أبنائهم يرسلون لتلقى تعليمهم في البلاط الإمبراطورى ثم إن الوسائل الرومانية التقليدية لم تغب عن بال القوم . فإن المنفيين السلبيين والأفراد المتنافسين والمطالبين بالعروش والمغامرين كانوا يشجعون على زيارة العاصمة ، ويزودون الدولة بحجة حاضرة تتدبر بها بيزنطة للتدخل في الشؤون الداخلية لبلادهم . وكانت الأراضي والإعانات المالية تمنح بسخاء وسرف ، ودأبت بيزنطة على أن تمارس السياسة المجربة التي تقضى باتخاذ لص للقبض على لص^(١) ، فكانت الدولة تولب شيوخ المغاربة بعضهم على بعض . وكانت تناصر الفرنجة على القوط ، وكانت تستعين بالومبارد لسكبج جهاج الجبيد ، وبالهون لمناهضة البلغار ، وبالأفار للتغلب على الهون .

(١) انظر ص ٩٠ ، ٩٨ ، ١١١ .

الحدود الشرقية

على أن الدفاع عن الحدود الشرقية الطويلة هياً الفرصة لاستخدام هذه الوسائل جميعاً . ومن خلف تلك الحدود كانت تقع الإمبراطورية الفارسية العظيمة ، وهى الدولة الوحيدة التى كانت يبرزنة تعاملها معاملة الند . وقد أثمرت الخصومة الطويلة الممتدة أجيالا بين الدولتين تفاهما متبادلا ، بل لقد أدت إلى نشوء اقتراحات بإقامة ضرب من « السياسة العالمية المشتركة Weltpolitik » . وقد صرح سفير فارس فى إحدى المناسبات بأن « الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية كانتا أشبه بمنارتين تهديان العالم . ومن ثم فقد وجب عليهما أن يتآزرا بدل أن يتهاجما » . وكتب كسرى إلى الإمبراطور موريقيوس يقول : « هيا للعالم بمثابة العينين للإنسان » . ويتضح للقارى من عرض مختصر لجغرافية هذه المنطقة أن التضاريس الطبيعية قد قامت بدورها فى الإبقاء على خط الحدود بين الدولتين ثابتاً إلى حد ما ، وأسهمت أيضاً مثلما تفعل اليوم فى تنظيم الوسائل الكفيلة بالدفاع عن هذه الحدود . ففى الشمال كانت بلاد القرم مفتاح نظام الدفاع الذى أقامه جستنيان لإزاء ما يصدر عن السهوب من تهديد ، فأمن فى تحصينها وشحنها بالحاميات . ومن هذا الموضع تفرعت خطوط التجارة ومارست يبرزنة نفوذها على جنوب روسيا . وكان القوط بقباثلهم الأربعة (Tetraxite Goths) النازلون إلى شمال القوم مباشرة حول بحر آزوف ، قد اعتنقوا المسيحية من زمن بعيد ، وربطهم الخوف من الهون ربطاً وثيقاً بالإمبراطورية . وإلى الغرب ، بين نهري الدون والدانوب ، ينزل الهون الكوتروجوريون ، الذى تنصر ملكهم جرود (Grod) ، بينما كان جستنيان نفسه يقف إلى جوار حوض المسودية عراباً له . على أن نزولهم على البحر الأسود كان مصدر خطر ، ومن ثم لقي الهون الأوتريجوريون الذين أقاموا شرق الدون ،

ويعدون أقل خطراً لأنهم أكثر بعداً ، — التشجيع من يبرنطة على مهاجمة ذوى قراهم . وعند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأسود ، تقع بلاد كونغليس التى رحل إليها جاسون (Jason) يوماً ما طلباً للفروة الذهبية . وقد فسرت هذه الأسطورة على أنها رواية شعرية عما يجلب إلى البحر الأسود عند تلك النقطة من الهند والصين من تجارة غالبية الثمن . وسواء أكان طريق القوافل مستخدماً عبر آسيا الصغرى فى ذلك التاريخ المبكر أم لم يكن معروفاً ، فإنه حدث فى القرن السادس الميلادى أن لازيقا — وهو اسم ذلك الإقليم وقتذاك — كانت ذات أهمية قصوى لحراسة رأس الجسر عند أقصى نقط الاتصال شمالاً بين أوروبا والشرق الأقصى . وكانت تحسدها فارس التى لم يكن لها فى تجارة الحرير الضخمة إلا دور الوسيط بل إنها أدركت أن دورها تعرض لتهديد طريق آخر يمر فى شمال ممتلكاتها . ولأسباب مشاكلة لهذه عزم جستنيان على المحافظة على ما كان له من نفوذ حاسم على « لازيقا التابعة لنا » ، كما أسماها سابقاً منه للحوادث . إذ إن قيمتها التجارية كانت عظيمة الأهمية ؛ لأنها كانت تزود الإمبراطورية بالفراء والجلود والرقيق وتحصل منها على الملح والحر والقمح . وكانت من الناحية العسكرية ذات موقع يناسب الدفاع أبلغ مناسبة . وكانت بما قبض لها من جبال مكسوة بالغابات وممرات ضيقة ، تزود الدولة بمجازر يحول دون غارات الهون من الشمال ويمنع فارس فعلاً من الوصول إلى البحر الأسود . وحدث فى زمن الإمبراطور جستين الأول أن ملك لازيقا قدم فعلاً إلى القسطنطينية يطلب التنصير وتزوج من امرأة ييزنطية وسمح بنزول حاميات ييزنطة فى قلاعه . وواصل جستنيان هذه السياسة ، مؤيداً الملوك على النبلاء المتمردين ومناهضاً نفوذ الفرس ، وعلى الرغم من النكبات المؤقتة استطاع المحافظة على سيطرته لا على لازيقا فحسب ، بل على كثير من القبائل القوقازية الأخرى أيضاً مثل الأباجية (Abasgi) والهون

السايبيرية الذين كانت ييديم « أبواب قزوين » ، التي كان أى مغير شمالى يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة . على أنه لم يصل إلى مثل ذلك الحد من التوفيق في إيبيريا (وهى جورجيا الحديثة) ؛ إذ إن موقعها الجغرافى جعلها تعتمد على فارس . وفى الجنوب منها كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية تسيران جنباً إلى جنب على امتداد حدود الفرات . وكانت مشكلة الفرات مصدراً لمناعب روما مدة خمسة قرون ونصف . فهل كان الفرات حقاً خير خط للحدود ؟ الواقع أن مجراه كان بالغ الاختلاف عن مجرى نهري الراين والدانوب ، اللذين كانا بصورة إجمالية غير مدققة — يحصران ممتلكات روما في أوروبا . أما الفرات فكان لا يجرى حول أرمينية ولا يحجبها ، بل الأمر على العكس ، فإن الهضبة الأرمينية تحصر المنايع العليا لكل من الدجلة والفرات ، وبذلك جعلت وجود خط للحدود من أصعب الأمور . ومن ناحية أخرى ، كانت أراضي التخوم على الراين والدانوب مناطق زراعية ، وكانت مفتوحة للتنفوذ الرومانى ، كما كان الوصول إليها من العاصمة ميسورا . على حين أن الفرات كان يفصله عن سوريا صحراء مترامية ؛ ومن ثم كان نقل الجيوش إليها أشق وأصعب ، وكانت الميزة كلها في جانب الدولة الشرقية (فارس) ، التي كانت رحلتها إلى الحدود أقصر وطريقها إليها في أرض خصبة ، وتوافر لديها من الطرق المؤدية ما يفسح لها مجال الاختيار . يضاف إلى ذلك أخيراً أن الفرات ، كان بدلاً من الدوران حول الحدود الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، ينساب مباشرة نحو الجنوب في جوف الممتلكات الفارسية . ومن الجلى أن الهيمنة على النهر من المصب إلى المنبع كانت أمراً مستحيلاً ، وأن روما لم تحاول أن تفعل ذلك مطلقاً . على أن الحد الجنوبي قد ثبت فعلاً عند ملتقى الجابور (قرقيسيا) ، وهو الموضع الذى يدخل عنده الفرات أرض الصحراء . وبذلت عدة محاولات

للعثور على حلول أخرى للمسألة ، مثل اتخاذ خط دجلة مثلاً ؛ ولكن لم يكن ثمة بديل صحيح سوى غزو فارس ذاتها . على أنه لم ينتج في هذا الأمر من قادة الغرب سوى الإسكندر الأكبر . ويبدو أن أوغسطس راودته تلك الفكرة يوماً ما ، كما أن تراجان وجوليان وأباطرة آخرين قد اتبعوا سياسة جادة وجريئة في تلك الأصقاع . على أن الحد الشرقي ظل ثابتاً على وجه الجملة منذ نهاية القرن الرابع حتى الفتح العربي . وأدركت روما أن النصف الجنوبي من صحراء إقليم الجزيرة ، ليس في وسع دولة غربية الاحتفاظ به . أما الشطر الشمالي ، فلا محيص من المحافظة عليه ، نظراً لأن هذه المنطقة ، كان يقطعها خط عمودي يمتد من آمد على نهر دجلة إلى قرقيسيا على نهر الفرات . وكانت أرمينية مفتاح الموقف ، كما أن جغرافية البلاد أظهرت في النهاية أنها العامل الفاصل في هذه المشكلة . وهنا أيضاً حاولت كل من الإمبراطوريتين عرض حلول متنوعة ، تتراوح بين ضم أرمينيا بأكملها إليهما وبين السيادة المقنعة بأن يتولى أمرها قواد وموظفون أو أمراء تلقوا تعليمهم في العاصمة . ثم اتفق الطرفان آخر الأمر على تقسيمها^(١) . ولم تحصل روما من ذلك التقسيم إلا على ربع أرمينية ، غير أنه كان أهم شطر يخدم أغراضها ، لأنه كان يشكل منطقة خلقية تعد ظهيراً قوياً لإقليم بونطش القبادوق . وتؤلف في الوقت ذاته قاعدة للتحكم في لازيقا . على أن التقسيم لم يضع حداً لمؤامرات أى من الجانبين ؛ فإن أرمينية بكنيستها الزاهرة وأسواقها العظيمة التي كانت تجتذب التجار من أوروبا وآسيا وبشعبها المقاتل ونبلائها الطموحين ، كانت مسرحاً هياً للفرص الوفيرة للتصادم بين مختلف المصالح وبين دهاء الديبلوماسية .

(١) انظر ص ٤٣ . وفي القرن التاسع أصبحت أرمينية مرة أخرى عظمة يتنازع عليها العرب وبيزنطة .

روما وفارس

ومن الجلى أن دواعى الاحتكاك لم تكن تعوز الحدود الشرقية ، كما أن الانضطرابات الداخلية كانت على الدوام مشجعة للإمبراطورية المعادية على تجديد القتال . وقد فقدت فارس هيبتها منذ منتصف القرن الخامس . إذ تنازع على وراثة العرش أمراء كثيرون متنافسون ، على حين أن البيت المالك نفسه كان يهدده خطر الأرستقراطية ورجال الكهنوت ، هذا إلى أن الاضطرابات الدينية والاشتراكية التى أثارها أتباع مزدك قوضت الاستقرار فى البلاد . كما أن غارات السلب التى قام بها الهون على الحدود الشمالية الشرقية أثارت متاعب خطيرة . ومن ثم اتبع جستين سياسة الهجوم . فأوقف ما كان يؤديه للفرس من أموال لصيانة قلاع القوقاز وإعطائها ؛ وأخذت الدولة تعبت باللازقيين والإبيريين ، وقامت بهجوم صريح على نصيبين معقل الحدود الحصين العظيم . ولم يعد مفر من نشوب القتال . وشهد عام (٥٢٧) اندلاع نار الحرب الفارسية الأولى . وعالت الجيوش الفارسية فى سوريا نهباً وتخريباً ، ولكن أضرار ذلك لم تكن بالغة ، وعندما توفى قباد ملك فارس فى (٥٣١) وقد بلغ الخامسة والسبعين ، بادر كسرى أنوشروان الشاب الحريص على الظفر بالعرش ، بعقد صلح أبدي مع بيزنطة . ومع ذلك فإن الموقف كان قد تغير تغيراً كاملاً ، إذ إن كسرى كان نموذجاً للملك الشرقى الناجح . وبفضل ما اشتهر به من النشاط والميل إلى القتال ، وما اتصف به من ذكاء حاد أعانه على تقدير تفاصيل التنظيم وعلى إدراك الحيل الشرقية الناجحة فى معالجة الأمور ، مد حدود إمبراطوريته فى أثناء مدة حكمه الطويل (٥٣١ — ٥٧٩) إلى نهر جيحون (أموداريا Oxus) بوسط آسيا وإلى اليمن جنوبى بلاد العرب . ثم اغتتم الفرصة التى سنحت فى (٥٤٠) . وذلك أن جستينيان جرد الحدود الشرقية للدولة

من الجند ليؤلف القوة اللازمة لفتوحه في الغرب ، على حين سُمِت لازيقا وأرمينية سيادة بيزنطة عليهما واستمرت الحرب الفارسية الثانية من (٥٤٠—٥٤٥) . وأغارت جيوش فارس على سورية ونهبت أنطاكية في سنوات متعاقبة ، ثم احتلت لازيقا . وأحست كوماجيني (Commagene) وأرمينية وأرض الجزيرة بشدة وطأة الهجوم الفارسي . وأسفرت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، على أن يدفع جستنبان تعويضاً ضخماً ، غير أن القتال ظل مستمراً متناً في بعض أرجاء لازيقا وبين أتباعه من العرب في الشام . ولكن المسألة لم تحسم ، وفي (٥٥٥) عقدت هدنة أخرى ، أعقبها في (٥٦١) سلام دام خمسين عاماً ، تعهد بمقتضاه الفرس بالجللاء عن لازيقا مقابل إعانات مالية طائلة . وعلى الجلمة احتفظ الطرفان بما كان موجوداً من قبل من الأوضاع القائمة (Status quo antea) .

ومن العجيب أن الأساليب التي تتبعها الدول الإمبريالية بتلك المنطقة لم تتغير إلا قليلاً ، فإن خطط روما وفارس الحربية ذات مشابهة عجيبة لخطط تركيا وزوسيا وبريطانيا في العصور الحديثة . ومن الأمثلة الواضحة ، ما اتخذته بيزنطة من أساليب في معالجة شيوخ العرب . بسوريا . فالخارث بن جبلة شيخ الغسانية ، أصبح بمساعدة بيزنطة حاكماً على دولة عربية رومانية (ليكون مساوياً في القوة والسلطان للملك الحيرة الذي كان من أتباع فارس) . وقد رفع البيزنطيون قدر الخارث المعروف عندهم باسم أريثاس — فجعلوه من البطارقة الأشراف ومنحوه إعانة سنوية ضخمة ، وصارت عاصمته بصرى مقرّاً لمطرانية تدخل في دائرة اختصاصها أجزاء من بلاد العرب وفلسطين . واستخدمت فارس تلك الوسائل عينها ، ولو أنك اطلعت على تواريخ أميانوس أو بروكوبيوس لتحققت أن أوجه التشابه امتدت أيضاً إلى أساليب القتال الفعلي وإنا لنجد نفس الخطط والحيـل الحربية وفن الحصار

والاستحكامات ، بل الحملة متساهمة عند الطرفين . وتنجلي صنوف التشابه أيضاً في نتائج الحملات العظيمة . فإن فتوح الأباطرة أمثال تراجان (Trajan) أوجوليان لم تستمر طويلاً ، فإذا استولى الفرس على لازيقا التي تنكرها عليهم حتمية الأوضاع الجغرافية ، لا تنقضي بضع سنوات حتى يضطروا إلى إخلائها . ويغير كسرى على سورية ، ويعمل فيها الفساد حتى يبلغ شاطئ البحر المتوسط ، ويحمل معه جزءاً من الصليب المقدس . ثم يضطر إلى رده سريعاً ، وإلى طرد المغيرين من أرض بلاده . لقد تجدد الموقف بين الطرفين ؛ إذ كانت وسائل الدفاع أقوى من الهجوم ، ولم يختل التوازن بين الإمبراطوريتين إلا بعد ظهور الإسلام على مسرح الأحداث .

على أن نهاية حكم جستنيان الطويل كانت عبارة عن فترة شديدة العبوس . إذ إن ثيودورا توفيت في (٥٤٨) ، فلما حرم الإمبراطور المسن إلهامها ، تخطى عنه ما اشتهر به من الحزم ، فأهمل شئون الإمبراطورية واستبدلها بالمناظرات والمجادلات اللاهوتية . وتغنى كوربيوس الشاعر الأفريقي الرشيد فقال عند الاحتفال بتولى الحاكم الجديد العرش « كل أفكاره كانت تدور حول السماء » فالمرسوم الأخير الذي أصدره في (٥٦٥) يدور حول شئون الكنيسة ، كما أنه حافل بالافتباسات من الكتب المقدسة ومن أقوال آباء الكنيسة الأول ، وهو أكبر شاهد على دراسته العميقة المستفيضة . ولم تقع منذ (٥٥٥) حروب منظمة ، ونظراً للأزمات المالية ، ازداد تناقص عدد الجيش ، وتضاءلت كفايته . وأضحى الحد الفارسي مكشوفاً بالفعل ، ولم يعد يدافع عن بيزنطة ذاتها إلا رجال الحرس الذين ليسوا إلا حلية وزينة . وفي (٥٥٨) أخلت معاقل الدانوب من الجند ، وأخذ سور أناستاثيوس الطويل يتداعى ويتحول إلى أنقاض . وأثارت مخاتلات جستنيان سخط الهون الكوتروجوريين فاثألوا إلى تراقيا ، وتقدموا إلى أسوار العاصمة . وساد الذعر في أرجاء المدينة ،

ولم يتخذ الموقف إلا التصرفات السريعة التي بادر بالقيام بها بليسايربوس الجندى المحنك . وبعد ذلك بأربع سنوات قام الآفار بهجوم مماثل لهذا فرد بمسقة كبيرة . وذلك أن النفقات الطائلة التي أنفقها جستنيان في إنشاء المباني وفيما شن من حروب وفي نفقة بلاطه قد استنزفت كل مافي الخزانة . فأنحطت قيمة العملة وزادت الضرائب في عددها ووطأتها . وزاد في شقاء السكان أن رمام الدهر بعدة زلازل خطيرة متعاقبة ، اندلع على آثارها وباء الطاعون فيهم وأخذت الخدمات العامة في بيزنطة نفسها تنهار . ومررت بالناس في إحدى السنين أزمة في المواد الغذائية ؛ وفي أخرى تناقصت مياهها . وعاد الخضر والزرع سيرتهم الأولى من الفساد وبث الاضطراب في الشوارع ، ودار على الألسن حديث مؤامرة لقتل الإمبراطور ، على حين أن شخصين متنافسين اسم كل منهما جستنيان أخذتا يتآمران علناً على ولاية العرش .

أما جستنيان الذي بلغ وقتذاك الثانية والثمانين من عمره ، فجلس في قصره ينتظر منيته الدانية ، وهو لا يعبأ بكل ما يدور حوله من أشياء . ففي أعماق الليل ، وبما حجب إلى الشيخوخة من ميل إلى التكرار ، وفي براعة قوية ، طفق جستنيان ومعه بعض القساوسة المسنين يتدارسون ما يشغل الناس من مشاكل مثل دفن العظام ولغز تحلل جسد المسيح وفساده .

الفصل السابع

عواقب حكم جستنيان

لم يتكشف عمل جستنيان ويتبدى انهياره السريع مثلما تبدى في شمال إيطاليا . فإن الومبارد انشأوا فجأة بعد وفاته بيضع سنوات في السهول الممتدة بين جبال الألب ونهر ريو، ولم يلبثوا أن امتلكوا المنطقة كلها في زمن وجيز والمعروف أنهم اجتازوا أوروبا على مراحل من موطنهم الأصلي في إقليم نهر الإلب . وعند نهاية القرن الخامس أضحووا السلطة الحاكمة في هنغاريا ، ولم يلبثوا أن أصبحوا جيران روما على الدانوب بعد أن سحقوا الهيرول . وأفصى اعتناقهم للمسيحية على مذهب أريوس واتخاذهم وضماً أكثر استقراراً ، إلى زيادة قوة الملكية ، كما هو الشأن عادة مع الشعوب الألمانية عندما كانت تتعرض على هذا النحو للمؤثرات الرومانية . على أن الثقافة التي حصلوا عليها في هذا الموضع كانت طفيفة جداً : إذ تجلّى للرومان بعد قرن كامل أنهم لم يبرحوا « برابرة » . فإن ملكهم وإن كان مطلق السلطان لم يكن أكثر من قائد حرب ينتخب للقيام بحملة واحدة . ولم يكن لديهم قضاة (Magistrates) ولا دستور ؛ وكانت عداوات الثأر ومنازعات الدم لا زالت تتحكم فيهم ، كما كانت الرابطة الحقة في المجتمع هي رابطة العشيرة . ومنذ رحيلهم عن منطقة نهر الإلب ، لم يستقروا بأرض واحدة ما يزيد على جيل واحد ، ومن ثم كانت زراعتهم بدائية بل إنهم حتى في هنغاريا نفسها تركوا العمل في الحقل للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضي جيرانهم .

الغزو اللومباردي.

وكان اللومبارد والجيبيد حتى ذلك الحين هم القوى الأساسية على حدود الدانوب ، على أن جستنيان تمكن من الاحتفاظ بمدينة سريميوم التي تعتبر مفتاح المنطقة ، وذلك باتباعه سياسة روما التقليدية في تأليب الشعوب بعضها على بعض . ولكن دخول الآفار الحومة وهم قبيلة شرسة ذات أصول أسيوية هدم هذا الموقف من أساسه . فاتخذوا من اللومبارد مخلب قط ودمروا مملكة الجيبيد ، واستولوا على معظم البلاد وما فيها من غنائم . وعندئذ بات اللومبارد في حنة مؤسفة . إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، ولم يتأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة في الأرض . واستبد بهم اليأس فأقدموا على ما يعتبر المرحلة الأخيرة في هجرتهم . ففي (٥٦٨) انطلقت جموع اللومبارد إلى إيطاليا برزعة ألبوين (Alboin) ، وتزايد بمن انضم إليهم من مفاسرين من أجناس مختلفة . وتصادف أن استدعى نارسيس حاكم إيطاليا إلى بيزنطة في تلك اللحظة ، ولذا لم يبد المدافعون عن الحدود أية مقاومة فعالة فيما يظهر . فسقطت كيفيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحتها اللومبارديون ؛ وغادر بطريك أكويليا مدينته المحتوم مصيرها وفر إلى مستنقعات جرادو . واحتفظت القوات الإمبراطورية بمدينةنقى يادوا ومانتوا، حيث صمدوا عند خط نهر بو ، وحالوا دون انتيال اللومبارد إلى الساحل الشرقي ؛ ولكن ضاعت منهم فيشنزا (Vicenza) وفيرونا ، فانزلت منطقة الحدود في جنوب التيرول عن رافنا ، وبعد ذلك بسنة دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل في النهاية إلى الاستيلاء على پاڤيا بعد حصار طويل فأصبحت عاصمة اللومبارد . فانفصل بذلك شمال إيطاليا عن الإمبراطورية ، ولكن ماخبأته الأيام بعد ذلك كان أسوأ وأنكى . ففي السنوات التالية تعرضت رافنا وروما لتهديد مستمر ،

ميلاد العصور الوسطى

ونجح اللومبارد في القضاء على هجمات بيزنطة وردّها على أعقابها ، على حين أن جماعتين مستقلتين من اللومبارد زحفتا جنوباً وأسستا دوقيتي اسبوليتو وبنفتو .

وتوفي ألبوين وظل العرش من بعده شاغراً عدة تجاوزت عشر السنوات . غير أن الفتح واصله زعماء من أتباعه ، تولوا قيادة الحاميات المرباطة بالمدن الرئيسية . وعلى مر الأيام أخذ هؤلاء « الأدواق » وهم حوالى خمسة وثلاثين دوقاً ، يستقرون رويداً رويداً بالجهات التي سبق أن احتلوا فتحوّلت « الدوقيات » إلى أملاك مستقلة استقلالاً كبيراً عن القوة المركزية . ولا يخفى أن ضعف الملكية الذي تسبب في هذا الاستقلال ، هو العامل الفاصل في التاريخ اللومباردى . فلو أتيح للقوم عاهل قوى لجاز أن يلزم بالطاعة دوقاته الخارجين على إرادته ، بل لقد كان في وسعه في حالات نادرة ، أن يسيطر على دوقيات الجنوب القوية . غير أن المرحلة الأولى لما أصابه الدوقات من الحرية ، كان لها أثرها . إذ إن لومبارديا كانت مملكة سادها دائماً الانقسام والانشقاق . ولذلك فإن أعداءها سواء كانوا من الأباطرة أو البابوات أو من المخيرين من الفرنجة ، كانوا يستطيعون دائماً الاعتماد على نبيل لومباردى ثائر . ولذا فإن فتح إيطاليا لم يكتمل على أيديهم بسبب افتقارهم التماسك . ولم يكن في وسع بيزنطة أن تدبر من الجند من تعزز بهم حامياتها ؛ وكانت البابوية لا تزال ضعيفة حتى ذلك الحين . وكان ضعف الملكية اللومباردية هو السبب الوحيد في إنقاذ القوات الإمبراطورية من العرذ من سواحل إيطاليا وفي الحيلولة دون انحدار البابا إلى منزلة أسقف لومباردى .

والمعروف أن غزاة إيطاليا السابقين — كانوا كما رأينا — يعدون السكان الرومان شر كاهلهم في الإمبراطورية . على حين أن اللومبارد كانوا على العكس من ذلك يعدونهم رعايا ويعاملونهم المعاملة التي كان يلتقاها في هنغاريا الصقالبة الذين كانوا

يفلحون الأرض لسادتهم المقاتلين . وجرّد أصحاب الأراضي الرومان من أملاكهم ، وأصبحت أرضهم وماشيتهم وبيوتهم وفلاحوهم نهباً وغنيمة للفاتحين . ولكن الذي كان يريده اللومبارد لم يكن الأرض في حد ذاتها ، وإنما أرادوها لتكون وسيلة للعيش في تكاسل ودعة ؛ أو أداة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية ما يسمح لهم بشن الحروب . وبناء على هذا أبقوا على ما كان عند الرومان من نظام للأرض ؛ ولذا يمكن القول بأن كل ما تغير هو المالك وحده . وأصبح الفلاحون الصغار (Coloni) يقابلون الطبقة شبه الحرة عند اللومبارد ، وهي المعروفة عندم بالأديوني (Aldiones) وشاركهم في هذا المصير فيما يبدو الفقراء من أصحاب الأراضي . واستولى العزاة على ممتلكات الكنيسة دون رادع ، وذلك لأن العزاة الأريوسيين لم يميلوا إلى احترام حقوق الكاثوليك . وبهذه العملية أصبح كل لومباردي حر مقاتلاً ومالك أرض ، وعلى الرغم من أن مساحة الإقطاع لم تكن متساوية ، فإن الأدواق احتفظوا بجانب كبير من الأراضي على أنها ضياع خاصة . وترتب على اجتماع عاملي الاستيطان المستمر والتأثر بالنظم الرومانية أن تلاشت العشرة رويداً رويداً ، وحلت محلها الروابط المحلية التي تترتب على امتلاك الأرض . فأصبحت الدوقية هي الوحدة ، وطابق اتساع هذه الدوقيات إجمالاً ، رقعة المناطق التي كان يحكمها فيما مضى الحاكم (Magistrate) والأسقف ، وقد ظلت المدينة الرئيسية هي مقر الإدارة ومع ذلك فإن دوقيتي اسبوليتو وبنفتو احتلتا رقعة بالغة الضخامة والاتساع ، كما أنهما كانتا في الواقع إمارتين مستقلتين ، وذلك بعد أن عزلها عن اللومبارديين في الشمال نطاق من الممتلكات الإمبراطوية .

ولم ينته القرن السادس حتى صارت مملكة اللومبارد وطيحة الأركان بإيطاليا . فعادت الملكية على يد أوثاري ، وبفضل هذا الاعتداد بالسلطة المركزية لم يكتف اللومبارد بالمحافظة على أملاكهم ، بل بسطوا رقعة ممتلكاتهم

على حساب البيزنطة . وكان أخوف ما يخشونه من خطر في تلك المدة هو عدوان الفرنجة ، الذين دأبوا على الإغارة على شمال إيطاليا في غارات تعززها هجمات الجيوش الإمبراطورية من رافنا . وتمكن أوثاري (٥٨٤ — ٥٩٠) من القضاء على هذا التحالف الفرنجي البيزنطي ، الذي كانت تزلله في الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، مذ كان كلي منهما يتهم الآخر حقاً وصدقا بالعمل لمصلحته فقط وبفضل هذا العمل الذي حققه أوثاري، تهيأ للومبارديا لمدة قرن ونصف من الزمان من الحرية ما مكنها من تركيز دفاعها على جهة واحدة .

إيطاليا البيزنطية

على أن الدفاع لم يكن كل شيء . إذ كان مركز الملك يتوقف على عدد أتباعه ، الذي كان يمكنه من منازعة أقوى أداوقه . ونظراً لأن الملك كان يعوزه نظام مالي منظم ، أصبح لزاماً عليه أن يكافئ هؤلاء الأتباع بما يبذلهم من الأرض ، واقتضى ذلك بدوره المزيد من الفتوح . وكانت كل زيادة في عدد السكان اللومبارد تدعو إلى العمل في نفس هذا الاتجاه ، وذلك نظراً لأن كل مقاتل حر كان — مثلما حدث في إسبرطة — يعتمد من الناحية الاقتصادية على رقعة الأرض التي يملكها والتي يفلحها له الأرقاء . وكانت النتيجة أن شنت سلسلة مستمرة من الغارات على الممتلكات المجاورة ، ونحت هذا الضغط تحول التنظيم الداخلي لإيطاليا البيزنطية إلى نظام عسكري للدفاع ، في أثناء القرنين التاليين . وقد حرص جستنيان على أن يرجع لإيطاليا وإفريقية الأحوال الإدارية السارية في القرن الرابع ، التي بمقتضاها كانت السلطات العسكرية مفصولة فصلاً دقيقاً عن السلطة المدنية . على أنه مع ذلك قد آثر في بعض أقاليم الشرق الجمع بين السلطتين في يد موظف واحد، وهو تقليد ما لبث حتى تطور فأصبح ما عرف في العصور التالية باسم نظام « الألوية Theme » .

وكان اتباعه هذه السياسة أمراً لا مفر منه ، ثم لم تلبث أن امتدت إلى الغرب . إذ إن تهديد البرابرة أخذ يشتد سنة بعد أخرى ، ولم تقابل ذلك التهديد زيادة في الجهود والموارد تكفي لمواجهة وكسر شوكرته . وترتب على ذلك أن صارت الاعتبارات العسكرية بالغة الأهمية . وأدى استمرار ظروف الحرب إلى الانحراف بجهاز الإدارة المدنية الذي اشتهرت به روما في العصر القديم إلى النزعات الإقطاعية التي ظهرت بالقرون الوسطى . فالجندي صار أشد أفراد المجتمع أهمية ، والذي حدث في إيطاليا ، هو أن طبقة عسكرية تبرز في النهاية بوصف كونها إحدى الطبقات الرئيسية في السكان الأحرار . وهذا المبدأ نفسه ينعكس أيضاً في الحكومتين المركزية والمحلية سواء . فإن النائب الإمبراطوري الملقب بالإكسارخ ، وهو موظف يجمع بين السلطات العسكرية والمدنية كان يعين أول الأمر في حالات الطوارئ الخاصة ، فلم يلبث أن صار حاكم إيطاليا الفعلي ، فحجب بذلك الوالي المدني (Prefect) ، الذي اقتصر دائرة اختصاصه على ما يتطلبه الإشراف المالي من أعباء . وتلاشى يبطء كل من المجلس البلدي وموظفيه إزاء تزايد سلطة القائد العسكري التربيون (Tribunus) الذي أضاف إلى سلطته الأصلية أعباء قضائية وتنفيذية .

أصبحت إيطاليا وقتئذ منطقة من ثغور الحدود ، وأصبحت كل مدينة مسورة قلعة يتمتع بها أصحابها في وجه أعدائهم . وكان الإكسارخ يوجه النظام الدفاعي من مركز قيادته العليا براقتا ، وهو نظام مركزي بالغ الإحكام ، تمكنت بفضل بيزنطة وقد ضغط عليها بشدة كل الآفار والبلغار من ناحية ، والعاصفة المتجمعة — عاصفة الغزو العربي من ناحية أخرى — من الاحتفاظ بقبضتها على إيطاليا مدة قرنين تقريباً . وهو عمل عظيم جدير بالتنويه ،

نظرا للصعوبات الخاصة التي تجتمع في هاته الولاية . ولم تعد مصالحها هي مصالح العاصمة . إذ لم يكن مما يعنى النبيل الرومانى ولا الفلاح الإيطالى فى قليل ولا كثير ، أن تحتاج بيزنطة إلى الجند والأموال للحدود الشرقية . فكل ما كان يعنىها مباشرة هو الخطر اللومباردى ؛ مع تذكر أن القوات الإمبراطورية كانت غير كافية لمعالجة هذا الأمر ، وأن الدولة كانت ترسل الجند والمعونة المالية بين حين وآخر تنفيذاً لهذا الهدف . ومن ثم أصبح من الضرورى تحميل إيطاليا عبء الاعتماد على مواردها الخاصة ، وتنفيذا لتلك الغاية تحول السكان المدنيون إلى جند من الميليشيا الماربطين ، الذين كان يقوى من أزرهم فى البداية فصائل الجند النظاميين البيزنطية، ولكنهم أصبحوا فيما بعد يؤخذون بأجهمهم من مصادر وطنية بمحنة . وكان يلى الإكسارخ — الأذواق (Duces) الذين يهيمنون على الأقسام الجديدة التى كان يتجمع تحتها بقايا إيطاليا الإمبراطورية ، ثم « القواد » العسكريون (Tribuni) الذين تحت إمرتهم حاميات المدن . وكانوا يحفظون بالجوش عند النقاط الاستراتيجية مثل : رافنا وروما وناپولى وكالابريا ، على حين أن أساطيل رافنا وصقلية كانت تضمن المواصلات بحرا . فأما على البر ، فإن الشريان الرئيسى للدفاع الذى أصبح عسيراً بسبب الظروف الجغرافية ، هو الطريق الذى يربط رافنا بروما ، وأقيم لحراسة هذا الطريق بعناية تامة خط من القلاع ، وقوة خاصة أنزلت فى يروجيا لتتحكم فى التقاطعات الموجودة بين ممرات جبال الإبينين .

وسارت المركزية إلى أبعد من ذلك . فبذلت جهود جبارة لكى تتمثل إيطاليا من كل النواحي فى ولايات الإمبراطورية الأخرى . ونيطت الإدارة بموظفين من اليونان ، واستخدمت مناهج العمل والأساليب اليومية اليونانية . وأنعم بالألقاب البيزنطية على أعضاء الأرستقراطية الإيطالية ، فإذا أثبتت الأيام ولاهم وكتلت إليهم وظائف تنفيذية . وشرعت جموع غفيرة من التجار الشرقيين

والصناع والحجاج والقسوس والرهبان تنجبه إلى إيطاليا . وأخذت الآداب
والثياب البيزنطية تنتشر بين الطبقات العليا . فإن جريجورى أسقف تور
(Tours) يصف نبلاء الرومان الذين رآهم يرتدون ثيابا من حرير مرصعة
بالجواهر ، هذا إلى أن فسيفساء رافنا يحدثنا بنفس القصة . وما يشهد بمحاكاة ماقى
القسطنطينية وجود الخصيان بالبندقية وتحديد أقسام خاصة بالنساء فى المنازل بها ،
كما أن أردية الأرجوان التى يرتديها أدواج البندقية فى الحفلات الرسمية تذكرنا
بأصلها البيزنطى . وكان القديسون والشهداء الشرقيون يلقون فى كنائس
إيطاليا اهتماماً خاصاً فى ذلك الأوان . ومن أمثلة ذلك شبروع الأشياء التى كانت
تنسج للقديس ميخائيل والقديس ثيودوروس والقديسين كوزمارس وداميان ،
على حين أن الشماثر والفنون البيزنطية كانت تستخدم بوفرة فى العماثر والصلوات
الكنسية . ومن الأساقفة والبابوات المعروفين أيضاً من يحملون أسماء يونانية ،
وشاع من جديد استعمال اللغة اليونانية فى روما . وكان الدوق (Dux) الرومانى
بقصره المظلل على البلاتين والمثل للإكسارخ ولمولاه الإمبراطور عن طريق
ذلك الإكسارخ ، يسيطر على المدينة بمجده البيزنطية . وكان بكل مدينة كبيرة
حتى يونانى ، كان على استعداد تام لموازرة أية إجراءات تتخذها السلطة المركزية
لإلزام السكان الإيطاليين بالطاعة . وأعجب شئ فى ذلك الزمان إعادة فتح
جنوب إيطاليا أمام لغة بلاد اليونان وآدابها ونظمها مثلما فتحها الهلنستية القديمة
قبل ذلك بخمسة عشر قرناً — وتواصلت هذه العملية حتى القرن الحادى عشر
وظلت حية حتى فى عهد ملوك النورمان ولا تزال بعض آثارها موجودة إلى
يومنا هذا .

الحركة الانفصالية الإيطالية

وعلى الرغم من هذا التنظيم الاستقصائي الدقيق كانت قوة بيزنطة في إيطاليا تعتمد على أسس غير ثابتة . وقد ظهر أن اللومبارد كانوا هم السبب المباشر في تقوض سلطاتها ، ولكن النظم نفسها كانت تحتوى بذور فنائها . فالواقع أن اكتمال عملية المركزية أمهم في ظهور قوى محلية برزت حينما تبلى ضعف السلطة المركزية . ذلك أن اليونانيين لم ينلقوا مطلقاً — حتى يوم جاءوا لإنقاذ إيطاليا من القوط الشرقيين — التأييد القلبي من السكان ، كما أن جشع الموظفين البيزنطيين وابتزازهم أموال الناس لم يزدحم إلا مقتاً في أعين الشعب . وقد زادت الخصومات السياسية من تأجج الخصومة بين الغرب والشرق التي زادت أوارها اشتداد التعارض بين مصالح الطرفين . وجعل حكام بيزنطة رائدهم الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية مهما كان الثمن ، لذلك دأبوا في أثناء تلك القرون على بذل جهود متواصلة في سبيل فرض ما استطاعوا فرضه من توفيقات وتساهلات في الشؤون الدينية ، وهي سياسة أثارت ألد العداء في إيطاليا الكاثوليكية ، التي لم تكن تأبه كثيراً بمشاكل السياسة والتدبير التي تواجه الإمبراطورية . وأخيراً كانت نفس نزعات التفكك ، التي ظلت إبان القرون الثلاثة الأخيرة مصاحبة لتمزق الإمبراطورية الرومانية إن لم تكن السبب الفعلي لذلك ، قد أخذت تشند وقتذاك وتتفاقم بحكم احتياجات الزمان ، التي جعلت الاعتبار العسكرية في الأهمية الأولى . لقد انهارت الحياة في المدينة القديمة وانهارت معها الطبقات الوسطى تحت ويلات الغزو والدمار الاقتصادي التي أتعبتها تلك العوامل . وقد بدأ قصر الجهاز الضخم الذي اصطنعه دقلديانوس وقسطنطين الطبقات الدنيا على طوائف وطبقات حرفية تعمل في خدمة الدولة . أما الطبقة العليا فإنها سيطرت على هذا الجهاز لمصلحتها ، كما أن إفلاس الدولة

زادهم قوة . وتولى كبار أرباب الأملاك جميع الاختصاصات المحلية وجباية الضرائب . وأصبحوا مسئولين عن صغار الفلاحين الذين يخدمون في ضياعهم . وعندما أصبحت إيطاليا معسكراً مسلحاً ، وأضحى كل مواطن جندياً ، صار من الطبيعي أن ينتقل التنظيم العسكرى إلى قبضة هؤلاء النبلاء . فصار مالك الأرض قائداً لأتباعه ، مثلما كان التريبيون قائداً لكتائب المدن . وعندما غلب العنصر الإيطالى على طبقة الجند ، نظرا للافتقار إلى الأمداد البيزنطية ، صار لزائماً أن تنمو الروح الوطنية المحلية ، وبلغت العملية نهايتها بدوبان الفروق رويدا بين الموظفين البيزنطيين وبين الأرستقراطية الإيطالية ، وذلك لأن هؤلاء الموظفين حاولوا أن يزيدوا من قوتهم باقتناء الضياع في إيطاليا ، واستطاعت الأرستقراطية الحصول على المكانة الرسمية والامتيازات الاجتماعية بواسطة الألقاب البيزنطية والمناصب التنفيذية ، وهكذا نشأ مع اضمحلال السلطة المركزية نظام إقطاعى ، أحل محل الجهاز الإمبراطورى عددا من الحكومات المحلية .

ممتلكات البابا

أما الوظائف الباقية للسلطة المركزية فقد ملائها الكنيسة ، التى كان نمو قوتها الزمنية آخر العوامل الكبيرة فى تكوين إيطاليا العصور الوسطى قبل عهد شرلمان . فإن قانون ثيودوسيوس ومن بعده القرار التنظيمى (Pragmatie Sanction) لم يخول لسلم الوظائف الكنسية امتيازات خاصة فحسب ، بل منحها أيضاً قدراً كبيراً من السلطان السياسى ، ولا سيما فى مجال حكومة المدينة ، إذ إن قائد حامية المدينة (الترييون) والأسقف أخذوا عند ذاك يتقاسمان معظم ما كان لموظفى المدن من حقوق وواجبات ، وزاد فى سلطان الكنيسة ما لها من مكانة باعتبارها أكبر مالك للأراضى بإيطاليا . كان الأسقف

هو الذى يهيمن على أبواب المدينة ، وبذا يئاط به تزويد أسوارها بالعدد الكافى من الجند ، ويكفل للمدينة توافر الماء والخدمات اللازمة لها . واختصت الكنيسة منذ زمن طويل بالنظر فى شئون البر والإحسان والمستشفيات ، بل إنها استطاعت بفضل ما كان لها من نظام فائق ، ومكانة أدبية ، أن تجعل لنفسها فى أمور القضاء والضرائب ، مكانة مرموقة فى نظام الحكم الإمبراطورى .

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية نمو رقعة ما تملكه الكنيسة من الأراضى الزراعية ، وهو أمر لم يؤكد فقط مئاة مركز إيرادات كرسى روما ، بل وزودها أيضاً بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء إيطاليا . إذ كان للكنيسة منذ عهد قسطنطين الحق القانونى فى حيازة الممتلكات ، وظلت هذه الممتلكات فى ازدياد دائم بسبب وصايا أغنياء النصارى لها بالأموال وما كان يهبه لها أشرف روما . وتم سبب آخر ، يتمثل فى تزايد الميل العام عند صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية مالك قوى ، وبذلك كان الملاك الأحرار يصبحون فى كثير من الأحيان مجرد مستأجرين للأرض مدى الحياة مقابل ما يجتنونه من ميزات الأرض والطمأنينة .

وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير التى كتبت عند نهاية القرن السادس بمعلومات قيمة عما اشتهرت به روما من الكفاية والدقة فى إدارة أوقافها ؛ وهى تظهرنا كذلك على الدور الذى لعبه جريجورى نفسه فى تنمية الموارد المادية للكنيسة . وقد بذل جريجورى فيما وجهه من تعليمات إلى قسس الأبرشيات ، وهم موظفون كنسيون كانوا يجمعون فى عملهم بين واجبات حكام الأقاليم والقضاة والمولكين بالصدقات فى مناطقهم الخاصة ، بذل اهتماماً كبيراً بأدق تفاصيل تربية الماشية والتأجير وحيازة الرقيق وجميع الأمور التى تهم كل مالك أرض . ومنها تبين أن السروج يحصل عليها من كامبانيا وعروق الخشب من بروتيوم لتستخدمها كنيسة روما . أما صقلية التى تقع بها أغنى

الأوقاف وأوسعها مساحة ، فكان يرد منها مقادير ضخمة من القمح تقي بتموين روما نفسها — وفي ذلك دلالة على ما حدث من إحلال النشاط الكنسى مكان الحكومة الإمبراطورية فى عاصمة الإمبراطورية السابقة (روما) — وكانت الإيرادات الضخمة التى يحصل عليها بهذه الطريقة تستخدم فى وجوه شتى : — مثل افتداء الأسرى وتخفيف ضائقات المجاعة وصيانة المستشفيات والإفاق عليها وإعانة مختلف الكنائس التى تعرضت لغارات وتخريب اللومبارد . وأخيراً يبدو أن البابوية لم تكن ترضى بالألطف والرشى السنوية على معيار ملكى سخى إلى مختلف الموظفين البيزنطيين الذين يعتبر تعاونهم مع روما أمراً ضرورياً ، وذلك فضلاً عن الأموال المستخدمة فيما يتخذ بطريق غير مباشر من ديبلوماسية . وإن هذه الرسائل تلقى ضوءاً كبيراً على علاقات جريجورى بالهيئات الإدارية الإمبراطورية ، وهى مملوءة بالاتهامات المكتوبة بعبارة صريحة ، حول ما يرتكب فى حق الناس من سلب وظلم . ومن الواضح أن جريجورى كان يتحدث بوصفه شخصاً مسئولاً ، وهو شديد الأمل فى أن نتجديراته لن تذهب سدى . وإن جريجورى — وقد سبقه فى منصبه وخلفه عليه أبحار خاملون — ليملاً إلى حد ما المنزلة التى قدر للبابوية أن تحتلها إبان القرون التالية . كان رئيساً لمنظمة مركزية قوية (البابوية) والحكم المطلق فى كل الأمور المتصلة بالعدالة ، وقد تسلىح بمفاتيح الحل والإبرام التى اختص بها بطرس الرسول — فى السماء والأرض ، وبما كان لروما من مجد غير ، لذا كانت له شخصية فوق شخصية البشر ، لم يكن الإمبراطور إزاءها فى نظر سكان إيطاليا المعذبين ، سوى سيد بعيد الدار ، ولم يكن إلا كسارخ إلا مجرد قائد ضعيف أو جاك ظالم .

على أنه ينبغى لنا أن نؤكد أن أهم ما استندت إليه هذه السلطة ، ما كان لجريجورى من هيبة شخصية وسلطان أدبى ، لا إلى ما كان تحت تصرفه من

قوة مادية . وقد اضطرت الظروف أن يعتمد بلا كلل على أفانين الديبلوماسية وأن يمد بكل حرص وعناية إلى إنشاء الائتلافات وتكوين العُصَب والاتحادات : لكي يجابه المعارضة الكثيرة التي كانت تلقاها مدعيات الكرسي البابوي . إذ حدث حتى في داخل حدود إيطاليا وإستريا ، أن كبار رؤساء الأساقفة في الشمال بيلان وأكوليا ورافنا — رفضوا قبول سيطرة روسيا ، ومع أن الانشقاق قد التأم أخيراً فإنهم حافظوا على نزعتهم الاستقلالية بنا تلتوه من التشجيع سرا من قبل بيزنطة ، التي رحبت بكل ما يُعوق ازدياد نفوذ البابوية .

على أن أهداف جريجورى تجاوزت حدود إيطاليا ، فقد اتخذ الموظفين الذين يعينهم للإشراف على ضياع الكنيسة بإيطاليا وغيرها من الأماكن ، من رجال الديبلوماسية ورجال المخابرات ، استطاع بفضلهم أن يتصل بجميع القوى الحاكمة في الغرب علمانية كانت أو كاثوليكية . ولم يتردد في أن يطلب من حكومة السلطة الإمبراطورية أن تساعده في إلزام أساقفة الليرة بالطاعة ، وفي قمع حركة الدوناتيين والوثنيين في إفريقية ، على الرغم من أنه لم يحرز في ذلك نجاحاً تاماً . وفي أسبانيا حيث اعتنق القوط الغربيون المذهب الكاثوليكي حديثاً ، بادر جريجورى إلى توثيق علاقاته مع البيت المالئ فضلاً عن هيئة الكنيسة الجديدة . وبذل في فرنسا محاولة جريئة ولكنها غير مثمرة ، كما يمارس عن طريق القاصد الرسولى البابوي بمدينة آرس ما كان يدعيه منذ زمن طويل أساقفة روما من سلطة على الكنيسة القومية هناك . والمراسلات المتبادلة بين جريجورى وبين مجموعة متنوعة من ملوك الفرنجة ، لاسيما برانديلا السيء السمعة ، تمحض هؤلاء على القضاء على السمعانية^(١) وغيرها

(١) السمعانية Simony : هى الاتجار فى المقدسات والمصافى فى الرتب والوظائف الدينية . [المترجم]

من الأعمال القبيحة بالكنيسة ، وتدل على معرفته الرثيقة بالأحوال السائدة في سائر الأبرشيات ، فضلا عن إلمامه بالأحداث السياسية . على أن دولي البابا لقيت الاحترام ، وإن لم تظهر بالرضى والقبول . وذلك لأن الميراثيين لم يميلوا إلى التنازل عن المزايا التي حققوها من السيطرة على الكنيسة ؛ ولكن النفوذ الشخصي لجريجورى كان معترفا به في كل أرجاء فرنسا ، وممة امتداد آخر لنشاطه يتجلى في بعثة أوغسطين التبشيرية إلى إنجلترا ، تلك البعثة التي قدر أن تكون لها عواقب بالغة الأهمية .

وفي تلك الأثناء أصر الكرسي البابوي بروما أن تبقى له الصدارة ، رغم ما تعرض له من اعتداءات الكنيسة الشرقية ، بعد أن استمرت على طول الزمن خصومة مريرة مع أسقف القسطنطينية ، الذي كان يدعى — بوصفه مطرانا لعاصمة الإمبراطورية — بأن له الحق أن يتخذ لقب البطريرك المسكوني (Oecumenical) . وما زاد في توتر العلاقات مع بيزنطة تنافر نظريات كل من البابوية والإمبراطورية . فعند جريجورى ، أن البابا فوق الوالي (الإكسارخ) ، وأن الكنيسة فوق الدولة : على أن خلفاء جستنيان من الناحية الأخرى ، كانوا يرون أن الولاية الإيطالية ، شأنها شأن جميع أجزاء الإمبراطورية الأخرى ، لا بد أن تخضع للإمبراطور ومروسيه ، وذلك لأن « الدولة لا تقع في داخل الكنيسة ، بل إن الكنيسة هي التي في داخل الدولة » . ولما كان جريجورى مقتنعا أن الطريق الوحيد إلى الجنة لمن دعوا إلى صراطها المستقيم ونزلها الكريم ، إنما هو الكهنوت أو الرهبنة ، فإنه رأى أن مرسوم الإمبراطور موريقيوس الذي يحظر على موظفيه المدنيين أو جنده السيادة قسيسين أو تبتل رهباناً ، جريمة لا بد من سؤاله عليها ساعة هول الحساب في يوم القيامة . ولا مرأى أن أسقف بيزنطة الذي يقيم بمنطقة أقرب إلى الحدود الشرقية وهو بالنسبة أشد إدراكا للخطر البالغ المهدق بالإمبراطورية وحاجتها المساسة إلى

كل جندي وشاب يصلح للجندي لو أريد للحضارة النجاة من التدمير ، —
كان أحسن تفهماً للوضع من جريجورى. والواقع أن العلاقات بين القسطنطينية
وروما قطعت فعلاً في فترة من الفترات ؛ كما أن الفرع الشديد الذى تقابل به
جريجورى اغتيال موريقيوس يظهر عمق اعتقاده بأن مصلحة الكنيسة قد عرضتها
سياسة الإمبراطور الراحل لأشد المخاطر . ومع ذلك لم يخطر بباله احتمال
الانفصال عن بيزنطة ، والواقع أن الموقف بإيطاليا كان يحول دون ذلك .
فإن العدو كان على الأبواب ، ومع أن جريجورى لم يقدر الصعوبات التى كانت
تواجهه الوالى (الإكسارخ) ، فإنه كان يدرك تماماً قيمة حمايته له ، وضرورة
التعاون لمناهضة الومبارد — وإن كانت الإيماءات التى صدرت حتى فى هذا
المقام نفسه إرهاباً بحجى السياسة البابوية مستقبلاً .

جريجورى الكبير

الواقع أن ما اتصف به جريجورى من سمات خلقية هياء لمعالجة هذا
الوضع الغريب المحيط به . كان بحكم مولده نبيلًا رومانيًا وشغل منصب والى
المدينة قبل دخوله أحد الأديرة البندكتية . وعين فيها بعد فاصداً رسولاً للبابا
بالقسطنطينية ، لحظى بفرص مراقبة السياسة الديبلوماسية الإمبراطورية ،
وكانت المدينة لا تزال بعد مركزاً للسياسة الأوروبية . وليس فى نواحي نشاط
جريجورى ما هو أنصع من تلك الواقعة المستشفة التى يفسر بها مجرى الأحداث
بكل من الإمبراطورية البيزنطية والممالك المتبربرة ، بل إنه يحولها فى الوقت
المناسب لخدمة الكنيسة . فلما ولى البابوية فى زمن كانت فيه إيطاليا بأكملها
فى حالة ارتباك مطلق ومحنة تامة ، ألغى نفسه على رأس النظام الثابت الوحيد
فى عالم مزعزع متغير . وكان كل ما يحيط به يميزز التعاليم التى تلقاها فى أثناء
تدريبه القانونى والإدارى ؛ ولم يكن بوسع الكنيسة أن تم على أكل وجهه

رسالتها عن الخلاص الروحي إلا باستخدام الوسائل المادية . ولهذا ازداد الاهتمام بالمبادئ العملية المتعلقة بالندم (التوبة) والمطهر وبما لبذل الصدقات للكنيسة من قدرة على التكفير عن الخطايا . ومن المفارقات أن أشخاصاً من التوافه مثل برانهيلدا بفرنسا وفوقاس في بيزنطة ممن تلوث أرواحهم جرائم عديدة قبيحة الشناعة — يتلقون التحيات بوصفهم نضراء للكنيسة ، وما ذلك إلا لأن السلطة المدنية مستقرة في أيديهم ، ولا يتأني تنفيذ العدل إلا عن طريقهم . وتمتجلى واقعية جريجورى أيضاً في إهماله للإسلوب الأدبي ، وللتربية الكلاسيكية بل المجاء السليم . وإنه ليظهر الكراهية لأية دراسات متممة قد تعوق مصلحة الكنيسة أو توجد روحاً تنطوى على النقد لها ، وهى التى تقوم قوتها الحقة فى طاعة الناس لها الطاعة المطلقة . وقد اعترف جريجورى علناً بجهله باللغة اليونانية . ومن العجيب أن دراينته بتاريخ الكنيسة ضئيلة ، وأشهر ما أنتجه فى تاريخها ، شرحه لسفر أيوب ، بما حوى من تأويلات شاذة ، وبما حفل من تخيلات رمزية ملتوية . ومن أكبر الأدلة على ماحدث من تدلى معايير الثقافة منذ أيام بوثنىوس وكاسيودوراس ، أن شهرة جريجورى فى العصور الوسطى إنما تعتمد أساساً إلى جانب مؤلفه عن قاعدة راعى الكنيسة (Pastoral Rule) على إلمامه بالاعتقادات^(١) .

على أننا لا نزال على عتبات العصور الوسطى . ولم يكن جريجورى إلا آخر شخصية كبيرة فى فترة الانتقال بالغرب . ولم يتوافر الدليل على أنه كان يدرك ما سوف تسلكه البابوية من الطرق الجديدة . إذ كان حسبه أن يعالج كل أزمة متى طرأت رغبة فى المحافظة على العقيدة الكاثوليكية من التعرض للخطر

(١) هذا الكتاب المعروف باسم (Liber Regulare Pastoral) هو الذى ألفه جريجورى حوالى سنة ٥٩١ ، وهو يتناول التعاليم اللازمة للأسقف فى حياته الكنسية ، نظراً لما للأسقف من مكانة باعتباره مرشداً وداعياً للناس . (المترجم)

أم الوقوع في الخطأ ، وحرصاً منه على وقاية سكان إيطاليا المعذبين ، وأن يحافظ
فروق كل شيء على سلامة سلطات أسقف روما (البابا) وامتيازاته . فهو أشبه
بشخصية جانوس^(١) ذى الوجهين ؛ ينبيء أحدهما (في أعين المتأخرين على
الأقل) بما حدث فيما بعد من تسلط البابا على الغرب وبما كان للكنيسة من
من سلطة زمنية ، وبما اتسم به الفكر في العصور الوسطى من مزيج عجيب من
الصفة القانونية ومن مذهب التصوف . أما المظهر الآخر ، فيدل على ما حدث
من تحول أكبر نبلاء الرومان إلى أساقفة ، قادوا في غالة وإفريقية وإيطاليا وبين
أنقاض الإمبراطورية وخرائبها الأتباع ، فاستأثروا في قتال مع السيل الجارف
من غزو البرابرة ولم يرجع ما أحرزوه من انتصار إلى ماتحت تصرفهم من
القوة المادية ، بقدر ما ترتب على ما أظهره أعداؤهم راغبين من الاحترام
والتبجيل نحو قوة الخلق ونبالتها ، ونحو سحر حضارة قديمة .
ويعلن شاهد قبره أن جريجورى : « ولى الله » وأنه سيامى رومانى
وأخـر عـتـرته .

خلفاء جستنيان

ولقد أورث جستنيان خلفاء إمبراطورية مثقلة بالديون ، منقسمة على
نفسها بالخصوصيات الدينية يتولى حكمها طبقة من الموظفين بلغت من الفساد
وابتزاز الأموال ما لم تبلغه حكومة من قبل ، ويتكفل بحمايتها جيش ، لم يكن
من وفرة العدد ما يكفى لدرء الأخطار التى تهدد أطراف الإمبراطورية .
وزاد السوء قفاقاً أن جستين الثانى حاز مع هذا الإرث المخرب (Damnosus)
(herediras) ما يضارع إن لم يفق ، ما حازه جستنيان من الأفكار الإمبريالية

(١) جانوس : إله رومانى يعتبر راعياً لايتد . اليوم أو الشهر أو السنة . وتخلله القنون
ذا وجهين ينظران في اتجاهين متعاكسين . [المترجم]

التي حفزته للتوسع . فإن ما فرضه على الآفار والفرس من طلبات وقحة ، لم تساندها قوة عسكرية أو مالية ، لم تكن تنتهى إلا بالانسحاب الميّن أو ما هو شر منه مما قد ينشب من حروب مدمرة . وعلى الرغم من رغبة كسرى في السلام ، فإن جستين أجيح نار الحرب مع الإمبراطورية الفارسية (ولم يكن يعوز القوم مبرر للحرب Casus belli على تلك الحدود الطويلة) ، وسرعان ما أعقب النجاح المؤقت الذى أحرزته الجيوش الرومانية سقوط دارا (٥٧٣) ذلك السقوط الكارث ، وهى من أهم نقاط الدفاع على خط حدود أرض الجزيرة . وترتب على ذلك أن اكتمل ما اشتهر به جستين من جنون العظمة فأضحى جنوناً كاملاً . وخلفه فى العرش تيبريوس وهو جندى كفاء ، فبدأ عهداً جديداً لسياسة أكثر تناسباً مع الموقف .

وأدرك تيبريوس مركز الإمبراطورية الحرج ، قهيات نفسه للتنازل عن بعض الأراضى للآفار النازلين بمنطقة الدانوب ، ولم يحرص إلا على الاحتفاظ بسرميوم لما لوقعها من أهمية جوهرية . ولكن الأمور سارت أشواطاً بعيدة جداً حتى اضطر قبل موته بزمّن قصير أن يسلم القلعة العظيمة لخاقان الآفار ، على حين انهزم فيضان من مغيرة الصقالبة على شمال بلاد اليونان . فكان الإجراء الذى اتخذه تيبريوس كان توقعاً لمجرى الأحداث فى المستقبل . إذ تحم على بيزنطة بعد أن فصلتها عن غرب أوروبا كتلة صلبة من البرابرة ، أن تركز اهتمامها منذ تلك اللحظة على ولاياتها الآسيوية ، وأن ترسم سياسة محدّدة تقوم على الوفاق فى الأمور الدينية وتخفيف وطأة الشدائد المالية ، حتى يطمن رعاياها الذين استبدت بهم الحيرة والتردد . وفى الحين نفسه ، استمرت الحرب مع فارس على الرغم من كل الجهود التى بذلت لإيقاف نارها ، وراحت تبحر شاقها ببطء شديد ، جالبة على الإمبراطورية الدمار دون أن تنتهى إلى نتيجة حاسمة حتى عهد موريقوس الذى حلف تيبريوس فى (٥٨٢) . وحانت ميلاد العصور الوسطى

فرصة سعيدة لوضع حد لها في (٥٩١) ، عندما اضطر حاكم فارسي جديد تولى الملك بثورة في القصر ، أن يلتمس العون من الروم ^(١) لينتثب أقدامه في عرشه . وكان السلم هو الشرط الذي فرضه موريقيوس ثمناً لإيقاف الحرب ، وعلى الفور بدأت الجيوش البيزنطية حركة انتقال نحو الغرب بقصد استرداد تخوم الدانوب . وبدا الحظ كأنما أخذ يتحول إلى صف الإمبراطورية ؛ لولا أن ألم به انقلاب آخر قدر له أن يهبط به على الفور إلى أوهد حضيض . ذلك أن موريقيوس وقد اشتد به الشوق إلى مواصلة ظفره على الآفار ، أبى أن يسمح لجنده بالعودة إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء . فمرد الجند عليه على الدانوب . ونادوا بفوقاس — وهو قائد مئة غير منتم — إمبراطوراً للبلاد ، وزحف العصاة من ثم على القسطنطينية . وكانت إجراءات موريقيوس الشديدة نفرت منه قلوب الناس عامة ، ولم يجد فوقاس أدنى صعوبة في دخول المدينة . وتلى تنويجه مذبة عامة في البيت المالك السابق .

وعندئذ ارتفعت قبضة موريقيوس القوية ، ولاح شبح الفوضى من جديد في ظل حكم خلفه المجرد من كل هدف . وإذا بالنزاع يشتد بين أحزاب السرك بالمدن الكبرى ؛ وأخذ اضطهاد أصحاب مذهب وحدة الطبيعة واليهود الذي صدر به أمر صريح من فوقاس ، يجعل بتنفيذ الولايات الشرقية منه وانسلاخها عن الدولة ، على حين راحت الجيوش الفارسية تتقدم باطراد على خط الحدود بأكمله من أرمينية إلى فلسطين . حتى بلغت في (٦٠٨) مدينة خلقدونية التي تواجه القسطنطينية من وراء شقة البحر الضيقة . وأخذ الطاعون يفتك بالناس في العاصمة ، وأخذت قلة الطعام تزيد في شقاء السكان ألوانا . وبلغ الأمر أن الخضر أنفسهم ، وهم حزب الإمبراطور ، أخذوا ينددون به في

(١) الروم هو الاسم الذي يطلقه العرب والقرآن الكريم على الدولة البيزنطية . (المترجم)

السرك ، ويقاومون قواده ، وترتب على ذلك أن تقرر حرمانهم من الحقوق السياسية .

وجاء الخلاص من حيث لم يتوقع أحد . فإن هرقل كان يحكم وقتذاك فيما يبدو إفريقية ، التي لعلها كانت أكثر ممتلكات الإمبراطورية ازدهاراً ، وهو قائد اشتهر بالذكاء وبالتوفيق في تجاربه . فراسله نبلاء القسطنطينية الساخطون على إمبراطورهم ، فقبل آخر الأمر أن ينفذ حملة تتولى تنصيب ابنه واسمه هرقل أيضاً على العرش الإمبراطوري . وفي (٦١٠) أقلمت المارة البحرية من قرطاجنة ، وعندئذ ظهر في الأمور جو جديد ، قوامه ما اقترنت به الحملة من روح مغامرة جديدة ، وما احتشد من السفن ذات الأبراج ، وصورة العذراء التي أقامها قائد الأسطول في رأس سارية سفينته ، تلك الصورة « التي لم تصنعها يد إنسان » . ولم تعد المدينة المطلة على البسفور « السرة » الحلقة لعالم البحر المتوسط . إذ ضاقت رقعتها فلم تتجاوز المناطق المحيطة بها : آسيا الصغرى وتراقيا ومقدونيا . أما أسبانيا فقد طردت الحاميات الإمبراطورية . وأخذت سلطة بيزنطة في إيطاليا تتضاءل باستمرار ، إزاء ما حدث من نمو وتطور التنظيم اللومباردي والبابوي . ولم تعد بدماليتا بعد (٦٠٤) أية جند رومانية . خاصة وقد دق الغزو الصقلي إسفيناً بين الشرق والغرب ، سيما وأن الفتق كان يزداد على الأيام اتساعاً . وهنا أخذت دول البلقان تظهر إلى الوجود رويدا رويدا . فالآن تتلفت الإمبراطورية نحو الشرق ، وتتركز قواتها على الجبهة الفارسية .

الإمبراطور هرقل

ولم يلق هرقل مشقة كبيرة في خلع فوقاس الطاغية المسكوه ، الذي لم يلبث أن لقي مصرعه عقب سقوطه . ولكن ذلك لم يكن إلا بداية عمل هرقل .

ولم يكن بد من انقضاء اثنتى عشرة سنة قبل أن تتمكن الإمبراطورية من استرداد قواها بالدرجة الكافية التي تمكنها من القيام بمعمليات عدوانية من أى حجم على أعدائها الشرقيين . إذ لم يكن بد من إعادة النظام إلى نصابه مثل إصلاح الموارد المالية للدولة ، ومثل تهدئة الصراعات الدينية بين الولايات ، قبل أن يستطيع هرقل تخليص القسطنطينية من التهديد المزدوج من قبل الآفار والفرس ورد الولايات إلى الإمبراطورية . وفي الحين نفسه تواصل تقدم الفرس . فسقطت دمشق في (٦١٤) ؛ ولم تلبث بيت المقدس ذاتها أن سقطت بعد ذلك بقليل ، وأن حل الصليب المقدس — وهو أقدس آثار المسيحية — إلى بلاد فارس . وعندئذ أصبحت مصر إيالة فارسية مدة عشر سنوات ، وبذلك فقدت بيزنطة مواردها الثمينة في المواد الغذائية . ولبت الأمر اقتصر على ذلك ، إذ خبأت الأيام ما هو أسوأ ، إذ إن القوات الفارسية تقدمت للمرة الثانية مخترقة آسيا الصغرى ، وأقامت معسكرها عند خلقدونية ، وأخذت تواجه المدينة من وراء مياه البوسفور ، على حين حدث في الحين نفسه في ناحية البر الأوربي من المدينة ، أن الآفار هبطوا عليها بقواتهم ونهبوا ضواحيها الشمالية . واستبد اليأس بهرقل ففكر فعلا في نقل عاصمة الإمبراطورية إلى قرطاجنة ، لكي يبدأ بها بداية جديدة في بيئة جديدة ، ليس للسوابق فيها أدنى وزن . على أن الفكرة الرائعة لم تتحقق ، ولكن مجرد دورانها بخلفه يدل على عبقرية صاحبها ، وهي أصالة أوحى بالحل الذي وفق إليه أخيرا .

كان هرقل أحرز الكثير عند (٦٢٢) . فإن التدقيق وحسن الاختيار في المناصب الهامة أحاط الإمبراطور برجال من أفراد أسرته أو من التابعين المأمونين . وأفضى الاقتصاد في الشئون الإدارية وإعادة تنظيم من بيده من جند إلى إرجاع الجهاز الإمبراطوري سيرته الأولى من النظام العامل . ولكن الخلاف الديني كان ينطوى على مشكلة أعقد وأعند . فلم يكن التسامح الديني

كافياً في حد ذاته، وذلك لأن التسامح في تلك المصهور، كان من الضروري فرضه بالقوة الجبرية. واستطاع الإمبراطور أن يجد صيغة من التوفيق يسوى بها ما كان من الاختلافات المذهبية بين الكاثوليك والمونوفيزيتيين، غير أن ما بذله هرقل من جهود، اقتضت زمناً طويلاً لحل الناس على قبولها، لم يلق إلا الفشل التدرج على أن جميع من بالعاصمة واجهوا الخطر المشترك برأى واحد، فالتحنت الحملة الموجهة على فارس صورة الحرب الصليبية ذلك أن هذا الاتجاه أخذ يستقر ويزداد رسوخاً طوال قرن من الزمان، إذ صارت حروب بيزنطة تتخذ شكل الحرب المقدسة، التي تضطرم دفاعاً عن العقيدة المسيحية، التي كان وجودها مرتبطاً ارتباطاً لا انفصام له بوجود الإمبراطورية الرومانية. وكانت عبقرية هرقل العجيبة داعياً لشحن الشعور الديني لدى رعاياه؛ وعندئذ اجتمعت كلمة الكنيسة والدولة على تزكية ذلك المسعى العظيم. وسمح سرجيوس البطريرك بإقراض تقود الكنيسة كما تستخدم في تمويل العمليات الحربية. فصهرت المواعين المقدسة المصنوعة من الذهب والفضة لتقدم رصائد مالية إضافية. وأصلحت ذات البين بين الزرق والخضر لهذه البنية، وبلغ الأمر إلى حد أن توزيع الخبز مجاناً - وهو حق العاصمة وامتيازها منذ أيام آل جراكوس - قد أمكن إيقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة.

وكانت خطة هرقل الاستراتيجية بالغة الجرأة. إذ إن القسطنطينية كانت مهددة من جانبيين. فعزم هرقل على أن يؤدي للآثار أتاوة مقابل رحيلهم عن القسطنطينية. وفوق هذا فإنه بدلا من محاولة استرداد ولايتي مصر وسورية المفقودتين منه، صمم أن يضرب فارس في سويداء قلبها، وأن يدفع جميع الشعوب المسيحية التي تقطن بأرمينية وما وراء القوقاز، نحو الجنوب إلى وادي دجلة. وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الجريء في أقل من ست سنوات (٦٢٢ - ٦٢٨). وكان الهدف الرئيسي من الحملة التالية (٦٢٢ - ٦٢٣)

تخليص آسيا الصغرى . ونزل هرقل بجيوشه في « إيسوس » قرب « البوابات القليبية » التي يدخل بواسطتها من سورية إلى آسيا الصغرى . ثم تقدم إلى « قبادوقيا وبنطش » ودفع بالجيوش الفارسية من مركزها الذي يهيده عند خلقدونية ، وهزمها في معركة فاصلة . وشهدت السنتان التاليتان (٦٢٣-٦٢٥) تقدماً آخر . فنيهما احتل هرقل أرمينية وشغل نفسه بتجنيد القبائل الكونخيسية والإبيرية . وقام بغارات ناجحة على المناطق الشمالية . وانصرف إلى تجنيد قبائل كونخيس والكرج (إبيريا) . وعلى الرغم من الغارات الموقفة التي شنها على المناطق الشمالية ، فإن الجيوش الفارسية رغم ما تعرضت له من هزائم متكررة ، استطاعت أن توقف كل غزو فعلي .

وكان عام (٦٢٦) نقطة التحول في الحرب . إذ صمم كسرى على حشد قواه جميعاً لسحق ذلك الخصم الخطر . وكانت خطته أن يجعل أحديجوشه يستوقف هرقل ، بينما يزحف جيش آخر على خلقدونية ويهاجم العاصمة . وفي تلك الأثناء حشد خاقان الآفار جيشاً ضخماً ، استعداداً لمحاصرة بيزنطة في نفس الحين من الشمال . وكانت بين الطرفين محادثات مفككة عقدت في مناسبات سالفة . ولكن هذه كانت الحالة الأولى لقيام جهد حق متأزر بين الطرفين ، وكان التهديد المزدوج جارفاً وقوياً . واستمسك هرقل بخطته بشجاعة نادرة . فأرسل إلى القسطنطينية شطراً من قواته ، حيث وكل الدفاع عنها إلى النيبيل البطريقى يونس والبطربرك سرجيوس . وكلف شطراً آخر بمقاومة قوة الفرس المحدقة بالعاصمة ، على حين تمسك هرقل نفسه بأرمينية ، واصل استعداداته للهجوم على الأراضي الفارسية . واستمر حصار بيزنطة شهر يوليو بأكمله . وكان الأعداء يشنون في كل يوم هجوماً جديداً على أسوارها ، على حين كانت السفن الصقلبية في الميناء تهدد وسائل الدفاع البحري . وامتلاء

السكان بالحماسة الدينية فقاوموا مقاومة المستقيس . وتأزر الأعداء وشنوا هجوماً متكانفاً فصدّه السكان منزليّن بهم خسائر فادحة ؛ وذلك أنّهم اكتشفوا الخطة قبل تنفيذها ، فنادعوا الصقالبة حتّى أوقعوا الكثيرين منهم فى أسر السفن الرومانية ، ودب الرعب فى الآثار لما حلّ بقواتهم من كوارث ، فانسحبوا من الحصار . وفى تلك الأثناء انهزم الجيش الفارسى الآخر ، بينما أوشك هرقل على الفراغ من إتمام استعداداته . فوجه هرقل ضربته القاصمة فى أواخر السنة التالية ، إذ هبط إلى وادى دجلة ، وشتت شمل آخر جيش لدى الفرس ، ففر نحو الجنوب مضطرب النظام ، ثم استولى على قصر كسرى ، وهو على مسافة سبعين ميلاً من شمال العاصمة ، وبذلك انتهت مقاومة الفرس . وعندئذ شقت الجيوش عصا الطاعة وخلع كسرى عن عرشه ، ولقى مصرعه بعد تعذيب طويل ، وعقد ابنه صلحاً مع هرقل ، وبذلك انتهت الحروب الفارسية مع الإمبراطورية الرومانية إلى الأبد . وبمقتضى شروط الاتفاق استردت روما كل ما فقدت من أقاليم ، وعاد إليها جميع من بيد فارس من أسرى . على أن أبرز رمز للنصر كان عودة الصليب المقدس الذى كان له دور بارز ضخم فى مواكب السرور التى حيت هرقل عند عودته إلى القسطنطينية . لقد تساور القديم والجديد جنباً إلى جنب فى هذا الحفل الختائى لعالم زائل . على أن انتصار الإمبراطور الرومانى الذى حياه شعبه باسم سكيبيون^(١) ، اختتم فى كاتدرائية القديسة صوفيا ، حيث رفع البطريرك الأثر المقدس للصليب عالياً ليبارك الإمبراطور المسيحى ، رأس الكنيسة والمدافع عن المدينة المقدسة .

وكان ذلك الحفل البهيج احتفاءً بما أصاب مجد روما وهبتها من انتعاش

(١) سكيبيون هو بطل الحرب البونية الثانية . انظر للمترجم المجلد الثانى (ط ٢) من « معالم تاريخ الإنسانية » تأليف د . ج . ولز (المترجم)

حقيقى رائع . فى الشمال والغرب ازداد تداعى سيطرة الآفار بعد الصدمة التى نالهم أمام أسوار بيزنطة ، وانقلب الصقالبة والبلغار على الآفار وسيادتهم ، وشهدت السنوات القليلة التالية قيام أول دولة صقلبية فى مورافيا ، ولم يلبث أن تلاها إنشاء إمارة كرواتية مستقلة فى دالماتيا . وفى الشرق حيث كانت الإمبراطورية الفارسية عدو روما التقليدى قد تلقت أثقل ضربة وجهها إليها إمبراطور روماني ، فانزع منها كل ما ملكته حديثا ، وانفرت بأرضها فى ثنايا ذلك بذور حرب أهلية دائمة . وللمرة الثانية زعمت حضارة البحر المتوسط لنفسها انهاء سكان آسيا الصغرى وسورية ومصر إليها . وبذا تمت كتابة الفصل الأخير من التاريخ اليونانى الرومانى .

والواقع أن ذلك كان آخر نصر أحرزه العالم القديم . فالدولتان الفارسية والرومانية اللتان ظلتا تفتاتلان زمناً طويلا ، أصابهما الدمار بعد هذا الصراع الأخير الذى أودى بهما . ورقدت ولاياتهما الضعيفة النازقة والثائرة المتمردة مفتحة الفجاج للفنح الإسلامى ، الذى قدر له أن ينبجن من الصحارى العربية فى بضع سنين . ومن وراء حاجز دول البلقان التى أخذت تنضم بعضها إلى بعض بسرعة فائقة — كانت أوروبا الغربية تتشكل أشكالا جديدة ، ولن يفوتنا أن نميز جيدا دلائل نمو الإقطاع بإيطاليا وفرنسا ، كما أنه لن يعوزنا أن نذكر علائم اتساع قوة البابوية مستقبلا . وقد حمل مبشرو روما رسالتها إلى أقصى الغرب ، وأخذت إنجلترا تدخل فى دين المسيح رويداً رويداً . ومن بين ألقاض الغوضى الناجمة عن الحروب والغزوات ، شرع عالم أوروبا العصور الوسطى يتخذ شكله ويتجمع فى مادته .

القسم الثالث
ظهور الإسلام

العقيدة

كان الإسلام في مراحلہ الأولى عقيدة محدودة في الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية - قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا ؛ والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص في إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : — (أ) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق — إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة في التطور التاريخي للإسلام

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شيء من سوء الفهم الذي ألم بالآراء التي كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يهتمون بالكثير من التهم الباطلة . ويعانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم في المصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوربا تنظر إليهم اليوم بالعين التي كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت في الحقبة الأخيرة جهود يقصدها استكشاف ما قد يكون متجسماً من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التي نجدها في المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمري إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية التي أثرت في بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيداً لاستمرار الوحي لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لا تنقطع : وفيها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هي إلا تأكيد جديد ، وتعديل موحي به لأسمى ماتحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التي غطت عليها المؤثرات الهلنستية^(١) . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامي مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة متعصبون حاملون ، يشهرون السيف في يمينهم ويحملون القرآن في شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرهاً في دين الله وهو قول لا ينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الإسلام فضلاء جيل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب^(٢) ، وكانت هذه حركة تقودها أرستقراطية من المسكرين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرهاً ليس من حسن السياسة في شيء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوروبية . بل هي على العكس من ذلك بنت بيتها ، فهي إحدى ثمار تلك العناصر التي صيغ منها مجتمعه الأساس الذي قام عليه أيضاً الفكر المسيحي في عصوره المبكرة . وهو اتحاد

(١) وهنا نشير إلى آراء كتاب العصور الوسطى تلك الآراء التي ظل الإسلام يقاسى منها إلى اليوم والتي ظلت تعجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ١٢١٠ ..) انظر مقارنات بوخنا الدمشقي في القرن الثامن . وانظر داني في السكوبيدية الإلهية . (Historie de Byzance) (فاسيليف ج ص ٢٧٤) (Seminator di scandaloedi scisoma)

(٢) وسواء أجاز لنا قبل نظرية كايافي التي تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (inardimento) في شبه الجزيرة العربية أم لم يجوز قبلها فالواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية العامل الاقتصادي بين أسباب الهجرة العربية .

النقائين الهلنستية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله .
وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه
الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوروبا فى العصور الوسطى . ولاشك أن الخصومة
الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإبهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة
الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته للبشرية
فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى
بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار
الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبحث
الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباغنة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا
عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من
البلاد التى لم تهيئها طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت
كلا من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على
كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها
البدو الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ،
وهى نزعة لا تعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ،
أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف
الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له
اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على
الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان تقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لا يكاد يحق لنا أن نتوقع المنور هنا على وجهة نظر قومية . على أنه حدث في أقصى الجنوب العربي ، أن أفاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم وتقوشهم - تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشي قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن^(١) ، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التي هيأت لليمنيين نصيباً ضخماً من التجارة مع الشرق الأقصى . أما في الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المتجولة في ربوع شرق الأردن والفيافي المترامية التي تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشيء الذي فعلته الدول العظمى في الأزمنة الحديثة . فقام ملك الفساسنة على أطراف الشام بمؤازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملكة الحيرة « دولة حاجزة » وهي الدولة الفتية التي تعتبر المركز التجاري على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمان قصير . وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدثوا سياسياً . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالي من البلاد ، إذ إن يثرب التي عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة غرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتي ميل جنوباً على طريق القوافل الرئيسي الذي يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التي كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلاً عما يرد من سلع الهند وأقصى آسيا ، التي حالت العداوة

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات البشرية والديبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دنيئة تقوم بها « السكبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهي البيت العتيق الذى يجتنب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة فى بلاد العرب بأوفر من السياسة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هى المزارات والأضرحة المحلية والأعمدة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأرباب البدائية الغامضة . وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . على أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت فى صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بعقائدها العتيقة ، التى لم تتجاوز فى معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن فى كريت وفلسطين من عبادة الأبحار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نقيجة لشعور دينى أصيل بل عن استمرار التقاليد والعادات . ولم يحاول أحد من العرب البحث فى اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تتجه نحو التوحيد . ولعل مكة هى أهم مثابة دينية عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدسة . وزاد فى مكانتها وأسهم فى رخائها التجارى منسك الحج واحتفالاته التى تقام بها كل عام .

حياة محمد « عليه الصلاة والسلام »

ولد محمد بمكة حوالى عام ٥٧٠ م . وكان ينتمى إلى المجتمع التجارى النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الغنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التى بين أيدينا ليس بالأمر العسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة عامة للنسبة . والنسبة

— كما هو معلوم — طراز مألوف في الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته —
وفي أثناء « الفترة المكية » من حياته ، وهي المدة التي كانت دعوته الناس
خلالها سرّاً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن
تسنّير الموضوعات الأساسية التي دعا إليها ، معارضة قوية من الماديين
المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه
في وحدانية الله بأى تحد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الآلهة المحليين
كشعفاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر
من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة — تلك المبادئ التي ظل محمد يدعو إليها
بجسارة بالغة مستنداً إلى الوحي ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك
ذوى المكانة من رجال المجتمع القرشي وأن يعتبروها آراء هدامة . فلاحظ أن
قوبلت دعوته العاصفة وفكره الثائر على مقدساتهم ، بنقد ووزارة من سادة المجتمع
هؤلاء ، وهبط عليه الوحي يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادؤه فقد عززت
بالأمثلة والأقيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد في الكتب التي يؤمن بها أهل
الكتاب من قبله . ولم يمد عليه هذا الاستدلال المنطقي إلا بزيادة عمق الهوة
التي تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحي يزاد تنديداً بشرك
مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يميز النبي بعض
شعائر الكعبة ويتخذ منها ركناً جوهرياً في الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول في سيرة النبي (ص) وهي السنة التي
تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة
وكانت بيئتها أكثر ملامة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً
اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثر نزول آيات التشريع
في أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التي بلغها
محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التي تحوي الحمود وتمثل

القانون المدني والجنائي ، فضلاً عن عدد من الشعائر والسنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقي من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ماتدل عليه كلمة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التي حول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضرباً من الانتقام الإلهي من الكفار الذين آذوا أتباعه وشرذوم من ديارهم . والحق أنه لم يتهياً شيء أشد إقناعاً للعرب بصدق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذي أصابته غزواته تباعاً وعقد المكيون وغيرهم من أضرت بهم هذه الغزوات اثتلافاً قوياً لمهاجرة المدينة ، بيد أن ذلك الاثتلاف لم يفز بباطل ، ومن ثم أصبح السبيل مهيئاً لعودة النبي ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفي محمد (ص) في (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانته السياسي والديني كما أن الاحترام الذي كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقي ما قام به النبي من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيدة

من الجلي أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هي الحافز الذي دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فمنذ تلك اللحظة أضحى انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن ميلاد العصور الوسطى

عندما انتشرت قوات العرب في أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقية ، وهى
مهاذ الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون
«دولة» . ولكنها دولة تتصف بالتسامح المطلق . وبدلاً من أن ينشر الفاتحون
معتقداتهم بحمد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً فى ممارسة عقائدهم على شريطة
الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب
بما للبلدان المفزوعة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية
بدورها . وهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ،
كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذلت العقبات التى تحول
دور اعتناق الإسلام - غير أن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً
رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسى الذى أتجزته الجيوش العربية سبق طبع
ذلك الشرق بالطابع الإسلامى بمدة مائتى سنة أو ثلاثمائة .

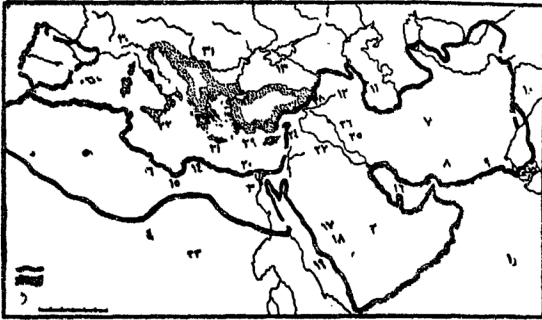
الباب التاسع الفتوح الإسلامية

كان للدين الإسلامي — كما رأينا — الفضل في تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفهم إلى الفتح العسكري ؛ ونبتت عن هذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلّس مفتاح هذه الحركة في صفات الخلفاء الراشدين . فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة ببلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكانما قدر للإسلام أن يخر صريعاً في تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارية من الشهور القبلى والنزعات الفردية . ولم ينقذ الموقف إلا القواد المسلمون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التى تسكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة — هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قمع المرتدين . فاستطاعوا بما شئوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربية ، وتمكنوا من جمع شتات العناصر المنحاربة كلها فى حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الفارات الأولى على الشام والعراق ، التى كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شيء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارية فى اليرموك والقادسية^(١) قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ، اجنب الغزو وتفرق الكلمة بإفناذه جموع حشوده على البلاد المجاورة . ذلك أن الوقت قد نهياً فعلاً لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

(١) انظر من ١٥٣

المهادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربية مباشرة بين إمبراطوريتي روما وفارس .

ولم تكن الإمبراطوريتان في مركز يؤهلها للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة نفشت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا هاد النظام في آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التي كانت في ظاهرها عظيمة القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شيء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثاً بمصر والشام من الأراضي في مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التي أفضت إلى تحويل كثرة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التي استمرت طويلاً أفسدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذي انصرف إلى الخصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديماً نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجنود . فانخرطت فيه أعداد صغيرة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة في بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين ببلادهم ، أقلّ منهم تمرداً . وقد أدت هذه العيوب إلى إزال أفسح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدافع نبط هنا بمجدد من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم في شئون الحرب ، على حين كان يشترك في القيادة خمسة قواد أُنْدَاد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . فضلاً عن خطورة الموقف العسكري ، كان هناك خطر



(٩) خريطة العالم الإسلامي

- | | | |
|------------------------------|-----------------|-----------------|
| ١ - المحيط الهندي | ٢ - بلاد العرب | ٣ - مصر |
| ٤ - الصحراء | ٥ - البربر | ٦ - أفريقيا |
| ٧ - فارس | ٨ - كرمان | ٩ - مكران |
| ١٠ - هندوستان | ١١ - بحر قزوين | ١٢ - تفلين |
| ١٣ - البحر الأسود | ١٤ - برقة | ١٥ - طرابلس |
| ١٦ - الخليج العربي (الفارسي) | ١٧ - الحجاز | ١٨ - مكة |
| ١٩ - البحر الأحمر | ٢٠ - الإسكندرية | ٢١ - كريت |
| ٢٢ - صقلية | ٢٣ - القاهرة | ٢٤ - أنطاكية |
| ٢٥ - العراق | ٢٦ - بغداد | ٢٧ - نهر الفرات |
| ٢٨ - أرمينيا | ٢٩ - جزيرة قبرص | ٣٠ - الفرنجة |
| ٣١ - الآفار | | |

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حرمت أمرها واتبعت ميلاسة أكنسباب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب وانتهجت سبيل التسامح الديني ، فلربما كان من المعقول أن تبقى على ولاء الشام ومعمر نحو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذهم هرقل من إجراءات لم يكن منها يد ، عادت على الدولة بتنفيذ جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أووال قد استغفده حروب الفتوح ، كما أن الولايات التي استردت حديثاً سرعان ما ألزمت بحمل نسيبها كمللا في أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . ومما زاد الموقف بيلاذ الشام تفاقمًا ، ما كان بين اليهود والمسيحيين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح شاجت بالمدن الكبرى . وفي (٦٣٤) صدرت الأوامر بتسديد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة للتوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إنزال الاضطهاد بكل من الشام ومعمر على السواء . وتتحلى نتيجة ذلك فيما تشهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التي تعبر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتعدّها آية على الانتقام السماوى من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحدود النازلون على أطراف الشام على الغارة منذ زمن بعيد على مدن تلك النفور ، ولذا لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أى قلق فى بيزنطة . إذ حدث فى (٦٢٩) قبل وفاة النبی بزمن طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجومًا قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يعسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة باسلة لإيقاد المدينة ولكنها لم تجدد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخذت المدن الباقية تخضع الواحدة تلو الأخرى صريعة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيائها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستعد هرقل بشجاعة لا تنزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت في أثناء الشتاء بعصية مجومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عدداً إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتها فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) . تقرر بها مصير الشام . وقد ألقى هرقل بكامل قواته في تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل في ملاقة العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحداً بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت في أيدي العرب المدن الساحلية : وهي عكا وصور وصيدا وبيروت ؛ وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهي العاصمة الإدارية للبلاد في (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تسكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تنصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون في اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة في القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلاً بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بنظر نظام بعد أن شقت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيشفون) فاستولت عليها واتهبتها . وسرعان ما اجتاحت جبهوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت في سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفي نفس الحين ، واصل الفاتحون حملاتهم في الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب ، أما آخراً كاسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقي مصرعاً غير كريم عند صرو على تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصلية التي لا تمت للسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل تقاليدھا الممتازة التي دامت نحو ألف عام ، أن تبدي من عنيد المقاومة للفازين ما لم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس في الاحتفاظ بلغتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارسية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولكن قوة الاندفاع العربي لم تكن تبديدت بعد . ومن ثم صار لزماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاع السيل العربي الجارف . وكما هو الشأن في الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التي واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قلة ذلك بجموالى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت عرى الإمبراطورية الضخمة لخانهم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردياً من الزمان بسبب ما نشب في العراق من خلافات ثم لم يلبث أن مضى في سبيله من جديد ، ولم تنقضى عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفي بواكير القرن التالي انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقي ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانج الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة في الصين ، فما وافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى نصابها . وعند ذلك كانت قدم الإسلام قد توطئت راسخة بكل من بلخ وسمرقند، وسيطرت قبضته على التركستان الغربية، وأمسى متحكماً في ممرات هضبة الپامير ، وفي تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون في الشمال الغربي من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهي السند وكشمير والبنجاب تخضع لأمراء الجوبتا النازلين جنوبي تلك الإمبراطوريات. على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الكامل للفتوح الإسلامية الذي بدأ في مستهل القرن التالي ، حل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التي بلغها فيما بعد أمراء البنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقيا

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن في جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجئ ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملكه مصر من الأراضي الغنية بالقمح ، وما لها من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دأمة لكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هي المركز الرئيسي لبناء السفن في شرق البحر المتوسط ، ثم قبض لها إبان القرون التالية أن تصير مهداً لقوة الإسلام البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريك كيروس (Cyrus) ، الذى كان يتولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائم القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائم محنك أظهر جدارته فى حروب الشام . و يتركز الفتح فى حصار حصن بابلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن العسير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المتقدمة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى ويحول دون تدمير المتسلكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بابلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد درست سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل العنصر العربى عن باقى سكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بابلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتسكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلما حدث فى بلاد العراق أن مقر الحكم لم يجعل فى المدائن (طيشنون) بل فى الكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتسكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقيا بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

فتح شمال إفريقيا

على أن فتح شمال إفريقيا كان عملية بطيئة يثبطها هملان رئيسيان :
هما مقاومة البربر والنزاع على الخلافة . ومن المعروف أن الحروب العظيمة التي
خاضها جستنيان قضت على الوندال ، وأعادت الرخاء إلى المناطق الساحلية ،
ولكنها أخفقت دون القضاء على قوة مشايخ البربر وكبح جماحهم : فبقيت
في أيديهم مناطق بأكلها ، ولم يصن الأراضي المزروعة من غارات القبائل
سوى اليقظة المستمرة على امتداد شبكة الطرق العسكرية والمعاقل فضلا عن
الأساليب الدبلوماسية والأعطيات المالية التي تصرف في إبانها . على أن
موارد الإمبراطورية استنزفتها حروب هرقل مع فارس وهجمات المسلمين ؛
وكانت عاقبة ذلك أن العاصمة (القسطنطينية) أصبحت عاجزة عن مساعدة
ولايتها الإفريقية ، فضلا عن ضبطها والهيمنة عليها ، ولذا فإن حاكم قرطاجة
شق عصا الطاعة على الإمبراطورية . فكأن الفتوحات العربية التي بدأت حوالى
(٦٤٢) لم تلق والحالة هذه إلا القليل من المقاومة المنظمة ؛ ولكن الاحتلال
الدائم للبلاد تأخر حتى نهاية القرن السابع . ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى
ما اتخذته شيوخ البربر منذ البداية من الروح العدائية للعرب . على أن الموقف
لم يلبث حتى تغير بمجرد دخول رجال القبائل في الإسلام . وقد تركز حكم
قرطاجة وروما للولايات الإفريقية في المدن الساحلية : أما سيادة الإسلام
فاستمدت قوتها من البربر سكان المناطق الداخلية : ومن حشود البربر هؤلاء ،
جاءت جموع المقاتلين الذين تدفقوا على مناطق ساحل البحر المتوسط ، حتى
أزالوا بقايا الحكم البيزنطى وانتشروا عبر البحر إلى أسبانيا وصقلية .
ولا ريب أن البربر كانوا العامل الحاسم في هجمات المسلمين على غرب أوروبا .
أما العامل الآخر الذى سبقت الإشارة إليه على أنه حقبة في سبيل تقدم

المسلمين ، فلم يبلغ من الأهمية هنا ما كان له في الشرق . على أن النزاع على الخلافة قد أخرج تماسك مصر ، وبذلك عوّق كل ما وراء ذلك من زحف أو تقدم ؛ يضاف إلى ذلك أن كل قائد يوفق في حملاته كان يتعرض دائماً لإثارة غيرة الخليفة منه ، ولذا فإنه كثيراً ما كان يستدعى أو يعين قائد آخر مكانه . وحرص العرب منذ (٦٤٢) على الاستيلاء على إقليم برقة للساحلى (إقليم المدن الخمسة Pentapolis) الذى يقع غربى مصر مباشرة ، رغبة فى وقاية جناحهم الأيسر من هجمات البيزنطيين ؛ ولكن إنشاء المعسكر العظيم بالقيروان فى تونس لم يتم إلا فى (٦٧٠) ، وكان الغرض من إنشائه اتخاذ قاعدة لمواصلة القتال والتوسع فى فتح ولاية إفريقية البروقنصلية . وحدث بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أن البربر الذين كانوا لا يبرحون ضالعين مع المدن البيزنطية قاموا بمصيان عام ، رد المغيرين إلى برقة ، ولذا فإن الفتح النهائى لشمال إفريقية التى تم فى السنوات الأولى من القرن الثامن ، لم يكتمل إلا بعد أن خضع البربر النازلون بجبال أوراس ، وبعد تمكن العرب من استرضائهم ، وبعد تركز الامتداد الإسلامى على البلاد الساحلية بفضل نمو البحرية العربية .

على أن مشكلة البربر ظلت على ما هى عليه : فلم تكن الإعانات المالية عاملاً كافياً يضمن ولاءهم ، كما أن فتح أسبانيا الذى تلا ذلك مباشرة ، إنما يرجع إلى الحاجة إلى توفير الغنائم للحلفاء الجدد وشغلهم ببعض المشاغل . ويبدو أن الهجوم على أسبانيا الذى حدث فى (٧١١) — لم يكن فى البداية إلا واحدة من الغارات العنيفة التى كانت تهبط طوال العصور الوسطى على سواحل جنوب أوروبا وجزرها ، وتعود محملة بنساء المناطق الريفية وبالتماثيل المحلاة بالجوهر والمنتبهة من الأدبرة . على أن المغيرين كان ينتظرهم هنا نجاح لم يحظ لهم ببال . ففي أثناء سورتهم على امتداد الساحل ، التقوا بالقوط الغربيين وشتوا شملهم ، وعندئذ بدأوا حركة تقدم وزحف ظفر . ومهد السبيل للنصر

المؤزر كراهية الشعب للقوط ، وما كان من خيانة اليهود الذين أرادوا الانتقام لأنفسهم على ما حل بهم من اضطهاد . ولم ينقض شهران حتى سقطت قرطبة ثم تبعها طليطلة بعد بضعة أسابيع . وقد انهارت مملكة القوط الغربيين كبيت مصنوع من ورق اللعب ، إذ أوهنت تقلبات الأسر المالكة على العرش قوتها ، وأضعفتها الخلافات والفتن الداخلية . وما حتمت هذه الانتصارات الرائعة السريعة التي أحرزتها جيوش المسلمين ، أن استقرت وتماسكت في السنة التالية عندما عبر البحر إلى إفريقية بأمداد وتعزيزات وفيرة ، واستطاع بعد معارك عديدة محكمة طرد فرسان القوط إلى جبال أستورياس ، ثم أعلن من طليطلة سيادة خليفة دمشق على البلاد . واستمر الزحف إلى ما وراء جبال البرانس ، ولم تمض سنوات قليلة حتى صار في حوزة الجيوش العربية البربرية ساحل فرنسا الجنوبي حتى أربونه . ومن هذا المركز ظلوا في الأربعين سنة التالية يناوئون المدن المجاورة ويهقونها بالغارات : تولوز وآرل وآفينيون . ولكن الطرف الأيسر من الجيش الإسلامي الزاحف كان قد اقترب من النهاية وبلغ أقصى طاقته . ذلك أن أودو (Eudo) دوق قطانية (أكتانيا) (Aquitaine) استبسل في الدفاع عن أسوار تولوز ، وبلغ النضال أقصى غايته في المعركة الحاسمة المعروفة باسم وقعة تور — بواتييه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ ، التي هزم فيها شارل مارتل هزيمة ساحقة الجيوش الإسلامية . على أن الواقع أن شدة الغزو كانت تبتدت ، ولذا فن المشكوك فيه إمكان قيام فتح دائم بجنوب فرنسا . وقد كثرت الأخطا البربرية في ذلك الحين في الجيوش العربية ، كما أن بوادر العداوة بين الجنسين ازدادت عند ذاك وضوحا في أسبانيا وإفريقية . هذا إلى أن مملكة أستورياس التي تقع في الطرف الشمالي الغربي من أسبانيا ، والتي اجتذبت إليها جميع العناصر المناهضة للغزاة ، كانت

تزداد في كل يوم قوة ونوا، وإذا صارت حاجزا على امتداد جبال البرانس،
حالت دون تدفق المدد من الجنوب .

الخطر على بيزنطة

على أن الحضارة الأوربية تعرضت لتهديد أشد وطأة ، أخذ يشتد في
الطرف الآخر من البحر المتوسط ، حيث صارت بيزنطة الهدف الحقيقي الذي
يشخص إليه المسلمون ، ولقد كان هذا الهجوم الصادر في الجناح الأيمن للإسلام
أقوى كثيرا من سابقه بصورة مطلقة ، وذلك لأنه كان صادرا من قلب
الإمبراطورية الجديدة ذاته .

ولما وافت (٦٤٢) كانت الكتائب الناهية ترحل في قبادوقيا ، ثم بلغوا
فريجيا في (٦٤٦) ، ولم يلبثوا حتى نفدوا إلى أترق في (٦٥١ ، ٦٥٣) ،
أما الموقف في أرمينية فكان بالغ الخطورة ؛ إذ تم احتلال البلاد احتلالا منظما
بين عامي (٦٤٦ ، ٦٦٦) . لقد كان مد الزحف متجها نحو بيزنطة في حركات
بطيئة متعاقبة ، تخلفتها هجمات مفاجئة . وبلغ الزحف مدينة خلقدونية فعلا في
في (٦٦٨) . وفي تلك الأثناء كانت قوة البحرية الإسلامية في نحو مطرد .
فتسللت أساطيلهم من الموانئ الإفريقية وتمتعت كريت وليقيا وجزائر
بحر الأرخبيل ، ولم تلبث قبرص حتى أصبحت قاعدة بحرية هامة . وكلما زادت
أساطيلهم جرأة ، زاد ضغطها على العاصمة (القسطنطينية) ، ومالبت العمليات
الحربية أن بدأت بمسقط رأس الملبسبون (الدردنيل) نفسها . ثم تعرضت
القسطنطينية في (٦٧٢) لهجوم بالغ الشدة من البر والبحر ، ولم يصد الورم ذلك
الهجوم إلا بأقصى مشقة ، وبما كان للنار الإفريقية من أثر رهيب . ثم هدأت
الحملة عشرين يوما ثمها فيها البيزنطيون وبيزنطة المرهقة ثائرة تنفسوا فيها

الصمداء ، وذلك لما وقع بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية ، فانهز البيزنطيون الفرصة واستردوا أرمينية برهة قصيرة . على أن العرب ماعتموا أن عاودوا الزحف في (٦٩٣) ، وتعرض البوسفور مرة ثانية للتهديد . وأخيراً حدث حصار القسطنطينية الكبير في (٧١٧) ، وهب للدفاع عنها الإمبراطور ليو (لاوون) الأيسوري دفاعاً بطولياً مجيداً أحرز من الانتصار الرائع ما وقف تقدم المسلمين^(١) مدة ثلاثة قرون بعد ذلك .

وربما أمكن اعتبار هذه الحركة إحدى المارك الفاصلة في التاريخ . وعندما ولى الفزاة وجوههم شطر بلادهم بمد حصار طويل دام عاماً كاملاً أحرقت فيه وسائل نقلهم أو وقعت بأيدي أعدائهم ، وفث في عضد جندهم برد قارس ، وفثك بهم الوباء والمجاعة فتسكاً ذريعاً ، تخلوا لعدة قرون بمد ذلك عن آخر مغامرة جدية لم على عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ذلك أن الأباطرة الأيسوريين أقبلوا على الدولة ينظمونها من جديد ، فشدوا بذلك من قوة الموارد الداخلية للسلكات البيزنطية ، وبذلك قضوا على احتمال للقيام بعمل مشترك على هذا المعيار الضخم . وآية ذلك أن العمليات البحرية بشرق البحر المتوسط أصبحت منذ تلك اللحظة مقصورة على غارات صيفية ، حتى شاركهم في ذلك حرب المغرب الذين ملكوا صقلية وكريت . على أن ما انتد لبيزنطة من مجد ، إنما يرجع إلى ضمودها منفردة أمام قوة الإسلام الكاملة ، في اللحظة التي بلغت فيها قوة المسلمين ووحدتهم ذروتها ، لا باعتبارها منقذة للتقاليد الإمبراطورية القديمة فحسب ، بل باعتبارها أيضاً صاحبة الفضل مستقبلاً في تخليص أوروبا في المصور الوسطى .

(١) عاود الإسلام تقدمه للمرة الثانية على يد الأتراك السلاجقة بمد معركة مانزيكرت (١٠٧١)

الفصل العاشر

الحضارة الإسلامية

لم يترك محمد (ص) للمسلمين من بعده أية خطة لولاية الحكم ، كما أن وفاته حرمت الحركة من ينبوعها الرئيسي - ذلك أنه كان مرجعهم في كل شيء ؛ فإن كلمة الله التي تصدر على لسان رسوله كانت هي العليا . ولم تلبث المناقشات حتى نشبت بين صحابته وهم أنباعه المباشرين ، واقترن ذلك بثورة تمرد قامت بها القبائل العربية التي لم تألف بعد سيادة المدينة عليها ، على حين نهض بجهات مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، جماعة من المنتبهة . على أن حروب الردة الدامية التي أفضت كمارأينا آنفاً إلى إلزام بلاد العرب كلها بالطاعة ، كانت لها نتيجة مباشرة هي فتوح الإسلام الخارجية . بيد أنها كانت لها مع ذلك نتيجة أخرى هي قضاؤها على ما كان بين أحزاب المدينة من مناقشات لمواجهة الخطر المشترك . فاختر أبو بكر خليفة للنبي ، لسأله من وقار وهيبة واحترام ، ثم تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب ، وهو سياسي عبقري من الطراز الأول ، وهو الذي وضع أساس الإمبراطورية الإسلامية بما أبداه من براعة في توجيه حملة فتح بلاد الشام . على أنه اغتيل في (٦٤٤) بيد مجرم من الروم أو الفرس ، فتولى الخلافة من بعده عثمان أحد أفراد بني أمية .. وبدأت حركة انتفاض على الحكومة المركزية بين جند الكوفة ومصر الذين غلبت عليهم البداوة فزكأها باسم الدين خصوم عثمان - وبدأت في الخلفاء مفاوضات مع مسلمي المدينة انتهت بمقتل عثمان على يد جماعة من جند مصر .

على أن عليا ابن عم النبي ، جانبه الصواب ، حينما رضى بأن يتولى الخلافة بعد عثمان ، وذلك بعد أن السحب إلى مكة جميع المطالبين بها . ولما كانت البصرة هي التي تناصر هؤلاء المطالبين ، كان طبيعياً أن تناصر الكوفة علياً على منافستها ، وحقق له انتصار الكوفة على البصرة سيادة مؤقتة على العراق . وعند ذلك صار لزماً على علي أن يلتقي بجيش معاوية وإلى الشام ، ومع أن النتائج الأولى للقتال لم تكن حاسمة ، إلا أن ميزان القوة العسكرية والرأي العام مالبث أن تحول رويداً رويداً إلى جانب معاوية . ولكن قبل أن يستطيع الطرفان الوصول إلى نتيجة حاسمة ، لقي علي مصرعه في أوائل (٦٦١) على يد أتباع حزب ثالث . وأعلنت خلافة الحسين^(١) بالكوفة ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية بعد ذلك ببضعة أشهر — ومنذ تلك اللحظة استتب الأمر للبيت الأموي الذي قدر له أن يحكم الإمبراطورية حتى (٧٥٠م) .

وفضلاً عن الأخذ ببدعة نظام الوراثة في الحكم ، التي لم يكن فرضها على العرب من الأمور الهيئنة ، فإن هناك تغييرات هامة أخذت تدخل على نظام الحكم^(٢) .

وجعلت دمشق عاصمة البلاد ، وحلت السلطة السياسية محل ما كان للمدينة من سلطة دينية ، وهي سلطة سياسية استمدت أجهزتها من النظام الإداري البيزنطي . وبلغت قوة الأمويين أوجها في مطلع القرن الثامن . وعلت كلمة الشام واستقرت سيادتها ، وقام على تنفيذ أوامر الخليفة بمختلف الأمصار ولادة أشداء . وجددت حملات العرب على بيزنطة بعنف زائد . وفي الغرب أضيفت أسبانيا إلى ممتلكات الإمبراطورية ، على حين تقدمت الجيوش الإسلامية شرقاً

(١) الحقيقة أن الذي تنازل عن الخلافة هو الحسن . [المترجم]

(٢) انظر ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من هذا الكتاب .

حتى بلغت البنجاب ، وتوغلت في أواسط آسيا . وقام بدمشق بلاط رائع ، ازدهر في ظله الشعر وتقدمت العلوم ، كما أن المسجد الأموي بدمشق ومسجد عمر ببيت المقدس يعدان مظهرًا لازدهار ثاب أصابه فن العمارة البيزنطي ، بفضل ما اجتمع للعرب من الثروة .

سقوط الدولة الأموية

وهنا أخذ الانهيار يتطرق إلى الدولة . إذ إن الفترة الأخيرة من تاريخ الأمويين ، ليست إلا فترة تعاقب فيها على الخلافة خلفاء قصار المهود ، ونشبت فيها المنازعات الشديدة وشبت فيها الثورات العديدة . وانبعثت المعارضة للبيت الأموي من جهات كثيرة . ولم يحدث قط أن أئمة المدينة المؤمنين بالحكم الديني (الشيوعراطي) الانتخابي أظهروا في أي يوم رضام عن العظمة التي بلغت بالشم جماعة القواد والساسة الوطنيين ، ولذا لم يكن بد من أن تواجه الدولة مؤامرات مستمرة في ذلك البلد . وتطورت المنازعات المحلية حتى غدت تنافسًا بين القيسية عرب الشمال وبين اليمنية أو القطحانية عرب الجنوب ، وما لبثت أن انتشرت بكل أرجاء الإمبراطورية . كما أن ما أحدثته الفتن الداخلية من التمزق والانقسام في إفريقية وأسبانيا لا يقل عما أحدثته في العراق وخراسان ، بل إن أصداء التنافس ترددت داخل البيت الأموي نفسه وتمخضت عن كثير من الاغتيالات داخل القصر وعن عزل العديد من الخلفاء . على أن ألد أعداء تلك الدولة كانوا هم الشيعة ، الذين استقرت قيادتهم العليا ببلاد العراق . ومن المعلوم أن السكوة جعلت عاصمة للدولة أيام خلافة علي القصيرة الأجل . ولذا لم تبرح لتلك الذكرى الذهبية صورة ماثلة تزيد في حدة الشعور بالكراهية والامتناع نحو أهل الشام الذين تفوقوا في القوة والحضارة . ولم تلبث حركة الشيعة أن اتسعت رويدًا بتلك الألوان العاطفية الحادة التي تتخذها كل فحلة

دينية . فرفع على وابنه الحسين اللذان سقطا دفاعاً عن قضية أهل الكوفة إلى مصاف الشهداء والصديقين . وصار صهر رسول الله وسبطه الحسين شهيدى الإسلام . وأصبح لسلاتهم أو لفئة معينة منها على الأقل (وهى مسألة أثارت خلافاً جديداً) الحق الشرعى دون غيرهم فى تولى الخلافة . على أن الثورة لم تنبعث من العراق ، بل من فارس . فعلى الرغم من أن فارس ظلت على الجملة موالية لبني أمية أيام رفعتهم ، كما بقيت بعد سقوطهم أشد إخلاصاً لذكراهم من أية ولاية أخرى عدا الشام ، إلا أن أطرافها الشمالية الشرقية كانت مسرحاً لثورة غيرت وجه العالم الإسلامى بأكمله .

وقد ظهرت فى خراسان حركة قوية مناهضة لأهل الشام والأمويين يؤيدها عرب الجنوب القحطانية ويسيطر عليها النفوذ الفارسى ، وتولى مرشحها أبو العباس الملقب بالسفاح ومؤسس الأسرة العباسية خلافة المسلمين ، فأمن فى سفك الدماء إمعاناً يبرر إطلاق اللقب عليه . وراح يطلب أفراد البيت الأموى ويقتلهم الواحد بعد الآخر ، ولم ينج منهم إلا واحد لاذ بالفرار غرباً حتى بلغ أسبانيا ، وهناك استتب له الأمر واستولى على مقاليد السلطان . وفى تلك الأثناء أحرقت رفات الأمويين السابقين وذريت فى الريح ودمر كل ماشيدوا من قصور وقناطر سقاية تدميراً شاملاً . ذلك أنه قد حانت بداية عصر جديد ؛ وذلك هو الشعار الذى اتخذته الفاتحون .

الإمبراطورية الإسلامية

وكان الفاتحون فى ذلك على جانب الصواب . إذ يسجل انتصار العباسيين تغييراً شاملاً فى الإمبراطورية الإسلامية ، كما يتبين ذلك فيما بعد فى كل ما يتعلق بالأمور الإدارية والاجتماعية . فمنذ تلك اللحظة تخلى الفاتحون العرب عن مكانتهم السامية الانعزالية . فقد ظهرت أهمية ما كان من تزايد عدد من اعتنقوا

الإسلام ، وضرورات الحكم والإدارة والتجارة ، وتفوق الشعوب المغزوة في الكثرة والحضارة . فلم يعد الإسلام دين السيد الأعلى العربي ؛ بل أصبح القوة التي يرتبط بها المسلمون من جميع الأجناس . والخليفة هو رمز تلك القوة . فلم يعد ذلك الخليفة كشأنه في عهد الأمويين المدير لخطط الفتح والاستغلال ، يسانده في ذلك جنس ملكي إمبراطوري . وعلى الرغم من ازدياد أجهزة الحكم وتمدد النظام الإداري ، فإن أقاليم الإمبراطورية الإسلامية نجحت في تحرير نفسها مما للسلطة المركزية من هيمنة سياسية ، على حين ظلت على ولائها لسلطة تلك الحكومة الدينية - وكانت أسبانيا أولى البلدان التي انفصلت عن الدولة .

ففي (٧٥٦) نودى بعبد الرحمن ، آخر من بقي حيا من الأمويين ، أميرا وأخذ يحكم البلاد بوصفه أميرا مستقلا . ولم تلبث ولاية إفريقية أن حذت حذوها .

ففي (٧٨٨) أسس إدريس بن عبدالله ، وهو من سلالة على إمارة ممثلة بمراكش ، هي إمارة الأدارسة التي جعلت فاس عاصمة لها . وهنا أيضا لم ينتقض أحد على السلطة الدينية للخليفة ، وإن كان الأمير مستقلا بالفعل - واستقرت في القيروان بأرض تونس إمارة أهم من إمارة الأدارسة . إذ إن إبراهيم بن الأغلب حوالي (٨٠٠) أسس أسرة الأغالبة ، الذين سيطرت قوتهم البحرية طوال القرن التاسع على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وواصل المسلمون فتح صقلية حتى تم لهم ذلك في (٩٠٢) . ولم يكفوا عن الغارة على جنوب إيطاليا وإعمال السلب فيه ، وفي (٨٤٦) كانت روما نفسها مسرحا لإحدى مغامراتهم الجريئة . وحوالي (٨٧٠) وقعت في أيديهم مالطة التي تعتبر مفتاح التجارة الغربية على حين أن مدن البحر الأدرياتي ، ظلت آنذاك على الدوام تحت رحمة القراصنة المسلمين المغيرين عليها . ولم يتم دفع العرب إلى إفريقية إلا بعد قدوم النورمان في النصف الثاني من القرن الحادي عشر . على أن مصر لم تنقسم ورا بطلها نهائيا بالسلطات العباسية إلا عند الفتح الفاطمي لها في (٩٦٩) ، وعندئذ تحولت

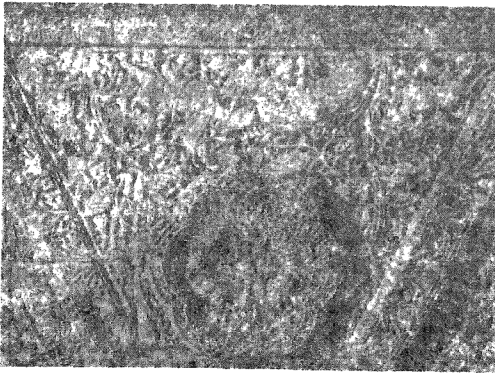
مواردها التي كانت فيما سلف تنصب في خزائن بغداد إلى تجميل القاهرة ، وأصبحت في أثناء القرون التالية من أزهى عواصم العالم الإسلامي وأخفها . وأخذت الأقاليم في الشرق والغرب تنسلخ ويستقل الواحد منها بعد الآخر ، حتى إذا وافي القرن العاشر الميلادي ، لم تعد الإمبراطورية الإسلامية وحدة سياسية . على أنه ساد أرجاء الإمبراطورية الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها وحدة من نوع آخر ، لا تقل أهمية عن الوحدة السياسية ، غير أنها لا تضارعها من الناحية المادية . فلم يكن عبثاً أن نفس الأذان الداعي إلى الصلاة ، كان ينطلق في نفس الوقت من مآذن قرطبة والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ، وأن كل الوجوه كانت تتجه كل يوم صوب مكة ، وأن كل القلوب كانت تهفو إلى الذهاب إلى تلك البقعة المقدسة أداء لفريضة الحج . وعة رابطة أخرى اجتمعت إلى وحدة العقيدة هي وحدة اللغة ، ذلك بأن العربية أصبحت في كل مكان لغة الدين ووسيلة العلم الصحيح وأكبر آية على ما بلغته بغداد من مكانة وغمارة مسارعة جميع الأقاليم إلى محاكاة نظام الحكم فيها وتقليد عرفها وعمارتها ؛ كما أن فيض التجارة الدافق الذي ينساب برا وبحرا من أقاصى أرجاء آسيا إلى المحيط الأطلسي ، أحاط مختلف شعوب الإسلام بشباك حضارة خصبة متعددة الجوانب .

النظام الإداري في حكم العباسيين

وفي أيام الإسلام الأولى التي تقدم محمد (ص) فيها أتباعه في المدينة للالتقاء عسكرياً بالقوافل ، كان كل ما يحتاج إليه الأمر من التنظيم المالي هو تقسيم بسيط للفنائم . واستمر هذا الأمر طويلاً في المرحلة التالية ؛ وذلك لأن الإمبراطورية الأموية في عهدها الأول كانت في واقع الأمر تقوم على نظام الفنائم . فكان

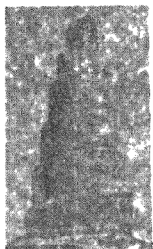


١٠ - (١) صورة فسيفساء من المسجد الكبير بدمشق



١٠ - (ب) صورة نقش محفور من المشتي

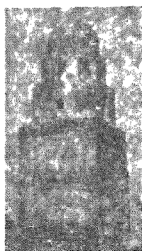
(٢)



(١)



(٤)



(٣)



(٦)



(٥)



١١ - أنواع المآذن :

- (١) من شمال إفريقيا (٢) عراقية (٣) فارسية
(٤) مصرية (٥) من القسطنطينية (٦) هندية

الفاخمون العرب ينزلون في معسكرات حربية ضخمة ، ويأخذون الجزية التي كانت تفرض على الشعوب المهورة . ثم يرسل فائض الدخل إلى بيت مال المسلمين بالمدينة ، فيوزع منه الخليفة الأعطيات على الناس .

وسرعان ما نجلى للقوم أن هذه الخطة لا تنكفي للقيام بمحاجات الإمبراطورية . وكلما زاد الإسلام انتشارا بين الناس ، تضاعف ما تحصله الدولة من الخراج ؛ وذلك لأن الذميين وحدهم هم الذين كانوا يدفعون الجزية - وعندما زادت هذه الطبقة نفوذا وصوتا ، لم يكن بد من أن تثير شكاياتها المناعب ، وتبين آخر الأمر أن هذه الطبقة كانت من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية . وأخذت الأنفس تضيق رويدا رويدا بالنظرية القائلة بشعب أو عنصر ممتاز مسيطر يرتهن في يمينه شعوبا ومناطق مترامية . وتحتل إحدى مراحل تلك العملية في الحل الوسط الذي تم به إلزام جميع أصحاب الأراضي ، بدفع الخراج (أى ضريبة الأراضي) إلى بيت المال ، بغض النظر عن عقيدتهم ، بينما ألزم الذميون بدفع ضريبة الرؤوس (الجزية) ، لتكون آية واضحة على تفوق المسلمين .

ولم يكن انهيار هذا النظام القائم على الاعتزال والسيادة العنصرية إلا واحدا من التغيرات العديدة التي آذن بها قيام الدولة العباسية . إذ إن المستلكات الإسلامية قد انتزعت من قبضة إمبراطوريتين عريقتين في الحضارة : هما فارس وروما . ولم يكن للعرب من الخبرات السابقة ما هيأهم للنظم الإدارية المعقدة التي اقتضتها ضرورات أحوالهم الجديدة . وكانت النتيجة أن الفاتحين احتفظوا في كل من مصر والشام بالجهاز الحكومي البيزنطي ، كما أن البرديات المكتشفة حديثا تشهد بمواصلة الغزاة الاحتفاظ بالنظم المالية والإدارية بهذين القطرين . ولما انتقلت العاصمة إلى بغداد ، كان لنفوذ الفرس (١٧ - المصور)

أثر محسوس في الحكومة المركزية . إذ لم تكن العاصمة الجديدة لتبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن طيشفون (المدائن) ، وهي العاصمة القديمة للوكراسانيين . ولم تلبث الأسرة الجديدة (العباسية) أن حاولت مزج العنصرين الفارسي والعربي ، وإقامة توازن متكافئ بين الطرفين . وأشد مظهر لهذا التغير إنما يتصل بمركز الخليفة نفسه . فقد كانت السلطة الصادرة عن المدينة تتخذ طابعا روحيا في عهد أبي بكر الذي ولى الخلافة بعد النبي مباشرة . على أن ساسة بني أمية في دمشق حولوا هذه السلطة فيما بعد إلى سيطرة سياسية منظمة ، وإن بقيت آثار من أصلها العربي فيما عرف عن الحكم الأموي من التمسك بأساليب القومية العربية . أما الخلافة العباسية فإنها تعد بمعنى ما ، عودة إلى مبادئ الإسلام الأصلية . وذلك لأن الحركة التي أوجدت تلك الخلافة قد غلب عليها الطابع الديني إلى حد كبير ، وهي تعتبر رد فعل طبيعي للطابع الدنيوي الذي اشتهر به الأمويون ، وكانت النتيجة المنطقية أن الحكم الجدد حرصوا على دعم سلطتهم بنظريات فقهاء المدينة ، وهي نظريات اقتبسوها من نصوص القرآن واستندوا فيها إلى بعض الأحاديث النبوية ، وتجلت فيها الاستفاضة والمعاناة في البحث والدرس ، وذلك لأن فقهاء الحجاز المؤمنين بالحكم الديني (التيوقراطي) ، ظلوا نيفا وقرنا من الزمان نافرين ومباعدين عن كل مشاركة في حكم المسلمين القائم بدمشق . وكان حكم الخليفة العباسي مطلقا من الناحية النظرية . غير أن هذا الحكم المطلق كان مقيدا من نواح عديدة . فإن سيادة الخلفاء على مختلف الإمارات كانت كما أسلفنا إليك سيادة ظاهرية لاحقيقية ، بل إن سلطة الخليفة في العاصمة نفسها كثيرا ما طغت عليها سلطة الوزراء . وكان الخلفاء الضعاف يقنعون بالانسحاب من مشاهد الصراع في الحياة العامة وينصرفون إلى إشباع رغباتهم بمعزل عن الدنيا ، تاركين لموظفيهم شئون

الحكم في الإمبراطورية ، وموكلين بجنسهم الخراسانية أصر حراسة أشخاصهم . ولم يفت قواد الجيش أيضاً أن يحرزوا نصيبهم من السلطان السياسي ، إذ كثيراً ما كان رجال الجيش ينصبون الخلفاء ويعزلونهم .

وكانت تنبع الوزراء سلسلة متصلة من الإدارات الحكومية وهي المعروفة بالداواين ، التي تتولى شئون بيت المال والقضاء والجيش والديوان الخاص وما إلى ذلك . ومن أهم هذه الداواين ديوان البريد ، وهو مثال لما يفتى للعلوية التي وورث بها الخلفاء تقاليد كل من روما وفارس . فإن لفظة « البريد » منتحلة عن اللفظة اللاتينية (Vereidus) ، أي الحصان المخصص لنقل الرسائل ، ولا يختلف نظام البريد عما كان معروفاً باسم (Cursus publicus) أي المراسل العام في أنه نظام حكومي ، الغرض منه تحقيق سيطرة الحكومة المركزية ، وضمان سرعة انتقال الجند والموظفين . ومن مظاهر نظام البريد ما يرجع أيضاً إلى النظام الفارسي في عهد الأخمينيين ، الذي وصفه هيرودوت ؛ وكان من بين أغراض نظام البريد العباسي كسلفيه الأقدمين ، مباشرة الجاسوسية التي كانت تمارس على نطاق واسع في كل طبقات المجتمع . على أن ما بلغت هذه الجاسوسية من نمو متزايد جعلها من أهم أجهزة الحكم ، يعد نموذجاً لما ساد بغداد من طرائق الحكم الشرقي . فلم يكن للحكومة ثقة بأى موظف ، حتى أسرة الخليفة نفسها كانت موضع رقابة شديدة . وكانت الشرطة تؤلف جزءاً هاماً من إدارة المخابرات ، وتشمل واجباتهم التدخل في أدق تفاصيل الحياة اليومية ، وبما زاد في تقييد حرية الرعية ، ما زخرت به كل مدينة من عدد ضخم من الموظفين المحليين والقضاة وجباة الضرائب والقائمين على أملاك الخليفة .

وكان للتغير الذي أحل حكم العباسيين ذا الطابع العالمي ببغداد محل حكومة دمشق القوميسية ، نتيجة أخرى هي التعجيل بامتزاج الغالب

بالمغلوب . فمئذ تلك اللحظة ، صار الجميع يخضعون لحاكم واحد ، على أن الواقع أن عملية التسوية بين الجميع بدأت في عهد بني أمية . فطالما كان العربي — وهو القليل العدد والمحدود علماً — يحتفظ لنفسه بفضل امتلاك العقيدة الحقة ، ويعيش في عزلة شديدة كأنه من أهل إسبرطة ، ويتباعد عن القطيع العام من الناس بمعسكره المسلح ، ويحصل على عيشه من أعطيات الخليفة ، فإنه بفضل ذلك كله كان مستطيعاً الاحتفاظ بمركزه الأمين الممتاز . ولكن هذه الامتيازات لم تدم طويلاً . وكان من العوامل التي أفضت إلى ذلك ، أن الحذب على المصالح المادية وإغفال الاهتمام بالدين ، أدّى إلى تزايد عدد من اعتنقوا الإسلام من غير العرب ، فنقصت بذلك الجزية المجدبة من المؤمنين ، كما أنه حدث من ناحية أخرى ، حينما انتهت حروب الفتح ، أن لم يعد العرب يعيشون على الأعطيات التي يتقاضونها من الدولة ، وصاروا أصحاب أرض وفلاحين أو تجاراً صغاراً يخضعون للقوانين الاقتصادية والصفات الاجتماعية السائدة في البلاد التي يتصادف استقرارهم فيها . وكان لابد له من التعليم والقدرة الفكرية إن هو شاء الاحتفاظ بمكانته . ذلك أن الحضارة المعقدة التي استقرت ببلاد الإسلام أيام بيزنطة ظلت ماضية في سبيلها دون تغير كبير ، وظلت كدأبها في الماضي تحتاج إلى المحنكين في الشؤون الإدارية . وقد دعت الحاجة المسلمين حتى في أيام الفتح إلى استخدام المسيحيين في أعمال تتطلب الثقة وبخاصة في الشؤون المالية؛ كما أن تسامح بني أمية إزاء غير المسلمين ، أفسح لهذه المجتمعات مجال اليسار المادي على شريطة تسديد الضرائب المقررة ؛ وهي ضرائب لم تكن في جملتها أثقل بأية حال من تلك التي كانت تبنيها الحكومة البيزنطية . ومنح المسيحيون نصيباً كبيراً من الحكم الذاتي ، فزخرت البلاد بالكنائس والأديرة . ومما له دلالة ، أن هذا الزمان امتاز بما بذله النسطورة من نشاط تبشيري تغلغل في آسيا حتى بلغ الصين نفسها .

ومع ذلك ، فقد مررت أوقات كان للمعصب الديني فيها سلطان غالب على النفوس . ولم تجد نعمة الكبرياء العربية متنفساً تعبر فيه عن نفسها خيراً من المراسيم التي نهى عن النصراري امتلاك أرقاء مسلمين وتنكر عليهم أنواعاً متنوعة من الامتيازات القانونية ، بل حتى تصر على ارتدائهم زيّاً خاصاً . على أن الاتجاه الرسمي ظل في جلته ينزع إلى التسامح ، كما أن تناقص عدد المجتمعات المسيحية لا يرجع إلى الاضطهاد الديني بل إلى أسباب أخرى . فإن الطبقة المتعلمة من أبناء العقيدة كانت تكتشف أن بين الديانتين أساساً كثيرة مشتركة ، كما أن تطورات الفكر الإسلامي بكل من مصر والشام تشهد بتأثير الفكر المسيحي . وكما هو الشأن في أيامنا هذه بذلت محاولات للتوفيق بين الدين والعلم الحديث ، ولذا فإن الأساس الفلسفي للعالم القديم الذي يمثل خلفية تم التوفيق بينها وبين المسيحية إلى حد ما ، قد وجب آنذاك اللجوء إليه لشرح شعائر الإسلام وعقائده ، حتى يلقي الدين الجديد قبولا لدى المفكرين . على أن غير المفكرين كانوا في الحين نفسه يرون أن التوفيق الراجع الذي أصابته الجيوش العربية تتجلى فيه رعاية الله وحنينه ، فلم يسعهم إلا الإذعان للأمر الواقع . ونم عامل أخير كان له أثر عظيم في أخيلة الناس ، هو ما ذاع في الأفاق من سنا العظمة من العواصم الإسلامية الكبيرة ، التي كانت تتشكل بها حضارة زاهرة متأثرة بجميع العوامل حديثها وقديمها . فقد حدث في أسبانيا مثلاً ، أن لانيقية المؤرخين وعلماء الدين (اللاهوتيين) ذات الطابع المتبربر لم تستطع أن تصمد للقاء ما للشعر والأدب العربي من جمال فائق ؛ فإن كاتباً من أبناء القرن التاسع شكاهم الشكوى من أنه يوجد بين المسيحيين أنفسهم من يقدرون جمال اللسان العربي تقديراً يفوق كثيراً تقديرهم لكتاب الآباء الأولين .

التجارة

وكان اتساع التجارة العظيم التالى لقيام الإمبراطورية الإسلامية، من التطورات الرئيسية التى فرضت عليها تلك الوحدة السابق الإشارة إليها . فبالإضافة إلى أن صناعات مصر والشام وهما أغنى أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، واصلت كسابق عهدها إنتاج المصنوعات الزجاجية والمنسوجات وغيرها من السلع المصنوعة ، فإن العهد الجديد حقق للتجارة مزايا خاصة . ذلك أن العربى ما يكاد يستقر حتى يتجه بطبعه إلى الاشتغال بالتجارة . وكان رخاء مملكة الحيرة يقوم على أسواقها العظيمة ، وذلك هو الشأن فى رخاء اليمن القائمة فى الطرف الأقصى من الجزيرة العربية ، ومرجهه إلى البضائع الآسيوية التى كانت تمر بمينائها ، بينما كانت أسواق مكة وقوافلها تشكل الصناعة الرئيسية فيها . وكان النبي نفسه تاجراً ، والقرآن يجعل للتاجر منزلة كريمة . ولذا فإن أحوال الحياة الاجتماعية الإسلامية تفوق فى ملاءمتها للنشاط التجارى أحوال العالم اليونانى بما اشتهر به من احتقار لكل صاحب حرفة . ولا تنس أن التركيب الجغرافى للعالم العربى كان يوائم تلك الناية بصورة خاصة . فقد انتهى عند ذلك ما كان بين روما وفارس من عداوات أوقفت تدفق التجارة بين الشرق والغرب ، وبذا أصبحت تخضع لأمر واحد كتلة متماسكة من الأرض ، تمتد مترامية من المحيط الأطلسى إلى سهوب آسيا الوسطى . ولم يعد البحر الأحمر والخليج الفارسى خصمين متنافسين ، بل أصبحا طريقين متبادلين ، وبذا أصبح كل ما يصل إلى أوروبا من ذهب وحاج من وسط إفريقيا ، ومن توابل وعطور من الشرق الأقصى ، لا مندوحة له أن يمر على أيدي المسلمين . وما يجدر ملاحظته أن المدن الكبرى بالإمبراطورية إنما تقع عند التقاء طرق المواصلات الطويلة . فمدينة

دمشق التي تقع عند نقطة تقرب فيها القوافل القادمة من وسط آسيا من البحر المتوسط ، كانت تتلقى كذلك تجارة مصر والشام وما يرد من السلع عن طريق البحر الأحمر . أما القاهرة فكانت سوقاً للمنتجات الواردة من آسيا وإفريقيا ، كما أنها كانت مركزاً صناعياً ، وكانت تنتشر من مصر على ساحل البحر طائفة من المدن التجارية الزاهرة تؤدي إلى عواصم شمال إفريقيا وأسبانيا . وقد بنيت البصرة على نهر الفرات بعد فتح فارس بزمان وجيز ، وذلك بقصد السيطرة على الخليج الفارسي وتجارته الشرقية . ولكن سرعان ما طفت بغداد على أهميتها . وشقت بين دجلة والفرات قناة ربطت بين بغداد وبين الطرق البرية القادمة من آسيا الصغرى والشام ومصر ، على حين أن القوافل المقبلة من آسيا الوسطى كانت تهبط عند أبوابها قادمة من مرتفعات فارس وبخارى . بيد أن التجارة البحرية كانت أرحب مجالاً . وتروى قصص السندباد البحري التي تصور ذلك الرجل مقبلاً أوائل القرن التاسع في عهد الخليفة العباسي هرون الرشيد ما يشير إلى أن جميع رحلاته تبدأ من بغداد ، كما أن كثيراً من الأحداث والأماكن المذكورة فيها ، يمكن تحقيقها من مصادر أخرى . وتصف كتب الأسفار العربية التجارة في سيلان وميلبار ومدن السواحل الهندية . وتشير السجلات الصينية إلى ما كان بالصين من تجارة العرب في عهد أسرة تانج . بل إن منهم من بلغ كوريا . وفي الغرب ، أظهرت موانئ مصر وشمال إفريقية نشاطاً مشهوداً ، كما أن السفن المصرية والإفريقية كانت تربط مدن الساحل الجنوبي من البحر المتوسط حتى أسبانيا غرباً . على أن تجارتهم مع فرنسا وإيطاليا كانت ضئيلة لاتكاد تذكر ، إذ كان المسلمون يهبطون هذه الشواطئ قراصنة لاتجاراً . وظلت بيزنطة مركزاً للتجارة الأوربية ، ولم يلتق المسلمون والمسيحيون لتبادل السلع إلا في القرن العاشر ، حيث بدأ العرب يجوسون خلال أسواق بيزا وأما لنى تجاراً آمينين .

على أن تأثير التجارة الإسلامية كان محسوسا فيما وراء حدود الإمبراطورية الإسلامية بآمد شاسعة . ففي الشمال كانت طرايزون مركزا هاما للتجارة ، لا يؤمه التجار من أجل سوقها فحسب ، التي اجتذبت إليها التجار من كل أرجاء الشرق الأدنى ، بل لأنها أيضاً كانت نقطة الحدود التي تلتقي عندها تجارة الروم والعرب . وبهذه الوسيلة كانت المنسوجات والمصنوعات المعدنية وغيرها من المنتجات تتخذ طريقها إلى القسطنطينية ، ومن الممكن ترميم أثرها في الحضارة البيزنطية . وكان سيل من التجارة يتدفق في مجرى الفولجا وغيره من الأنهار ، ويصل إلى وسط روسيا واسكندريته عن طريق مملكة الخزر . وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية ، اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق ، ويدل مصدرها واتساع توزيعها على ضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الآسيوية وشمال أوروبا ، وهي تجارة بلغت ذروتها في السنوات الأولى من القرن التاسع .

ومما زاد في حجم التجارة ونشاطها داخل العالم الإسلامي ، رحلات الحج التي تدعو إليها العقيدة الإسلامية والتي كان الخلفاء يشجعونها . وعينت الدولة بتحسين المواصلات بما احتفرت من آبار وما شادت من فنادق القوافل (المسافر خانات) ، وأقيمت الأسواق الكبيرة بمرآ كز الحج . وكلما فقد الحكم العرب المثل العليا التي استنها لهم بيبهم ، والأخلاق البسيطة التي أورثها لهم أسلافهم ، نقلوا عن الإمبراطوريتين القديمتين اللتين حلوا محلها صاحب الترف والمظاهر ، فأحاطوا أنفسهم بأبدع المباني وأخر الرياض ، فازداد بذلك الطلب على المنتجات الدقيقة والسلع المستوردة .

الأدب الإسلامى

إن التطور الذى نالته حضارة الإسلام الروحية قد سار جنباً إلى جنب مع حضارته المادية . وكما أن الفاتحين العرب أدركوا أن من الضرورى لهم تكييف عاداتهم وفق النظم القديمة التى هى أعلى تطوراً وقد وجدوها عند الشعوب المتهورة ، فقد حدث أيضاً أن الفقهاء أدركوا - وقد واجهتهم فى الخارج فلسفات متضاربة متناحرة واصطكوا فى الداخل بنزعات متشعبة - أن عليهم أن يوضحوا القرآن ، بأن يقيموا على أساسه السهل صرحاً ضخماً من التعقيبات والشروح . ولما كان القرآن لديهم المصدر الأعلى للدين والشرعة والأخلاق ، صار من الضرورى لهم التوفيق بين آياته وعمل تصنيف لتلك الآيات ووضع ترتيب لها . والتماساً للقواعد والأحكام حاولوا باستخدام القياس والاستنباط أن يجعلوا أحاديث الرسول تنطبق على أحوال لم يكن يتوهمها . ومن ثم فإن الأصل فى شطر كبير من الإنتاج الأدبى الرائع الذى ظهر فى العهد العباسى ، إنما يرجع إلى دراسة القرآن . بل إن أول دراسة علمية للنحو العربى ، لم تتم فيما تقول الروايات ، إلا بقصد المحافظة على نص القرآن . ومهما يكن الأمر ، فإن تطور اللغة العربية كلفة أدبية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما أحسه أتباع العقيدة من حاجة إلى الشرح والتوضيح . واقترضت الرغبة فى تتبع تعاليم النبي ، لإجراء دراسة حول حياة النبي وتقاليد أسرته . فإذا اجتمع ذلك بدراسة حياة الأبطال الأوائل للإسلام ، تهياً للباعث لكتابة التاريخ ، التى جعلها المؤرخون المسلمون تنطوى على قدر كبير من التراجم والنوادر . وعلى هذا النحو ظهرت طائفة ضخمة من المصادر التى تعالج الفقه ، واستندت أساساً إلى القرآن ، باعتباره البينوع الأول والمرجع الأصيل .

أما من حيث علم أصول الدين ، فإن المفكرين المسلمين أخذوا يواجهون من المشاكل ، ما يماثل ماسبق أن كدر صفو الكنيسة فى مستهل أيامها .

وبتأثير مدارس الفلسفة اليونانية بدأ القوم يستخدمون الاستدلال المنطقي في موضوعات من أمثال وحدانية الله وصفاته ومسألة الجبر والاختيار . وفي أثناء النصف الأول من القرن التاسع بلغ التحدى للسنين الذين يلتزمون حرفية التقاليد الدروة في تلك المحاولة المنظمة التي بذلت للتوفيق بين العقل وسلطان الدين . وازارت الفلسفية الكلامية الرسمية بالظفر في تلك المعركة ، ومنذ تلك اللحظة لم يكن سبيل للهرب من جذب تلك الفلسفة الكلامية « المدرسانية » وجفافها إلا باللجوء إلى طريق التصوف . وانهجت الفلسفة المحضة ذلك الطريق نفسه . وبذل ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧) محاولة قاطعة للتوفيق بين مذاهب أرسطو وبين الفكر الإسلامى ، وواصلت القيام بعمله مدرسة المفكرين الأندلسيين الضخمة التي كان لها أثر بالغ القوة على أوروبا في القرون الوسطى . فإن العقيدة الإسلامية السنية احتفظت بمكانتها في الشرق ولا سيما في فارس ، وعلى الرغم من أنز الغيبيات (الميتافيزيقى) وعلم النفس اليونانى في الشرق ، فإن العنصر التصوفى سيطر على الفكر الفلسفى الذى تطور بتلك المنطقة . وكان للترجمة من اليونانية كذلك الفضل فى كثرة مآظفر من مؤلفات فى الطب ، وازدهرت مدرسة كبيرة من الأطباء فى عهد الدولة العباسية . وكان احتذاء حذو اليونان دافعا للمسلمين على إنشاء دوائر المعارف ، كما أن ترجمة نظريات اليونان والهنود فى الفلك والرياضة أدت إلى وصول علماء الإسلام بعد ذلك بزمن غير بعيد إلى مكتشفات تنصف بالأصالة . وفى تلك الأثناء ازدهر الأدب فى البلاط العباسى — على أنه والحق يقال أدب « تهرى » لا أدب تعبير ، ولكنه يتميز بما يترقرف فيه من فنة ساحرة وأستاذية فنية باهرة . وازدهر النثر فتشكل أخيلة رائعة ومفائن دقيقة خلابة ، على حين كان الشعر يتراوح بين الغزل الرفيع والحرثيات المرححة وبين ماغلب على شعراء الزهد والتصوف من التأمل السوداوى .

الفن الإسلامى

أما الفن الإسلامى فإنه هو أيضاً يقوم بتمثيل الأوضاع المحيطة به ، إذ يستطيع المتأمل أن يشهد فى تطوراتهِ بوضوح لا بأس به ، المؤثرات الكبيرة التى تكاثفت لإنتاج حضارة عظيمة . فهو خلاصة لتاريخ الإسلام فى كل نواحيه . على أنه نظراً لسرعة ازدهاره يعطينا لأول نظرة نلقها عليه مظهر أسلوب جديد أصيل انتشر منذ القرن التاسع إلى القرن السابع عشر حتى شمل أصقاعاً مترامية : تمتد بين آسيا وشمال إفريقيا ومصر والشرق الأدنى وپارس والتركستان وشمال الهند ، بما حفلت به من المدن الضخمة والمساجد الفخمة والقصور المتألقة ، وجميعها تنسم بالتجانس فى البناء والحلية ، على الرغم من بعض التنوع الراجع إلى المؤثرات المحلية . على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أن هذا المهر خداع . فلا بد للمرء من الرجوع إلى المصدر الأصلى لسكى يتبين أن الطراز إن هو إلا خليط صيغ من العناصر القديمة ، هو عملية انتقاء ولدها الظروف الخاصة التى هيات لجنس فاتح أن يستثمر مختلف الطرائق والتقاليد الفنية عند مجموعة من أقوى الأجناس روحاً فنية . فإذا تجاوزنا عن ثروة الأقاليم المفتوحة ورغدها ، والأموال الطائلة التى سخرتها سلطات الخلفاء المطلقة للإنفاق على أغراضهم الشخصية ، فإن التطورات الاجتماعية والسياسية للإمبراطورية شجعت على نمو الفن الإسلامى وازدهاره . وتمخض قيام عدد من الإمارات المستقلة عن ظهور مجموعة من العواصم المتألقة ، حرصت كل منها جاهدة على منافسة بغداد فى فخامتها ، على حين أن تغير الأسرات الحاكمة وقيام ثورات بالقصور طالما أفضى إلى قيام عواصم إمبراطورية جديدة . ويتجلى ما طبع عليه الحكماء من خلق شرقى فى كراهيتهم للبنى القديمة الموروثة عن السلف ، وتباطئهم فى إصلاح القديم ، حيث كان التبرم يدفعهم على الدوام

إلى اختيار أما كن جديدة لتزويج . وكان ما اشتهر به المسلمون من ميل إلى القيام بالأعمال الخيرية والمنافع العامة، هو السبب في إقبالهم على تشييد المدارس والعيون والحمامات (والبيمارستانات) المستشفيات وفنادق القوافل ، فضلا عن المؤسسات الدينية البحتة كالمدارس والمساجد والرباطات (التكايا) .

ومنذ البداية ، اقترن اتساع رقعة الإسلام بنشاط عظيم في العمارة . فبعد وفاة النبي بخمسة أعوام شيدت البصرة على الفرات الأدنى وأقيمت الكوفة جنوبى مدينة بابل ، لتكونا مركزين للنفوذ الإسلامى بأرض الجزيرة . ومن النتائج الأولى التى ترتبت على فتح مصر بناء مسجد عمرو الذى سعى باسم القائد المظفر العظيم ، على حين أن ما يسمى « بمسجد عمر » في بيت المقدس ومسجد سيدى عقبة بالقيروان يجمعهما أصل واحد متشابه . أما مسجد دمشق الكبير فقد جددت عمارته ليزيد في أبهة بنى أمية وعظمتهم ، وفوق هذا فإن تركيز الحكم بتلك المدينة صحبه إزدهار الفنون جميعاً . وانبثقت فترة عظيمة العباسيين عمائر بغداد وأمجادها الرائعة ، فشيدت فيها القصور الفاخرة أثناء القرنين الثامن والتاسع ، ولكن غارات التتار حمت معظمها من الوجود . والواقع أن كل العصور التى ازدهر فيها الفن الإسلامى ترتبط على هذا النحو بالأحداث السياسية . إذ إن تألق سلطان بنى مرين بفاس وازدهار نفوذ الفاطميين بالقاهرة ، يتجليان فيما زينت به عاصمتهما من موقى المباني ؛ كما أن ما حدث فيما بعد من سيطرة الأتراك والسلاجقة في أرمينية ، وتيمور في سمرقند أو المغولى الأعظم في جنوبى الهند ، إنما يسجلها جميعاً تلك العمائر التى خلفوها وراءهم والتى تعتبر دليلاً جلياً على وحدة الفن الإسلامى وقوة حيويته في مراحل اكتماله ونضجه ، وما له من تأثير على الغزاة الآسيويين غير المتحضرين . ثم إن تأسيس الدولة الأموية بأسبانيا كان مؤذناً بعصر لا نظير له في الفخامة والازدهار ، بلغ التدور في أوائل القرن العاشر . فازدهمت جامعة

قرطبة بالطلاب الوافدين من كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، على حين أن المدينة نفسها أثارت إعجاب زوارها القادمين إليها من ألمانيا وفرنسا . وغصت صفتناهر الوادى الكبير بالدور المترفة ، وينهض قصر الزهراء دليلاً واضحاً على ميول الأمير الحاكم ، وهو مدينة من مدن الخيال حافلة بغريب المباحج . ولم يبق من عمائر تلك المدة إلا النذر اليسير ، مع أنها عمارة لعلها كانت تنافس بمجاورة ما بلغه القصر (الكازار) والحراء من روعة وفخامة ، إن لم تبرزها ، وهما المبنيان اللذان زين بهما أمراء المغرب مدينتى أشبيلية وغرناطة بعد ذلك بأربعة قرون .

عنصر الانتقاء فى الفن الإسلامى

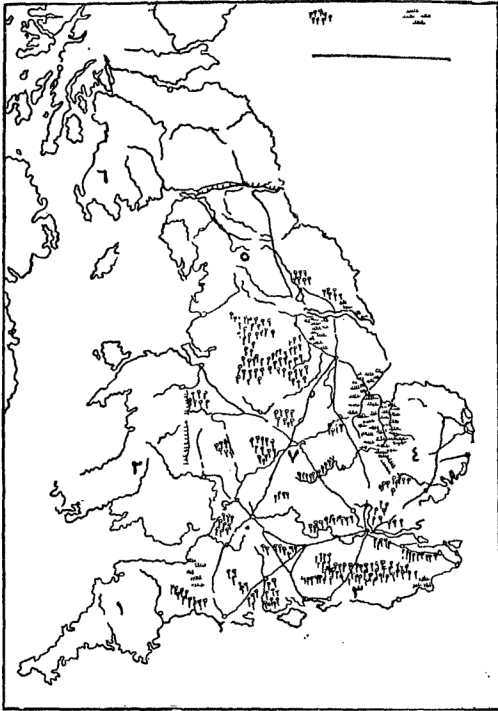
وكما أن قيام الأسرات المالكة وسقوطها يحدد الأزمنة التى ازدهر فيها فن العمارة الإسلامى ، فكذلك الشأن فى الأحوال الاجتماعية للإمبراطورية التى أسلفنا إليك خلاصة لها ، فإنها تتجلى فى تطور ذلك الفن من الداخل . ذلك أن حظ العرب فى الجاهلية من فن العمارة كان ضئيلاً ، ومن ثم لم يكن محيىص من أن تنهج العمارة الإسلامية فى العصر الأول على نهج تقاليد البلاد المقهورة . فاستولى الفاتحون فى مصر والشام على الكنائس (الباسيليكات) المسيحية وحولوها إلى مساجد بعد إدخال تغييرات طفيفة عليها ، بل الواقع أنهم حتى عندما كانوا يبنون مباني جديدة ، عمدوا إلى الكنائس القديمة المخربة فسلبوها أعدتها وتيجانها . وقد أكثر العرب من استخدام الفسيفساء البيزنطية والأخشاب القبطية المحفورة فى تزيين مساجدهم ، ولا يكاد يكون لديهم ظاهرة من البناء أو الزخرفة لا يمكن إرجاعها إلى ما سبقها من تقاليد أو آثار . ومن الأمثلة الشائعة للتأثيرات الإقليمية المآذن بأشكالها المختلفة . فى بلاد العراق كانت المتذنة ذات المنحدر شبه الحزونى بما يعلوها من قمة

صغيرة تبني على نسق زيجورات^(١) بابل القديمة ؛ أما مآذن دمشق ذات الجوانب الأربعة ، والتي ترتفع في شكل منشور ، فإنها تذكرنا بما كان معروفا في الأزمنة الوثنية والمسيحية من آثار جنائزية ، وهذا الطراز نصافده أيضاً في أسبانيا والمغرب . وقد حمله إلى تلك الأصقاع النائية ، النفوذ الديني والسياسي لعاصمة الأمويين . ولعل المآذن المصرية ترجع في أصلها إلى فئار (Pharos) الإسكندرية الشهير ، بما فيه من طبقات متداخلة من المناشير ومن مصباح يتوج هامته ؛ ثم إن فارس بتقاليدھا القائمة على الشكل الرشيق المتوازن تبنت في مآذنها هيئة الأبراج المرتفعة المستديرة . على حين أن الهند أرض الوفرة ، استخدمت التصبينات الفاخرة في عمارة مآذنها . ثم إن المدرسة العثمانية التي لعلها قد راعتها أعمدة النصر القائمة بالقسطنطينية ، قد رفعت مآذنها كالشموع السامقة المنتهية بالمخاريط المدببة الحادة والمحوطة بالشرفات على ارتفاعات مختلفة ، التي تشرف حتى اليوم على مدينة إستانبول .

ومن هنا يتبين أن الفن الاسلامي ليس ابتكاراً فجائياً لطراز جديد ، بل يرجع أصله شأن سائر مظاهر الحضارة الإسلامية إلى ما كان لمذنيات العصور القديمة من مظاهر عريقة في نضجها . والشيء الجديد هنا هو امتزاج هذه العناصر المستعارة وانصهارها معاً . إنها عناصر أذابتها طاقات العرب وفتوحهم ، فانصهرت معاً وخرجت في النهاية مادة جديدة . وكانت جماعات من المماريين والبنائمين وجيوش من الفعلة والأرقاء ، تنتقل من قطر إلى آخر ، فتحمل معها أساليبها الفنية المتنوعة إلى بيئة أخرى . وطبقت على الحجر طريقة حفر الخشب ؛ على حين أن ما اشتهرت به فارس من المنسوجات الجميلة قد نفذ طرازه في الآجر والرخام ، أما مؤثرات الحفر البارز والغائر والتصميم ، فحلت محلها

(١) الزيجورات (Ziggurat) كلمة آشورية معناها قمة الجبل أو البرج . وهي في العمادة تدل على برج هرمي الشكل تقريبا [المترجم]

المواد والألوان المتضادة . وهناك فوق كل ذلك عامل آخر ، هو الروح الداخلى للإسلام ، الذى له أثره فى توحيد هذه العناصر المرنة . فإن للشعائر الإسلامية مقتضيات لا مفر من مراعاتها : فالقبلة (المحراب) التى تتجه نحو مكة التى يولى إليها المسلمون وجوههم فى صلواتهم تلقى من المعالجة المعمارية ما يتفق مع أهميتها . أما محن المسجد والبئر فيفرضان صفة خاصة على بنائه . وينسب إلى النهى (ص) حديث ينهى عن تمثيل أشكال الناس والحيوان ، ولهذا الحديث أثر جذرى فى الزخرفة الإسلامية ، غير أن بنى أمية بالشام ، وأمراء فارس تجاهلوا ذلك الحظر ، لأنهم حرصوا على الإبقاء على ما كان بأقائهم من قبل من فنون التصوير والتشكيل . أما سائر البلاد الإسلامية فإنها لا تستخدم الزخرفة الشكلية ، ومن ثم فقد اتخذ القوم من نبات السنت (Acanthus) ومن خيوط عساليج الكرم ومن موضوعات أخرى فى الفن الكلاسيكى والأسبوى «وسطاً» لفنهم تطور فأصبح ما يعرف باسم فن الزخرفة العربى (Arabesque) . وذلك الفن هو الإطار الذى يشكر فيه رسم الأزهار والفاكهة ، التى تصحب عادة الأفاريز المؤلفة من كتابات عربية جميلة . ثم تمضى عملية التجريد شوطاً أبعد . إذ أدخل على الأشكال الطبيعية من التعديل والتغيير ما جعلها تختلف عن شكلها الأصل . ومن ثم أصبح الاتزان والسمتية (التناسق) مظهرين رئيسيين فى التصميمات الفاخرة عند المتأخرين من الفنانين المسلمين . ثم صارت النماذج الهندسية المتشابكة ذات الخطوط المستقيمة أو المنحنية ، وهى تمد فى إطار تنوعها رموزاً للوحدة ، — صارت تلك النماذج تشبع ما العربى من زعة إلى التصوف ، كما تعرض علينا — على حد تعبير بعضهم — « حقيقة قوامها منطق خفى وتماسك رياضى تجلوها فى زى خيال وميل » .



(١٢) خريطة إنجلترا في عهد الأنجلو سكسون

- | | | |
|------------------|---------------|--------------|
| ١ - ويلز الغربية | ٢ - ويلز | ٣ - السكسون |
| ٤ - أنجل الشرق | ٥ - نورثمبريا | ٦ - البكتيون |
| ٧ - آنجل الوسط | | |

القسم الرابع
عشر حقائق

الفصل الحادى عشر الأوضاع الأوربية

١ - الغزوات الأنجلو سكسونية

إن المدونات التاريخية والسجلات المكتوبة عن تاريخ الجزر البريطانية بين ٤٠٠ و ٥٠٠ للميلاد تكاد تكون معدومة تماماً . فهى حقبة تغشاها الظلمات ، كما تنسدل عليها غمامات أساطير الملك آرثر. على أن ماتم فى السنوات الأخيرة من دراسة إقليمية لأسماء الأماكن، ومن التنقيب عن المساكن والجبانات وعن خطوط الحدود واستحكامات الدفاع الترابية ، والمسح الجوى للأرض وما بذل من جهود لإقامة موازين يعتمد عليها لتحديد تواريخ الفخار والعملة والمصنوعات المعدنية ، قد جمع بين أيدينا من المواد ما يصلح لإعادة تكوين صورة للطريق الذى سلكته طوائف المغيرين المختلفة ، وعن طبيعة استيطانهم ومصير السكان الرومان البريطانيين. وربما أمكن فى النهاية تركيب هذه النتائج على حال يؤلف صورة لهذه القرون المعتمة . على أنه يمكن فى الحين نفسه ملاحظة بعض العوامل الهامة .

وقد تعرض ساحل إنجلترا لتغيرات كبيرة منذ أيام العصور الوسطى^(١) . فإن الساحل الشرقى والجنوبى الممتد من مصب نهر فيرت إلى جزيرة ويت ، تناثرت عليه عند ذلك على التعاقب مرتفعات صخرية وعرة ومستنقعات متخلفة عن المد . وكان الدفاع عن الشواطئ الصخرية سهلاً ميسوراً ، فلم يكن فيها ما يحتاج إلى حراسة إلا ما يتخلل تلك الصخور من ثغرات تجرى فيها

(١) انظر الخرائط الساحلية لبريطانيا الرومانية

مصبات الأنهار ، وأكبر شاهد على ذلك بقايا محطات الإرشاد والقلاع الساحلية التي ترجع إلى العصر الروماني المتأخر ، وكلها توضح تلك الحقيقة . على أن مناطق المستنقعات الضحلة كانت مفتوحة لزوارق المغيرين . وكان مصب نهر همبر وهو الذي يمتد طويلاً إلى الداخل يكون منطقة طينية مشبعة بالماء ، كما أن الظروف نفسها كانت تتكرر على معيار أكبر حول منطقة الواش (The wash) حيث امتدت منطقة البطائح حتى وصلت إلى ستامفورد وكبريدج . « وكان المغير الناهب ... يجد القنوات الرائدة خير معين له على حمل زورقه إلى جوف البلاد ، وكان مستطعاً أن يتخذ لنفسه على كثير من الجزائر القائمة بالمستنقعات مخيمات يستجم فيها من متاعب القتال ويجمع فيها غنائمه دون أن يكدر عليه أحد صفوه ^(١) » .

جغرافية بريطانيا

أما في داخل البلاد فإن لطبيعة الأرض صورة أشد استرخاء للنظر . فإن صرف مياه المستنقعات وإزالة الغابات قد غيرت وجه مناطقها الريفية ، وذلك أن شطراً كبيراً من إنجلترا كانت تغطيه في عصر الرومان والسكسون غابات كثيفة ، على حين أن الوديان غالباً ما كانت مستنقعات لا سبيل إلى اجتيازها . ومن هنا تحسنت طبيعة الأرض وجغرافية البلاد إلى حد كبير في تاريخ المستوطنات الأولى وتكوين ممالك السكسون وكان مصب الهمبر الذي تنصل به المستنقعات من الجانبيين تحف به من الغرب غابة إلمت (Eimet) ، التي كانت تمتد إلى منحدرات تلال بينين (Pennine) ؛ ومن ثم فإن المصب والمستنقعات والغابة كانت تؤلف على هذا الوجه حاجزاً يحول دون الاتصال بين الميدلاند (وسط إنجلترا) والشمال . وكانت منطقة فن (Fen) تفصل بين إنجلترا الشرقية وبين المنطقة

(١) انظر ١٠٠ . ولجسون في : « The Evolution of England » (أكفورد

(١٩٣١) ص ٢٠ - ع ٠

الوسطى ، وذلك مثلما كان نطاق الغابات الكبير الذى يمتد جنوباً بغرب من الفنز (Fens) إلى إمينج ، يعزل إيسكس (Essex) ويحول دون التوغل غرباً . وكانت غابة أندردسويلد (Andredsweald) هى أضخم هذه الغابات وتغطى شقة عريضة من الأرض تمتد فى الواقع بين ونشستر وهاستنجس ، غير تاركة سوى شقة من الأرض لا يتجاوز عرضها بضعة أميال تمتد فيها تلال الساوث داونز (South Downs) محاذية للبحر . ويقول وليسون إنه : « فى عهد متأخر هو القرن الثامن عشر نفسه ، يوم تم قطع معظم غابات منطقة ويلد ، كان من العسير بلوغ ساحل ساسكس من لندن فى أثناء الشطر الأكبر من السنة^(١) » . وفى أقصى الغرب ، كان نطاق الغابات الذى تلتقى منه إلى اليوم غابة كارنبورن تشيس (Carnborne Chase) - يسد الطريق إلى وست دورست وساوث ثومرست فى وجه المغيرين الزاحفين شمالاً من ساوثهامبتون ووتر (Southampton Water) . فإذا لم يصب عن إلنا انتشار المستنقعات والغابات على هذا النحو المذكور ، يتجلى لنا أهمية السدود الترابية مثل بوكركلى دايك (Bokerly Dyke) ، التى كانت تحمى المستوطنات الرومانية البريطانية بمنطقة كارنبورن تشيس . ومع أنه لم يبق من السور المقام بداخل الريف سوى بضعة أميال ، فإنه كان فى تلك الأزمنة يحرس المدخل المؤدى إلى منطقة تحميها من الجهات الأخرى موانع طبيعية .

والحق أن مصائر مختلف الممالك يفسرها موقعها ويحددها إلى حد كبير . فإن ممالك ساسكس وكنت وباسكس وإيست آنجليا حرمت الأهمية السياسية ، وذلك بسبب توقف اتساع رقعتها ، بينما استطاعت نورثميريا ومرسيا وويسكس بسط رقعتها على حساب البريطانيين الرومان ، فكسبت بذلك اتساعاً فى رقعتها فضلاً عن زيادة فى تنوع ثقافتها وسكانها ، وبذا برزت كل منهن على

(١) ج . ١٠ . وليسون بالموضع السابق .

النمات بوصفها أقوى وحدة بإنجلترا في أثناء القرن السابع والثامن والتاسع ولكن ويسكس كانت الدولة الوحيدة التي أحرزت تفوقاً سياسياً حقاً ، على أن سيادتها تتجاوز بنا مجال هذا الكتاب . أما نورثمبريا فإن الخلافات بين برنيكيا وديرا مرققتها من الداخل ، على الرغم من أنها كانت تضم وهي في أوج عظمتها شرق اسكتلندة جنوبي نهر فورث وشمال إنجلترا حتى نهر ريبيل ونهر يوركشير أوز ، كما أنه حدث أكثر من مرة أن زعماء مرسيا الوثنيين تحدوا ملوكها المسيحيين . ومما عجل باضمحلالها الذي بدأ بقوة في أثناء القرن الثامن ، غارات النهب المخربة التي قام بها السكندناويون القدماء المسمون أهل الشمال (Northmen) . وكانت مرسيا منذ البداية دولة مختلطة ، فكانت خليطاً من عصابات الحرب والمغامرين الذين ينتمون إلى أصول مختلفة ، كما أنها شغلت المناطق المترامية بالميدلاند الغربية التي كانت مدار نزاع دائم ، والتي لاشك أنها كانت في أثناء السنوات الأولى من الغزوات مسرحاً لامتزاج الكلث والسكسون ومشهداً للتوفيق بين حضارتيهما . وإذا سيطر عليها من تامويرث ، مركز إنجلترا الجغرافي الواقع على والتنج ستريت ، زعماء أكفاء قساة أشداء ، فإنها بشرت في لحظة من اللحظات بقيام تقسيم ثلاثي لإنجلترا يمتد إلى عصور مستقبلية ، وتكون فيه تامويرث فيما يحتمل فضلاً عن لتشفيلد ، عاصمة للميدلاند ومستقراً لكرسى الأسقفية بها . وقد انبسط سلطانها في بعض الفترات على سكان منطقة بيك في الشمال وعلى سكان تشيشير وجنوب لانكشير وعلى ورسترشير هويكاس في الجنوب ، على حين أن الحدود الطويلة التي كانت تفصل بين سكان ركن (Wre kin) وبين ممالك ويلز كان يكملها سد أوطا ، وهذا السد من صنع أوطا أشهر ملوك مرسيا ، وهو الذي تبادل الرسائل مع شرلمان ، كما أنه أهم شخصية بإنجلترا عند نهاية القرن الثامن .

على أن زوال حكم الرومان من إنجلترا ، لا يزال حتى اليوم من أعوص الأسرار التاريخية . وربما جاز لنا أن نذهب إلى أنه متى اجتمعت لنا معلومات أوفى ، فإن ذلك قد يقلل من أهمية التواريخ الفعلية لزوال الحكم الرومانى بهذه الجزيرة سواء حدث ذلك فى ٤٠٧ أو ٤٤٠ م . والراجع أن إعادة استيليكو تنظيم التحصينات الساحلية حوالى نهاية القرن الرابع هى آخر محاولة جديّة قامت بها الإمبراطورية للاحتفاظ بولايتها النائية . وتدل الأحوال الماثلة التى سادت بلاد الغالة ، أن الانتقال إلى حكم البرابرة لم يكن حادثة مفردة بل عملية تدريجية تمت رويداً رويداً . ذلك أن ما أصاب الحكومة المركزية من الضعف البطيء أفضى إلى ذبوع الارتباك والفوضى الداخلية بإنجلترا ، وهو وضع دعا أصحاب الأملاك والموظفين المحليين إلى تسليح أتباعهم دفاعاً عن النفس ، كما دعا الأهلى إلى هجران الريف المكشوف والالتجاء إلى المدن المسورة ، ومن المعروف أن هجمات البرابرة الأولى كان يعقبها فى العادة فترة هدوء نسبي يتسرب فيها البرابرة فى هدوء يختلف شدة وضعفاً بحسب الأحوال . وهناك من الدلائل ما يشير إلى حدوث هذه الأحوال فى بريطانيا . فنجد عام ٢٥٠ للميلاد تعرضت السواحل لغارات النهب من الشرق والغرب ، من قراصنة من السكسون والإرلنديين ، ولم تكن غارات الجرمان فى القرن الخامس إلا القمة التى بلغت تلك الغارات ، التى كان يعقبها فيما بعد هجرات العائلات إلى البلاد . ومن جهة أخرى لا تعوزنا الشواهد على تداعى الحضارة الرومانية بتلك الجزيرة إلى حد ما ، منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث الميلادى . وآية ذلك تدهور فن البناء وتقنياته . وقد حدث حتى فى الأراضى المنخفضة نفسها ، وهى من المناطق التى اكتملت بها الصبغة الرومانية ، أن اشتداد الشعور بالافتقار إلى الأمن والطمأنينة ، يدل عليه تحصين المدن ، على حين أن ما قام على الساحل السكونى من قلاع مرتفعة مشيدة من الحجارة ،

يغلب عليها طابع العصور الوسطى ، يؤكد الأخطار التي تعرض لها سكان المناطق الساحلية على الدوام . على أن الضربة القاصمة التي وجهت إلى كيان الحياة البريطانية في العصر الروماني ، هي الغارة الضخمة التي حدثت في ٣٦٧ . ففي تلك السنة اجتاحت البلاد قوة مؤلفة من البيكيثيين والسكسون والإرلنديين ، فدمرت دور الضياع ، وألحقت بنظام الزراعة في إنجلترا من الضرر والأذى ما لا سبيل إلى إصلاحه . ويشهد بخط سيرهم سلسلة متصلة الحلقات من الدور الريفية المحروقة . وأكبر دليل على النتائج الثابتة المترتبة على تلك الغارة أن ما اكتشف من كنوز المال في المواضع الرومانية المنعزلة ، انخفضت قيمتها بعد هذا العهد . ولاشك أن القرن التالي ظل يشهد الاضمحلال يسبب في حضارة الجزيرة متواصلا ، وإن كان ذلك بصورة متقطعة ، فقد هجرت الدور الريفية ، على الرغم من أن معظم المدن المحصنة استمرت فيها الحياة بصورة ما حتى صميم القرن الخامس . وفي المناطق الريفية عادت المتاريس الترابية والخيمجيات المنصوبة فوق أعالي التلال (التي ترجع إلى عهد ما قبل الرومان) فالتحذت للمرة الثانية ملتبجا للسكان . وتمخض ضغط الغارات الخارجية والنضال الداخلي ، عن ظهور الزعماء المحليين كما هو الشأن في جهات أخرى من الإمبراطورية ، وعندئذ يتعرض زحف المغيرين البرابرة في الجهات المتفرقة لنكسة مؤقتة .

على أنه لا يصح هنا القياس بما يسود القارة الأوروبية من أحوال . ذلك أن الأنجلوسكسون كانوا شعباً يختلف اختلافا ملحوظاً عن القبائل الجرمانية ، الذين تعرضت أفكارهم بل حتى لغتهم لتأثيرات بالغة نتيجة لاصالهم بروما طوال أربعة قرون على امتداد خطى حدود الراين والدانوب . هذا إلى أن بريطانيا التي خربها المغير وسلبها كل نظام ، ما كانت تستطيع أن تقدم للوافدين إليها تلك الآثار الرائعة ، التي تعتبر قواماً صلباً للحياة المتمدية ،

والتي يصادفونها في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا . هذا إلى أن زعماء السكسون كانوا يفتخرون إلى ذلك الإحساس بالإعجاب الذي استشعره زعيم مثل أالريك أو ثيودوريك نحو النظم الرومانية ، وإلى براعة كلوفيس في التلازم معها ، وإلى إخلاد الدوقات اللومباردين إلى حياة المدن . وتشير شذرات من الشواهد المنتثرة إشارات تغشاها الريب إلى ردود أفعالهم إزاء الأقواس الخربة والأعمدة المتبقية عن المباني الرومانية . إذ أثارت فيهم إحساساً بالغوف والنفور المقترن بالقلق ، فخل إليهم أنها يمكن بها أشباح من الموتى بل قوي أشد خفاء حتى من الأشباح ، مما يستشعره الإنسان في القاعات الحجرية والقبور التي ترجع إلى العصور الخالية : وفضلاً عن ذلك فإن ما أكله السكسون من مستقرات كان يتجنب في العادة المواضيع الرومانية . وكأني بالشعور العام في مجمله ليس إلا شعور نزلاء هبطوا إقليماً مهجوراً مجرد من معظم سكانه ، وهو أمر تشهد به الأدلة الوفيرة بمقاطععات إنجلترا الشرقية والجنوبية ، التي يظهر أن ما كان لدى السكلت فيها من أسماء أما كن وديانة وعرف قد توارت من الوجود إلى حد كبير عند نهاية القرن السادس . أجل إن جيوبا ويزية محصورة بين أملاك السكسون كانت توجد في هذه المنطقة ، حيث تعيش بين الغابات أو وسط المستنقعات ، إما لأن الفاتحين أبقوا أهلها ، وإما لأنهم لم يستكشفوها ، كما أنه حدث في روسيا ونورنبريا وويسكر ، أن السكان السابقين قد توصلوا على التدرج إلى الاتفاق مع الغيبرين المنتشرين غرباً ، على الرغم من أن دية البريطانى تقل عن دية السكسونى الذى ينتمى إلى أدنى فئة من الأحرار ، شأنه في ذلك شأن الغاليين الرومان في ظل حكم الفرنجة . وهناك سبب آخر يدعونا إلى الظن أن مهارة الصانع البريطانى بمقاطعة كنت وغيرها من المقاطعات لم تغلت من يده نهائياً في أثناء فوضى الغزو ومحتته وبعدها .

ميلاد العصور الوسطى

حضارة نور شميريا

وتبدو أمامنا على أرض القارة الأوروبية صورة مماثلة عندما نتأمل التطورات التالية التي ألمت بالملك الأنجلوسكسونية ، ذلك أن ممارسة طرق الرومان في الإدارة أسهمت في نمو الروح الاستبدادية عند زعماء القبائل الجرمانية النازلة بداخل الإمبراطورية^(١) ، وشجعت على تطوير تدوين القوانين . وكانت الكنيسة هي التي تقوم بهذه الجزيرة (يعنى بريطانيا) بوظيفة روما وعلمها ، وكان لها أثر في تشكيل النظم الأنجلوسكسونية أقوى من أى أثر آخر . مثال ذلك أن قانون كنت لم يظهر إلا عقب قدوم أوغسطين ، كما أن سلطة كل ملك سكسوني ناجح كانت تدعها مشورة رجال الكنيسة لديه وتعاونهم معه ، وقد أدركوا أن قيام حكومة مركزية قوية ضرورى لمصالح الكنيسة . ودام الاتصال بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم بينها وبين المجرى الرئيسى للحضارة ، بفضل رجال الدين إلى حد كبير ، حيث لم تكن للتجارة والدبلوماسية في تلك الأيام إلا أهمية ضئيلة ، على حين أن الأديرة الكبيرة التي وهبها الملوك الأتقياء الأراضي والضيايع ، قامت بدور كبير في نمو العوامل الإقطاعية التي تتمثل في ازدياد الاختصاصات المحلية والإعفاء من الأعباء العامة .

ولاشك أن أهم مظهر لفتح بريطانيا على أيدي الإنجليز السكسونيين من وجهة النظر الأوروبية ، ما بلغت نورمبيريا فجأة من التفوق الأكيد في حضارة العالم الغربى على الرغم من أنه كان تفوقا قصير الأمد . ومن المعروف أن بريطانيا زمن الرومان ظلت دائماً تعد معقلاً أمامياً للإمبراطورية ، وتعتبر إقليماً متخلفاً متأخراً في حضارته بالقياس إلى حالة أسبانيا وإفريقية . ثم تنقطع

(١) انظر ما سبق ص ٧٧ .

صلتها بإخمارة الدولة ومركزها منذ (٤٠٠) ، ثم تدوى الجزيرة شيئاً فشيئاً من دائرة وعى روما وبيزنطة . على أن بهمة أوغسطين التبشيرية إلى الجزيرة البريطانية أعادت اتصالها بالقارة ، كما أن عودة الاتحاد بين الدراسات والعلوم الكلتية وبين ما للعلوم في الغرب من تقاليد أصيلة أورثت نورثمبريا نهضتها في الفنون والآداب . إذ لم يحدث قبل ذلك ولا بعده أن تبوأ الإنجليز مثل هذه المسكنة في المدنية الأوروبية . وبلغ الأمر بتقدمها أن روما نفسها اضطرت أن ترسل في طلب المخطوطات من المملكة الشمالية ، وهناك يبرز بيده (Bede) أكبر علماء الغرب دون منازع لتفوقه في كل فروع العلم ، كما أنه من حيث القوة الفكرية الملمعة يسمو محلثاً فوق العصر الذى عاش فيه ، على أن ما أصاب نورثمبريا من الانحلال ، وما قابل ذلك من ازدياد قوة مرسيا ، قوض الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها هذه الثقافة المتألقة ، ثم لم يلبث كل ما تبقى منها أن زال في أثناء غارات الويكنج ، يوم نهبت الأديرة الكبرى وأضرمت فيها النيران ؛ ولكن الكوين ورفاقه حملوا من قبل مشعل المأها إلى آخن وتور ، حيث صارت أساساً للنهضة الكارولنجية . ثم سدّد جانب من هذا الدين حوالى نهاية القرن التاسع ، بعد أن زال الإرهاب المانيمركى ، حينما أسهمت مثرات من القارة في زيادة ثروة مدرسة ونشستر العظيمة للتصوير والرسم في عاصمة مملكة ويسكس الزاهرة . كما أن النماذج الممارية في بلاد الراين استوحاها فيما يبدو فن المارة السكسونى المتأخر ، على الرغم من أن تقاليد الجزيرة البريطانية المتصلة الحلقات ، تستطيع تعهدى كل موازنة بينها وبين مختلف أنواع الفن الرومانسكى . وقد زال من الوجود كل أثر لسكاندريات درهام ونشستر الفخمة ؛ وكل ما تبقى لنا من روائع العصر الإنجليزى السكسونى المتأخر ، ما نستشفه عن قلة ضئيلة من السكنائس القروية استخرجت دلالاتها من شواهد هزيلة حوتها تلك الوثائق . على أن تلك البقية

والدلالات كافية لإثارة بعض الأسف في أنفسنا على زوال كل أثر للطرائق الوطنية تلقاء عمائر البناء الفخمة التي خلفها النورمان والتي كثيراً ما تكون جامدة الخط . وذلك كله متى وازناها بما بقي عن السكسون من نهائات ، وبالفنون الصغرى التي كانت تمارس بإيجلثة في تلك الأزمان .

٢ — الممد العسقلي

كانت حركة انتشار الصقالبة آخر حركة عنصرية بأوروبا ، بلغت ذروتها قبل نهاية المصور المظلمة . وهي عملية لاقتل في خطورتها بالنسبة لمستقبل السلالات البشرية بالقارة الأوروبية عن كل ماسبق وصفه من العمليات ، بما كان لها يوم بلغت أقصى مداها من تأثير على كل الأراضي الواقعة شرق خط يمتد على وجه التقريب من رأس البحر الأدرياتي إلى مصب نهر الإلب ، وتختلف هذه الحركة عن غزوات وهجرات سائر البرابرة ، مثلها يختلف مد يرتفع دون أن يحس به أحد عن شلال شديد الانحدار ، أو عن نهريتلوى جامعاً بين المنحدرات السريعة والروافد الهادئة . إذ إن أهل ذلك العصر لم يلاحظوا تسلل الصقالبة في هدوء إلى مسرح التاريخ الأوربي . لم يكن عملهم غارة رائعة تقودها شخصيات بارزة شأن غارات القوط أو الوندال . وما كان اندفاعه سرية انبعثت من آسيا كاندفاعه الهون . وإنما الذي تم هو توسع مطرد قام به عنصر من الفلاحين ، كان يشكل في بداية الأمر الطبقة الدنيا والأساس الاقتصادي للجماعات يقودها حكام مقاتلون من الجرمان أو الأسويين ، ولكنها كانت تزداد في كل يوم عدداً وتمتص فأنحيتها ؛ لم يبق بينها تماسك وما كان لها مطمع سياسي ، ولذا كانت تنتزع من هنا إلى هناك في المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتي لخدمة أغراض الخلائقات المستبدين ، وهي مد طام من السكان طغى على شرق ألمانيا وانساب إلى بلاد اليونان ، وكان

يجتاز في مسيره شرقاً سهول جنوب روسيا ، حين يمنحها البدو الرحل من طلاب النهب فترة وجيزة من الهدوء .

على أن أعماق مستنقعات البريبيت التي يخيم عليها الضباب والتي يميل غالبية العلماء في الوقت الحاضر إلى اعتبارها الموطن الأصلي للصقالبه ، كانت تقع في ذلك الحين على مسافة بعيدة من مرمى أبصار الإغريق والرومان لا تقل عن بعد السهوب الآسيوية النائية ، التي كان في إمكان الناظر أن يتبين فيها بصعوبة شخصاً صغيراً راكبة مع قوافلها تسير فوق منبسط هائل من السهول . والواقع أن الصورتين متكاملتان تتم الواحدة منهما الأخرى ، وذلك لأن سكان المستنقعات في بوليزيا ، وهو الاسم الذي اشتهرت به هذه المنطقة الصقلبية البدائية في المصور الوسطى ، — يمكن اعتبارهم أحد تلك الأجناس المتعسة التي وضعها سوء حظها على حواف منطقة السهوب والتي جعلتها نزعتها السلبية وحياتها المستقرة فريسة للحشود البدوية الشرسة^(١) . وهناك من الإشارات المتناثرة عند بعض المؤلفين القدماء ما يصورهم لنا شعباً شكلته المتسعات الصامتة من المستنقعات الملوثة بالقصب والبرك الراكدة ، وتمثلهم أسراباً وعائلات منعزلة من صيادى السمك والمزارعين ، وهم ينزلون مناطق متناثرة أدخلوها مما كان بها من مستنقع أو غاب ، وتجعلهم شعباً بدائياً أصعب الشعر وأناساً خجولين يتجرون في الفراء والشهد وعليهم القليل من الثياب ، وهم يفرون من مطاردتهم بالاختفاء فيما يحاورهم من ماء أو غياض ؛ وهم إلى ذلك مهرة في الرماية وحرب المصالبات وجند ممتازون متى كانوا في خدمة الأجانب .

ومن الغريب أنهم أمة مجهولة بصورة تبعث على الدهشة . وليس لهؤلاء

(١) من عهد لهذا الرأي ، انظر ماكتبه ل . نيدرلى في (Revue des

Etudes Slaves) مجلد ٢ ص ١٩ ع ٠

الصقالية الصقليين تقاليد مأثورة ، ولا أنساب ميثولوجية . ومن ههنا ما يرجع إلى عصورهم المتأخرة من مآثر شعبي (Folk - Lore) ، يحتفظ أساساً بذكريات شعوب أجنبية استولت على أخيلة الصقالية . وفيها يبدو شعب الآفار الرحيب في صورة المردة أو الوحوش ، على حين أن الإمبراطور تراچان فاتح داكيا (ترنسلفانيا ورومانيا) في القرن الثاني للميلاد صار في أساطير البلقان القيصير تراچان العظيم ، الذى يفيض إليه الشعب الوضاح والفضة الصفافية من سبعين حيناً . والواضح من هذا ومن غيره من الشواهد ، أن الصقالية بدعوا فصلاً ينسابون من منطقهم البدائية الأولى قبل القرون الأولى للميلاد حيث شرعوا يتسربون جنوباً نحو الدانوب على كل من جانبي جبال الكريات ، وانجهموا غرباً بمحاذين السهول التى تمتد بين نهري الإلب والڤستولا وشاروا شرقاً متجهين نحو حوض الثولجا وبحر آزوف . ولاشك أن الموقع المتوسط لموطنهم الأصلي — الذى يقع على برزخ شبه الجزيرة الأوربية (إن جاز مثل هذا التعبير) ، وهو العنق الذى كونه الطرق المائية الكبرى بمنطقة غرب روسيا — قد جعلهم يتعرضون لما كان لبحر البلطيق أو البحر الأسود من مؤثرين حضاريين بالى التناقض ، على حين أن الاختلاط العنصرى بين الدماء التيوتونية من جهة والأجناس الآسيوية من جهة أخرى قد ساعد على زيادة الفروق التى قدر لها فيما بعد أن تميز القوميات السلافونية المختلفة بعضها من بعض وتفرقها أقساماً .

على أن المسد الصقلي ظل يتزايد دون أن يلحظه أحد من مؤرخي الحوليات (Ammalists) . حتى استيقظت بينزطة قبيل زمن چستنيات ، وانتهت إلى ما يتهدها من خطر صقلي . ذلك أن غارات الصقالية ظلت تزداد شدة طوال القرن السادس وتنزل الخراب والويل بمنطق تراقيا وتساليا ومقدونيا ، بعد اختراقها لخط القلاع المحكم الذى أقامه چستنيان بقصد الدفاع

عن الدانوب وحماية الطرق الحيوية التي كانت تربط بين أجزاء إمبراطوريتها الغربية والشرقية . حتى أن مركز إحصاء عاصف ما لبث أن استقر في خناريا في صورة الآثار ، فانطلق يعصف بأموال الصقلي ويحيلها إلى تيارات عنيفة ، بما رهبها من قوة داغمة جديدة خطيرة ، وبما نثره منها وبدده في صورة وشاش تظاهر منتثراً فوق وسط أوروبا . ويبدو أن هذه هي الفترة التي تم فيها صبغ بلاد اليونان بالصبغة الصقلية ، وما ترتب على ذلك من شطوط روما القديمة عن روما الجديدة (بيزنطة) . وعلى الرغم من الهجمات الباسلة التي بذلها القادة البيزنطيون لرد اعتداءات الصقالبة ، فإن حد الإمبراطورية من جهة الدانوب لم يعد له أهمية تاريخية بعد (٦٠٠) . وقد صدق المؤرخ إيزيدور الأسبيل حين قال : « إن الصقالبة انتزعوا بلاد اليونان من الرومان » . وذلك لأن السكان الرومان والناطقين باليونانية دفعوا إلى حافى شبه الجزيرة المطلتين على البحر الأدرياتي وبحر إيجه . أجل إن مدينة سالونيك التجارية العظيمة التي كانت تحميها أسوارها الضخمة وبجانيقها القوية وتقيها أذراع التومية للقديس ديمتريوس الذي هو قديسها الحارس ، قد صيدت في وجه الغزاة ، ولكن الصقالبة احتلوا رغم ذلك منطقة مقدونيا^(١) المحيطة بها ، وأخذ فيض الصقالبة يتدفق إلى شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) ، غللت مراكز للحضارة والحياة الهلينية ، وحافظت على استعمادها للمشاركة في الفتوح البيزنطية التي تمت بعد ذلك بثلاثة قرون . ولكن حدث في أقصى الغرب أن هرع سكان مدينة سالونا الرومانية عاصمة دالماسيا من مدينتهم التي تعرضت للنهب والتخريب ، فهبطوا إلى أسفل النل ، يلتمسون ملاذاً في داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم في أسبالاتو . بينما فر آخرون إلى

(١) بلغ من شدة ازدحام هذه المنطقة بالصقالبة عند حلول القرن السابع الميلادي ، أنها أصبحت تعرف باسم « اسكلافينا » .

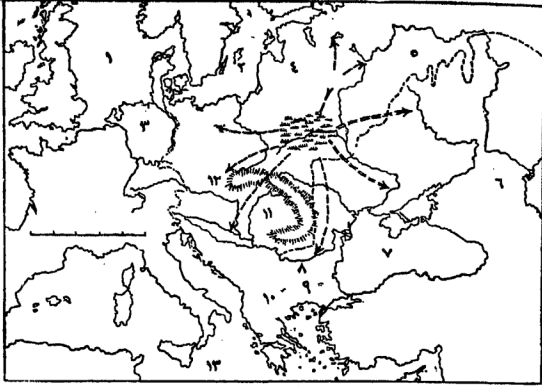
الجزر والخليجان الأدرياتية فأقاموا بذلك حافة منعزلة من اللاتينية ظلت قاعة حتى المصور الحديثة . إذ لم يمت آخر ناطق « باللغة الغريبة » إلا في ١٨٩٨- ولم تكن لغته إلا سلاطة منحطة من اللسان الرومانى القديم^(١) ، والظاهر أن مجتمعات ناطقة باللاتينية ، ظلت تعيش فى داخلية البلاد بنفس الولايات السابقة بكل من شمال الدانوب وجنوبه ، وأنه يرجع إلى تأثيرها ظهور اللغة الرومانية الحديثة .

انتشار الصقالية

وفى تلك الأثناء كانت الزوبعة الآفارية فى دورانها اللولبي من مركزها بهنغاريا تقذف بالجموع الصقلية فى جميع الاتجاهات ، وتشتت قبائلهم وتنزل شرائخ منهم بالأطراف النائية ، فاستقر بعضهم غرباً فى كارينثيا والنيرول ، وأقام بعضهم الآخر فى الشمال على امتداد نهر الإلب والسال ، واستخدمت رجالهم جنداً على محيط الدائرة الآفارية مسلطة لإيأم على جند البافاريين واللومبارد والسكسون والفرنجة . على أن مدى سلطان الشعوب البدوية ، الذى كان يمتد بين حين وآخر من البيلوپونيز إلى البلطيق ، إنما يماثل ما كان للإمبراطوريات الألطائية بآسيا من نفوذ ، وهو قريب الشبه أيضاً بنفوذ أسلافهم فى أوربا ، وأعنى بهم الهون . وكان حكم الآفار يتششى تمشياً صادقاً مع أصولهم فى بلاد السهوب ، إذ ينطوى على الاستبداد والنهب ويعتمد على القوة الوحشية ويقوم على غارات الرعب والإرهاب، ويتعرض للانهايار الفجائى . وعند مستهل القرن السابع ثارت عليهم الشعوب الخاضعة . فإن تاجراً من الفرنجة اسمه سامو قام بتنظيم الصقالية النازلين بوادى نهر مين وتأليهم على

(١) انظر ل . بيدرى فى (Manuel de L'antiquite Slave) ، ١ - ص ٦٨

(باريس ١٩٢٣) .



١٣ - خريطة انتشار الصقالة

- | | | |
|--------------------|------------------|------------------|
| ١ - بحر الشمال | ٢ - بحر البلطيق | ٣ - السكسون |
| ٤ - اللتوانيون | ٥ - شعوب فنلندية | ٦ - الخزر |
| ٧ - البحر الاسود | ٨ - البلغار | ٩ - تراقيا |
| ١٠ - مقدونيا | ١١ - الآفار | ١٢ - نهر الدانوب |
| ١٣ - البحر المتوسط | | |

الآثار واستطاع الإبقاء على مملكته بنجاح إزاء كل من الآفار والفرنجية . وما لبث السكروات والصربيون أن حذوا حذوه ، وأخيراً كرن البلغار على الدانوب الأدنى مملكة مستقلة . على أن الآفار ظلوا فما عدا مملكة سامو مسيطرين في كل مكان على جميع النلاحين الصقالية حتى امتصهم السكان المحيطون بهم . وتنحط في تنظيم هذه الدول البلقانية إبان العصور الوسطى شواهد واضحة تنبئ بوجود النظم الآسيوية .

وتعد بلغاريامثالا بارزاً على تلك الأوضاع ، إذ إن شعبة غربية من البلغار ، وهم شعب وثيق الصلة بالمون نزلوا أول الأمر فيما نعلم إلى نهر الدون ، وقد بلغت حوالي نهاية القرن الخامس سواحل البحر الأسود الشمالية الغربية غوق مصب الدانوب . فلما أن حرروا أنفسهم من نير الآفار حوالي ٦٤٠ ، اجتازوا الدانوب فبسطوا بذلك رقعة مملكتهم جنوباً ، حتى أصبحوا على مسافة تقارب مائة وخمسين ميلاً من أسوار بيزنطة ، وأخذوا يحكمون ، بوصفهم طبقة محاربة ، الصقالية المشتغلين بالزراعة ويتزعمون منهم الجند اللازمين لإنشاء إمبراطورية قوية البأس ، لم تلبث عند نهاية القرن التاسع أن امتدت إلى البحر الأدرياتي في الغرب ، وبلغ طرفها الجنوبي جبال الپيندس (Pindus) . وكانت هذه الإمبراطورية البلغارية الأولى عاملاً فاصلاً تحكم فيها تلا ذلك من تاريخ البلغار . فلولاً خافانات البلغار الأشداء وأرستقراطيتهم المقاتلة لما استطاع المهاجرون الصقالية بهته المناطق المضي في مقاومتهم المنظمة للعبود الدائمة التي بذلتها الإمبراطورية الرومانية قرناً في إثر قرن بما لها من جيش محترف وخطط حربية بارعة ، لاستعادة خط حدودها القديم على الدانوب والحفاظة عليه ، والإبقاء على ما يقع على شاطئيه من الأقاليم ، ولولاها أيضاً

ما ظهر إلى الوجود ما كان لبلفاريا وكرواتيا والصرب من أجداد إبان
العصور الوسطى .

زوال إمبراطورية الآفار

وقد تمخض تداعى قوة الآفار ، التى تواصل اضمحلالها حتى تم تدميرها
النهائى على يد شرلمان ، عن آثار سيئة فى كل مجموعة الدول الآفارية الصقلية .
إذ انحسر مد مملكة الصقالبة المتجه غرباً ، وارتد منسحباً من أعلى النمسا ،
كلما اندفع إلى الأمام جرمان بافاريا^(١) . وإلى الشمال من ذلك ، استقر ما يزيد
على ثلاثين قبيلة صنيعة من الصقالبة فى خط يمتد من الدانوب إلى مكلنبرج ،
وهم على حال من التفرق والعيش فى مواطن متناثرة بين المستنقعات والغابات .
وقد أصبحت بوهيميا التى تحيط بها الجبال من كل الجهات مملكة قوية
الشان ، غير أن الصقالبة النازلين على نهر الإلب قد تعرضوا للإبادة أو تحولوا
إلى جرمان ، ولم يكن استيلاء شرلمان على سكسونيا الغربية إلا تمهيداً لتقدم
جديد قامت به دولة غربية ، ثم تواصل الفتح عنيقاً عاتياً على امتداد عدة
أجيال . ودأب الفيكينج من اسكنديناوة قراصنة كانوا أو تجاراً ، على الإغارة
على مناطق الصقالبة على شواطئ البلطيق ، فأقاموا بها معازل دائمة .
واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويداً رويداً على طريق التجارة العظيم الذى
يتألف من شبكة الطرق المائية الروسية التى تربط بين بحيرة لادوجا وبين
البحر الأسود (Euxine) ، ثم توغلوا جنوباً حتى أسسوا بعد (٨٠٠)
يزمن قصير مستعمرة كييف ، وهى نواة الإمبراطورية الروسية فى المستقبل .

(١) انظر الفصل الرابع عشر بعنوان حملات الآفار .

٣ - بيزنطة والبحر المتوسط

كان لأحداث القرن السابع آثار كبرى غيرت تماماً مركز بيزنطة في أوروبا في ذلك الزمان. إذ سرعان ما أعقب النصر النهائي - الذى أحرزته روما على فارس في (٦٢٨) والذى يعد من أعمال هرقل الباهرة - موجة الغزو العربى الذى هز أركان كل من هاتين الإمبراطوريتين العالميتين السابقتين روما وفارس . ولم تنقض على وفاة هرقل عشر سنوات حتى ضاعت مصر والشام من يد الدولة . حتى إذا فتح المسلمون الولايات الإفريقية ، وتقدم اللومبارد فى إيطاليا ، واصطبغ البلقان بالصباغ الصقلبي ، نظرت دولة الروم عند نهاية القرن السابع فإذا رقعها قد انكشيت انكشافاً شديداً من جميع أبعادها . ولم تزدها الثورة الإيطالية والفتح الفرنجى لإيطاليا إلا ضعفاً وانتقاصاً لنفوذها فى الغرب ، ومنذ تلك اللحظة يمكن اعتبار تاريخ بيزنطة شيئاً مستقلاً عما يجرى من تطور فى دول غرب أوروبا التى لم تعد تتأثر تأثراً شديداً - كما لاحظ المؤرخ بيورى - بما كان يحدث فى شرق إيطاليا وجنوب الدانوب :

على أن السنوات التى سبقت ارتقاء ليو الإيسورى (٧١٧ - ٧٤١) العرش تعتبر من أحلك الساعات فى عمر بيزنطة الطويل . إذ إن حيويتها أخذت فيما يبدو تتداعى بسبب انكشاف حدودها . فاضمحلت الآداب والفنون وهبط مستوى التعليم ، وازدادت الخزعبلات انتشاراً بين جميع الطبقات . ونظراً لما كانت تعانيه بيزنطة من مركز قلق ، الأمر الذى اقتضى اشتداد سلطة الإمبراطور الأوتوقراطية استبداداً ، رغبة فى الإبقاء على وجود بيزنطة نفسه ، فقد قوبل ذلك بنجد عنيف من المماضة الأرستقراطية تدل عليه سرعة تعاقب الأباطرة على العرش - حيث تولى الملك ما لا يقل عن سبعة منهم فى عشرين سنة . وكان الكثير منهم يدين بارتقائه العرش إلى مؤامرات النبلاء ملوك الأراضى بالإمبراطورية

إصلاحات الأسيرة الإيسورية

إن قيام البيت الإيسورى القوى ليسجل بالفعل اتجاهًا جديدًا فى شئون بيزنطة . إذ يتوارى عن الأنظار الصراع على الملك بكل ما يورث البلاد من فوضى ، ولا يعود إلى الظهور إلا فى مستهل القرن التالى . أما العاصمة التى حددها الأمويون بكل ما يملكون من قوة فى أثناء الحصار العظيم الذى ضرب عليها فى (٧١٧-٧١٨) ، فقد دافع عنها ليو ، وهو الجندى المخنك المحرب دفاعًا مجيدًا وكان ذلك فى نفس اللحظة التى استهل فيها حكمه ^(١) ، ومنذ تلك اللحظة وقفت الإمبراطورية على قدميها على امتداد الجبهة الإسلامية ، حتى تراجع مركز الاضطراب قليلا فى آسيا ، عند انتقال مقر الملك من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين (٧٥٠ م) . وما ينبغى أيضا إضافة الفضل فيه إلى الإيسوريين قيامهم بإصلاح مالية الدولة على أسس سليمة وتشجيعهم التجارة وإجراؤهم تطورا صالحا للنظام العسكرى بالولايات ، لدرء ما يتعرض له الثغور (الحدود) من أخطار . وهى إصلاحات ومنجزات يمكن مقارنتها بما أتاه آل هرقل والمقدونيون وغيرهم من منقذى بيزنطة فى ساعة العسرة . ولذا فإن الأسيرة من هذه الناحية يمكن اعتبارها متمشية مع ما درجت عليه الأسرات الإمبراطورية من تقاليد . على أن أوجه التشابه تنتهى عند هذا الحد . إذ الواقع أن الإيسوريين ينسب إليهم فضل اتخاذ سياسة ثورية ، وأنهم مبتدعون بارعون ، استطاعوا بفضل قوة مثالياتهم الأسيوية الأجنبية أن يغيروا مجرى الحياة فى بيزنطة فترة قرنين من الزمان . ثم قدر لتلك الحياة أن تنساب مرة أخرى فى مجاريها المعتادة . إذ إن الفلسفة الكلية العامة (Weltanschauung)

(١) انظر ما قبله ص ٢٥٧ بعنوان الخطر على بيزنطة .

لحضارة بأكملها ، إنما هي تيار أقوى من أن يستطيع بضعة أفراد تغييره ،
وذلك لأن ماتمدها الحكام الإيسوريون لم يكن سوى تراث البحر المتوسط
بأجمعه .

ومن أهم عناصر ذلك التراث ، النظام القانوني الروماني ، الذي كان يتمحور
في وجوه كثيرة جدا من حياة بيزنطة الاجتماعية . فقانون الأكلوجا ، الذي
أصدره الإمبراطور ليو الثالث ، وهو مجمل لسكل القوانين البالغة الأهمية ،
يدل على تغيير خطير في القانون الروماني . وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء
القانون من الرومان مصادر موثوقة بها ، بل صار التشريع والفقهاء قائما على
«الوحى» ، والتست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمد من الأناجيل .
وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدني ، يمكن فسخه بالتراضي المتبادل
بين الزوجين ، وحل محلها ماقرته المجالس الكنسية من أن الزواج يعتبر من
الأسرار المقدسة ، فعنصر بذلك الحصول على الطلاق . ويتجلى نفوذ الكنيسة
ورجلها في أمور أخرى أيضاً ، منها مثلاً زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية
وإحلال عقوبة التشويه وبتر الأعضاء محل عقوبة الإعدام بوصفها أقصى عقوبة
في القانون ، رغبة في منح المذنب فرصة للتوبة . ومما له مغزاه أن إضفاء الصبغة
المسيحية على الدولة بهذه الصورة قد توقف قبيل نهاية القرن التاسع الميلادي ،
وحل محله الرجوع إلى اتخاذ مبادئ قانون جستنيان . فعندئذ تتجلى بيزنطة
المدنية المقتصة وحامية العقيدة السلفية الصحيحة في صورة أخرى بالغة الأهمية :
هي أنها وراثته ومستودع تاليد روما الإمبراطورية الوثنية .

وعن هذا المصدر تجبى كذلك فكرة عميقة الجذور في العالم البيزنطي ،
وهي فكرة عدم إمكان الفصل بين الكنيسة والدولة ^(١) . وذلك أن سلامة

(١) انظر ص ١٦٤ بعنوان « الحياة في العاصمة البيزنطية » .

الإمبراطورية ورخاءها كانا يتوقفان على مالها من موارد روحية فضلاً عن المادية ، وأن نفوذ السلطات المدنية كان يبرزه إقرار رجال الدين له . على أن بعض الأباطرة من أمثال الإيسوريين المناهضين لعبادة العصور ، والذين تدخلوا فيما شاع بين السكان من معتقدات - كالمقدسات الدينية والأيقونات وتبجيل هيئات الرهبان - إنما كشفوا عن وجود ازدواج في السلطات : أى إمكان حدوث صراع بين السلطين العلمانية والإكليريكية ، وهو وضع كان يخالف صراحة سياسة بيزنطة العامة ، ولذا كان مخنوم الفشل نتيجة لذلك . وهذا الضرب من رجحان كفة الميزان في صالح الدولة ، تنمض عن حركة مضادة بين أتباع ثيودور رئيس دير ستوديوم (مات في ٨٢٦) ، الذى طالب بأن يكون للكنيسة استقلال داخلي تام ، بل إنه أيد البابا على إمبراطوره . على أن هذه الأفكار كانت غريبة أيضاً عن التفكير البيزنطى ، ولم يلبث هذان الرأيان المتناقضان أن اختفيا من الوجود فى النهاية ، قهيات الفرصة مرة أخرى للإمبراطور كما يمارس سيادته على شئون الكنيسة ، وهى مع ذلك سيادة يلفظ منها استعمال الحكمة والأناة فى معالجة حساسية الشعب وميله بطبعه إلى الاستئثار السريعة .

فضال مناهضى عبادة العصور

وكان آخر تحد لقيته المايير البيزنطية هو حركة تحليم الصور (Iconoclast) . ومناهضة عبادتها . فعلى الرغم من أن هذه الحركة تؤلف فى بعض مظاهرها جانباً من إصلاحات الإمبراطور العلمانية ، فإن الدافع الجوهرى إليها هو الاعتقاد الدينى ^(١) ، ولذا فإن المعاصرين كانوا ينظرون إلى المسألة بأسرها بوصفها مسألة

(١) من المعلوم أن الدين والسياسة لا يمكن فصلها تماماً كما رأينا من تونا ، ولا شك أن سلامة الدولة من الزلازل والأوبئة والنزوكات فى نظر مناهضى عبادة الصور تعتمد على حد عظيم على قيام ما يسمونه « العقيدة الصحية » خاصة وهم قوم لم يكونوا « عقليين Rational » فى تفكيرهم - بالدرجة الجديدة التى يصورهم بها بعض الناس أحياناً .

دينية بحتة . فقد ادعى خصوم التحطيم أن إنكار إمكان تمثيل مرثى ، هو إنكار لحقيقة التجسيد والتبعية لإنكار لأس العقيدة المسيحية . ولا سبيل إلى تقدير المראה الشديدة التي اتصف بها الكفاح إلا إذا وضع القارئ هذا الاختلاف الاسمي نصب عينه ^(١) . على أن معركة تحطيم الصور ومناهضة عبادتها ، ليست إلا نزاعاً اجتمع فيه من الاختلافات والدوافع السياسية والفلسفية والجمالية ، بل المنصرية أيضاً ، ما يرجع أصول كثير منها إلى الماضي البعيد . وما من صيغة عصرية تستطيع أن تعرض علينا من جديد ما تنطوى عليه هذه الحركة من مشاكل معقدة . فقد نشبت الحرب في جميع المستويات ، ونحولت الآراء من النقيض إلى النقيض ، وتشعبت في كل شكل من أشكال الحلول الوسط . ومن اليسير على المتصفح أن يستكشف ما ارتكبه الجانبان من سخافات وحماقات ، فهناك من ناحية أولئك الأباطرة الذين تبادوا في تلك الحملة حتى لقد اعترفوا « بنطويب » يهوذا الأسخريوطي وتلقيبه قديساً وعمدوا إلى إزالة لفظة « القديس » من أسماء الأماكن . على أن الواقع من الناحية الأخرى ، أن إقامة عبادة سحرية للصور يرجع سخطها إلى أنها في أحط صورها تعتبر ضرباً من الإيمان « بالفنشة » لحالة مرضية . ومع ذلك فإن الفارق الفلسفي كان هاماً وحقيقياً ، وإن جاز لنا أن نشك من خلال ما يحيط بالأمر كله من سحب سوء العرض وتأجيج المشاعر ، — في أن المتخاصمين كانوا يرون بوضوح الأشكال التي كانوا يوجهون إليها طعناتهم . فالصعوبات الكامنة في علاقة الصور بما تمثله ، ليست إلا قصة قديمة ترجع إلى الأزمنة الوثنية ، ثم تواصل الجدل في شأنها طوال عصور المسيحية جميعاً . من هنا يتبين أن كلا من الجانبين كان وراءه معين من السوابق لا ينضب يستطيع أن ينهل منه ، بالإضافة

(١) انظر التذييل ب .

إلى الفقرات المنتزعة من نصوصها الأصلية في السكتب المقدسة وكتابات
الآباء الأولين ، والتي شكلت لتكون قذائف في الحرب الكلامية الناشبة .

كان معظم أفراد حزب تحطيم الصور ينتسب إلى آسيا الصغرى موطن
الباطرة الإيسوريين ومنبت الشطر الأكبر من جندهم وكثير من موظفيهم وفي
هذه المنطقة ازدهرت عدة طوائف متشددة في التطهر والتعنف ، ولم تتولد الكراهية
لعبادة الأوثان عن هذه المذاهب التطهيرية فحسب ، بل أسهم في ذلك أيضاً عقائد
المسلمين المجاورين . ولكن الباطرة أنفسهم لم يكونوا من المراطقة . إذ كان
في وسعهم أن يعتمدوا هم وخصومهم على السواء على التقاليد الصحيحة
للكنييسة . وينبغي لنا أيضاً ألا نشدد التأكيد على التناقض بين ما لدى
آسيا من الرضوية التجريدية وبين الفن التشكيلي اليوناني الروماني . فالمرء
أن البحر المتوسط تعرض طوال قرون عديدة لمؤثرات شرقية ، وأن الفن
البيزنطي فقد بالفعل كثيراً من خصائصه التقليدية (الكلاسيكية) . وأثارت
مساجد وقصور الخلفاء الآسيويين وقتئذ من الجاذبية القوية ، ما لا بد أن يثيره
كل فن خصيب رائع . على أن الراجح أن النزاع حول التحطيم ومناهضة
عبادة الصور ، لم يكن له تأثير جوهري على تطور الطراز البيزنطي ، الذي
استقرت مبادئه الأساسية من قبل في عهد جستنيان .

وقد بدأ ليو في (٧٢٥) حملته لتحطيم الصور . إذ ارتقى الجند السلام
وأزالوا التمثال الكبير للمسيح المتصوب فوق باب القصر بالساحة الرئيسية
بالقسطنطينية . فاحتشد جمهور غاضب وعقبت ذلك الفن وقتل الدهماء أحد
الجند . وأحدثت المراسم الإمبراطورية في هذا الصدد طائفة من الاضطرابات
لشبت في العاصمة وبلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل ، بل لقد نودي بأحد
الأفراد إمبراطوراً ، ولكن المؤامرة أحبطت ، وكانت الغلبة في النهاية لسياسة
ليو ، الذي كانت توازره على الجملة الطبقات المتعلمة . وازدادد الكفاح مرارة
ميلاد العصور الوسطى

في عهد قسطنطين الخامس ، ولم يلبث ما قام به الرهبان من النشاط السياسي ،
الذي سبق أن تنبأ ليو بخطورته على الدولة ، أن تطور إلى المطالبة بأن يكون
للكنييسة استقلالها . على أن قسطنطين الخامس الذي كان يضارع أباه
في العبقرية الفكرية ويفوقه في البراعة السياسية والتدبير ، التقى بخصومه على
أرضهم ، وآزر حركة التحطيم بكل ما توافر له من موارد . وفي (٧٨٧) انتهزت
إيريني فرصة اندلاع فتنة شعبية فأعادت عبادة الصور ، على أن حركة التحطيم
ومناهضة عبادة الصور لم تلبث أن عادت في (٨١٥) نتيجة لرد فعل آخر .
ومع ذلك فإن قوتها ما لبثت أن تضعفت رويدا رويدا ؛ إذ فقد الجيش
ما كان له من سلطان في البلاط ، وفاز رهبان دير ستوديوم بالغلبة . وفي (٨٤٣)
تمكنت الإمبراطورة ثيودورا وهي وصية على ولدها ميخائيل ، من الجمع بين
تنفيذ رغباتها وبين مقتضيات السياسة بإعادتها للأهلين عبادة الصور التي لم
يكنفوا عن التعلق بها .

والظاهر أن هناك شيئا من المبالغة في تقدير الأثر الذي ولدته في الغرب
حركة مناهضة عبادة الصور . أجل إنها قد تأججت بسببها المشاعر ، وذلك
نظراً لأن الصور والآثار المقدسة كانت تلعب دوراً جوهرياً في عقائد الناس ،
ولكن أحداً لم يستطع إدراك النقاط الفلسفية التي كان الموضوع يدور حولها .
على أن الواقع أن أقوى أسباب الثورة التي شبت في إيطاليا كانت كراهية
الناس للموظفين البيزنطيين والضرائب البيزنطية ، وتأجيج الوطنية ودوافع
السياسة المحلية ، ولم يحمل الفرنجة على التدخل إلا ضعف بيزنطة العسكرية .
ومن ثم فإن النزاع حول عبادة الصور لم يكن إلا حدثاً واحداً في شقة الخلاف
والتناحر بين روماً البابوية والقسطنطينية الإمبراطورية . وآية ذلك أن العودة
إلى عبادة الصور لم تصلح ما فسد ، وذلك لأن الخلافات السياسية لم تكن تدور
حقاً حول المسائل اللاهوتية . على أن فترات الانشقاق بين الكنيستين

الشرقية والغربية التي أخذت تزداد طولاً وتكاثراً عدداً بلغت ذروتها في الصدمع
النهائي الذي حدث في (١٠٥٤) ، ومع ذلك فقد كان في الإمكان حتى بعد هذا
التاريخ الوصول إلى اتفاق حول المسائل الاعتقادية . ومن هنا يتضح أن السبب
في عدم الوفاق بين الطرفين لم يكن فترة : « والابن أيضاً Filioque » ،
بل مدعيات البابا في السيادة وخطط الإمبراطورين الشرق والغرب . وتم فاصل
آخر كان يزداد في الحين نفسه على الأيام علواً وقوة ، هو فاصل اللغة والعرف
والتقاليد . وعمل ليو الإيسوري إلى توجيه ضربة مضادة لتحدي البابا . فضم
صقلية وجنوب إيطاليا ودالماتيا إلى البطريركية البيزنطية ، ولم يلبث أن شاع
بهذه الجهات عناصر عديدة للعقيدة الشرقية نتيجة تقاطر الرهبان اليونانيين
اللاجئين . على أن فتح المسلمين لصقلية في القرن التالي أضعف قبضة
البيزنطيين على الغرب ، على حين أن الشعوب الصقلية الوثنيين بالبلقان ،
أقامت عقبة أخرى حالت دون الاتصال المباشر بين الجانبين . ولكن بيزنطة
تمكنت من ضم بلغاريا إلى حظيرة المسيحية في القرن التاسع ، بعد أن ترددت
طويلاً بينها وبين الولاء لروما^(١) ، وأخيراً ظلت على مذهبها الأرثوذكسي ،
والواقع أن أطرافها الغربية (وكانت تضم آنذاك الشيء الكثير من صربيا
العصرية) كانت تحدد دائرة نفوذ بيزنطة الديني والثقافي . وبذلك أضيف
سبب جديد للانقسام إلى ما يقوم بالبلقان من أسباب الشقاق التي لا يحصيها
عد ، والتي لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا .

(١) انظر استيفان والمسيح في كتاب (A History of the First Bulgarian Empire) ص ٩٩ ع ٣ (لندن ١٩٣٠)

الفصل الثاني عشر

الفرنجية

عندما توفي كلوفيس في (٥١١) انقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، « كأنما كانت مزرعة خاصة » . وهذه العادة في اقتسام الإرث عند الفرنجية تعتبر من الحقائق الأساسية في تاريخ الميروفنجيين ، إذ يرجع إليها قدر كبير من التفكك والفوضى التي سادت هذه الحقبة من التاريخ . فكلما مات ملك تواصلت التجزئة ، التي كثيراً ما كانت تستند إلى اعتبارات شخصية بغية مثال ذلك أن شرق فرنسا ضم عقب وفاة كلوفيس إلى الأوفرن ، دون مراعاة للأجناس أو القوميات . ولكن المملكة لم تزل على الرغم من هذا التقسيم تعد وحدة ، كما يدل على ذلك اسمها الذي اشتهرت به وتتناك ، وهو مملكة الفرنجية (Regnum Francorum) ، واعترف أبناء كلوفيس الأربعة ، بأن من واجبه المشترك ، أن يتموا ما بدأ أبوم من الفتح . وفضلاً عن ذلك ، فإن المواسم الأربعة : ريمز وأورليان وباريس وسواسون ، كانت تقع في أطراف الإمارات ، وكلها على قرب وثيق بعضها ببعض ، وبذلك ألقت بمجموعها مركزاً للتنفيذ الجرماني .

ولا تنطوي قصة تلك الأمرة في أثناء نصف القرن التالي إلا على سلسلة طويلة من جرائم القتل واستلحاق الأرض والثروات والتقسيمات الجديدة في الإرث . ولكن الوحدة عادت مؤقتاً في (٥٥٨) ، يوم لم يبق من جميع سلالة كلوفيس سوى كلوتار . فعلى الرغم من الحروب الأهلية تواصل الربط بين أجزاء فتوح كلوفيس واستمر توسيع رقعتها . فأخضعت برجنديا نهائياً

في (٥٣٤)^(١) وأصبحت تؤلف جزءاً من ممتلكات الفرنجة ، وإن عاد عليها القرن الذي قضته مستقلة بنوع من وحدة الثقافة ، لم تذهب عنها آثاره بعد ذلك أبداً . أما بروفالس التي كانت تابعة في يوم من الأيام لثيودوريك ملك القوط الشرقيين بايطاليا ، فقد تخطى عنها خلفاؤه في قريب من ذلك الوقت . على حين أن سبتيانيا ، وهي المنطقة الواقعة بين الرون والبرانس ، كانت لانزال بأيدي القوط الغربيين ، ولم تعترف بريتاني للفرنجة إلا بسيادة اسمية . ويمكن القول إجمالاً بأن فتح غالة قد اكتمل حتى حدودها الطبيعية . ولم نظفر الجيوش الفرنجية بهذا المبلغ من النجاح خارج هذا النطاق . إذ إن حملتهم على شمال إيطاليا وأسبانيا لم يترتب عليها نتائج ثابتة كهذه ، على الرغم من أن ضعف القوط الغربيين والقوط الشرقيين قضى على كل احتمال أمامهم للثأر لأنفسهم . وكان ثيوديرت أشد أبناء كلوفيس إقداماً ، وقد دبر ذات يوم خطة رام بها أن ينحاز إلى الجيبيد واللومبارد للقيام بهجوم مشترك على تراقيا ، بل تشير الرواية إلى أنه فكر في شن هجوم على بزنطة ذاتها . على أنه ينبغي لنا ألا نغفل في تقدير هذه الأمور أكثر مما يجب . فما كان ثيوديرت رجلاً يضارع شرلمان أو أوتو ، وليس ثمة دليل على أن وراء هذه الخطط الطنانة بصيرة سياسية نافذة .

ولكن الواقع أن التقدم الحق في أثناء تلك المدة كان في اتجاه الشرق . إذ اكتملت فتوح الفرنجة على يد كلوفيس في صورتها الصحيحة . فقدمت بافاريا فروض الطاعة والولاء ، وأخضعت نورنچيا . ولكن قبائل السكسون بالسهول العظمى في وسط ألمانيا أظهرت في القتال عناداً أشد ، وردت الفزاة

(١) انظر ص ١٣٧ بعنوان ثيودوريك والكنيسة .

على أعقابهم بعد أن كبدهم خسائر فادحة . على أن هذا يعد ابتداء العملية التي كتب لشرلمان أن يصل بها إلى خاتمتها ، كما يعد تمهيدا لطريق المبشرين المسيحيين الذين قاموا فيما بعد بتنصير ألمانيا .

المير وفننجيون الأوائيل

على أن نصف القرن التالي يتصف بسفقة ماثضة تماما . إذ سلت الحرب الأهلية في أثنائه محل الفتح . وعلى الرغم من تواصل الحملات على شمال إيطاليا ، فإنه لم يترتب عليها إضافة هذه الجهات إلى الفرنجة نهائياً . أجل بذلت بعض الجهود لانزاع سبتيمانيا من القوط الغربيين ، وشهدت نيل من كركاسون ونيم الاشباك المسلح بين الطرفين ؛ غير أن المنطقة ظلت خاضعة لحكام أسبانيا ، ثم انتقلت فيما بعد إلى أيدي المسلمين . ولم يرح البريتون والباسك (الباشكس) يحافظون على استقلالهم ، وفوق هذا فإن غارات الآفار على ثورنجيا التي حدثت في ذلك الوقت حالت دون أى مزيد من التوسع على الحدود الشرقية . لقد استنفدت عوجة الفتح قوتها ، كما أن قوى الانحلال داخل مملكة الفرنجة كانت تعمل عملها بأقصى قوة . والصفحات التي كتبها جريجورى أسقف نور تروى لنا قصة ذلك الزمان . إذ إنها تسجل الوباء والمجاعة والقتل والموت الفجائي . وتذكر املاء الطرق بالشحاذين وقطاع الطرق ، بل إن الكنائس نفسها لم تكن بمنجوة من النهب . ولما استشرت العداوات الضارية بين أمراء المير وفننجيين ، التمسوا المساعدة من النبلاء في ممالكهم ؛ وتمجلى نتيجة ذلك في زيادة استقلال النبلاء ونمو الإقطاع واستشراف الخروج على القانون ، وفي العداوة التي نشبت بين أوسترسيا ونوستريا وبين برجنديا وأكتانيا ، التي بدا أنها تتجه نحو تكوين إمارات مستقلة . وتوفي كلوتار آخر من بقى حيا من أبناء كلوفيس في (٥٦١) ثلوكا وراءه أربعة أبناء . ولكن لم يعيش

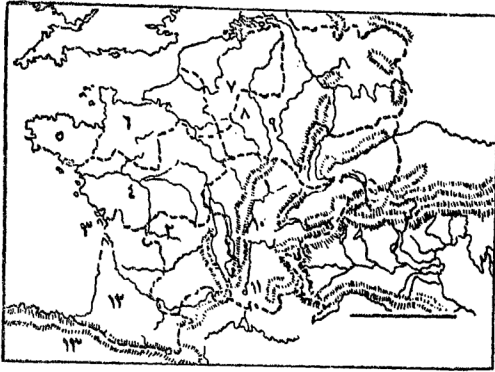
من هؤلاء الأربعة إلا كاريبرت ملك باريس حتى (٥٦٧) ولشب بين سيچبرت ملك متز وشلبريك ملك سواسون نزاع طويل صير من أجل السيادة ، على حين أن الأخ الرابع وهو جنترام ملك أورليان وبرجنديا حاول أن يحفظ التوازن بينهما . ثم تفاقمت حدة العداوة بين سيچبرت وشلبريك عندما تزوجا أميرتين شقيقتين ، هما برانهيلدا وجالسوينثا .. وهما من بلاط القوط الغربيين الذي اشتهر بالآبهة والتفنن . على أن جالسوينثا زوجة شلبريك لقيت مصرعها خفياً في ظروف مريبة ، وعندئذ عاد شلبريك إلى خيلته الأولى فريديجند . ولم يلبث سيچبرت أن خرّ صريعاً غداة انتصاره على شلبريك ، بطعنات الخناجر المسممة التي سددها إليه عملاء فريديجند . ووقعت برانهيلدا في الأسر ، غير أنها تمكنت من الهرب إلى مملكة ابنها ، حيث دبرت الانتقام من أعدائها على هذه الجريمة المزدوجة . ومنذ تلك اللحظة تسيطر على هذه الفترة شخصية برانهيلدا ملكة أوستراسيا والوصية على عرشها - وأوستراسيا هي مملكة الفرنجة الشرقية - كما تسيطر على تاريخ الحقبة أيضاً بما شنته من حرب على نوستريا ، وهي مملكة شلبريك في الشمال والغرب (التي هي آخر الفتوح وأحدثها niust) . ويعتبر شلبريك طراز الطاغية الميروفنجي . إذ إن الشهرتين اللتين سيطرتا عليه هما زيادة ثروته وتوسيع رقعة مملكته . ولتحقيق هاتين الغايتين صار يبيع الأسقفيات ، ويحبى ضرائب باهظة ، وينزل الغرامات على رعاياه الأغنياء ، وذلك على حين أنه لم يكن يرى في الخيانة ضعة ولا في القسوة وحشية ، مادام يحقق بذلك خططه ومآربه ضد خصومه من الأمراء الميروفنجيين . وكان جريجورى أسقف تور يعده نيرون زمانه وهيرودس عصره . ولا شك أن هذه الصفات كانت شائعة بين معاصريه . ولكن شلبريك كانت له مواهب أصيلة . فإنه لاحتقاره اللسان الجرمانى ، كان يقرض الترانيل

والقصائد باللغة اللاتينية ؛ وصدر عنه مرسوم أضيفت بمقتضاه أربعة حروف إلى الأبجدية . وبأمره تقرر إنكار الأفانيم الثلاثة وبطلانها باعتبارها حماقات تشبيهية ، بل لقد بلغ الأمر بشعره الفكري أن تحدى قانون السالين ، الذى يعتبر الحصن الحصين لتقاليد الفرنجة ، وذلك فيما حاوله من إجازة الإرث للنساء فى أحوال خاصة . ثم إن لبرانهيلا عدوته اللدودة شخصية بالغة القوة هى الأخرى . فقد ظلت أكثر من ثلاثين عاما مسيطرة على مصائر أوستراسيا وصامدة فى وجه هجمات شلبريك ، كما أنها تمكنت بفضل مساعدة أتباعها المخلصين ، وعقد تحالف مع برجنديا فى الوقت المناسب ، من القضاء على النبلاء الخونة . فهلك أحدهم فى هيب قلعة أضربت فيها النيران ، بينما لقي آخر مصرعه بالقاء الأجر عليه من خلال سقف كنيسة الأسقف بقردان . ونصب حفيداها على عرشى برجنديا وأوستراسيا ، ولكن برانهيلا ظلت مع ذلك قابضة على زمام السلطان . وعندما شق أمير أوستراسيا عصا الطاعة على طغيانها ، ألبت عليه أخاه ، ولم تزل به حتى هزم وأعدم . ولكن خاتمة حياتها الطويلة كانت اقتربت . فقد مات حاكم برجنديا فى (٦١٣) ، ولم تنجح برانهيلا فى محاولتها ضم عرشى أوستراسيا وبرجنديا تحت حكم ابن حفيدها . فان نبلاء أوستراسيا يزعمون أن نولف أسقف متز وبيبين ناظر القصر وهما مؤسسا البيت الكارولنجي ، استصرخا ملك نوستريا لمساعدتهما ، وأخذت برانهيلا أسيرة على شاطئ بحيرة نيوزاتل . وعذبت مدة ثلاثة أيام ثم ربط جسدها فى النهاية فى ذيل حصان جروح ، أطلق له العنان ، وضرب بالسوط حتى جمع وأفلت زمامه .

برانهيلدا وشليريك

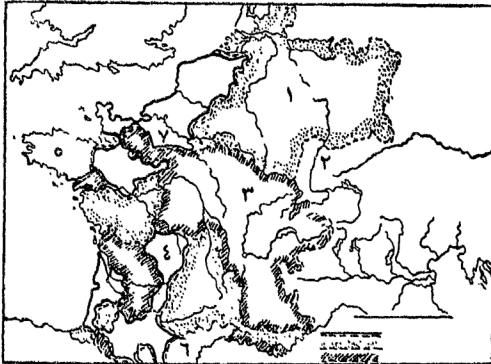
وقد عرفت برانهيلدا كيف تحكم الهيمنة على ما يملكها من قوى . وعلى الرغم من التزامها خطة الحزم الشديد في معاملة الكنيسة ، لم يفتها في الوقت ذاته بذل المنح والهبات العديدة للأسقفيات والأديرة . وتشهد المراسلات التي دارت بينها وبين البابا جريجورى الأكبر بمدى إدراكه لسلطانها على الكنيسة والدولة ، وتقديره لأهمية نفوذها في فرنسا . ويبدو أن النبلاء كانت لهم اليد العليا في عهد كلوتار الثاني الذي تولى عند ذلك عرش المملكة بأجمعها . وكان تعاونهم في أوستراسيا بوجه خاص حاسماً في تحقيق النصر ، ويتجلى الثمن الذي انتزعه واضعاً في مرسوم (٦١٤) . فإن الكنيسة حرصت فيه على إبراز استقلالها ، وطالبت بحرية الانتخابات الأسقفية وزيادة سلطات المحاكم الكنسية ، على حين انتصرت الأرستقراطية صاحبة الأراضي الزراعية على موظفي البلاط ، حيث أصبح محتماً منذ تلك اللحظة أن يكون انتخاب الكونتات ^(١) قاصراً على أبناء النواحي الذين سيتولون الحكم فيها ، وبذلك تزايد النفوذ المحلي والوراثي . ومنحت أوستراسيا وبرجنديا نصيباً موفوراً من الاستقلال الذاتي ؛ وبذا صار لكل من المملكتين طامعها الخاص المميز ونظامها الإداري المنفصل ، وأصبح برأسها نظار القصر ، الذين صاروا يمثلون مصالح النبلاء المحليين بقدر ما يمثلون مصالح الملك . على أن المملكتين تجزأتا في حد ذاتهما إلى إقطاعات كبيرة ، بل لقد مضى التفكك إلى أبعد من ذلك . ومع ذلك حدث في تلك اللحظة أن توقفت العملية برهة وجيزة ، ومن ثم يشهد حكم داجوبرت (٦٢٩ - ٦٣٩) آخر الأقرباء بين الملوك الميرودنجنين

(١) نظر الفصل نفسه بعنوان حكم الرومان والجرمان .



(أ) من ٥١١ - ٥٦١ م

- | | | | |
|-------------|------------|---------------------|--------------|
| ١ - برجنديا | ٢ - أكتايا | ٣ - بوردو | ٤ - بوتانيه |
| ٥ - بريثاني | ٦ - نوسريا | ٧ - أوستراسيا | ٨ - ريمز |
| ٩ - ماز | ١٠ - فيينا | ١١ - روفانس | ١٢ - جيكونيا |
| | | ١٣ - القوط الغربيون | |



(ب) ٥٦٨ م

- | | | |
|---------------|-------------|--------------|
| ١ - أوستراسيا | ٢ - مانيا | ٣ - برجنديا |
| ٤ - أكتايا | ٥ - بريثاني | ٦ - سبتيانيا |
| | | ٧ - باريس |

(١٤) خريطة فرنسا في عهد الميروفنجيين

الملوك الميراثيين ، انبثاقاً نهائياً لمظاهر القوة والجبروت من جانب السلطة المركزية . فإنه ظل عشر سنوات يحكم فرنسا بأجمعها ، بعد أن تمكن فلان من إبعاد أخيه بتعيينه حاكماً على إقليم منطقة الحدود ببلاد الباسك . وازدهرت الفنون ببلاطه المتألق الحافل بالفضائح . فإنه أولى صناعة الذهب اهتماماً خاصاً . وتأسست في عهده الأدبيرة ، وقام المبشرون بنشاط عظيم . وأرغم البريطانيون والبلشكنس (الباسك) على أداء يمين الولاء ، وأصبح نفوذ الفرنجة ملموساً في شتون إيطاليا وأسبانيا . بل لقد حدث أن داجوبرت عقد محالفة مع هرقل ، تقضى بالقيام بإجراء مشترك لمناهضة الصقالبة والبلغار بوسط أوروبا ، الذين كانوا يهددون حدود كل من فرنسا وبيزنطة على الراين والدانوب .

وقعة تيرتري

وعند وفاة داجوبرت انقسمت المملكة شطرين ، وعادت عملية اللامركزية والنفكك سيرتها الأولى ومن المعروف أنه حدث في أثناء حياة داجوبرت أن طلبت أوستراسيا أن يكون لها حاكم مستقل ، وهو ابن الملك . وعندئذ ازداد ظهور نزعات الانفصال في الأجزاء الثلاثة التي تتألف منها فرنسا . والواقع أن تاريخ القرن التالي لا يدور إلا حول قصة أطماع نظار القصور ومنافساتهم . وصار الأمراء الميراثيون يولدون ويموتون ، وليسوا سوى أشباح قصيرة العمر ، قد أهلكها انغماسها في الفجور (Rois fainéants) في سن مبكرة ، دون أن يظهر بينهم في أحسن أحوالهم إلا الورع الضعيف أو الظريف المستسلم أما القوة الحقيقية فأصبحت في أيدي كبار موظفي الدولة ، الذين كانت المنازعات التي تنشب بينهم من أجل السيادة الشخصية ، هي التي تقرر مصائر المملكة على

أن مركز نظام القصور^(١) كان متناقضاً من بعض الوجوه . فإنهم كانوا في نفس الحين كما سبق أن أشرنا نواب الملك الممثلين له وزعماء لطبقة النبلاء المحليين . وعندما تعارضت هذه المصالح المتضاربة ، انحاز بعض محافظي القصر إلى جانب الملك ، بينما انضم بعضهم الآخر إلى جانب النبلاء . على أن جريموالد ناظر القصر في أوستراسيا ألس في نفسه من الجرأة والإقدام ما حمله على إعلان مناهضته للجانبين جميعاً . ولم يلبث حتى نفى الأمير الميروفنجي إلى إارلندة في (٦٥٦) ، وأجلس ابنه على العرش . غير أن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه المغامرة ، فغلب عليه النبلاء ، وأسلموه إلى ملك نوستريا فأعدمه . ولم يجد سلالاته من السكارولنجيين في أنفسهم من القوة ما يكفي لممارسة السلطة الملكية باسمهم إلا بعد مضي مائة سنة . على أن الحروب الأهلية لم تتوقف قط في تلك الأثناء ، حيث كان كل ناظر قصر يحرص على رفع شأن إقليمه ، إما بقصد إرضاء الملك الذي يقوم على خدمته ، وإما بالحد مما طبع عليه رفاقه النبلاء من رغبة جشعة في انتهاب الأراضي .

على أن مملكة نوستريا صارت لها اليد العليا في (٦٥٧) بفضل ما اشتهر به محافظ القصر إبروين ، ولكن أوستراسيا طالبت بأن يكون لها محافظ قصرها وملوكها الخاص ، أما برجنديا التي تولى قيادتها أسقف أوتون ، الذي رفع فيما بعد إلى مرتبة القديسين باسم القديس ليجير ، فإنها طالبت بالاستقلال . ووقع ليجير في الأسر وأعدم بعد أن حل به من التعذيب والتنكيل ، ماجله يظفر في الأزمنة المتأخرة بتاج الشهداء ، واستعادت نوستريا سيادتها مرة أخرى . وقد ظل إبروين محتفظاً بسلطانه حتى وفاته (٦٨١) ، ولكن نجماً جديداً سطع في الأفق في ذلك الحين . فإن بيپين الثاني زعيم النبلاء الأوستراسيين قد لقي

(١) ناظر القصر أو حاجب القصر (Mayor of the Palace)

الغزيمة على يد إبردوين ، ولكنه عاد بعد ذلك ببضع سنوات فانتصر فرصة الشقاق الذى دب بين أهل نوستريا ، فزحف على المملكة المنافسة له ، وتمكن فى معركة تيرترى بالقرب من بيرون من التغلب على كل مقاومة ، ونصب نفسه حاكما فعلياً على فرنسا (٦٨٧) . ولم تكن معركة تيرترى نصراً لجرمان الشرق على جرمان الغرب ؛ وذلك لأن ييبين ظفر بتأييد فريق كبير من النوستريين . على أن تلك المعركة كانت فى ظاهرها نصراً للتبلاء على السلطة الملكية التى كان يؤيدها جريموالد وخليفته ؛ ولكنها لم تكن فى الواقع إلا انتصاراً شخصياً لبيبين . ومنذ تلك اللحظة أصبح ييبين سيداً على فرنسا ، وصار هو الذى يهب منصب محافظ القصر لمن يشاء من أفراد أسرته ، ويحكم البلاد حكم ملك حقيقى لا يعوزه إلا القلب . وبذلك يكون ما فعله فى الواقع نهاية حكم الميروفنجيين ، وبداية عهد الأسرة الكارولنجية .

وتمكن فى المدة بين (٦٨٧ ، ٧١٤) من فرض سلطانه على البلاد ، واستطاعت قبضته القوية أن ترفعها مكاناً عالياً فى سياسة غرب أوروبا . على أنه عند وفاته ، صارت مصائر أسرته ووحدة فرنسا فى كفة القدر . ذلك أن ولديه الشرعيين توفيا فى أثناء حياته ، ولما يبلغ أحفاده سن الرشد بعد فأنفصلت برجنديا ونوستريا إحداهما عن الأخرى ، وانتشرت الفوضى والاضطراب بكل أرجاء البلاد . فى الشمال الشرقى عاث الفريزيون فساداً فى المنطقة المحيطة بمدينة كولن ؛ وحذا حذوهم السكسون فى أقصى الجنوب ، على حين اغتصبت أكتانيا الفرصة للمرة الثانية فأعلنت استقلالها . بيد أن البيت الكارولنجى عثر عند ذاك على بطله الذى وهبه ذلك الاسم . إذ إن شارل مارتل الابن الثالث لبيبين تغلب على جميع العقبات التى صادفته الواحدة بعد الأخرى . وقد استخدم قوة أوستراسيا كما فعل أبوه من قبل وقضى على جميع العصاة النوستريين وألزم أهالى أكتانيا الطاعة واستعاد الأطراف الشرقية بمجموعة

من الحملات المظفرة، كما استطاع في (٧٣٢) تشتيت فشل الجيوش العربية في معركة بواتيه^(١)، متبعاً نصرة بعد ذلك بحملته التي شنّها على بروفانس . ومع ذلك فقد أظهرت الأيام أن استقلال أكتانيا قد خسر ولكن لم يقص عليه ؛ وظل العرب محنّطين بمدينة ناربونة ، التي اتخذوا منها ملاذاً حينئذٍ يخرجون منه لمباغثة مدن وادي الرون .

على أن يبين إن شارل هو الذي أتمّ نهائياً إخضاع أكتانيا . إذ إن فتحه لها اتمّ بالاستقرار والنجاح والنبات . كان يفوق أباه في البراعة السياسية والتدبير ، وشاهد ذلك أنه حرص على استرضاء الكنيسة بمنحها الهبات التي تقوم على دراسة وتمعن ، وعنى بتأسيس حزب موال له بين أهالي أكتانيا أنفسهم . وقد تجلّى منه الحرص في سياسته منذ وقت مبكر ، وكانت آية ذلك حادثاً صدر عنه . ففي (٧٥١) اتخذ بيّين لقب ملك فرنسا بعد أن حصل على موافقة البابا على مشروعه ، وبعد أن أمر بحلق رأس آخر الميروثنجيين وإدخاله حياة الرهبنة . وبعد ذلك بثلاث سنوات توج بيّين رسمياً بكنيسة سان دينيس ، وقام بمراعاة التنوير البابا استيفن الثاني ، الذي كانت الظروف قد اضطرتّه إلى اجتياز جبال الألب يلتمس مساعدة الفرنجة على اللومبارد . وكان التنوير من الشعائر الجديدة على الفرنجة ؛ فإنه كان بمثابة الخاتم الذي مهر به انتخاب بيّين لعرش المملكة ، ذلك الانتخاب الذي أقرّه من قبل جمعية الشعب (المجلس الوطني) وقد قدر لنظرية « الحق الإلهي » في الحكم الذي تنفرد به أسرة معينة ، أن تزداد أهمية فيما عقب ذلك من تاريخ فرنسا ؛ ومع ذلك فإنه حتى في هذه الفترة كان قيام الكنيسة بمسح الملك بالزيت المقدس ، مسحا يقترن بالسوابق المستمدة من الكفّ المقدسة ، أمراً لا بد

(١) انظر الفصل التاسع بعنوان فتح شمال إفريقيا .

منه ، لموازنة ما جرى من انتهاك حرمة الميروفنچيين الذين يعتبرون من سلالة إله البحر الأسطوري ، والذين احتفظوا ، حتى في إبان اضطهادهم ، بما كان للوثنية في الأزمنة السحيقة من قداسة خفية .

الهابوية والكارولنچيون

ولم يكن من الأحداث العارضة تحالف البابا وأسرة الكارولنچيين ، الذي قدر له أن يغير مجرى التاريخ الأوربي بأجمعه . وعلى الرغم من أن الشكل الذي اتخذته ذلك التحالف إنما يرجع إلى سياسة بعض الشخصيات البارزة ؛ فإن المؤثرات المتلاقية المتجمعة التي جعلت تلك السياسة شيئاً مرغوباً ، كانت ثمرة تطورات بطيئة . ويذكر القاري أن كلوفيس أنشأ كنيسة يصح اعتبارها قومية أو تكاد . وقد واصلت الكنيسة الاحتفاظ باستقلالها في ظل أحفاده ، حتى أن البابا جريجورى الكبير نفسه لم يستطع رغم تعيين نائب له في آرل ، تنفيذ مدعياته في السلطان ، بل اضطر إلى أن يكتفى بأن يمارس عن طريق أمثال برانهيلدا نفوذاً غير مباشر . وانعكس على الكنيسة الارتباك والبلبلة اللذان يتولدان عن الحروب الأهلية ؛ فإن انقسام المملكة لم يهيء الفرصة لعقد المجامع الكنسية العامة ، كما أن الأساقفة تورطوا في النزاع السياسي . واختلطت السلطات الزمنية بالكنسية ، ولم يكن صوت الهابوية مسموعاً بين فرقة الأسلحة . فلما أن أعيد النظام إلى نصابه في عهد الكارولنچيين ، صار من الضروري لإتمام الوحدة السياسية لفرنسا ، بزيادة العناية بتنظيم إدارة الكنيسة . إذ إن شارل لم يسهم إلا في زيادة الاضطراب ، وذلك لأنه كافأ أتباعه بما بذله لهم من الأسقفيات والأديرة ؛ ولكن يبين وأخاه كارلومان اللذين انسحبا فيما بعد إلى الدبر ، أقرأ مشروعات الإصلاح التي عرضها عليهما بونيفاس ، وصدرت على أثر ذلك طائفة من القرارات ،

التي تنظم السلطة الكهنوتية وإدارة الكنيسة وآدابها . وكان بونيفاس مبشراً إنجليزياً ، قام بخدمات جليلة في ألمانيا ، حيث أدخل في الدين المسيحي عدداً كبيراً من الوثنيين . وسنعود إلى الإشارة إلى أعماله الجليلة فيما بعد ، بيد أن أهمية عمله في هذا المقام ، إنما ترجع إلى علاقته الوثيقة بالبابوية . وكان بونيفاس من رجال البابا المخلصين . وقد طلب من كل أسقف يتبعه أن يقسم بيمين الولاء لكنيسة روما وللقديس بطرس وقسيسه الأكبر وهو البابا . وعلى الرغم من أن بيبين وكارلومان احتفظا بما لهما من حقوق السيادة على الكنيسة ، فإنهما كثيراً ما كانا يستشيران البابا ، ومن ثم أخذت العلاقات بين السلطين الكبيرتين في الغرب تتوثق رويدا رويدا . وحدث بالفعل أن شارل مارتل تلقى استغاثة من البابوية تستصرخه لنجدها ، وقد اشتد بها الضيق في أثناء كفاحها مع اللومبارد . غير أنه لم يستجب لذلك النداء ، وذلك لأن مركزه لم يتوافر له من الاستقرار ما يسمح له بخوض حملات خارجية مخوفة بالخطر ؛ يضاف إلى ذلك أن اللومبارد كانوا الحلفاء الطبيعيين للفرنجة وأنهم انحازوا إلى شارل في أثناء قتاله مع المسلمين . ولم يجد شارل كذلك بدا من النظر بعين الاعتبار إلى مركز أباطرة بيزنطة الذين كانوا بوصفهم أباطرة روما لا يبرحون يطالبون بالسيادة على إيطاليا . غير أن الأحداث كانت تتحرك بسرعة نحو خاتمة فاصلة . ففي (٧٥١) قذف ملك اللومبارد بقواته على رافنا . ففر الأرخون (النائب الامبراطوري) البيزنطي وفقدت بيزنطة إلى الأبد أملاكها في شمال إيطاليا . وفي السنة ذاتها وبتشجيع من البابا ، اتخذ بيبين لنفسه التاج بعد أن نفي عن العرش آخر ملوك الميروقنجيين . وعندئذ أصبح تهديد اللومبارد للبابوية خطراً محدقاً ؛ وكان الموقف يتطلب منها الخضوع التام ، كما أن سقوط روما بدا شيئاً لا مندوحة منه . ولم يرح بيبين متردداً ، حتى عبر البابا بنفسه جبال الألب في مهمته الخطيرة ، التي أدت إلى

جلب قوات الفرنجة إلى إيطاليا ، وتوطيد اتحاد البابا والبيت الكارولنجي في الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

حكم الرومان والجرمان

بالغ المؤرخون في قيمة بقاء فكرة الإمبراطورية في أثناء القرون التي انقضت بين سقوط روما وتنويع شرمالان . حقاً أن جذور الإمبراطورية الغرية كانت تمتد طويلاً في الماضي السحيق ، وأنها تستمد بقاءها بطبيعة الحال من السوابق العتيقة ؛ يضاف إلى ذلك أن تأسيسها لم يحدث انقلاباً ثورياً في الموقف السياسي بالغرب ؛ وكل ما فعله أنه كان تعبيراً رسمياً لما كان قائماً فعلاً من الأمور . غير أن ما اقترن بأصلها من ظروف عجيبة والفروق الضخمة التي كانت تباعد مسافة اختلف بينها وبين الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أنموذجها الأول المحتدى ، إنما ترجع إلى حد كبير إلى اندماج الحضارتين الجرمانية والرومانية ، الذي تميز به سكان ممتلكات الفرنجة . وكل ما يمكننا إيراد هنا عن ذلك الأمر هو مجرد الإشارة العابرة . ذلك أن ما حدث إنما هي عملية معقدة دامت ثلاثة قرون ، واختلف أثرها بين منطقة وأخرى ، وبين مدة زمنية وأخرى ، كما أن معرفتنا بها ضئيلة ومستمدة من سجلات متقطعة متناثرة ، وهو وضع يحول دون الوصول إلى قواعد وتعميمات وثيقة .

فمن حيث المظهر ، يبدو أن التنظيم الإداري والسياسي بفرنسا لم يختلف إلا قليلاً عما كان عليه حاله في غالة الرومانية . إذ إن ما اتخذته ذلك التنظيم من الطرائق والمصطلحات مستمد من روما ، وكانت اللاتينية هي اللغة الرسمية . ومما هو جدير بالملاحظة في هذا الصدد ، أن عدد الكلمات ذات الأصل الجرمانى في الفرنسية الحديثة لا يتجاوز العشرة في المائة من اللغة الفرنسية ذاتها . أما فيما يتعلق بالوضع القانوني ، فلم يترك الفرنجة عن سائر السكان إلا في قيمة ميلاد العصور الوسطى

الدية (Wergild) ، على حين أن مناصب كبار رجال الدين ، فضلاً عن المناصب المالية ، كان يشغل معظمها الرومان الفرنسيون . ولكن لو فرض أن أوضاع هذه النظم بقيت دون تعديل ، فلا شك أن روحها كانت تعرضت فعلاً لتغيرات عميقة ، لاعت طريق المؤثرات الجرمانية المباشرة فحسب بل أيضاً نتيجة ما ترتب على الغزوات من أحوال جديدة . وقد استندت الإمبراطورية الرومانية إلى الفكرة التجريدية عن الدولة ، وإلى جعل القوانين والحكومة للجميع بدرجة متساوية ، وبصورة مستقلة عن أولئك الذين يمثلونها . فالفرد ليس إلهاماً بالإنسان بل إنساناً لا رعية للإمبراطور . أما المملكة الفرنجية فكان اعتمادها في بقائها على العلاقة الشخصية بين الرجل والرجل . وكانت سلطة الملك شخصية بحتة ، فهي من ثم تختلف باختلاف شخصية شاغل العرش . وكان رعاياه يرتبطون به بيمين الإخلاص - التي هي رابطة شخصية - وهي عمن تحم عليهم اتباعه في الحرب . وظهرت عند ذلك طائفة جديدة من النبلاء ، اعتمدت في البداية على الملكية ، ثم أخذت بعد ذلك تظهر بالقوة عن طريق النفوذ الوراثةي المحلي ، والإعفاءات التي كانت تغدق عليها . وكان العنصر الشخصي ظاهراً أيضاً في المجال القانوني . فإن الرجل من هؤلاء كان يحكم بمقتضى قوانين الجنس الذي ينسب إليه ، سواء كان من الغاليين الرومان أو الساليين أو الريواريين أو البرجنديين . وكانت طريقة الأخذ بالتأثر ، وهي ذلك المبدأ الجرمانى القديم ، لا تزال قائمة لم يتم القضاء عليها ، ولذا حفلت صفحات تاريخ جريجورى أسقف تور بقصص التأثر والانتقام . ومن ثم فإن ما اشتهر به نظام الوظائف في غالة الرومانية من بالغ التخصص في الأعمال لم يعد له وجود ؛ وذلك لأن ظهور الأحوال الجديدة البدائية الساذجة أزال كل قائمة له . فأحاط بالملك «النشريفانى الحاجب» و«الصنجيل» و«الكندسطل» ، وقام بالمهام الخاصة

أفراد من رجال البلاط لم يجر اختيارهم وفقاً لنظام خاص . وأصبحت المناطق المختلفة تحت حكم الكونتات الذين يختارهم الملك من بين جميع الطبقات ، بينما نيطت حكومة الثغور بأدواق عسكريين ، كثيراً ما أصبحوا حكاماً وطنيين ومستقلين فعلاً ، شأن ماحدث من دوق بافاريا وثورنچيا . وكانت بوابات العصور ومعديات الأنهار لاتزال تدفع مكوسها ، وإن حدث في كثير من الأحيان أن أفرادا كانوا يفتصبون تلك المكوس لأنفسهم ، على أن نظام الضرائب المحكم الذى تميزت به الإدارة الرومانية قد أغفل وأصبح مهملًا ؛ إذ لم يعد له مكان فى خطة أمير ليس لديه خدمات عامة يحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، ولا يعد المال إلا شطرا من ثروة مدخرة تمحول عند اللزوم إلى مصارف ذهبية أو حلى مرصعة بالجواهر . وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا لا يعدون الجيش من الأعباء العامة بالدولة ؛ إذ تحشد « الجموع » حشداً جديداً لكل حملة من الحملات . وكان رجال الجيش يعتبرون أتباع الملك ، ويؤدون الخدمة على حسابهم الخاص . أما القوات الدائمة الوحيدة فهى الحرس الملكى الخاص (Antrustions) ، فضلا عن بضع كتائب قليلة ترابط على التخوم .

على أن فئات نظام الديرية^(١) تقسم المجتمع ابتداءً إلى غالب ومغلوب . وتضع الغالبين الرومان دون أقل الفرنجة مرتبة . غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ إن الميزات الشخصية قد أبرزت نفسها ، فبينما ظلت طبقة السناثوريين تمتد الحكومة بالأساقفة والموظفين ، حاز أغنياء الفرنجة قسماً ضئيلاً من الثقافة الرومانية . واختلطت الطبقتان إحداهما بالأخرى ، وحذا حذوهم الأرقاء والعتقاء وصغار الفلاحين من كل من الجنسين . وهنا أيضاً يكون ولاء الفرد للفرد هو القوة الرابطة . فالأسقف أو رئيس الدير والموظف فى البلاط أو

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان فرنسا فى عهد كلويس من ١٢٠ .

الحاكم المحلي كلهم رجل الملك (Leud) ، وكلهم مرتبط به برباط خاص . وكلهم موضوع تحت حمايته . وكان هذا المبدأ نفسه معروفاً في كل إقليم (pagus) . فالكونتات ينتظمون تحت إمرة الأدواق ، ويلتمس حماية الكونت الرجال الذين يقولون عنه مكانة . فكان السلسلة الإقطاعية قد تشكلت فعلاً ، وإن لم يعترف بها القانون بعد ، وهنا أخذت كلمة « رجل (Leud) تختفي ليحل محلها مصطلح : « تابع Vassus » . يضاف إلى ذلك أن هذه التبعية الشخصية قد عززها وزاد في قوتها نمو المزارع الضخمة . فكما حدث في القرون المتأخرة من الحكم الروماني ، كان المالك الصغير يسارع إلى وضع نفسه تحت حماية سيد قوى بأن يتنازل له عن حيازته الحرة مقابل الحصول على وعد بكفالة سلامته وأمنه . وكانت الأديرة والأسقفيات تضيف إلى أملاكها الحقل بعد الحقل ، وذلك لأنه متى انتقلت الأملاك إلى يد الكنيسة ، لم يعد ممكناً انتقالها من حوزتها ، وكانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى ملكية الكنيسة بفرنسا ما يربو على ثلث الأراضي . ويتجلى ضعف السلطة المركزية أيضاً فيما ارتكبه صغار موظفيها وتابعيها من الأخطاء والأضرار ، على أن كبار الملاك حصلوا على الامتيازات والإعفاءات تجنباً لما يقوم به هؤلاء الموظفون من ابتزازات . وبذلك أبعد موظفو الملك عن تلك الأراضي منذ تلك اللحظة ، وانتقل إلى ملاك الأراضي كل ما يتصل بالضرائب والشئون القضائية من حقوق ومزايا وأرباح . والواقع أن الملكية والسيادة أخذتا بالفعل تتوحدان وتنقسمان . ومن ثم جردت الملكية (العاهلية) الوهمية نفسها من كل ماتبقى لها من سلطات قليلة . ومن هنا أخذ ما كان لدى الرومان من حكومة مركزية وآفاق هريضة للدولة يقترب من نهايته ، ويتحول إلى خصائص العصور الوسطى وماها من الحكم المحلي والنظرة الضيقة المحدودة .

الفن والآداب والخرافات

لقد ولت حياة المدينة القديمة . وأصبحت المعابد ومدرجات الألعاب (Amphitheatres) خرائب وأطلالا ، وصارت الحدائق تشغل المناطق الخالية داخل المدن المسورة . وتكس سكان القرى حول مسكن مالك الأرض الكبير بما يحوى من كنيسة وطاحون ودكان حداد ومخابز وإسطبلات إلى غير ذلك من الوسائل التى تكفل الاكتفاء الذاتى . وفى بعض الأحوال كانت أكواخ الأتباع تقع فى أطراف الضيعة ، على أنها تقوم فى معظم الحالات فى شوارع متجاورة ، وهى أسلاف معظم قرى فرنسا الحديثة . ولا تزال بيوت الأغنياء تحوى السقائف والأعمدة ، ولا تزال بها الحمامات والينابيع . وقامت الكنائس فى كل مكان ، منها ما اتخذ طراز الباسيليكة القديمة ومنها ما هو على شكل الصليب ، يتوسطها برج بأعلاه منور ، ومنها ما بنى من الخشب على الطريقة التيوتونية . ويتألق داخلها بما رصع فيه من رخام ملون وما أسدل فيه من أستار الحرير الفاخرة الموشاة ، على أن الرخام قد انتزع أصلا من بعض العمار القديمة ، كما أن الأستار الحريرية مصدرها بيزنطة . ويغلب الطابع المتبربر على فن النحت ، وقد اندثر نهائيا ما اشتهرت به النواويس الآرلسية من تقاليد النحت الأصيلة . فلم يبق على ازدهاره القديم سوى صياغة المعادن ، لأنها كانت تحظى بتشجيع خاص من البلاط الميروفنچى ، ومن هنا تأسس حى الصاغة فعلا فى ظل كنيسة نوتردام بباريس .

وأخذ التغير السريع يلم بلغة الحديث . ولم يعد الفرق كبيرا بين اللغة السوقية الدارجة ولغة الأدب ، وأخذت اللهجات المختلفة تسير فى عملية التشكل بفعل ضغط القوانين الصوتية . فاستخدمت لفظة (Flumina de sanguine) للدلالة على « أنهار الدم » واستخدمت عبارة (promissum habemus)

للتعبير عن قولهم « لقد وعدنا » . واستعيرت ألفاظ ألمانية كثيرة ، ولكن
اللسان الجرمانى لا يفتأ يحتفظ بمكانته فى المناطق الشرقية . وباستثناء كتاب
التاريخ الذى ألفه جريجورى أسقف تور ، فإن الأدب اقتصر أو كاد على تراجم
القديسين ، وهى مؤلفات تكرر فى تشابه ممل سرد المعجزات التى أتاها
بطلها المترجم له . وفيها تتعاقب العبارات الرتيبة والجمل السقيمة بعضها وراء
بعض ، وليس بين الكتاب واحد متمكن من لفته . وليس فيهم من ألم بأية
حال بالدراسات الكلاسيكية ، بل إن الاعتقادات اللاهوتية نفسها قد أقفل
رناجها دون معظم رجال الدين من أهل غالة . وتشربت ديانة سواد الناس
بالتقاليد الوثنية ، بل الحق أن الوثنية نفسها لم تخمد نارها ولم تحتف نهائياً . فإن
ماذاع عند الكتبيين من عبادة إله البحيرة وإله الجدول ، كان لهما من بعدهما
سراً ، كما أن الإله أودن كان لا يزال له مقره فى غابة الأردن . على أن دعوة
الكنيسة التى تعززها الرهبة من السلطة الدنيوية ، قدر لها أن تجرد الآلهة
القديمة من سلطانها ، غير أن الصياد الأسود واجتماع الساحرات عند منتصف
الليل ، وكل ما يصدر عن صنوف العفاريت من الفيرى والأقزام والوحوش
من ضجيج ، قد ظلت تلاحق خيال العصور الوسطى وتستثيره . ومنذ ذلك
العصر أصبح الشيطان (وهو « العدو » كما أخذوا يسمونه - وهو لفظ يجمع
بين الخوف والخفاء) بارزا مشهورا فى المعتقدات الشعبية ، وأخذ الدين يتشع
برداء معتم قاتم . فإن أحداً من الناس لن يستطيع فى اعتقادهم درء انتقام الله
أو مكر الشيطان إلا بإقامة الشعائر الدينية . ويظهر القديسون فى الحقول
عياناً ، وتصبح المعجزات ونذر السوء من خبرات الحياة اليومية . وترهق
الأحلام والنأل عقول الرجال ، وتكتسب الأضرحة والمقدسات الدينية
قدرات سحرية على النفع والمضرة .

فهل يوجد في مثل هذا العالم شيء طبيعي ومعقول أكثر من أن الإمبراطور قسطنطين ، وقد شفته المعجزة من البرص ، قد اعتنق المسيحية ، جالباً معه الإمبراطورية الرومانية بأجمعها ؛ وأنه بادر من فوره بالإنعام على البابا سلفستر بتولي الحكم الإمبراطوري في الغرب منسجماً هو نفسه بغاية التواضع إلى بيزنطة ؟ أو هل هناك شيء طبيعي أكبر من أن تتناقل الألسن أن القديس بطرس بشخصه قد دعا القوات الفرنجية للدفاع عن مدينته المقدسة ؟ وكيف يمكن في حمأة مثل تلك الأشكال والنظم أن تحمل ألفاظ مثل الشريف (البطريق Patricius) والإمبراطور والجمهورية بماهين من تاريخ قديم ومعقد أى معنى أو أهمية دستورية مضبوطة إلى عقل رجال السياسة في ذلك الزمان ؟

الفصل الثالث عشر

البابوية

١ - نفوذ البابوية في إنجلترا وألمانيا وفرنسا

لقد شهد القرنان اللذان أعقبا وفاة جريجورى الكبير ، تطور النفوذ البابوى بأوربا الغربية ، ذلك النفوذ الذى مضى متسهما مضطربا وخفياً غير مدرك حتى عند أصحابه أنفسهم . وقد كان لما اتصف به جريجورى من خلق ومكانة شخصية ، أثره فى رفع مكانة كرسى القديس بطرس إلى مستوى لم يستطع خلفاؤه المحافظة عليه ، ولم تكد شخصيته القوية تتوارى عن الأنظار ، حتى نبلى عدم استقرار مدعياته . أجل إن بعض المشاكل التى أثارها ممالك البرابرة قد حلت ، ولكن مصاعب جديدة بالغة الضخامة صارت ملموسة . وقد أخذ الاضمحلال يدب إلى المذهب الأريوسى . وتحول اللومبارد إلى العقيدة الكاثوليكية ، واقتفت أسبانيا آثارهم عندما اتخذ ريكارد (٥٨٦-٦٠١) الكاثوليكية عقيدة قومية . على أن الخطر كان وقتذاك بالغ الاختلاف وشديد الخطورة . فلم يكن فى وسع الأمراء الألمان ، وقد انصرف كل منهم إلى إنشاء حكومة مركزية قوية ، أن يتخلوا عن أى من عناصر سيادتهم . فلو حدث أن أنشأ هؤلاء الحكام مجموعة من الكنائس القومية لاتدين للبابوية إلا بولاء لفظى مجرد من الإخلاص ، لكان ذلك ضربة مسددة إلى قلب روما ذاته . والواقع أن الجوكان نيندرينشوء ذلك الوضع السيئ . ذلك أن كلوفيس وخلفاءه لم يكونوا يطبقون مطلقاً أى تدخل فى سيطرتهم على الكنيسة ، ولذا ظل منصب القاصد الرسولى (نائب البابا) بمدينة آرل مركزاً شرفياً لا يقوم بعمل النائب

عن أحبار روما. ولم يتوقف اللومبارد عن العدوان حتى بعد اعتناقهم المسيحية. وربما جاز فعلا أن نخاف البابوية وهي واقعة بين سيوف اللومبارد (Inter Gladios Lombardorum) قيام مملكة جرمانية في إيطاليا. على أن نشاط جريجورى أوتى في أسبانيا خطأ أوفر من النجاح. إذ توقت بفضل العلاقات بين روما وبين الأساقفة الأسبان، ولذا تميز القرن الأخير لحكم القوط الغربيين بنمو نفوذ الأساقفة، الذى بلغ من سيطرته على الشؤون العلمانية أن طغى على سلطان الملكيات نفسها. وعلى الرغم من أن أحكام البابوية وقواعدها أرهقت الروح الاستقلالية للكنيسة الأسبانية، فإن هجوم الجيوش الإسلامية عرض سلطان الكاثوليكية لضربة أشد خطورة.

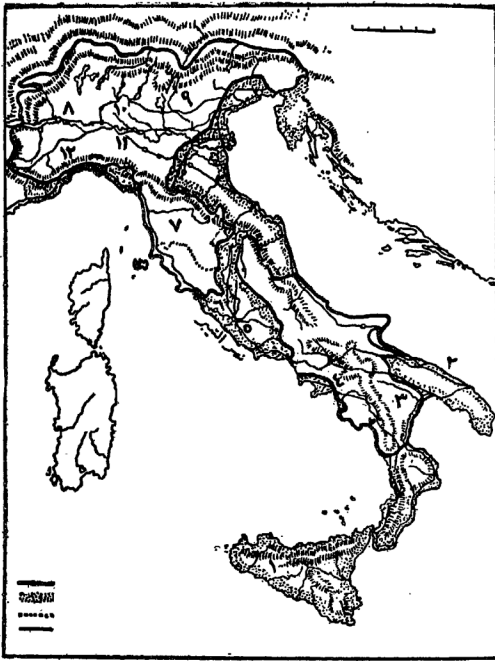
على أنه لم يكن بد من أن يعدل التوازن عن طريق جهة أخرى. ذلك أن بقايا المسيحية البريطانية كانت تراجعت إلى المناطق الغربية أمام زحف المسكون. وقد حملت العقيدة قبل ذلك إلى إيرلندا، حيث نشأ مركز جديد للمدنية، يجتذب إليه القديسين والعلماء من أرجاء العالم. وفي هذه الجزيرة المنقطعة عن العالم القديم والتي لم تمسها أسنة المغيرين الجرمان، بقيت تقاليد الحضارة القديمة حية في الأديرة الكبيرة، وإن أصابها الهزال ومساها التبرير. ولا شك أن الجو الخاص الذى يريم على هذا العالم الأجنبي الغريب، إنما يتجلى فيما صدر عنهم من قصائد لاتينية نلص فيها طريقة الكلتيين في مراعاة الإيقاع والوزن في حروف العلة بالكلمات المتتالية في مخطوطاته الفائقة التى تفرد بينها كتاب المشبكات (Book of Kells) بما حوى من الحليات والحروف الكبيرة^(١). بيد أن الكنيسة الإيرلندية لم ترض بالبقاء في عزلة. إذ إن كولومبا نشر الإنجيل في اسكتلندا والجزائر الغربية، كما أن أبونا أصبحت

(١) انظر ص (١٥٦ - ١٥٧) والحروف الكبيرة من المستخدمة في بدء المجل والأعلام في اللغات الأجنبية.

مركزاً شهيراً للمسيحية . وعبر كولومبان البحر إلى فرنسا ، حيث أقام أديرته التنسكية بمنطقة الفوج . وتولى جال في سويسرا وكيلىان في بافاريا نشر المثل العليا الإيرلندية (الهيرنية) .

روما والكنيسة الكثنية

وانطوى هذا النشاط التبشيرى على بعض الأخطار التى تهدد سلطان روما . وفيما خلا ما نشب من فروق صغيرة ، كان لها طابع جدلى يمتثل للاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح وطريقة قص شعر الرهبان ، فإن الكنيسة الكثنية احتفظت بكل من إيرلندة وغرب بريطانيا بتقاليد بدائية كثيرة ، وأبدت نفورا من الاعتراف بقيمة نظام الهيئة الكثنية وتربيتها ، التى تطورت فى الأقاليم التى قطعت فى المدينة شوطاً أبعد ، والتى أنشئت على غرار النظام الإدارى فى الإمبراطورية الرومانية . كان هناك الأبروشية والأسقفية والأسقف والمطران والمجالس والقوانين الكثنية ، وفوق هذا كله السلطة المركزية بروما - ولكن هذا النظام المنطقى لم يثر حماسة بين مجتمعات الأديرة القبلية بإيرلندة . ومع أن بعض الحالمين المتحمسين من « جزيرة القديسين » (إيرلندة) هذه ربما تجرأوا على توبيخ الملوك ، بل ربما كانوا عرضة فى بعض الأحيان لحقن براهينها الرهيبة ، إلا أن أرباب السياسة والتدبير من البابوات مثل جريجورى أدركو أن توطيد سلطان الكنيسة على المجتمع العلمانى لن يتحقق إلا باستخدام أساليب بالغة العلمانية ، وبإنشاء قوة مدربة منظمة . ولذا فكر هؤلاء الساسة فى أن يتخذوا من هيئات الرهبان عوناً عظيم القدر فى تحقيق هذا المبدأ ؛ ويجعلوا منها قوة يركن إليها فى دعم سلطان البابوية والقضاء على كل أسقف متمرد ، ولم يكن الأساقفة فى العادة سوى نبلاء أقوياء انتزعوا مناصبهم كرهاً من ملك ضعيف أذعن لإرادتهم . ولكن الفئة التى تمت الاستفادة منها على



(١٥) خريطة إيطاليا من القرن السابع إلى الثامن

- | | | |
|--------------|--------------|----------------|
| ١ - صقلية | ٢ - كالابريا | ٣ - بنيفنتو |
| ٤ - كامبانيا | ٥ - روما | ٦ - نهر التيبر |
| ٧ - توسكانيا | ٨ - نوستريا | ٩ - أوستريا |
| ١٠ - ميلان | ١١ - بارفا | ١٢ - ليجوريا |
| ١٣ - نابولي | | |

هذا الوجه ، لم تكن فئة الرهبان الإيرلنديين ذوى النزعة الفردية ، ممن يتحدثون الملك والأسقف بل البابا نفسه ، وإنما هم طائفة الرهبان البندكتيين الذين عمدوا إلى إفناء شخصياتهم فى الإذعان لقادتهم الروحانيين .

وكان إيفاد البابا جريجورى للقديس أوغسطين فى مهمته التبشيرية ببلاد الإنجليز نقطة التحول فى هذه العملية ، وإن بدت مهمة ضئيلة الشأن فى ذلك الزمان . وتم تنصير إنجلترا رويدا رويدا واستغرق الشطر الأكبر من القرن السابع ، بيد أنه انطوى على سلسلة من الانتصارات والهزائم ، التى كان مردها تقلب الحظ بالمالك من ناحية ، والعداء الناشب بين الكنيستين الرومانية (الكاثوليكية) والكلتية من ناحية أخرى . وظلت كنيسة كانتربرى معقلا حصينا لنفوذ روما وكنيستها ، على أن مرسيا قد ظلت مملكة وثنية ، كما أن نورمبريا ترددت بين الإخلاص لحليفتها الكنتية (Kentish) وولائها لماتبشر به «أيونا ولنديسفارن» على المذهب الكلتى . وكان مجمع هويتى فى (٦٦٤) وهو المجمع الذى أكد ظفر كنيسة روما ، أول علامة سجلت ما يمكن تسميته باسم تنظيم الكنيسة الإنجليزية اللاتينية . وفيه قسمت البلاد إلى أبرشيات ، وأصبح القس المركز الفعال لكل أبرشية . وأخذت الكنائس الحجرية تحل محل الكنائس التى كانت تبنى فى الماضى من الخشب ، ثم ظهر نظام الأبرشيات بعد فترة من الزمن . وأصبحت المجمع تعقد بانتظام ، وأخضع الرهبان والقس على السواء لحكم رؤسائهم . ومنذ تلك اللحظة تحولت إنجلترا رويدا رويدا إلى إقليم موال لسيادة روما الروحية . وازدهر التعليم فى المدارس الكبرى ، واستجلبت موسيقى الكنيسة وزخارفها من وراء البحار رغبة فى زيادة فخامة وبهاء هكسها ووبرماوث . ونفدت الحماسة الدينية إلى قلوب الطبقة الحاكمة . فدخل الدير سيدات من الأسرة المالكة ،

وأخذ الملوك يظهرون اهتماماً شديداً بالمخلفات المقدسة أو يتشحون بأردية
الحجاج ، وينطلقون ابتغاء قضاء أيامهم الأخيرة في روما .
وافتح ولغريد اليوركي سلسلة الحملات التبشيرية الأنجلوسكسونية بألمانيا
والأراضي المنخفضة ، وهي سلسلة بلغت ذروتها بفضل اسم بونيفاس العظيم .
ولن نفي النتائج السياسية التي ترتبت على عمل بونيفاس حقها من التقدير مهما
بالغنا في الإشادة بها . وكان مسرح معظم ما بذله من جهود إقليماً يقع خارج
حدود الإمبراطورية الرومانية ، وكان من المستحيل أن يعتنق سكانه غير
المتحضرين المسيحية لولا مساندة شارل مارتل ، الذي كانت فتوحه بدورها
تدين بالشيء الكثير لمعاونة بونيفاس وأتباعه . وفي (٧٣٢) أنعم البابا على
بونيفاس بلقب كبير الأساقفة ، ونظمت كنيسة ألمانيا تحت زعامته بوصفه
عضواً مخلصاً يدين بالولاء والطاعة لروما . وفي هذه الآونة تم إقناع البافاريين
والألامان الذين سبق أن اعتنقوا المسيحية على أيدي رهبان من الإيرلنديين ،
بالاعتراف بالسيادة البابوية بفضل مساعدة الفرنجة وسلطانهم . على أن عمل
بونيفاس لم ينته عند هذا الحد . فإنه أقبل بناء على دعوة من بيبين وأخيه
على إصلاح كنيسة الفرنجة . فأزيل كثير من الأخطاء والعيوب ووضعت
الأسس لمقدد المجامع الكنسية بانتظام وإلزام الأساقفة بالاعتراف الصريح
بسلطة البابا .

لقد أدخل بونيفاس المسيحية والحضارة إلى وسط ألمانيا ؛ فيسر بذلك
تقدم شارل مارتل بتلك المنطقة ، كما مهد السبيل لما حدث فيما بعد من ضم
شرلمان لتلك المنطقة إلى ملكه ، وبذا أسهم بونيفاس في وضع أسس السيادة
الكارولنجية . كما أنه أخضع لسلطان البابا الكنيستين الكبيرتين بفرنسا
وألمانيا ، ووثق أواصر التحالف بين البابا وبين كبير الفرنجة ، ذلك التحالف
الذي أصبح عاملاً فاصلاً يتحكم في تاريخ أوروبا الغربية . هذا وإن القوى السياسية

التي تمخض اندماجها عن قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأعنى بذلك بسط النفوذ البابوى ورموخ دولة الكارولنجيين ، إنما تدين للمسيحية الأنجلوسكسونية بدين لا يقل عما أسداه فيما بعد ، إحياء العلوم والفنون الذى وضع بذورته وطوره فى بلاط شرلمان تقاليد يسكوب البندكتى وبيده الجليل (Bede) ، التى شجعا ونماها ألكوين وأتباعه .

٢ - توازن القوى فى إيطاليا

اللومبارديون

كانت ظروف اللومبارد داخل الإمبراطورية مختلفة تماماً عن الظروف التى صحبت دخول معظم الأجناس الجرمانية الأخرى . ذلك أن هذه الأجناس كانت تعد جندا محالفة (Foederati) — أى أنهم كانوا من الناحية النظرية مدافعين عن الدولة الرومانية — كما كانوا بصورة ما يؤلفون الشطر المقاتل والقوة الضاربة من السكان . أما اللومبارد فإنهم احتلوا الديار الإيطالية بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين فعليين . ولم يكن يحق للملك الأراضى الرومان أن يشتركوا فى ملكية أملاكهم مع « الضيوف »^(١) البزبرة . إذ جرت العادة على الإجمال بنفيهم منها وحرمانهم من كل شخصية قانونية — وذلك فى مراحل الغزو الأولى على الأقل . ومن ثم لم يكن هناك أى احتمال لقيام تنظيم مزدوج كالذى حدث فى مملكة ثيودوريك^(٢) ، كما أن اللومبارد المنتصرين نزعوا فيما يبدو إلى الاحتفاظ بوحدتهم العنصرية وتقاليدهم سليمة مبرأة من كل شائبة ، والحيلولة دون تسرب الأفكار والنظم الرومانية إليها . على أنه قدر لطبيعتهم بالطابع الرومانى أن يتم فعلا ، ولكن بوسائل أخرى،

(١) انظر ص ١١٦ بعنوان الممالك الجرمانية الرومانية .

(٢) انظر ص ١٢٤ بعنوان إيطاليا فى عهد ثيودوريك .

حتى إذا وافى عهد تدخل الفرنجة ، كان اللومبارد وقد قضوا قرنين مستقرين بقطر متشعب بالمؤثرات الروحية والمادية لحضارة البحر المتوسط مدة تربو على الألف سنة - ، قد تعرضوا لتغيرات عظيمة في طريقة عيشهم . فلم يعد اللومباردي يعد المدن المشيدة من الأحجار أما كن جديدة يجوز له نهبا . فإن تلك المدن أصبحت محلا لإقامة ملوك اللومبارديين أو نبلائهم ، وصرا كزعسكية وإدارية للمناطق التي تمتد الطبقات الحاكمة بكل ما تحتاج إليه من وسائل العيش . فالتخذ عاهلهم مقر إقامته في القصر (palatium) المشيد في باثيا على الطراز الروماني القوطي ؛ وقد بادر البرابرة إلى تقدير ألوان الترف في عيشة الحضارة والرفاهية بسرعة أصبحوا معها لا يستغنون مطلقا عن خدمات حشد كبير من الصناع والتجار الرومان - أمثال المهندسين المعاريين والبنائين وتجار الجواهر وصناع الدروع والسلاح ، والموردين لكل ما تحتاجه حياة المدينة من مطالب . ويتجلى التغير في أوضح صورته في صفحات كتاب بول الشمس ، وهو لومباردي سطر تاريخ قومه في أثناء النصف الثاني من القرن الثامن . ويستفاد مما كتبه أن ثياب أسلافه التي كانوا يرتدونها عند أول ظهورهم بإيطاليا ، قد أصبحت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفها إلا من صور المناظر في قصة اللومبارد التي أمرت الملكة ثيودليندا حوالى (٦٠٠) للميلاد بتصويرها على جدران قصرها الذي شيدته في مونزا . وهو يلاحظ أن الصور تمثل بوضوح ^(١) المظهر العام للومبارد في ذلك الزمن ، وأزياءهم في الثياب وقص الشعر . فقد كانوا يخلقون مؤخر الرأس تماما ، ولكنهم يتركونه طويلا في مقدم الرأس ، ويفرقونه في الوسط فيتهدل على الخدين . ويستطرد الكاتب فيقول ، إنهم كانوا يلبسون ثيابا فضفاضة معظمها من الكتان مثل ثياب الأنجلو سكسون ولها خطوط عريضة مختلفة

الألوان ، وقد انتعلوا أحذية طويلة الرقبة تكاد تكون مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين وتربط بشريط مستعرض . ثم شرعوا بعد ذلك يرتدون السراويل الضيقة ، ويمجولون عليها في أثناء ركوبهم أغطية خشنة من الصوف ؛ غير أنه يضيف إلى ذلك أن هذه العادة قد نقلت عن الرومان .

ولم يقف أثر الرومان عند حد الأزياء الجديدة في الثياب والأسلحة . فإنه على الرغم من أن قلة منهم كانت تستطيع التحدث باللاتينية عند دخولهم إلى شمال إيطاليا لأول مرة ، فإن تغير الأحوال واشتداد التعقيد في الحياة اليومية كانت في جانب اللسان الأكثر تمدنا ، ولم يلبث استخدام الألفاظ اللومباردية حتى أصبح يعد أمرا حوشيا مبتذلا في نظر النبلاء . ثم أتم هذه العملية ما حدث من المصاهرة والاختلاط المستمر بين الغالين وبين سكان يفوقونهم عددا ، وكانت نتيجة ذلك أن الإيطالية ظلت إلى يومنا هذا أنقى لغات الرومانس . وينبغي لنا أيضاً ألا نفعل الأثر الثقافي للكنيسة بما كان لها من مرا كز تعليمية مثل دير بوبيو القائم في الأراضى اللومباردية ذاتها - هذا إلى أن العقود وغيرها من المستندات القانونية كانت تصاغ على الدوام في صيغة رومانية ، ومع أن القانون اللومباردى كان جرمانيا ، فإنه لم ينج من تسرب الأفكار الرومانية إليه ، وتلقى استبداد الحاكم باعثا قويا كما حدث دائماً في حالة القبائل التيوتونية كلما اتصلت بالإمبراطورية وأساليبها ووسائلها ، وإن اختلف مركز الأدوات متقلبا بين منزلة الموظفين المرءوسين وصغار الملوك المستقلين فعلا تبعاً لما يبيديه الملك من صلابة الخلق والقوة الشخصية . مثال ذلك أن دوقيتى بنيفنتو واسبوليتو زادتافي تحررها بتقدم الزمن بالقرن الثامن ، غير أن دوقيات شمال إيطاليا أخذت على التسريح تزداد خضوعا للسلطة المركزية .

ومما له دلالة أن ملك اللومباردين ظل يتخذ لنفسه لقب ملك الشعب

اللومباردى (Rex Gentis Lombardorum) . إذ إن قومه ظلوا مختلفين على الدوام في وضعهم القانوني عن سكان إيطاليا الرومان ، ولا يغرب عن البال أن جميع وسائل الحضارة وأدواتها التي سبقت الإشارة إليها ، كانت إلى حد كبير في أيدي التجار والفنانين والصناع الرومان . فضلا عن ذلك فإن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهريو وصناع الدروع والزردي في لوكا وكريمونا ومنتجى الفاكة والخضر اللازمة لتصوير نبلاء اللومبارد ، كانوا في الأغلب الأعم من الرومان، كذلك بقايا نقابة الصناع المعروفة باسم (Maestri Comacini)، وهي تلك النقابة الغامضة التي عني عليها النسيان المكونة من الفنانين ، الذين يرجح أنهم بقوا بعد اندثار نظام التعليم^(١) الجامعي في العصر المتأخر من الدولة الرومانية ، والذين كثيرا ما يتردد اسمهم في المناقشات التي تدور حول أصول الفن الإيطالي ومصادره . والواقع أنه لا يوجد أى شاهد حقيقى يصح أن يستند إليه في ادعاء قيام طراز لومباردى خاص في هذه الفترة ، سواء في فن العمارة أو البواعث الزخرفية (Motifs) .

السياسة الإيطالية

إن تاريخ إيطاليا منذ (٦٠٠ إلى ٨٠٠) للميلاد يمكن تلخيصه في أنه تاريخ نضال بين قوى خمسة لا تتفق أهدافها بعضها مع بعض . على أن دولتين من هذه القوى الخمسة هما مملكة اللومبارد والإمبراطورية البيزنطية فقدتا أثرهما الحاسم الفعال في السياسة الإيطالية عند نهاية تلك الفترة . أما القوة الثالثة ، وهي دولة الفرنجة ، فلم يكن تدخلها إلا فجأة وعلى فترات ، ولكنها تلعب دورا قويا في أثناء نصف القرن الأخير ، وهو دور بلغ ذروته بتألق نجم شرلمان . أما القوة الرابعة وهي البابوية فازدادت على الأيام نفوذا ، وهو

(١) انظر ص ٥٥ بعنوان اضطراب شئون الزراعة .

نفوذ حقيقى لاشك فيه على الرغم من استناره وراء مآثرات فيه البابوية من سمّة العجز . فأما القوة الخامسة ، وهى دوقيتا بنفينتو واسپوليتو - فتمثل « الفرسين » على لوحة الشطرنج الإيطالية ، فعلى الرغم من ضآلة شأنهما فى حد ذاتهما ، فإنهما كانتا تقبضان على خطوط داخلية ، وغالباً ما كانتا العامل الفاصل فى مشاكل ضخمة بما تقومان به من حركات غير منتظرة وهجمات غير متوقعة ^(١) .

وكانت السياسة الثابتة لكل ملك لومباردى قوى هى إخضاع إيطاليا ^(٢) برمتها لسلطانها . ومن الجلى أن تقصى الملوك لهذا الهدف الذى تمليه عليهم الحاجة إلى مكافأة أتباعهم باقطاعهم الأراضى بقدر ماتمليه عليهم الحاجة إلى سلامة الملك الشخصية والمحافظة على هيئته وكرامته - كان يلقى بطبيعة الحال مقاومة من القوى الأربعة الأخرى . بيد أن نواب الإمبراطور البيزنطى فى رافنا ، لم يترددوا فى استخدام القوات اللومباردية لمناهضة البابوات المتمردين بينما استعانت البابوية أكثر من مرة بالملك اللومباردى ، لقمع ما يصدر من بنفينتو واسپوليتو من حركات .

وكان الغرض الذى ترمى إليه بيزنطة الاحتفاظ بما فى قبضتها من المناطق البحرية بإيطاليا ، والإبقاء على موظفيها لوقف نمو قوة النبلاء من أصحاب الأراضى ، فضلاً عن القضاء على قوة البابوية التى هى أكبر أرباب الأملاك جميعاً ، ثم يأتى أخيراً الحصول على الجزية المطلوبة للدفاع عن ممتلكاتها بالأقاليم الشرقية التى تتركز بها فى ذلك الأوان مصالحها الحقيقية - ولم يكن الإمبراطور يرى فى ازدياد نفوذ البابا إلا مصدر قلق وكدر له ، ومن ثم لم يكن ليرضى

(١) نسجل هنا أن هاتين الولايتين اللومبارديتين التابعتين لم تمسلا متحدتين .

(٢) إن الذى يعبر عملياً عن تلك الفكرة هو الأسطورة التى تغل أوغارى (٥٨٤) يركب منطلقاً إلى غمار البحر فى الطرف الجنوبى الأقصى لإيطاليا ، ويلبس بحريته عموداً منفرداً يبرز من بين الأمواج ، وهو يقول « ليسكن هذا حد مملكة اللومبارد ! » .

بذلك النفوذ إلا بوصفه وسيلة لدعم وحدة الإمبراطورية سياسياً ودينياً .
أما الكرسي البابوي ، فلم يكن له من غرض في تلك الأثناء ، إلا مجرد المحافظة على بقائه . وعلى الرغم من اختلاف صنوف السياسة التي اتبعتها البابوية في سبيل ذلك ، فإن هدفها النهائي ظل ثابتاً لا يتغير . على أن الزمن ونمو الأمم الغربية كانا يعملان في جانب البابوية . والراجح أن ذلك لم يكن واضحاً تماماً للمجلس البابوي ، ولكن الشيء الذي كان الجميع يشعرون به ، هو أنه مهما يكن الأمر ، فإنه لا ينبغي إذلال البابا والخط من قدره حتى يتساوى بأى أسقف لومباردى من جهة ، ولا بأى موظف بيزنطى من جهة أخرى ، ومن ثم اقتضت الحسكة الاعتراف بسيادة الإمبراطور حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن الباباوات المعروفين ببعده النظر والذين استطاعوا الشخوص بأبصارهم إلى سهول فرنسا وراء عمرات الألب لا يمكن أن تخفى عليهم العواقب النهائية التي تترتب على ما قاموا به من تدابير خفية ودقيقة حيال بيزنطة .

وكانت مراعى اسبوليتو وبنيفنتو بسيطة ومباشرة : - وهى الاستقلال المحلى وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما ، على حين أن سياسة الفرنجة قبل الفتح ، كانت تحددها بواعث ثلاثة رئيسية ، الضعف الداخلى وصداقة اللومباردين التقليدية التي تقضى بالامتناع عن التدخل فى شئون إيطاليا ، إلى أن تمكنت الخيوط الدقيقة للدبلوماسية البابوية من اجتذاب القوات الغازية إلى أبواب روما .

على أن هذه العناصر المتحاربة تصالحت فترة من الزمن بفضل مآدار بينها من وفاق ومن إقامة توازن مقلقل مضطرب للقوى ، وهى النتائج التي ترتبت على المشاكل الداخلية أو وجود أمراء ضعاف . وقد قصر خلفاء جريجورى الكبير عما أوتى هو من شخصية قوية وبراعة تدبير ؛ كما أن أباطرة الرومان الذين خلفوا هرقل انصرفوا إلى الاهتمام بما تعرضت له الدولة من خطر

الإسلام : واضطربت الأمور بمملكة اللومبارد بالمنازعات على وراثة العرش وتمرد الأتباع الإقطاعيين ، وذلك على حين أن فرنسا لم تبرح تمزق أحشائها منازعات محافى القصر (الحجاب) المتنافسين . على أن الفترة الحاسمة فى إيطاليا تقترن بظهور شخصيات قوية تتولى دفة الأمور : أمثال البابوات جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١) وليو الإيسورى (٧١٧ - ٧٤١) وهو الإمبراطور الذى اشتهر بتعطيم الصور وليوتبراند (٧١٢ - ٧٤٤) أعظم ملوك اللومبارد . ولاشك أن التصادم المدوى بين هذه الشخصيات التى تتمثل فيها السياسات المتطاحنة قد أضاع أرض إيطاليا الحافلة بالمواصف ، بوميض خاطف أظهر لنا ما دار هناك من تغيرات حقة .

وعند حوالى (٧٠٠) للميلاد تعرض مركز بيزنطة للدمار . فعلى الرغم من أن كبار الموظفين لم يزالوا فعلا خاضعين لسلطة الإمبراطور ، فإن السلطة الفعلية كانت بأيدي الأسرات التريبونية الإقطاعية ، التى لم تقتصر اختصاصاتها فى مناطقها على الناحية العسكرية فحسب ، بل تشمل كذلك الولاية القضائية وحق فرض الضرائب . ذلك أن تنظيماً جديداً قد ظهر ، ولن تنشب فى إيطاليا ، كما كان يحدث فى الماضى ، ثورة يقوم بها أرخون (Exarch) (أى نائب إمبراطور) متمرد ، بل يقوم بها الموظفون المحليون ، الذين هم أشد خطراً من الأرخون ، وظهرت فى (٦٩٢) دلائل تنبئ بالأحوال الجديدة ، عندما دعا الإمبراطور جستينيان الثانى ، وفقاً للسياسة الإمبراطورية التقليدية ، إلى عقد مجمع ترولو (أو المجلس التكميلى للمجمع المسكونى الخامس والسادس Quinisextum) رغبة فى تقنين قواعد ومعايير للعقيدة وتوحيد الممارسات الدينية فى الشرق والغرب على السواء . بيد أن البابا رفض الموافقة على قرارات ذلك المجمع ، فأرسلت بيزنطة موظفاً كبيراً يلقب

بالبروتوسپاثاريوس (Protospatharius) إلى روما ، ومعه تعليمات بإلقاء القبض على البابا المتمرد . ولكن ولت منذ زمن بعيد الأيام التي استطاع فيها جستنيان الأول^(١) إنزال الإذلال والمهانة بالبابا فيجيليوس . فإن جند الحرس الوطني الإيطالي (المليشيا) تقاطروا إلى روما ، ولم يغلت البروتوسپاثاريوس من عواقب غضبهم إلا بالتواري عن أنظارهم تحت سرير البابا .

وتحددت الأزمة بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، يوم تجرأ الإمبراطور ليو على فرض ضرائب جديدة على الغرب بعد أن نجح في الدفاع عن بيزنطة في الحصار الشهير الذي ضرب عليها في (٧١٧ — ٧١٨) — فاندلعت الثورة في إيطاليا وزحف الأرخون على روما متحالفًا مع ليو تيراند ملك اللومبارد — وهو اتحاد طريف في بابة — فاستصرخت روما لمساعدتها دوقتي اسبوليتو وبنيفنتو . وامتزج الكفاح السياسي والاقتصادي بشيء من الشعور الديني المتأجج عندما أعلن الإمبراطور ليو في (٧٢٥) سياسة التحطيم أي مناهضة عبادة الصور المقدسة^(٢) — فالعقيدة والاعتقادات (Dogma) لم تكن عند الإيطاليين إلا شيئًا عسيرًا يعز على الأفهام ، ولكن الصور كانت تشكل عنصرًا حيويًا في الإخلاص للعقيدة والتعلق بها ، ولذا لم يفت البابا أن يتخذ من النزاع على عبادة الصور سلاحًا قويًا يشهره في وجه الإمبراطور ، ولم يلبث البابا أن صور ليو في صورة المسيح الدجال نفسه . ويقول أحد المعاصرين إن البابا جريجوري الثاني : «سلح نفسه كأنما يتأهب لمنازلة عدو»، وأخذ يخاطب الإمبراطور بلغة لم يسبقه إلى استخدامها أحد من رعاياه — علي أن الثورة الإيطالية أخذت في النهاية ، بعد أن لقي أحد نواب الإمبراطور مصرعه ، وبعد أن أنفذ أرخون آخر من بيزنطة لإعادة الأمن إلى نصابه .

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات التبشيرية والدبلوماسية البيزنطية .

(٢) انظر الفصل التاسع بعنوان النزاع حول تحطيم الصور .

تدخل الفرنجة

وهنا بدأت مرحلة أخرى جديدة في انفصال الشرق عن الغرب . فقد قرر الإمبراطور سلخ أبروشيات صقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن أبروشيات الساحل الأدرىاتى الشرقى من أسقف روما وضما إلى بطريك القسطنطينية . وحددت هذه الخطوة الخطيرة تاريخ جنوب إيطاليا في العصور الوسطى ، إذ زاد اصطياغ ذلك الإقليم في أثناء القرون التالية بالثقافة والميول الهلينية (اليونانية) ، بل حتى بالسكان اليونانيين ، وكان ذلك نتيجة لتدفق اللاجئين الأرثوذكس بشدة على تلك المناطق في أثناء منازعات حركة تحطيم الأيقونات . وفي الوقت ذاته ، أضعفت هذه الخطوة نفوذ البابا ، فيما يتعلق بممتلكاته داخل الإمبراطورية ، حتى أصبح لا يتجاوز أسقفًا إقليميًّا ، يتولى أمر لوائى^(١) تخوم (Themes) هاراثنا وروما (وقد تم عند ذاك فصلهما ووضع نظام مستقل لكل منهما على حدة) .

على أن ارتباط البابا بالإمبراطور ، كان شيئًا لا بد منه للمحافظة على الوجود المستقل للبابا . وقد رفض شارل مارتل الدعوة التي وجهت إليه للاشتراك في السياسة الإيطالية ، ولم يكن في الإمكان ترك مملكة اللومبارد التي بلغت ذروة قوتها في عهد ليوتبراند ، دون إيجاد قوة توازنها . ولذا فإن البابا تدخل للمرة الثانية لمصلحة سيده الإمبراطور ، وأتقت راثنا مركز الإدارة البيزنطية بشمال إيطاليا بعد أن أوشتت القوات اللومباردية على الاستيلاء عليها .

وشبت اضطرابات داخلية بعد وفاة ليوتبراند ، حتى إذا ذهبت راثشيز خلفه الورع ، وحل محله في العرش آيستولف ، صارت هناك دولة مركزية قوية تواصل تحقيق غرضها التقليدى من إخضاع إيطاليا كلها . وجاءت في أعقاب ذلك تطورات سريعة . ففي (٧٥١) وهى السنة التي اتخذ فيها يبين

(١) ألوية التخوم هي المناطق العسكرية القائمة على التنور أى الحدود . (المترجم)

لنفسه التاج تلبية لاقتراح البابا ، سقطت رافئاً أمام هجوم اللومبارد ، تقضى نهائياً على الحكم البيزنطى بتلك الولاية (الأرخونية) . وأخذ آيستولف يجتهد فى السنة التالية كل موارد تهيداً للهجوم على روما . وفى (٧٥٣) عبر البابا ستيفن جبال الألب ليلتمس المساعدة من ملك الفرنجة ، ولم تنقض سبعة أشهر حتى أعلن پيپين الحرب على المملكة اللومباردية ، وقام بغزو إيطاليا . وحلت الهزيمة والتشتت بجيش آيستولف فى معركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار بافيا . وفرض پيپين الملك المظفر على أعدائه المقهورين رد رافئاً والممتلكات البابوية إلى حالتها الأولى ، ولم يكده يعود إلى بلاده ، حتى استدعى على عجل وإلحاح فى (٧٥٦) ليواجه تجديد العدوان . وللمرة الثانية تعرضت بافيا للحصار ، واعترف العدو المقهور فى مقابل حصوله على السلام بپيپين سيداً أعلى للمملكة اللومباردية على حين تقرر تسليم « الأرخونية » إلى يد القديس بطرس وخلفائه الجالسین على كرسى روما البابوى .

وتوفى آيستولف فى تلك السنة عينها ، تاركاً الموقف فى إيطاليا على حاله من الناحية الرسمية . وقبّل الجميع بالرضا سيادة پيپين على ممتلكات آيستولف على الرغم من أنه لم يفتحها حتى ذلك الحين فتحاً إقليمياً . وبذلك صار البابا صاحب السلطة العليا لا فى روما فحسب ، بل فى الأرخونية أيضاً ، ومع ذلك فإن الإقليمين كليهما لم يزايا يعتبران من الناحية الاسمية شطراً من الإمبراطورية على أن تدخل الفرنجة ظل مع ذلك سنداً غير مضمون ؛ وفى تلك الأثناء كان يبدو محتملاً أن ينبعث الخطر اللومباردى من جديد .

وارتقى ديسديرىوس العرش بعد آيستولف ، وتضاعفت مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن پيپين من ابنة ملك اللومبارد . ولم تنقض بضعة سنوات على وفاة پيپين فى (٧٦٨) حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والبافارین واللومباردين ، تخضع لنفوذ الملكة الأرملة برترادا .

ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته اللومباردية في (٧٧٢) وبعد ذلك بستين أثار شارل على إيطاليا بدعوة من البابا هادريان . واستسلمت باثيا بعد حصار طويل ، وحمل ديسيدريوس وأسرته أسرى ، وزالت من الوجود مملكة اللومبارد المستقلة عند نهاية (٧٧٤) .

منحة قسطنطين

هذه — بأرجز عبارة — هي الحقائق المتعلقة بتدخل الفرنجة في إيطاليا . وتوارى خلف تلك الحقائق صورة معتمة غير واضحة المعالم تتألف من دبلوماسية ملتوية ومطامع شخصية وتفاعل حضارتين : الحضارة الرومانية بما لها من تاريخ طويل من الفكرات التشريعية والدستورية ، وبما استقر في لغتها من أئقرون مديدة من الحكم المستقر والخصائص الفلسفية المميزة والحضارة الجرمانية بما تنطوى عليه من الولاء الشخصي وبما لها من ذكريات قبلية وقصور في فهم المصطلحات التجريدية . ومن المحال علينا في علم عجيب كهذا زاحر بالأساطير والخزعبلات وبالصبغ الإمبراطورية العتيقة نصف المفهومة ، أن نؤلف صورة متكاملة من الجذاذات البتراء التي نتلقفها من أفواه السذج من كتاب تراجم الباباوات ومن التواريخ التي كتبها الرهبان الأدميون ، لتكون بياناً مقنعاً عن العملية الطويلة الأمد ، التي فصم بها أساقفة روما علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية القديمة ووضعوا بها أنفسهم تحت حماية قوة الغرب الناهضة المسيطرة . ولاشك أن كل رمز يقع لنا يمكن إثارة مالا حد له من المجادلات حول أهميته . فإذا كانت طبيعة ذلك « الديكيو Dieio » أى حق السيادة والسلطة التي ادعى الباباوات أنهم يمارسونها بالنيابة عن الإمبراطور على الأراضي الإيطالية ؟ وماذا كان آخر مدى « ممتلكات القديس بطرس » وحدود إمارته التي تحولت البابوية بسبب امتلاكها لها حوالى ذلك الوقت

إلى سلطة زمنية ؟ أو ما المقصود بمنحى يبين وشرلمان وهباتهما المتتالية ؟
لقد كانت كل حركة تصدر ، ترتفع إلى منزلة الأهمية الدستورية ، كما أن
ما دار من الجدل فى العصور الوسطى بعد ذلك حول علاقة الإمبراطورية
بالبابوية ، كان الأصل فيه إرسال راية وبعض المفاتيح إلى ملك الفرنجة ، أو
الإنعام بلقب « البطريقى Patrieian » أو الإمساك بعنان فرس . وكانت
الصور والأساطير تتخذ قوة الوثائق . ويبدو أن القصة الشهيرة التى حدثت
بين الإمبراطور قسطنطين والبابا سلقستر^(١) ، التى ظلت طوال العصور
الوسطى تؤلف مظهراً أساسياً من مظاهر الجدل والدفاع عن مدعىات البابا ،
قد ظهرت بأوضح صورة فى تلك الفترة ، وربما جاز اعتبارها عملية تبرير
أكثر منها تزييفاً مقصوداً ، أو عدها ترجمة نقلت مصطلح الفكر الجارى
أو مصطلح النقوى السائدة وعبرت عن علاقة البابا السياسية بالإمبراطور
ببىزنطة . وتؤكد القصة أن قسطنطين الأكبر لم يتنازل فقط عن قصر
اللاتيران الخاص به للبابا ، ولم يعطه فحسب حق السيادة أى الديكيو على
الغرب ؛ بل وهبه كذلك التاج والأرجوان ، تمشياً مع وظيفته المقبلة ، على
حين أن رجال الإكليروس التابعين له الذين صاروا لزاماً عليهم منذ تلك اللحظة
أن يحلوا محل مجلس السناتو بروما ، مثلما احتل أتباعه من الأساقفة مناصب
حكام الأقاليم ، — قد أصبح من حقهم استخدام زخارف الخيول البيضاء
واتخاذ أحدىة رجال السناتو التى يشتهونها . وبهذه الصورة العجيبة المخرقة
للتاريخ تنعكس لدى القارى بوضوح تام هيئة الأحوال والمنازعات المعاصرة ،
ويشهد المنافسة الدائرة بين المجلس البابوى والموظفين البيزنطيين فى إيطاليا ،
والتنازع حول صحة الهبات الفرنجية ومشكلة مدعىات اللومبارد فى امتلاك
الأقاليم المغزوة .

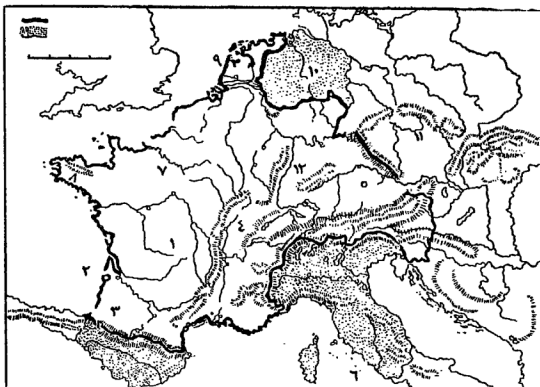
(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الفنون والآداب والخرافات .

على أن أهم ماله دلالة هنا إنما هو بقاء فكرة الإمبراطورية حية بوصفها المادة الأساسية التي تشكل عليها رؤى عالم الأحلام ذاك من حيث قيام دولة دينية (ثيوقراطية) بروما . إذ إن إيطاليا ظلت أكثر من خمسة وعشرين عاماً تعد أباطرة حركة تحطيم الصور لاجبة ضرائب وظلمة فقط ، بل تعتبرهم كذلك دعاة انفصال غير أقياء . وعلى الرغم من ذلك لا نعثر في أى مكان على لسان يعبر - ولو همساً - عن إمكان قيام وجود مستقل للبابوية خارج ممتلكات الإمبراطور . وليس هناك ما هو أوضح من هذا دليلاً على أن عقل القرن الثامن لم يزل يعتبر إمبراطورية روما العالمية التي يرأسها الإمبراطور في القسطنطينية ، هى الصورة السائدة عقلاً والأتموجج الوحيد المقبول عن النظام الأرضى فى هذه الدنيا . وروما هى المركز العريق للإمبراطورية . وهى من وجهة نظر الرومان المركز الأوحيد الحقيقى للإمبراطورية . ولن يتيسر لإنسان أن يبرر نظرياً تنويع إمبراطور غربى ، إلا بنقل ثورة التركيز من شخص الإمبراطور إلى مركز الإمبراطورية العتيق « روما » ذاتها ؛ ولا يخفى أن مبرر الوجود (*Raison d'être*) لإمبراطور غربى من وجهة النظر البابوية كان حماية مصالح الكنيسة بالسلاح فى غرب أوروبا ، وكان فوق كل شئ ، حماية العاصمة العريقة عاصمة أوغسطس و قسطنطين ، الكرسي المقدس والمسكونى للقدس بطرس وخلفائه .

البابا والكارولنجيون

وعلى الرغم من أنه بدت فى الأفق مقدمات مبهمة أُنذرت بمثل هذه الإمكانيات ، فإن الموقف المباشر ظل غامضاً . والواقع أن السنوات الثلاثين التالية شهدت هبوطاً مطرداً فى آمال البابوية التي اشتد ارتفاعها عند سقوط مملكة اللومبارديين . لقد انقلب ميزان القوى فى إيطاليا ، فإن يبين عبر

جبال الألب بمحلتين صليبيتين ليفوز بالخلاص جزاء له على استجابته للاستغاثة
البطرسية (Petrine) . أما شارل فإنه استقر بالأراضي الإيطالية وصار سيداً
أعلى ثباتاً وكبيراً علمانياً للبلاد . وكان لكفاح اسبوليتو وبنثنتو ومحاولتهما
في سبيل الاستقلال فضل عظيم في رفع شأنهما كحليفين للبابا لما قيمة عظيمة
وإن لم تكن محققة . ولكن هاتين الولايتين أصبحتا آنذاك تابعتين إقطاعيتين
لأمير الفرنجة ، ولم تعد معاندتهما تعود على البابا بأية مصلحة . ومنذ تلك
اللحظة أصبح واضحاً أنه لو اختلف البابا والكلرونجيون ، فلن يجد البابا
مدافعاً يستطيع أن يشخص إليه التماساً للعون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ،
فكلما تم لشارل فتح جديد رائع ، ازدادت رقعة إمبراطوريته اتساعاً ،
وتضاءلت أبعاد مملكة البابا وقلت أهميتها . ثم إن توحيد أوروبا الغربية
بزعامة سيد واحد ، أبرز العلاقات الدولية وجعل لها أهمية كبيرة ، وصار لازماً
أن تخضع مدعيات البابا في استيريا وجنوب إيطاليا للعلاقات الديبلوماسية
المتبادلة بين آخن ويزنطة ، وقد جأر البابا بأمر أنواع الشكوى من تمرد
كبير أساقفة رافنا واعتمادات دوق اسبوليتو ، ولكن شكواه ذهبت أدراج
الرياح يوم كان شارل يقوم بحملاته على النخوم السكسونية . والواقع أن البابا
كان يتعين عليه بوصفه زعيماً لعالم المسيحية في الغرب القيام بدور أقرب إلى
السلبية من دور نصير العقيدة المسلح ، ولكنه انطلق وقد نقش على عملته
عبارة الديانة المسيحية (Christiana Religio) ، وأضفيت القداسة على
أسلحته وبفضل صلوات الكنيسة ودعواتها—انطلق ليبيد الوثنيين في وسط
ألمانيا ويقم أسقفيات جديدة وراء حدود بافاريا . وتردد صدى الإشاعات
في الخارج بأراضي الشمال نفسها ، حيث تولى إذاعتها أوطا ملك مرسيا ، بأن
شارل عزم على خلع البابا وإحلال أحد رجال الكنيسة من الفرنجة محله .
ذلك أن عالم العقيدة نفسه لم يسلم من عبث الأوتوقراطية المستبدة الجديدة في



(١٦) خريطة إمبراطورية شرق رومان

١ - أكيانيا	٢ - بوردو	٣ - فاسكونيا
٤ - برجنديا	٥ - بافاريا	٦ - روما
٧ - نوستريا	٨ - بريتاني	٩ - فريزيا
١٠ - سكسونيا	١١ - الصقالبة	١٢ - الألامان

الغرب . إذ حدث في مجمع (سينودس) فرانكفورت الذي دعاه شارل إلى الاجتماع ، رداً على مجمع نيقية الذي انمقد حديثاً في الشرق ، أن ارتفع صوت لاهوت الفرنجة الفتى وأعلن بنبرات حادة مليئة بالثقة تنديده بكل من حركة تحطيم الصور ومذهب عبادتها بدرجة سواء ، ودمغه للإمبراطور والإمبراطورة بسبب الهرطقة ، بل حتى اتهام اليونانيين بالافتقار إلى الروح العقلية الناقدة فيما يتعلق بأسطورة سلفستر . على أن البابا الذي وافق على قرارات مجمع نيقية ، لم يستطع أن يقوم بأي احتجاج ذى أثر . بل الحق أنه كان مستعداً لإعلان كفر الإمبراطور الأرثوذكسى إذ أراد شارل ، وذلك فيما لو أصر الإمبراطور على الاستمسك بالأبروشيات اليونانية وإمارات جنوب إيطاليا التي كان البابا يدعى ملكيتها . بيد أن إخضاع الشئون المذهبية للمصالح الدنيوية لدولة البابا ، ليس أقل أهمية من خضوع البابا واستكانته لإزاء أهداف شارل التي انقلبت مؤقتاً على بيزنطة . إذ لم يحدث قط منذ أيام جستنيان أن انحدرت البابوية إلى مثل هذا الدرك الخفيض . ومن العجيب أن سلطة الحبر الأعظم في روما ذاتها لم تسلم من التحديات . فإن الانتخابات البابوية كان يصحبها على الدوام القتال الذي يدور في الشوارع عنيفاً عارماً ، ويوجه من داخل القصور المحصنة ، وهو أمر يعتبر ظاهرة مألوفة في المدن الإيطالية في أثناء القرون الوسطى ، وكثيراً ما كانت المنافسات بين النبلاء الإقطاعيين وموظفي الكنيسة تجد فرصتها التي تتشفي بها فيما ينشب من المنازعات الدموية بين البابا الشرعى والبابا الخصم .

الفصل الرابع عشر شرلمان

حدث في يوم عيد الميلاد من عام (٨٠٠) أنه بينما شرلمان ينهض في أثناء إقامة القداس ، من ركوعه على ركبته أمام قبر القديس بطرس بروما ، أن وضع البابا على رأسه تاجاً وحياه أهل روما بصيحات مدوية قائلين : « إلى شارل أوغسطس الذى توجه الله ، إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام ، نتمنى النصر والعمر الطويل » . لقد أشعل هذا المنظر خيال المؤرخين ناراً متأججة . فهناك فى الباسيليكة العتيقة التى تتلألأ بأنوار الشموع والحلل الكهنوتية المرصعة بالجوهر ، وقف محارب أوروبا الأول ، قاهر العرب والآفار والسكسون ، الذى تمتد مملكته من البلطيق إلى شاطئ الأدرىاتى ، وتتراعى من شمال أسبانيا إلى الدانوب الأوسط ، يفرض وصايته الدفاعية على المسيحية الغربية ، بقبوله ذلك التقليد الجليل المأثور عن روما الإمبراطورية ، كما أنه « باتحاد الرومان والتيوتون واندماج ذكريات الجنوب وحضارته مع طاقة الشمال الفتية . . . يبدأ التاريخ الحديث »^(١)

ولا شك فى أن تلك الساعة كانت من أروع اللحظات فى تاريخ البابوية، لا يضارعها من حيث تأثيرها الدرامى سوى ذلك المنظر الآخر الذى حدث ذات شتاء فى يوم عاصف تساقط فيه الجليد بفناء قصر كانوسا^(٢) ، حيث

(١) انظر ج . برايس فى (The Holy Roman Empire) من ٤٩ (ط ٨) —

لندن (١٨٩٢) .

(٢) يشير الكاتب إلى ما حدث للإمبراطور هنرى الرابع بقلة كانوسا بالقرب من رييجو اميليا بإيطاليا ، حيث وقف يطلب الفخران من البابا جريجورى السابع فى ١٠٨٧ على ممارسته فى مسألة التمينات .
(المترجم)

وقف إمبراطور ذليل ينتظر ثلاثة أيام ليحصل على غفران البابا . ولكن أهمية ذلك النصر كشأن أهمية انتصار هلد براند كانت عميقة متغلغلة . فلم يكن الاحتفال الذي أقيم بكنيسة القديس بطرس حلا دستوريا للمشكلات التي تكمن بطبيعتها في علاقات شارل بالبابوية . إذ إنه لم يغير من الموقف الفعلي شيئاً ، ولم يسو أية مشكلة من مشكلات المستقبل^(١) . ومع ذلك فإنه على حد قول برايس : - بداية عصر جديد من حيث إنه حدد خطوط ما نشب بين البابوية والإمبراطورية من نزاع لانهائية له ، وهو النزاع الذي تتألف منه خلفية السياسة الأوروبية في العصور الوسطى .

ومنذ أيام ثيودوسيوس ، يوم أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية ، لم يتم التوصل إلى صلح دائم يوفق بين مدعيات الكنيسة والدولة . ولم يكن في الإمكان الوصول إلى حالة الاستقرار إلا بخضوع إحداها للآخرى خضوعاً تاماً . وعما زاد الأمر تفاقماً في ذلك الحين صعوبة تحديد مصالح الطرفين يوم أصبح نفوذ الكنيسة الزمناً (الديني) أشد تنظيماً منه في أي يوم سابق . وتتمثل مدعيات البابوية بأوضح صورها في خرافة منحة قسطنطين . أما وضع شرلمان فيمكن أن تعبر عنه كلمات ألكوين حيث قال : « أيها الملك ... إنني لأدعو الله أن يخضع لعدلك حاكم الكنيسة ، وأن تحكمك اليد اليمنى للقوى القاهرة » . وإن جستنيان نفسه يصح أن يقر هذه العبارة ، وذلك مع التجاوز عما تتجه إليه من الازدواج بين الكنيسة والدولة . ومن ثم فلن يستطيع حل هذه المشكلة وإيقاف النزاع بين الإمبراطوريتين الروحية والزمنية إلا حلاً وسطاً يوفق بينهما مؤقتاً أو سيادة أحد الطرفين على الآخر سيادة جارفة

(١) عن الآراء الحديثة المتعلقة بتتويج شرلمان ، انظر ك . هلدمان في (Das Kaieer-

tum Karls des Grossen) (ومعار ١٩٢٨) .

قاهرة . وطالما كان شرلمان على قيد الحياة ، لم يكن أحد ليجرؤ على وضع سيادته موضع نزاع أو جدال ، ولم يستطع أحد من الكتاب أمثال جوفناس أسقف أورليان وهنكار رئيس أساقفة ريمس ، أن يجرؤ على تأييد النظريات التي تجعل لسلطة البابا السيادة على سلطة الإمبراطور (*auctoritas sacra*) (*pontificum*) ، إلا حينما أخذ الانحلال يدب في إمبراطوريته في ظل الحكم الضعيف لابنه وأحفاده . وراحت القرون المتعاقبة بما اجتمع لها من موفور السوابق ، تصوغ بإحكام وتفصيل مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة وقد لفقت هذه المسألة في أثواب فلسفة عامة ، استوحيت مما دار بين الفقهاء ، وعلماء اللاهوت من كتابات متنازعة منضاربة ، وكانت القالب الذي صيغت فيه أعظم قصيدة أنشئت في العصور الوسطى ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن أشد البابوات والأباطرة نزوعا إلى السياسة ، ربما ترددوا في مواصلة الفكرة حتى نهايتها المنطقية ، فإن الصراع بين السلطنتين الاستبداديتين لم يكن يحله عمليا إلا الدفع بقوة « الأمر الواقع والظرف القاهرة »

Jorçe maeure

ومع ذلك فإن تلك المتناقضات لم تتم صياغتها حتى وقتذاك بوضوح تام ، حتى ليخالجنا الشك في أن شرلمان قد تدبر تماما في المشكلة الدستورية من حيث علاقتها ببيزنطة . إذ كان في الغرب جماعة زعمت أن العرش الإمبراطوري يعتبر شاغرا ، وذلك نظرا لأن إيرين سملت عيني ولدها الإمبراطور وزجت به في السجن ، وبذلك انفردت بالحكم امرأة تولت عرش القياصرة . غير أن مفاوضات شرلمان مع بيزنطة التي طال أمرها وانتهت آخر الأمر بالاعتراف به إمبراطورا « باسيليوس » في (٨١٢) مقابل تنازله عن فتوحه في دالماتيا ، تدل أنه لم يكن يشارك في هذا الرأي . ولا شك أن الفكرة التي ظلت قائمة

أن هناك إمبراطورية رومانية (Imperium Romanum) واحدة يحكمها في الشرق والغرب إمبراطوران متعادلان ، بيد أن أحوال أوروبا المتغيرة قطعت كل علاقة بينها وبين الحقائق القائمة . ذلك أن الفروق والاختلافات بين الشقين في القانون والإدارة وفي الدين والثقافة واللغة وفي المصالح الاقتصادية قد فصلت بين الشقين الشرقي والغربي ، اللذين افترقا حتى في ذلك الحين نفسه افتراقا جغرافيا ، بما اندس بينهما في شبه جزيرة البلقان من ممالك صقلبية . والواقع العملي أن العلاقات بين الإمبراطورية الغربية (التي يمكن منذ ذلك الحين إطلاق ذلك الاسم عليها) وبين شقيقتها البيزنطية كانت أشبه تماما بالعلاقات بين دولتين أجنبيتين ، لانهفان إلا بالحرص على المحافظة على حدودها والتسوية السلمية لما بينهما من منازعات ، وإن لم تعد تجمعهما بعد نظرة مشتركة إلى المتبررين . ولا شك أن المركز السامي الذي بلغه شرلمان في أوروبا الغربية والذي أضيف عليه الصفة الرسمية بعد تنويجه إمبراطورا في (٨٠٠) ، لم يتبأله إلا بفضل نشاطه المدهش الدائب في إدارة الحكم داخليا فضلا عن الفتوح الخارجية . فقد تمت في حكمه الطويل الذي امتد ستا وأربعين سنة مالا يقل عن ستين حملة حربية ، قاد الملك الفرنجي نصفها بنفسه . ففي كل عام ، وبعد عقد الاجتماع السنوي للجمعية العامة في ميدان مايو ، كان المجندون الوافدون من أقرب المناطق إلى التخوم المتنازع عليها ، يقادون على بلاد العدو في حملات عاتية مجردة من كل رحمة . فما قرره ألكوين ببساطة تامة في إحدى المناسبات قوله : « خرج الملك بجيشه لينزل الخراب بسكسونيا » .

على أن عددا كثيرا من هذه الحملات قد أجرى دفاعا عن الحدود ، فإن فتح بيبين لمقاطعة أكيثانيا دعا شرلمان فيما بعد إلى عبور البرانس لتأسيس « ولاية ثور » أسبانية ، كما أن تحويل بافاريا من دوقية شبه مستقلة إلى جزء حقيق من الإمبراطورية اقتضى تدمير مملكة الآفار الواقعة على نهر الثيس

ميلاد العصور الوسطى

والتي تنزع دائماً إلى العدوان . على أن أعظم فتوح شرلمان قاطبة وهو فتح
وسط ألمانيا وشمالها ، وإن كان الأصل فيه الانتقام من السكسون بسبب غاراتهم
على أديرة منطقة الراين ، إلا أنه تجاوز كثيراً هدفه الأول . ولم يكتفِ عهد شرلمان
حتى كانت حدود الإمبراطورية قد زحفت من نهر الراين إلى نهر الإلب ،
وبذلك تكون المنطقة المترامية الواقعة بين النهرين قد ضمت إلى الإمبراطورية
في أيامه ، كما اتخذ التنظيم الإداري والكنسي بألمانيا صورته في العصور الوسطى .
على أن السجلات المعاصرة لاتلقى الشيء الكثير من الضوء على الناحية
المسكورية من هذه المنجزات الباهرة ، وذلك لأن تلك السجلات كثيراً ما تنقسم
بسمة البلاغات الرسمية . وكانت البلاد مليئة بالعوائق الطبيعية الشكوة ،
إذ كانت مناطق مترامية منها مكسوة بالغابات أو المستنقعات . وكانت ممتلكات
السكسون تبدأ على مسافة بضعة فراسخ من الشاطئ الأيمن لنهر الراين ، وتمتد
إلى نهر الإلب عبر سهول وسط ألمانيا المكسوة بالغابات ، وهي المنطقة التي
نزلها على التعاقب الوستفاليون والأنجرباريون والإيستيفاليون . وإلى الشمال
الذي هو أصغر مدخلا بكثير ، كانت تمتد منطقة المستنقعات الساحلية الموجودة
بين مصبي الويزر والإلب ، ويقوم وراءها عند قاعدة شبه الجزيرة الدانمركية ،
موطن النورد البنجيين (Nordalbingians) آخر المدافعين عن استقلال
السكسون . ومع أن الحملات التأديبية كانت تجرد في كل صيف تقريباً بين
عامي (٧٧٢ و ٧٨٠) وهي السنة التي بلغت فيها الفتوح نهر الإلب ، فإنه يبدو
أن أحداً لم يفكر قط في القيام بحملات فتح منظم حتى ذلك الحين ، باستثناء
ما كان من إقامة حكومة أطراف بمنطقة الرور ، تدعمها مجموعة مثلثة من الحصون
المشيقة في هرزبرج وزيبرج وكارلزبرج . ومع ذلك فإن تعاون المبشرين الذي
شهدناه قائماً في فترة التحالف بين بونيفاس وشارل مارتل^(١) ، قد تواصل ،

(١) انظر الفصل ١٣ بنوان روما والكنيسة الكلتية .

كما يبدو أن الجمع بين هجمات الإرهابيين والدعاية للمسيحية كان من سياسة شرلمان التقليدية الثابتة التي اتخذها لبث التعليم والثقافة في سكسونيا . وهي سياسة غير رشيدة ، لم تلبث عواقبها السيئة حتى ظهرت وشيكا . إذ كان العصيان السرى ينتشر في الغابات الجرمانية . إذ ظهر بوستفاليا زعيم اسمه ويدوكند ، وانضم إليه الأنصار في جميع النواحي الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن كانت الأديرة تحرق ويضطر القساوسة إلى الفرار ، كما أن قوة فرجية ضخمة كانت تزحف نحو الشرق على الصقالبه ، مزقت على نهر الويزر وتشتت شملها . وعندئذ صمم شرلمان أن يفتح تلك المناطق فتحا فعليا . وهنا لجأ ويدوكند إلى الدانمركيين ، وأعمل الفرنجة الذبح في ٤٥٠٠ من الأسرى السكسون عند فردان بدون أدنى مبالاة . على أن حملات الصيف العنيفة ما لبثت أن أخضعت إيستفاليا خضوعا ظاهريا ، واضطر شرلمان في (٧٨٤) أن يقضى الشتاء كله في ألمانيا استعدادا للحملة النهائية . وعند نهاية (٧٨٥) تم إخضاع سكسونيا بأكملها ، فيما عدا منطقة المستنقعات الساحلية في الشمال والمنطقة الواقعة من وراء الإلب .

على أن النصر لم يكن تاما مؤزرا على الصورة التي تحدثت بها رسائل شرلمان المزهوة إلى البابا . ولا كانت التدابير اتخذت من النوع الذي يتمخض عن قوطيد المكاسب وشد أواصرها . ومن ثم فإن مرسوم إعلان تسليم السكسون (Saxon Capitulary) الذي يرجح صدوره عادة الفتح ، يمكن اعتباره دراسة شائقة في الإكراه والقهر . إذ قسمت البلاد بمقتضاه إلى مناطق يحكمها كونتات ، من حقهم وحدهم بالإضافة إلى مندوبي الملك (Missi) ، توجيه الدعوة لعقد جمعية عمومية . على أن الكنيسة كانت الأداة القوية التي يستخدمها طغيان الفرنجة . إذ يختم المرسوم بالعبارة التالية : « على القسس أن يراعوا

ألا تعصى هذه الأوامر . ومعنى هذا أن جرة قلم واحدة كانت فى نظرم كنفيلة بإزالة الوثنية ، وقادرة على إجراء تغيير شامل فى أسلوب الحياة السكسونية بأكلها من المهد إلى اللحد . إذ إن الامتناع عن قبول التنصير كان جزاءه الموت . وكان أكل اللحم فى أثناء الصيام الكبير يستوجب العقوبة عينها . كما فرضت الفرامات الفادحة على كل من لم يعمد ابنه قبل نهاية السنة ، على حين صار إحراق الجثث الجنائزى على ماجرت به عادة السكسون والنورسيين يعتبر من الكبائر العظمى . ومما يشهد بما تنطوى عليه ديانة السكسون من طبيعة بدائية وتوحش ، ما صدر من أوامر تحرم ممارسة شعائر من أمثال أكل لحوم البشر وتقديم الأضاحى البشرية وتفرض عقوبة الإعدام على مخالفة هذه الأوامر . ومما يزيدنا عجباً أن يظن ولاية الأمور آنذاك أن من الممكن أن تطبق فى هذا القطر العسير القياد وغير المروض أحكام نظام يتولى فيه قيس الأبروشية الأجنبي الذى يعيش على ما يستخلصه من جمهور المصلين من الخدمات القهرية والعشور ، باستخدام شعيرة الاعتراف^(١) سلاحاً سياسياً ، يكفل الخضوع والولاء للملك والشعب المسيحى ، أى الفرنجة .

وأدرك ألكوين الخطر ، وعبر عن معارضته لتلك الإجراءات بطائفة لازعة من الأقوال المأثورة . فهو يصرخ : « يقول الناس إن العشور هى التى قوضت عقيدة السكسون » - ويقول : « وينبغى للمرء أن يدرك فوق هذا أن العقيدة تنبع من الإرادة الحرة ، لا من القهر . فكيف يستطاع إجبار الإنسان على الإيمان بما لا يؤمن به ؟ وربما أمكنك أن تجر إنساناً إلى حوض التعميد جراً ، أما إلى العقيدة فلا » . ولكن أحداً لم يأبه بتحذيراته . واقتضت بضع سنوات بدا فيها أن كل شئ يمضى على خير ما يرام ، حتى لقد

(١) انظر إعلان تسليم السكسون المادة ١٤

استخدم السكسون في حرب التخوم وسُيروا على الصقابة والآفار . ولكن صدورهم كانت تضطرم خفية بالاستياء الغاضب، الذي اشتعل في النهاية عصياناً، لم ينشب لهيبه حتى انتشر بسرعة في كل أرجاء ألمانيا . فعرضت السكنايس للحريق والنهب ، ولقي الأساقفة والقسس مصارعهم ، وأصبح كل ما أقامه الفرنجية من نظم عرضة للدمار . وأخذ شرلمان على غرة ، فلم يستطع حشد قواته على الفور ، بيد أن مقاومة السكسون لم تلبث حتى قضت عليها في السنوات التالية قضاء نهائياً حملات جيوش زحفت من جميع الجهات ، وفي (٧٩٧) أخضع كل شيء حتى منطقة السواحل الشمالية ذاتها ، ملجأ الثارين الفارين من وجه الدولة . وفي خريف تلك السنة ، صدر في آخن (ايكس لاشايل) دستور جديد لسكسونيا ، بعد مشاورات لم يشترك فيها فحسب كونتات وأساقفة من الفرنجية ، بل حضرها أيضاً مندوبون عن الإقطاع الجرمانية . وبمقتضى ذلك الدستور ألغيت جميع القوانين الجائرة التي أصدرها الفاتح ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت سكسونيا تحكم بطريقة تماثل طرق الحكم الشائعة بالإقطاع الفرنجية الأخرى . وكانت المرحلة الأخيرة هي مرحلة ترويض منطقة نورد البينيجيا العسيرة القياد ، ولكن ذلك لم يتحقق إلا في (٨٠٤) ، يوم سيرت عليها آخر حملة نظامية في حكم شرلمان ، يارغام السكان على النزوح قهراً إلى شطر آخر من مملكة الفرنجية ، ومنح بلادهم للأبوديين Abodrites ، وهم شعب صقلبي مجاور أظهر ولاءً كحليف للفرنجية .

حروب الآفار ورونيسيفال

كانت منطقة الحدود التي أطلق عليها فيما بعد اسم منطقة «دانيا» ، هي المعقل الشمالى لمجموعة من مناطق «الأطراف العسكرية» التي يتولى ضبطها نخبة منتقاة من القواد أحسن اختيارها ، وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم

المارجريف (Margraves) أى كونتات وحكام (Grafen) الأطراف والنغور (Mark) . ومع أن دولة الفرنجة لم يكن لها إلا سيادة مفككة على الصقالية فى الشرق ، فإن نهري الإلب والسال يعتبران فعلا الحدود الحقيقية لمملكة الفرنجة. ثم هناك فى أقصى الجنوب بافاريا التى ألحقت بالإمبراطورية ، والتى تقع وراءها بيلاد المجر مملكة الآفار . وقد استولى الآفار كأسلافهم الهون البدو الرحل ، على موقع ممتاز فى أوروبا الوسطى ، على الحافة الغربية لنطاق السهوب الأسيوى العظيم ، وظلوا قرنين من الزمان يلقون الرعب فى قلوب الشعوب النازلة فى المنطقة المتراصة بين البلطيق والبيالويز (المورة) ، وقد هدوا بيزنطة نفسها أكثر من مرة . على أن قوتهم أصابها الوهن قبيل تلك الفترة ، فتخلص من نير الآفار كثير من القبائل الصقلية التى كان الغاصبون يعيشون على كدها . بيد أنهم كانوا لا يزالون من القوة بحيث يهددون الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية ، حتى إذا هدا السكسون قليلا وأتاحوا للدولة فترة هدوء قصيرة ، بادرت جيوش شرلمان بأخذ خطة الهجوم . وتقدم إريك (Eric) دوق فريولى على الدانوب فاقترح الحلقة الكبيرة ، التى تتكون من مناريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسى لدى الآفار ، واستولى على كنوز هائلة من الذهب والمنسوجات النفيسة والأوعية الغالية ، وهى الغنائم التى حصلت عليها أجيال الآفار المتعاقبة ، التى يرجح أن معظمها قد انتهب من مدن الإمبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها . ثم توالى بعد ذلك الحملات التى تم بها القضاء على الآفار .

وقد أصبحت النمسا تؤلف عند ذاك جزءا من الإمبراطورية ، وشرع مستوطنون من جرمان بافاريا^(١) يستقرون فيها وفى الجزء الغربى من المجر .

(١) انظر الفصل الحادى عشر بعنوان انحلال إمبراطورية الآفار .

وهنا أصبحت المناطق الشرقية نفسها من المجر تعتبر جزءا من الإمبراطورية .
وبذلك عاد إلى الوجود بعد قرون عديدة خط حدود بانونيا المعروف عند
قدماء الرومان .

هنا أصبحت الكتلة الضخمة الفسيحة من أراضي أوروبا الغربية عدا
أسبانيا وجنوب إيطاليا تحت سيد واحد للمرة الثانية ، ييسط سلطانه على طبقة
حاكمة من نبلاء الفرنجة والأكتانيين والألمان واللومبارد ، وبحرك بسرعة
مدهشة لا يكاد يصدقها عقل جيوشاً من أحد أطراف ممتلكاته إلى الطرف
الآخر ، لكي يدفع إلى الخلف تخوم الوثنية المعادية . ولا شك أن هذا المثل
الاتحادي الأعلى للإمبراطورية المسيحية المقاتلة ، هو الذى فرض طابعه القاهر
على حضارة القرون الوسطى في الغرب ، وهو الذى عاش بعد تقسيم المملكة
الكارولنجية إلى عدد كبير من الإمارات المقاتلة ، والذى لعله لا يزال يعمل
عمله باعتباره ضربا من مجتمع للمشاعر داخل نطاق مجموعة الأمم الأوربية .

ولم يتجل ذلك المبدأ الاتحادي بوضوح أشد من تجليه في تلك الحالة
السحرية الرومانسية التي تحيط بذكريات يوم رونسيسثال الفاجع . إذ انحد
شرلمان إلى أسبانيا بدعوة من حليفه المسلم حاكم برشونة العربى ، الذى كان
يحاول التخلص من سيطرة الخليفة الأموى بقرطبة . وعندى أن تحالف
شرلمان مع ذلك الحاكم المسلم له أهميته التي تعادل في قيمتها أن أول نصر
أحرزه الفرنجة هو استيلاؤهم على مدينة باميلونا ، وهى مدينة تابعة لمملكة
استورياس المسيحية . على أن الحملة أخفقت في الاستيلاء على سر قسطة ،
وبينما كانت طواير الجند المنهقرة تعرج ببطء في ممرات البرانس الضيقة ،
تعرضت مؤخرتهم لهجوم الباسك (البشكنس) ، وهم شعب مسيحي معاد
للفرنجة - حتى أيديت برمتها . ولم يتيسر للفرنجة الانتقام منهم على تلك
السكارثة ، غير أن الحملات التالية التي وجهت على ذلك الإقليم الوعر ،

تمكنت في النهاية من إنشاء منطقة الأطراف (الثغور) الأسبانية في المنطقة التي تقع جنوب جبال البرانس مباشرة . على أن الأساطير التي تطلق لنفسها العنان في الميث بالحقائق التاريخية ، تحول غارة (٧٧٨) الفاشلة تلك إلى حملة صليبية مجيدة . أما اشتباك المؤخرة مع الباسك وما أصابها على أيديهم من حظ عاثر ، فقد حولته الأسطورة إلى معركة احتشد فيها من جيوش الوثنيين مالم تشهد بلاد لعددم مثيلا ، وقهروا فرسان الإمبراطور المغاور الذين سقطوا في ساحة الشهادة دفاعاً عن الايمان والعقيدة . وبعد ذلك بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية لا في تفاصيلها الحقيقية الدقيقة بل في صورة المثل الأعلى القائع الانتشار للفروسية المسيحية ، وجعل منها تلك الملحة الفاخرة التي تسمى « أنشودة رولان Chanson de Roland » ، فأصبحت بذلك قطعة خالدة من تراث أوروبا الخيالي .

نظام الإدارة الكارولنجية

كان الجهاز الذي سيطر به شرلمان على شئون إمبراطوريته الضخمة جهازاً غلبت عليه السمة الجرمانية ، شأن الجهاز الذي استخدمه الميروفنجيون . فإن معظم النظم كانت لاتزال قائمة ، مثل إدارة الحكم المحلي بواسطة الكونتات ومرءوسهم من الموظفين ، ومثل نظام القضاء العنصرى والمجالس السنوية . هذا إلى أن الطابع الشخصى والرن غير المحدد الذي ينسب به الحكم لدى الفرنجة ، والذي سبق لنا موازنته بالحكم الرومانى الثابت التجريدى^(١) ، ظل قائماً ومعمولاً به في ظل الحكم الإمبراطورى نفسه . إذ لم يبرح الإمبراطور يعد إلى حدما قائد المقاتلين التيسوتون في الحرب ، الذي يحيط به ثقاته من زملائه في السلاح ، الذين كانت خدماتهم له موضع التبادل بين الطرفين دائماً .

(١) انظر الفصل الثانى عصر بنون الحكم الرومانى والجرمانى .

ويجوز أن يتولى كونات القصر قيادة الجيوش على الحدود، كما يقوم «الصنجيل» (Seneschal) بإدارة حركة المطبخ، أو يرسل «القهرمان» في سفارة دبلوماسية إلى بافاريا .

وكانت الإدارة المالية بدائية بالمثل . إذ إن نظام الخدمات العامة المحكم الذى كان لدى الرومان قد اندثر فى عهد الميزوفنجيين ، وجعل نظام الضرائب فى أبسط الصور ، إذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة . وكان يطلب من الناس فى بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات . فضلا عن استضافة مندوبى الإمبراطور ومدم بالمؤن . على أنه ينبغى ألا تضلنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمراسيم التى أصدرها شرمسان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار ، تضليلا يخفى عنا الحقيقة المجردة ، وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الجرمان يقوم على فكرة « الخزنة » الملكية . وكان الأساس فى إيرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع ، تزيد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الإجبارية . ومن هنا يستبان أن القائد التيوتونى كان يكافئ أتباعه بما يمنحهم من الأراضى ، وما يهبهم من الامتيازات المحلية فى القضاء والضرائب التى ينزل لهم عنها باعتبارها ملكا خاصا له . على أن الظروف المعقدة الناجمة عن المزج بين الثقافتين الرومانية والجرمانية ، وتولى الجرمان السيادة فى أقطار منحتها روما حضارة متقدمة ، عرضت هذه القرارات إلى مالا حصر له من صنوف التفرقة والقيود . ومع ذلك يظل الفرق والتباين عظيما بين الإمبراطورية البيزنطية التى هى الاستمرار المباشر لروما بما لها من جهاز خدمة مدنية ، وما لها من جهاز للضرائب معقد ومنظم ، وما لها من جيش وأسطول دائمين ؛ وبين الأقطار الرومانية الجرمانية فى غرب أوروبا ،

التي كانت السلطة المركزية فيها لا تقوم على موارد مالية مستديمة ولا تستند إلى تنظيم إداري ، وإنما ترتكز فقط على التزامات من خدمات شخصية وولاء شخصي يؤدى إلى الحاكم مباشرة من كل فرد من أفراد رعيته . على أن هناك سلطة متوسطة نمت بين الملك والرعية ناجمة عن ظهور عوامل النظام الإقطاعي التي بدت بوادرها في تلك المدة ، ولم يكن بد لنموها من أن تقوض سلطات ملكية من ذلك النوع لا تستطيع فعلاً أن تتخلى عن شطر من سلطتها دون أن تضيعها بأكملها .

وتتجلى العملية واضحة في الجيش السكارولنجي ، ولعل الخدمة العسكرية كانت أفلح الأعباء التي تفرضها الدولة على رعاياها ، كما أن نفقات التسليح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير ، الذي كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقاً لما جرت عليه عادة الجرمان . واتخذت بعض الإجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية إن كانت الحملة موجهة إلى منطقة نائية من الحدود ، وكثيراً ما كان يسمح لاثنتين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معاً في إرسال رجل واحد إلى « الجيش » ، وتزويده بالعتاد . على أن ذلك لم يكن كافياً . فقد ولت منذ زمن بعيد تلك الظروف التي كانت تيسر في الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار في القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب في الوضع الاقتصادي . إذ تزايد التفاوت في ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويداً رويداً الحرفة الوحيدة التي اختص بها السادة الإقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع . وينتمى إلى الفئة الأخيرة كل من وهب إقطاعاً ، أو توصلوا عن طريق « التوصية » إلى الارتباط بعلاقة تبعية مع « السيد الإقطاعي » اقترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية^(١) . هذا وإن التغير الذي تحول بمقتضاه

(١) انظر الفصل الثاني عشر بعنوان الحكم الروماني والجرماني .

الجيش - وهو في الأصل مجموعة من الأحرار لا يربطهم بقائدهم في الحرب إلا رابطة الولاء - إلى هيئة مجمعة من الفصائل التابعة لسيدها الإقطاعي التي لا يتولى فيها الملك بوصفه المولى الإقطاعي الأعلى القيادة إلا عن طريق أتباعه من النبلاء ، إنما هو وضع لا ينتهي في الحقيقة إلا إلى القرون التي أعقبت ذلك . ولكن شرلمان اعترف فعلاً بالوضع الرسمي لكبار السادة الإقطاعيين عندما أمر المجنّدة بالتقدم إلى مواطن الاحتشاد المحددة إما بقيادة الكونت الحاكم الإمبراطوري بالمنطقة ، وإما تحت إمرة سادتهم الإقطاعيين المحليين ، ولم يعد بعيداً الزمن الذي أصبحت فيه التبعية وراثية ، والذي صار فيه ولاء الأتباع مقصوراً على سادتهم المباشرين ، والذي يقوم فيه النبلاء في ظل ملكية ضعيفة كريمة ، بقيادة قواتهم لتدمير السلطة المركزية .

ومع ذلك فقد حدث مؤقّتاً أن شرلمان بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافقة ، استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الإشراف والضبط على أملاكه المترامية الأطراف . وكان كل كونت من أتباعه يحكم منطقة من الإمبراطورية ، وقد قوضوا لا في مراجعة أتباعهم فحسب ، بل في الرقابة أيضاً على أعمال موظفي السادة الإقطاعيين من الكنسيين والعلمانيين سواء . يضاف إلى ذلك ما حدث من نمو نظام المبعوثين الملكيين رغبة في حجب أطراف السلسلة التي تربط بين الحاكم وبين كل فرد من أفراد رعيته . وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها إلى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات ، يطوف بها اثنان من المبعوثين في كل عام عادة ، أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ، ويتوليان الشئون القضائية . وكان مجال واجباتهما رحيباً . فلم يكن من واجبهما فقط الإشراف على يمين الولاء الذي تقسمه الرعية للإمبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود إيرادات غلات التاج وممتلكاته ، وأن الراسم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقي جزاءه على جريمته

وأن العدالة تجري مجراها ، وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة ، « لكي يتأكدوا أن القسس يراعون نظمهم ، وأن الرهبان يتبعون بإخلاص قواعد القديس بنيدكت ، وأن ما أصدره الإمبراطور من لوائح عن ترانيم الصلوات ينفذ ، وأن كنب الإيمان مطهرة من كل خطأ ، وأن المباني تصان ، وأن الشعب يحضر القداس في أيام الآحاد ، وأنه يعرف عقيدته فيعلم « قانون الإيمان » وصلاة « أبانا الذي في السموات ... » وأنه لم تضلله الخزعبلات القديمة »^(١) .

القوانين الكارولنجية

وقد خلف لنا ثيودولف أسقف أورليان صورة وصفية رائعة لمسير هذين للمبعوثين ، وهو أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة ، وكان هو نفسه أحدهم هؤلاء المبعوثين وإن تصويره الدقيق للتفاصيل ، وما عرف عنه من روح إنسانية رحبة وفكاهة ما كره ونظرة ناضجة حسيمة ، مختلفة كل الاختلاف عن نظرة رجال الأديرة المشوبة بالبراءة أو التعصب اللذين انصف بهما كثير من معاصريه ، — كل ذلك يبعث الثقة في روايته التي تعرض علينا في وضوح مشرق ، الأحوال في جنوب فرنسا عند نهاية القرن الثامن . وهي ترسم مرحلة أخرى جديدة في عملية التحول التي سجلها من قبل أوسونيوس وسيدونيوس وأبولينارس وجريجوري أسقف تور^(٢) . وتنجلي ذكرياته الشخصية في رسالته : « نصيحة إلى القضاء » وهي ثمرة الخبرة التي اكتسبها في أثناء جولاته في الجنوب . وهو يصف بلهجات من قلمه ضروب التباين بين مناظر پروفانس — كالثالال الصخرية الوعرة الشديدة الانحدار والسيول المندفعة والخوانق والأخاديد

(١) انظر لافيس في (Histoire de France) مج ٢ ص ٣١٩ (باريس ١٩٠٣) .

(٢) انظر ما قبله ص ٦١ ، ١٢٠ ، (الفصل ١٢) وخريطتي فرنسا في عهد الميروفنجيين .



١٧ — صورة صليب يوكاسل ، نقوش على وجهه الشرقي

الراكدة اخلاقة الهواء ومستنقعات المناطق الساحلية القاتلة كرهبة الرائحة ومنحدرات نهر الرون العريضة والمدن الفاخرة التي تحيط بها الأسوار العالية : مثل آرل واثنين ونيم وأورانج ومارسيليا وكثير غيرها مما ورد ذكره في تلك القصيدة . ثم يحملنا الكاتب بعد ذلك إلى دار المحكمة في (ناربوتة) . وهي لاشك ليست إلا بناء مجلس مدينة رومانيا قديماً ، كان حتى ذلك الحين يزين العاصمة السابقة للإقليم . وقد احتشد حول مدخلها المرتفع جمهور من المتقاضين يعج بالضجيج . ويدخل القاضى إلى قاعة المحكمة بعد حضوره القداس يصحبه كاتب ، ثم يعمد الحجاب بعد إدخاله إلى ساحة المحكمة كل من لم الحق في حضور الجلسة ، إلى إقفال الأبواب دون أعين جمهرة من المشاهدين الفضوليين . ويتخذ القاضى جلسته الوقور على الكرسي ذى الأرجل المقوسة يحيط به وجهاه المدينة ، ثم يعمد إلى اختيار مستشاريه القانونيين . وعندئذ يبدأ عمل اليوم . ويتوقف ثيودولف عند هذه النقطة لكي يوجه النصيح في الإجراءات فيقول: ينبغي للقاضى ألا يتكلم بسرعة شديدة ولا ببطء شديد ، وينبغي له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجل والوجل ويشكك الوقح ويسكت الثرثار ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوي - على أنه ينبغي مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصا يقرع بها الأكثاف والرءوس ، كما ذاع عن بعض ضيقى الصدر من القضاة .

ويؤكد المؤلف وهو ينحدر من سلالة القوط الغربيين ومن درج على التقاليد الرومانية القانونية - تشديده على عيوب الطريقة الجرمانية في الإدلاء بالمعلومات ودحضها بواسطة الأئمن - وهو يرى أن وسائل حلف اليمين بأجمعها وبكل ما حوت من أساليب إثبات واتهامات يدعمها القسم وتتملاً (٢٣ - الصور)

المحكمة بالصيحات الصاخبة التي تجار « بنم وكلا » ليست جميعاً إلا أموراً قاصرة تعوزها الكفاية ، وهو يفضل أن يمضى القاضى فى عمله « بالتحقيق » والاستقصاء ، الذى يتم عن طريق شهود عدول تثبت أهليتهم ، بعد أن استجوبهم القاضى على انفراد . وإنه ليأبى كذلك الموافقة على المبدأ الجرماني الذى يجعل العقار والممتلكات أهم كثيراً من الحياة ذاتها . وقد راعه أن يجازى مرتكب السرقة بالصلب أو قطع اليد وفقء العين ، بينما يمكن التفاوض عن القتل بدفع الدية اللازمة . على أن أسوأ العيوب هو شيوع استخدام الرشوة للحصول على حكم فى صالح الراشئ . فكل إنسان فاسد ومرتش :- الحاجب على يوابته والمستشارون القانونيون على منصتهم ، بل إن زوجة القاضى نفسها قد أغواها فريق له مصلحة خاصة ، فهم لا تزال تحوم حول عنق زوجها متشفعة إليه ضارعة ، فى حين أن مريبتها وخادمتها الوقحة الصغيرة تلومان سيدهما على قسوته عليهما .

ومن الجلى أن ثيودولف طالع فى حديثه كثيراً من الأشياء التى قدفت عليه ، كأنما هى آلات حصار عديدة سلطت عليه لتدمير حصون استقامته . فن هذه القذائف (أعنى الرشى) الأوانى الزجاجية والجواهر الشرقية والنقود الذهبية الرائعة التى تحمل حروفاً عربية والديباج الموشى بأشكال الثيران وبماذج هندسية ذات تصميم أسبوى ، وهناك أيضاً الأسلحة والخليل ، على أن أثنى هذه الكنوز جميعاً وعاء من الفضة يرجع إلى عهد الإمبراطورية الرومانية يحمل ظاهره نقوشاً بارزة توضح أعمال هرقل اليومية . أما المتقاضون من الفئات المتواضعة ، فلم يكونوا أقل إصراراً على تقديم ما لديهم من هدايا من جلود قرطبة المبيضة أو المصنوعة والمنسوجات الكتانية والصوفية ، والأحذية والقبعات والقفازات ، فضلاً عن مناشف الوجه ، على حين أن شخصاً ما كرا عرف فنياً يحمل ذوق الأسقف الأدبى ، فأخرج إليه لفافة من ورق ، الكتابة

الأرجواني مبتسما ابتسامة الظفر بالأرب . ولكن القاضى التزيه يرفض كل هاته الهدايا ، على أنه ربما قبل بعض الهدايا الصغيرة من بعض الأصدقاء رغبة فى عدم جرح مشاعرهم . مثل نمار الحدايق والبساتين والخبز والبيض والجبن المصنوع من لبن الماعز وصغار الدجاج اللينة والطيور الصغيرة حجما والذئبة طما .

والركب الذى يمر أماننا فى ضياء شمس بروقانس المشرقة ، موكب بالغ التنوع زاخر بالألوان ، مؤلف من أجناس مخلطة . ولا شك أن قدرا كبيرا من حياة روما القديمة لا يزال باقيا ؛ فعلى الرغم من أثر الفرنجة ونفوذهم ، فإن الإجراءات العامة بالمحكمة ، بما لها من قاض رئيس وجو أرستقراطى ، وما لها من مراسم تبعث الرهبة ، وما حفل به جدول قضاياها المعقد الذى تدور منازعاته حول العقود والوصايا ، إنما هى أبعد ما تكون حقاً من الجمعيات (المجالس) الجرمانية البدائية المكونة من المحاربين الأحرار . ومع ذلك فإن ما حفل به خيال العصور الوسطى من الرعب والخاوف القائمة ، يقف بكامل قوته من وراء هذا العالم المائل أماننا . فإن ثيودولف يروح فى مجموعة قوية ومعتمدة من الموازنات ، فيوازن بين ثياب الذهب والحرير والفراء والعطور ورقيق الأطعمة والخمور وللساكن الرحبة والممتلكات العديدة ، وتزاحم الموالى والعلاء حول الرجل الغنى فى هذه الحياة الدنيا وبين القذارة والضيق والفقر والوحدة المطلقة ، وما يصيب الجسد فى القبر من تحلل رهيب . وإن أوصافه لليوم الآخر بما فيه من رعود ونفخ مدو فى الصور ^(١) ، وإن عولجت بالطريقة التقليدية ، إلا أنها يمكن أن تتخذ شرحاً ونصاً صريحاً يعبر عن العديد الذى لا حصر له من النقوش البارزة المنقورة على بوابات الكاتدرائيات المشيدة على الطراز الرومانسكى أو القوطى .

بلاط شرلمان

والراجح أن شخصية شرلمان الأسطورية ، التي جعلت منه عملاقاً ضخماً تمتد لحيته إلى وسطه لا تقوم على أساس من الحقيقة . إذ الظاهر أنه كان طويل القامة حقاً ، ولكنه ليس ذا طول خارق للمعتاد ، وأنه كان قصير العنق ، وكان له بطن بارز ورأس مستدير وعينان كبيرتان معبرتان ، وكان له أنف أقرب إلى الطول وشعر غزير ؛ وكان حليق اللحية ، إلا من الشارب الفرنجي المؤلف . ويتسم طبعه بالمودة والبساطة ، فكان يستطيع من ثم أن يتجول بين حشد من رعاياه في أثناء الاجتماع السنوي ، وتوجيه العبارة المناسبة لكل منهم فيكتسب بذلك ثقتهم ، ويلتقط منهم التعليقات الحكيمة على الأحوال المحلية . ولما اشتهر به من الاستقامة والإخلاص والخلق القوي والحساسية المرهفة وبعد الهمة الذي لا حد له والشغف بجمع التفاصيل ، أثر في معاصريه بقوة شخصيته وعدوبتها بقدر ما أثر فيهم بعظمه أعماله .

وقد وصلت إلينا ثروة ضخمة من الحوادث والنوادر التي تدور حول شرلمان وبلاطه ، وذلك لأن الحوليات الهزيلة التي كتبها مؤرخو الأديرة لم تلبث أن عززها فجأة مجموعة رائعة من الشعراء الذين حاولوا في محاكاة دقيقة لأوفيد وفرجيل تصوير المناظر التي يعيشون بين ظهرانيها . ولعل الترجمة البسيطة الطريفة والدافعة الصبت التي كتبها رينهارت عن حياة شرلمان أثمن لنا من هذا كله أو تكاد . فهي وإن تعرضت دون ريب لشيء من النقد في تفاصيلها^(١) ، تدفعنا إلى الاقتناع بصحة ما فيها بفضل قوة بيانها في اللاتينية ، التي هيأت للكاتب أسلوباً مشرقاً اختص به شخصياً ، لا يضارعه فيه فيما

(١) ولكن أصداءها السوتونية أثار الشكوك ، ومن الجلي أن المؤلف الذي كتب ما كتب بعد وفاة شرلمان لم يكن في مركز يتيح له الحصول على معلومات جديدة من مصادر مباشرة أصيلة عن نواح معينة من سياسته .

يحتمل إلا بيده (Bede) في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة في الغرب . وكان شرلمان نفسه هو السبب في النعجيل بالانجاس الرائع لهذه الطاقة الفكرية التي تشهد تمار القرائح فيها بالتدريب السليم الدقيق في علمي البيان والأجرومية (النحو) . وقد استدعى شرلمان إلى بلاطه أشهر علماء غرب أوروبا في عصره من إنجلترة وإرلندة ولومبارديا ، فاجتلب بطرس الپيزى وولس الشمس وأبناء وطنهما الآخرون كنوز العلوم الإيطالية إلى فرنسا ، كما واصل الاسكوتس (Scots) أى العلماء المتجولون القادمون من الأديرة الإيرلندية عمل أسلافهم المبشرين وأثروا أثرم التعليم في الإمبراطورية الفرنجية . ومع ذلك ، فلاشك أن ألكوين هو أهم شخصية قامت بتنظيم النهضة الكارولنجية ، فبفضل تعاليمه تحمكت المثل العليا للثقافة النورمبيريانية وطرائقها في حركة إحياء العلوم ببلاط شرلمان . ففي أثناء القرن الثامن ، شهد الطرف الشرق من إنجلترة الآثار المدهشة التي ترتبت على ازدهار حضارة أنجليا . وكان ذلك العصر ، هو عصر أناجيل ليندزفارن بما حوت من خطوط مونة وتصوير فاخر ، وهو أيضاً عصر الأديرة العظيمة ومراكز العلم الكثيرة الزاهرة بكل من هكسهام وچارو ويورك ، وهو عصر بيده أشهر كتاب أوروبا الغربية ، وكان عصر صلبان بيوكاسل وراثويل الضخمة التي يشهد ما نحت عليها من مناظر مقدسة تفوق في وجدانها التشكيلي كل ما في القارة من أعمال ، بوجود إمكانيات لم نصادفها فيما بعد لدى الفنانين الإنجليز المتأخرين من تصميحات لأشكال ورسوم خطية نمطية معبرة عن القصص . كانت ثقافة منتقاة سريعة النمو تولدت عن التقاء مؤثرات مختلفة في أرض مملكة قوية تقوم من أشباه البرابرة . وربما أمكن التماس الإلهام الكلتى في موضوعاتها الزخرفية وفي مجال دراساتها الكلاسيكية ، وكانت نتيجة استيراد يسكوب البندكتى للمخطوطات وزخارف الكنائس من فرنسا وإيطاليا لزخرفة مؤسساته في

چارو ومونكسويرماوث (Monkswearmouth) دخول المؤثرات البيزنطية المنتشرة في ذلك الوقت بجميع أرجاء القارة . ولا شك أن كفاية الكوين في تنظيم المدارس وإعداد الخطط الدراسية ، توى إلى بقاء ما اشتهر به اليونان والرومان من طرق التدريس ، التي انتقلت فيما يبدو إلى حاضرة العلم في بورك على يد ممثلي البابا بكانتربرى : هادريان وثيودور . على حين أن الشعر المعجيب الذى كان يقرضه الغزاة الجرمان بكل ما حوى من أبطال ووحوش ، ومن فكاهة بشعة ومن محاوره خفية ، كان لا يزال موضع إعجاب الرهبان النورمانيين ، كما أنه انتقل إلى الكتب المدرسية السكارولنجية في صورة ألقاز ومسائل في شعر الحكمة ، لا بد أنها كانت تبعث البهجة في قلب شرلمان ، المعروف بشدة ولعه بأدب ملاحم الساجا التى خلفها أجداده الفرنجة . وبعد أقول نجم مملكة نورمبريا وما تلاه من ارتفاع شأن مرسيا أولاً ثم وسكس بعد ذلك ، اعتلت تلك الثقافة ثم توارت في النهاية عن الأنظار ، وداستها أقدام المغيرين الفيكنج ، ولكن نظراً لأنها غرست في تربة غالة ، مكتملة الازدهار ، فإنها أصبحت العنصر المتسلط في أثناء عودة الحضارة الغربية إلى الانعاش في عصر السكارلنجيين .

النهضة السكارولنجية

منذ اللحظة التى وجد فيها المدافعون عن المسيحية أنه ينبغي لهم أن يحددوا مراكزهم بالنسبة إلى الدراسات الكلاسيكية القديمة ، أصبحت دراسة الآداب تعد تمهيداً لغاية أعلى منها ، هى فهم أصول الدين (اللاهوت) وقد أقر شرلمان قصداً هذا المثل الأعلى ، بيد أن الاعتبارات السياسية دفعتة هى أيضاً في ذلك الاتجاه نفسه ، بالنسبة لرجال الإدارة لديه سواء كانوا كنسيين أو علمانيين ، رغبة منه في أن يحصلوا على مستوى خلقى وفكرى

أعلى ، ولا ينبغي أن وضع تنظيم وثيق الأركان محكم الربط لسكل من الكنيسة والدولة كان يرفع من شأن مصالح الاثنين التي اجتمعت كما هو معروف داخل وحدة الإمبراطورية المسيحية التي لاسبيل إلى فصلها وبذا أصبحت مدرسة القصر في آخن (Aix) مركزاً للنشاط الثقافي ، يشهده أفراد الأسرة الملكية وأبناء النبلاء الفرنجة . وكثيراً ما كان تلاميذها يتولون رئاسة بعض ما كان بأرض الراين ومواطن أخرى من الأديرة الكبيرة التي مالبت أن أصبحت مواطن للعلوم والفنون في مناطقها ، ومراكز تضم المكتبات والمدارس وأساتذة الخورس (مرتلي الكنائس) وصناع الزجاج وتجار الجواهر ونساخي المخطوطات . وقد نظم ثيودولف الأورلياني التعليم المحلي بأبروشيته . وأخذت مدن معينة بإيطاليا تشهد فعلاً بمآهدها التعليمية .

غير أن وسيلة التعبير التي استكشفت أخيراً قد استخدمها كتاب البلاط لافي التعبير عن الأغراض الببانية فحسب ، بل وأيضاً في وصف ما يحيط بهم من ملابس . وهم يعرضون أمامنا مشهداً ذا ألوان زاهية بهيجة لبديات ناضرة جديدة على خشوتها وسداجتها . فيقولون عن قصر آخن الجديد ، إنه يقع في وسط بقعة غنية بالغابات تنتشر فيها أسراب الغزلان وتشقق الجدول ، التي ترتادها الطيور المائية المختلفة . وإنا لنسمع - من أوصافهم - صرير العربات وهي تجلب السكل البيضاء ، ونسمع صوت الأحجار وهي تقطع وتسوى ، على حين ترتفع الكنيسة العظيمة شيئاً فشيئاً ، حتى تطل قبها المذهبة الشاحخة على المباني المنخفضة الممتدة التي يشغلها الملك وأفراد أسرته العديدون ، وتشرف على الفناء الذي يقع فيه تمثال لثيودوريك في هيئة فارس ، وهو أعظم من سلف من الحكام الرومان الجرمان ، وقد نقل التمثال من رافنا ، وتطل أيضاً على حمامات السباحة في الهواء الطلق التي تحيط بها درج الرخام والتي يستطيع أن يستحم فيها في وقت واحد شرلمان ومعه مائة من الرفقاء . وهناك

كثرة موفورة من الذهب - مجدها في آنية الذهب الخالص الموجودة بالكنيسة وعلى المائدة الإمبراطورية في أيام الحفلات ، وفي السلاسل والخواتم الذهبية وفي الذهب المصوغ في حمائل السيوف ومقابضها ؛ وفي شعر الأميرات الذهبي الباهت عندما يخرجن للقنص ساعة الفجر ، وتنفتح بوابات القصر عندما ينطلق منها الفرسان ويعلو صهيل الخيل ، ويشند نباح كلاب الصيد العميق وترتفع الصيحات التي يتردد صداها في الغابة المجاورة . وهناك الثياب الزاهية الألوان مابين عباة طويلة بيضاء وزرقاء أو أردية صوفية قصيرة تلونها الخطوط المستقيمة أو المتقاطعة والقمم . على حين أن ثياب الحرير والكتان الرقيق تلبس داخل المنزل ، كما أن ملابس الحفلات وحلل التشريفة غنية بوشيا الجزل مطرزة الحافات بحبات اللؤلؤ .

ويزدحم القصر بمبعوثي جميع الشعوب ، فيهم ممثلو ملوك مرسيا أو نورمبيريا أو الرؤساء الدانمركيين أو الصقالبة أو رسل البابا أو الموظفون البيزنطيون أو المسلمون من أسبانيا وإفريقية . بل إن هرون الرشيد نفسه يرسل الهدايا من عاصمته النائية بغداد ، وبفضل ما كان لشرلمان من نفوذ عند الخليفة تمكن من الحصول على الامتيازات لحجاج بيت المقدس المسيحيين . وقد حرص كتاب هذا العصر على أن يدونوا بدقة أسماء السلع الأجنبية الواردة من أقطار نائية ؛ كالتوابل الآسيوية من الفلفل والقرنفل والقرفة وما شابهها - وهي تستخدم بكثرة لإخفاء نكهات الطعام والحمر ، أو كمواد مساعدة على الهضم . ولكن حاجات القصر الإمبراطوري كانت تسدها بصفة أساسية منتجات المزارع الملكية الضخمة ؛ التي تزود ذلك القصر بما يحتاجه من السك ولحم الصيد والخبز والزبد والخردل والخل والشهد والشمع والصابون والحمر ، على حين يرد اسم الخيار والشمام والخرشوف والبازلاء والجزر والبصل والكراث والفجل أيضاً في مرسوم الضيعة (Capitulare de villis) الذي يحتوى على التعليمات

اللازمة لتزويد الدور الريفية الملكية بطلباتها. والراجح أن طرق الرومان في الزراعة بقيت بتلك الأراضي ، التي يحتمل أن بعضها كان من أملاك أباطرة الرومان المتوارثة .

الحياة في آخن

إن الحياة هنا خليط عجيب من الحياة البربرية القوية والحضارة القديمة النابوية . فإن إينهارت ورفاقه يدرسون فتروفيوس فضلاً عن فرجيل ، كما أن مانهب من رافنا من أعمدة ورخام أدخل في المائر الجديدة ، مثلما أن ماقتبس من أوفايد وسيتونيوس من عبارات بتجلى بوضوح في مصنفات ذلك العصر ومع ذلك ، فإن بالمهارة المعاصرة آيات تشهد بالنشاط ومحاولات التجريب ، كالنصميم النادر لكنيسة ثيودولف في جرميني دي بريه (Germigny-des-prés) كالمهارة الشائخة لكنيسة سانت ريكويه أو دير القديس واندريل ببرجه الضخم الذي تعلوه منارة مميكة قصيرة مذهبة ، وتزينه غرفة الطعام الفسيحة التي تزدان جدرانها بمنظر تمثل الشهداء والشهادة والقصص المقدسة . ولا شك أن في جو البلاط نفسه من المتناقضات ما لا يقل عن هذا استرعاء للأُنظار . ففي داخل أسواره يختلط الحجاج والتجار والجند والرهبان والنبلاء والعلماء والسيدات المرحات والفلمان الرشقاء ، على الرغم مما قد ينشب بينهم من خلافات في بعض الأحيان . ويتردد شرلمان نفسه على المدرسة طلباً للتعليم ، ويتنافس هو وأصدة قازوه ببالغ الشغف في نقاط عجيبة في علم الصرف أو العلوم . ومع ذلك فلم يكن هذا سوى متنفس واحد لطاقته الجسمية والفكرية الهائلة . ومن وراء كل هذا المرح وهذه الفخامة التي تتجلى في آخن من ممارسة الصيد والسباحة والمؤامرات والفضائح ، يسير العمل الإداري الجدى قدماً في طريقه ، وفي كل صيف ينطلق فرسان الفرنيجة للقتال خارج حدود العالم المسيحي .

على أن أحوال فرنسا في مجملها لا يجوز استنباطها من هذه الصورة لحياة البلاط . أجل إن حكومة شرلمان القوية حفظت النظام في البلاد ، فانتعشت التجارة تبعاً لذلك ، ولا سيما في مدن بروفانس ومنطقة الراين ؛ غير أنها لم تكن أساساً إلا تجارة في أدوات الترف . ولم يحدث أى تغيير لجأى في النظام الاقتصادى بأوربا الغربية . وتواصل قطع الغابات وترتب على ذلك نتيجته الطبيعية من زيادة رقعة الأرض القابلة للزراعة ؛ وأحرزت المزارع الضخمة المكاسب على حساب المزارع الصغيرة ، وأخذ مركز المالك الحر الصغير الأرض يزداد على الأيام تقلقاً واضطراباً . وكما كان الشأن قديماً ، تركزت حياة السكان حول الدور الريفية للسادة العلمانيين والكهنسيين ؛ وصار الحد الأقصى للسكان الطاحون ودكّانة الحداد والسوق المحلية والمحكمة .

عيوب سياسة شرلمان

توفي شرلمان في آخن في يوم ٢٨ يناير ٨١٤ ، وبزوال شخصيته البارزة لم تلبث الإمبراطورية الفرنجية الضخمة التى أتم بناءها ، أن هوت فريسة للتمزق والغوضى . فإن إينهارت الذى سطر مألّفه في عصر خلفه لويس التقي كان ينظر إلى ماضى من أيام شرلمان ، نظرة الناس إلى عصر ذهبي أسطورى مضى . فما كان يتلأّأ به بلاط شرلمان من الفخامة المتألّقة التى بهرت أبصار معاصريه أعتمهم عن حقيقة إمبراطوريته وأنها دولة قلقة غير ثابتة ، مثلما أن ما اشتهر به شرلمان من هيبة وجاذبية شخصية وحصافة وكفاية إدارية ، أخفى عن أعينهم ما كان يعوزه من تدبير السياسة وبعد النظر . وإذا نظر إلى شرلمان على ضوء الأحداث التالية ، لم يبد في صورة أول إمبراطور روماني غربي ينحدر من سلالة أوغسطس وقسطنطين ، وإنما يبدو بوصفه آخر ممثل لتلك السلسلة الطويلة من الأبطال والزعماء الذين قادوا المتبريرين في هجراتهم

وتجولاتهم والذين يقوم على رأس قائمتهم الطويلة الأليك وأتولف، فإنه مائلهم جميعاً في احترامه للحضارة اليونانية الرومانية (الجرانيكورومانية) ، أو أقل. إنه انخرط إلى حد ما في محركات تلك الحضارة ؛ ولكن مما له دلالة أنه يشاطر ثيودوريك الأكبر أمنيته وعدم قدرته على كتابة شيء سوى توقيع ، على أنه يتفق وإياهم ، في الحدود التي تحدده ، وهي أنهم جميعاً غزاة فاتحون عتاة أقوياء من الناحية التنفيذية ، ولكنهم يفتقرون إلى النجاح في دعم المكاسب وربط ما فتحوه بعضه ببعض . وقد مد شلمان حدوده إلى الإلب والدانوب ، وتجاوز سلطانه جبال البرانس ، وامتد إلى المنطقة الواقعة جنوب روما . ومع ذلك فإنه لم يثبت بصورة فعالة أى حد من حدوده باستثناء منطقة سكسونيا فيما يحتمل . ذلك أن إعاوزه إلى أسطول وجيش دائم جعل شواحل فرنسا وإيطاليا تحت رحمة المغيرين من أهل الشمال والمسلمين ، كما أن هذا الطرف نفسه أفضى بعضى الزمن إلى استقلال كثير من مناطق حدود الدولة وأطرافها فعلا التي أصبح بعضها نواة لكثير من الدول الأوروبية التي ظهرت فيما بعد مثل النمسا (Austria) وروسيا . ولا شك أن إعاوز شلمان إلى سياسة مدروسة في البحر المتوسط ، تعادل في مستواها ما اشتهرت به بيزنطة من سياسة ناضجة ، هو الذى منعه من جلب قواته جميعاً لمهاجمة بنقنتو والضنط عليها - التي احتفظت باستقلالها طوال حكمه - ولو أنه فعل ذلك لثبت تسوية مسألة جنوب إيطاليا ، التي أثبتت الأيام للأجيال التالية أنها أعوص مشكلة في شبه الجزيرة الإيطالية . وغير خاف أن الوضع الجديد بما انطوى عليه من الافتقار إلى ما كان لدى الرومان من أساليب إدارية وما اقتدرن بها من فرق الجيش والنزلاء المستعمرين والجهاز الإدارى البيروقراطى المتشابك والمجرد من كل صفة شخصية ، جعل تمزق الإمبراطورية أمراً لا مفر منه متى زالت يد حاكمها القوية ، وقد تجلت نتائج ذلك واضحة في إيطاليا حيث بدأت النزعات

الإقطاعية تبدو للعيان فعلا بظل الحكم اللومباردى ، إذ ظهرت تلك النتائج في زيادة قوة السلطات المحلية في شئون القضاة وفرض الضرائب على حساب السلطة المركزية . وحتى الأساقفة الذين كانوا يعملون مبعوثين ملكيين ، أخذوا يدعون أن هذه الحقوق امتيازات وراثية ترتبط بمناصبهم ، على حين أن الكونتات لم يعودوا موظفين من قبل الإمبراطور يمكن عزلهن بإرادته ، بل أصبحوا أتباعاً إقطاعيين ، يحوزون ممتلكاتهم على أنها إقطاعيات (Beneficia) ، وليس بوصفها كسباً طارئاً مرتبطاً بالنصب . وقد أصبح النبلاء الفرنجة والبافارون المستقرون بإيطاليا أقطاباً محليين من أعيان ملاك الأراضي ، وسطع نجم ثلاث عائلات عظيمة عالياً بمناطق فريولى ونوسكاني واسبوليتو^(١) . على أن عوامل تمزيق وانفصال . كانت تعمل عملها في أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، فزادت كل من أكينانيا وبافاريا من استقلالها ، كما أن الانقسامات القبلية التي كان يتزعمها بالمانيا الأدواق ، قدر لها أن تكون من أهم العوائق التي اعتاقت نهضة المثل العليا الإمبراطورية التي حدثت بعد ذلك في عهد أوتو .

ولا شك أن الاتجاه الجرماني في فكر شرلمان السياسي يتضح تماماً من الترتيبات التي وضعها لوراثة العرش . فالتقسيم الصادر في (٨٠٦) لا يستشف فيه أي أثر لفكرة استمرار الإمبراطورية بعد وفاته — إذ قسمت الدولة بين أبنائه الثلاثة على نحو ما فعله كلوفيس^(٢) وخلفاؤه وقد مات قبله اثنان من

(١) إن هذه المناطق الثلاث يمكن اعتبارها مناطق حدود يهددها على التعاقب الصقالة وقراصنة العرب وغارات بنفثو . وعندما مات المارجراف (حاكم النهر) إيرهارد المعروف « بدرع إيطاليا » ، وهو من أصل سوابي خلفه في عرش إيطاليا فريولى ابنه ثم حفيده . وسيطر كونتات لوكا البافاريون على جزير قورسيفي ، وكان لهم سلطان على لوني وبستويا وفولتيرا وفلورنسا ، وقد قسم شرلمان اسبوليتو إلى ولايات ، ولكنها استردت استقلالها في زمن أسرة لامبرتينى الفرنجية النبيلة .

(٢) انظر ص ٣٠٧ بينوان الفرنجة (الفصل الثاني عشر) .

أبنائه ، وهكذا كانت الصدفة وحدها هي العامل الذي جعل جميع فتوح الفرنجة تظل تحت سيد واحد عند وفاة شرلمان في (٨١٤) ، وقد منح الوالد قبل وفاته بسنة واحدة اللقب الإمبراطوري لابنته لويس الملقب بالورع ؛ ولكن كان من أوائل أعمال هذا الأخير إعادة توزيع الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة. أجل إن الابن الأكبر صار فعلا شريكا لأبيه في سلطانه ووريثا له ، وإن أخويه جعلوا تابعين يخضعان له . ولكن هذين الأخوين كانا يسيطران بالفعل على ما في مملكتيهما من موارد عسكرية ، ولم يتوانيا في استخدامها ، ومن ثم زحرت المدة الباقية من حكم لويس بما ثار بينهم من منازعات اقترنت بالتمرد ، وبما ترتب على ذلك من إعادة تقسيم الأراضي .

وثمة مرحلة أخرى في تفكك هذه الإمبراطورية ، آذنت بها معاهدة فردان (٨٤٣) ، وبمقتضاها اتفق أحفاد شرلمان بعد صراع عنيف على إنشاء ثلاث ممالك ، تتألف من ثلاث شرائح مستطيلة من الأرض تمتد من الشمال إلى الجنوب . فالشقة الشرقية تحتوى على جميع ممتلكات الفرنجة الواقعة شرق الراين ، والشقة الوسطى هي طويلة وضيقة ، كانت تمتد من الأراضي المنخفضة مارا بأستراسيا وبرجنديا وپروفانس ، حتى شمال إيطاليا ووسطها . أما الشقة الغربية فتألفت من بقية فرنسا فضلا عن منطقة الأطراف الأسبانية . ولسنا في حاجة إلى تأكيد أن هذا التقسيم صناعي محض ، ولم تلبث هذه الحقيقة حتى تجلت حين تمزقت المملكة الوسطى عند وفاة ملكها .

ولم يفته القرن التاسع حتى استحالَت إمبراطورية شرلمان إلى خمس دول منفصلة متعادلة : وهي فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبرجنديا العليا وبرجنديا السفلى .

الفصل الخامس عشر أوروبا في مرحلة انتقال حركات الأقوام

ربما أمكننا الآن عرض صورة للتغيرات التي تخضعت عنها أربعة قرون من الظلام والفوضى . ولو أننا نظرنا إليها من علٍ ، كمن ينظر من طائرة وهمية تخلق في سرعة على مسرحي الزمان والفضاء ، لبدت كتلة الأراضي الأوراسيوية (الأوربية الآسيوية) كأنما تمر في دور عنيف من أدوار الحركات المستمرة التي يقوم بها السكان ، تلك الأدوار التي تكون الطبقة السفلى التي يرتكز عليها تاريخ العالم ^(١) . وقد كانت الحاجات الأولية ، تدفع السكان إلى الانشغال غدوا ورواحا في موجات فجائية للغزو ، أو في انسيابات بطيئة للتوغل ، لا يضبطها وينحكم فيها شأن مياه الفيضان - سوى قوى لاشعورية وعوائق جغرافية ، أو ما كان للبقاع المختلفة من قدرات متفاوتة على كفالة حياة البشر . وكلما اقترب المنظر ، تكشفنا أممنا جهود الإنسان في ابتكار الحواجز المصطنعة . ففي الطرف الأقصى من الدنيا ، يقف سور الصين العظيم رمزا لإمبراطورية مستقرة ، وشاهدا على نصر باهر أحرزه الإنسان في صراعه الأبدى الدائر بين أرض السهوب والأرض التي يشقها المحراث . وفي الطرف الأقصى الآخر من الدنيا ، تقوم الحدود الرومانية ، التي تناخها كالجناح حدود الفرس الساسانيين ، وتعرض حركات القبائل الجرمانية المنجحة غربا . وتبسط بين الطرفين السهولة المثرامية بوسط آسيا ، التي هي مجال التكاثر

(١) انظر . أ. واء. كرليمر في Kriegs-und Wanderzuge ص ١-٤٦ (برلين ١٩٣٢)

للسعوب البدوية (المترحلة) التي تنطلق من الصحراء إلى الأراضي الخصبة التي تناخها ، حاملة إليها في العادة الدمار والخراب ، ومزودة لها في بعض الأحوال بالقوة والحيوية الجديدة . وكلا هبت عاصفة على آسيا كان فيها نذير الخطر على جميع الحضارات القديمة . فإذا اخترق المغول والمانشو سور الصين العظيم ، سقطت عن عروشها أسرات الصين العريقة المالكة . وإذا تدفق الهون والآفار عن طريق السهوب الواقعة جنوبى روسيا ، ترتب على ضغطهم من الضربات المتتالية ، ما يدفع أمامهم الجمرع الجرمانية ، إلى القضاء نهائياً على ما كان لروما من سلطان في الغرب^(١) ، كما أدى ذلك الضغط نفسه بعد ذلك بقرنين ، إلى القذف بمجموع الصقالبة بحكم قوة الطرد المركزى على شعوب وسط القارة . ثم تأتى في عهد قريب من ذلك ، موجة الغزو العربى فتغمر بلاد الشام ومصر وتفيض حتى تغطى شمال إفريقيا وأسبانيا ، وتتقدم فى الحين نفسه شمالاً بشرق إلى ما وراء فارس ، حتى تلتقى بطليعة الجمرع التركية ، التي كانت تنتظر الإشارة لتقوم بالدور الأخير فى آخر صاعقة هبطت من آسيا على مسرح أوروبا .

التجارة والصناعة

فإذا زدنا بطائرنا الوهمية دنوًا من الأرض لحظنا أن شبكة الطرق الرومانية لا تزال تغطي وجه المناطق الريفية ، ولكنها لم تعد فى عام ٨٠٠ للميلاد تزخر بحركات الموظفين ولا بما كان للتجار من نشاط تجارى بعيد المدى ، ولا تفص بالفنادق ودور البريد المشيدة بالأحجار . وهى الأشياء التي قال عنها

(١) ظلت حدود روما على الراين تصد هجرة الجرمان مدة أربعة قرون ، وبذا أصبحت منطقة ضغط الشعوب المتنقلة غرباً . وقد خفف من شدة هذا الضغط تخفيفاً جزئياً مرور كثير من الجرمان بسلام ، إما فرادى وإما فى قبائل ، ودخلهم إلى الإمبراطورية إما بهجرة قبائل جرمانية شرقية كبرى من مناطق البلطيق إلى حوض الدنبر والبحر الأسود . على أن هاته القبائل كانت أول من أحس بضغط الهون الذى دفعهم أمامهم حتى عبروا حدود الدانوب .

سائح صيني مر في القرن الأول لإنها من المعالم المميزة للإمبراطورية الرومانية^(١). على أن التجارة لم تتوقف بأية حال . إذ من الواضح أن شطراً كبيراً من البنين الاقتصادي الذي كان موجوداً في العهود الإمبراطورية ، ظل قائماً بمناطق ضخمة من فرنسا وإيطاليا . وحتى المدينة نفسها — كما تدل على ذلك كثير من الأمثلة — ظلت محتفظة بأهميتها القديمة كمركز محلي للتجارة . فإن السفن تسير مصعدةً في نهر بو والراين ، كما أن المدينت والكبارى التي وجدت منذ العهد الروماني بروما وإيطاليا وغالة ظلت تدفع الجزية للفرنجة واللومبارد ، وإن لم يكن من الضروري أن يدل ذلك على شيء يتجاوز التجارة المحلية . وعلى الرغم من أن في الإمكان إيراد أمثلة لا حصر لها عن النشاط التجاري ، فالواقع أن هناك بونا شاسعا في الأحوال الاقتصادية بين العصور القديمة ومستهل العصور الوسطى ، ولذا فإن أبحاث الأستاذ دوبش (Dopsch) وغيره من العلماء لم تزد على أن حددت الفكرة ببعض الأوصاف دون أن تقضى عليها . إذ إن الذي كان يحدث في ظل السلم الروماني في أثناء القرنين الميلاديين الأول والثاني أن جميع أنواع الإنتاج الكبير الخاص بالأقاليم كانت تتبادل بوفرة تامة بواسطة التجارة المحمولة براً وبحراً من بريطانيا إلى سوريا ، وهى التجارة التي كانت تزود السكان أو الجيوش بضروريات الحياة العادية مثل القمح والحبور والزيت والمعادن والخشب والملابس والفخار . فالزراع السري من أبناء بوسكوريا إلى الذي كان يعيش في تلك الأيام على التلال المطلة على خليج نابولي بما اشتهر به من التخصص في إنتاج النبيذ على نطاق واسع من أجل التصدير ، تخصصاً أدى به إلى إهمال كل ما عدا النبيذ من لوازم البيت ، وبما كان لديه من صنوف الجصيات (الفريسكو) والبرونز والأثاث المطعم الحديد الطراز وصحاف الفضة الفاخرة ؛ بل حتى ما لديه من القراميد والفخار وجواربه وما يستخدمه

(١) انظر . هيرث China of the Roman Orient ص ٣٨ (ميونخ ١٨٨٥)

من مناجل تقليم الشجر وما يرتديه من الثياب ويتناوله من صنوف الأطعمة ، وكل هذه أشياء مجلوبة من المدينة أو من وراء البحار — إن ذلك المزارع السرى إنما هو عضو رئيسى فى نظام تجارى يشمل العالم كله ويعتمد بعضه على بعض : — فهو وحدة طرازية تمثل الحضارة الرومانية^(١) . ولا مرء أن الحضارة كانت ترق وتضمحل خارج عالم البحر المتوسط حتى تتحول إلى مجرد طلاء سطحي ، ومع ذلك فإن الفخار الذى انتشر بكل مكان والآوانى المعدنية المصنوعة بالقارة والمكتشفة بمواقع رومانية بريطانية لتشهد بأهميتها فى الحياة اليومية حتى فى الجزائر البريطانية نفسها .

على أن الموقف فى حوالى ٨٠٠ لليلاد يختلف عن ذلك اختلافاً بليغاً . فلو أغلفنا مالا بد منه من اختلافات ، لأمكننا أن نطلق بحق على النظام السائد بأوربا الغربية فى ذلك الزمن اسم نظام الاقتصاد المغلق — أو الاكتفاء الذاتى (Geschlossene Hauswirtschaft) وهو نظام يتكفل فيه بمجاذات الحياة عمل مجتمعات ذات اكتفاء ذاتى ، « وليس لتبادل السلع فيه إلا مركز ثانوى فى الإنتاج^(٢) » أما التجارة التى تنقل إلى مسافات بعيدة فهى على الجملة مقصورة على سلع الترف اللازمة للبلاط والكنيسة — كالتوابل والجواهر والعاج والبخور والمصنوعات الفنية . بل إن فرنسا نفسها ، وهى القطر الذى تهيأت فيه أطياف الظروف الموائمة لإعادة بناء المجتمع ، لم يكن ما فيها من مزارع ضخمة جيدة التنظيم وتابعة للبيت المالك ولاضياغ الأديرة القوية (مثل دير سان جرمان دى برى) مما يمكن تسميته باسم المصانع بأية حال ، كما توهم البعض أحياناً ،

(١) انظر تينى فرانك فى (A. Economic Hist. of Rome) ط ٢ لندن

(١٩٢٧) ف ١٤ وخاصة ص ٢٦٦ .

(٢) انظر ١ ، كوليستر فى (Allgemeine Wirtschaftsgeschichte) ص ٣ ، ٢٩٩

(برلين ١٩٢٨ — ١٩٢٩) .

ولا هي كانت مصانع تنتج للأسواق الخارجية بالجملة كميات ضخمة من السلع الزراعية والصناعية ، وإنما هي مجرد مزارع بالغة الضخامة ، يزود البيت الملكي والدار الكنسية بما تحتاج إليه من الضروريات ، وذلك مثلما كانت الأوقاف الإيطالية تقدم تلك الضروريات لكنيسة روما في عهد جريجورى الكبير^(١) . وغنى عن البيان أن هذا النظام المعروف باسم « الآفاق المحلية » إنما يرجع بصورة مباشرة إلى انهيار الحكومة الرومانية والمواصلات والتجارة . ويبدو أنه لا يصح تحديد نقطة التحول على أنها القرن الخامس ، بل بالأحرى على أنها سنوات الفوضى والغزو الحثيث فيما بين (٢٣٥ — ٢٨٥) ، وهي السنوات التي دمرت بالفعل ما كان للإمبراطورية الرومانية من نسج اقتصادى محكم . وقد أعاد دقلديانوس وقسطنطين للنظام السياسى سيرته الأولى . إذ ثبتت العملة وحددا مستوى أسعار السلع ، وأحكما ربط الصناعة بعجلة الجيش والإدارة المدنية — ولكنهما لم يتمكنوا من تعويض ما كان للنشاط التجارى من خيوط دقيقة ، كما أن مهلة القرنين الهادئين التي أتاحها جهودهما لبلاد الغرب لم تشهد أى انتعاش فى التجارة بين الأقاليم ، بل شهدت ارتداداً إلى الوضع البدائى القائم على الاكتفاء الذاتى المنزلى . وتجلّى ذلك بوجه خاص فى بلاد مثل بريطانيا وشمال فرنسا اللتين كانت الأنظمة السكتية قائمة بهما ، وهى أنظمة تناقض ما هو معروف عن البحر المتوسط من مراكز تتركز بها المدن^(٢) .

ونتيجة لهذا فإن التجارة والصناعة فى الغرب ، لم يتبد فيها انقطاع ظاهر

(١) انظر ما قبله ص ١٣٢ من هذا الكتاب . وانظر كذلك Greg. Epp. بمواضع متفرقة وأيضاً إسبيرنج فى : (The Patrimony of the Roman Church in the time of Gregory the Great) ١٩١٨ .

(٢) انظر ب. فينو جرادوف فى (The Growth of the Manor) ص ٦٦ (لندن ١٩٠٥) .

عند الانتقال من العصر المتأخر للإمبراطورية الرومانية إلى أوائل العصور الوسطى، وقد قضى قراصنة الوندال على الملاحة في البحر المتوسط أو على الأقل على معظم ما تبقى منها حتى القرن الخامس، ولم يكن لإحياء النشاط التجارى زمن السكارو لنجيين أمراً ممكناً بعد ظهور البحرية الإسلامية^(١). وذلك على حين أن الطريق التجارى البرى إلى الشرق قد أوصده كذلك حشود الغزاة الزاحفين صوب الغرب، ثم احتلال الهون والآفار لأرض المجر، فضلاً عن هجرة الصقالبة. ومع ذلك فمن المحقق أن أنواعاً معينة من المنتجات احتفظت بأسواقها أو حصلت على أسواق جديدة، ومنها أسلحة طليطلة وصناعات قرطبة الجلدية ومنسوجات فريزيا. ومن المدن الشمالية التى تشير إليها السجلات بوصفها مراكز تجارية: إيتابل وأوترخت ولندن وسيليسفيج وبركابالسويد. وعقدت الأسواق السنوية — كالتى قامت فى تروى (Troy) وسان دنيه — فاجتذبت إليها التجار الجوالين من كل البلاد، وأصدر الملوك التشريعات المنظمة للتجارة، وصار بالمدن الكبيرة عادة أحياء خاصة بالتجار. وهناك أسواق الراين العظيمة القائمة على التخوم منذ العهد الرومانى^(٢)، وهى التى كان يطاولها صف المحطات التجارية التى أذن بإقامتها شرملمان على الحدود الصقلبية. على أن بعض الطرق بالغة الطول، كالطريق المائى الذى يربط بين بحر البلطيق والبحر الأسود، تبدى فيها دلائل تدل على تزايد النشاط التجارى إبان القرن الثامن، على حين أن المدن الفرنجية لم تكن تجهل بأية حال وجوه من يترددون عليها من العرب واليهود والسوريين، بما يحملون

(١) انتقدن . ٨٠ . بايزن فى (J. of Roman Studies) ١٩٤٠ (١٩٢٩) ص ٢٣٠
ع رأى يرين القائل بأن التجارة المنظمة الممتدة من أقصى البحر المتوسط إلى أنصاه ظلت موجودة حتى القرن الثامن. وعن مراجع أخرى لهذه المسألة انظر كتاب (Byzantium) ج ٧ (١٩٣٢) ص ٤٩٥ — ٥٠٩، وانظر أيضاً ل. بانزلت فى: (Die frankische Kultur und der Islam) (فيينا ١٩٣٢).
(٢) انظر (Tac. Germ. C. 4I & Hist. iv. 64).

إليها من النفائس والتحف الشرقية . ومع ذلك ، فإن من الحقائق الثابتة أن الفترة المبكرة من العصور الوسطى لم تشهد من النشاط التجارى المنتظم فى الغرب ما يمكن أن يقال فيه إنه لا غنى عنه للإبقاء على المجتمع — وكانت الأحوال فى الإمبراطورية البيزنطية مغايرة لذلك تماماً ، وذلك لأن البنيان الاقتصادى الرومانى ظل هنا سليماً محافظاً على وحدته وتماسكه بكل ما حوى من نقد وإئتمان (Credit) وأسواق وتشريعات تجارية ، على حين أن العلاقات التجارية البحرية مع الشرق الأقصى التى قطعت منذ القرن الثانى قد عادت إلى مجاريها تقريباً .

الزراعة فى الغرب

على أن للزراعة صورة مخالفة لذلك قليلاً وإن لم يترتب على غزوات البرابرة أى انقطاع حقيقى فى هذا المجال أيضاً ؛ ذلك بأن مطالع العصور الوسطى فى غرب أوروبا إنما هى استمرار للتقدم المضطرد الذى بدأ فى عهد قيصر ، والذى انتشرت فيه — متفرعة من دائرة الإمبراطورية — الطرق الباردة فى فلاحه الأرض منتقلة إلى خارج الإمبراطورية فى جوف القارة الأوروبية . ومن إقليم الراين وشمال شرقى فرنسا اجتازت آلات الزراعة وأساليبها الفنية الرومانية مناطق الحدود إلى ألمانيا^(١) ، حتى إذا استقرت قبائل البرابرة ، زالت من الوجود حياة الرعى والتنصص ، وحلت محلها المهن والأعمال الزراعية الثابتة ، التى أخذت تنتشر رويداً رويداً فوق شطر متزايد الرقعة من أوروبا . ومن وراء هذه المنطقة كان هناك عالم يستره الظلام حافل بالمستنقعات والغابات والسهوب وزاخر بالأقوام البدوية والشعوب البدائية التى تعيش على النقاط

(١) ويفضل الرومان أيضاً عرف الألمان البسائين والحدائق ، كما يتجلى ذلك من أسماء الفواكه والأزهار والخضر المشتقة من اللاتينية . وواصلت الأديرة العظيمة بث هذه المعرفة .

الثمار . لقد كانت حدود هذا العالم تتراجع على الدوام ، غير أن مناطق كبيرة منها بقيت على حالها من التأخر ، منها أصقاع مترامية من الغابات العذراء بفرنسا وألمانيا ، ومنها شعوب رعاة تطوف في أرجاء مرتفعات البلقان . على أن هناك تعديلات وتغييرات أخرى دخلت إلى خريطة أوروبا الزراعية بتأثير خصائص التربة والمناخ وتقاليد القبائل والعرف المحلي . وبذا يمكن التمييز بسهولة بين طرائق الألمان الشماليين والألمان الجنوبيين ، على حين أنه حدث في إنجلترا ، أن سلاح المحراث السكسوني الثقيل ، الذي كان يقلب التربة الطينية العميقة في الحقول المستطيلة الضيقة غير المسورة التي تحيط بمستوطنات الغزاة ، قد قضى تماماً على الزراعة الرومانية الكلتية بكل ماحوت من حقول صغيرة مربعة تقع في تربة طباشيرية أو رملية حصائية . وبفضل هذا المحراث نفسه . ابتدأ أول التحولات الثلاثة التي مرت بريف بلادنا^(١)

ولكن خط الانفصال الرئيسي ببلاد الغرب لا يزال إلى اليوم قائماً وواضحاً بين الزراعة الاستنفادية الشديدة الاستغلال للرقاع الضيقة بإقليم البحر المتوسط التي تتمثل فيما يملكه الأفراد من قطع يزرعونها قحاً وكروماً وزيتوناً ، والتي اشتهرت بالخطوط القصيرة الضحلة والمحارث الخفيفة وبين الزراعة المترامية الرقعة بالمناطق الشمالية ، حيث يتحكم المناخ القاسى وقلة عدد السكان والمناطق الضخمة من الغابات أو المستنقعات ، وتنتج نظماً للزراعة يلعب فيها دورا كبيرا بل دورا سائداً متسلطاً ، ويكون عمل الإنسان نادراً قليل المهارة ، ويشق المحراث الثقيل بثيرا نه الثمانية شقوقاً مديدة في الحقول المستطيلة الشقة .

(١) لاشك أن السياجات التي أقيمت في أثناء الفترة الأخيرة في العصور الوسطى والتي بلغت ذروتها في أثناء القرن الثامن عشر ، هي السبب المباشر في الضعف الثاني ، كما تعد الثورة الصناعية التي أعما في أيامنا هذه استخدام الوسائل الميكانيكية في الزراعة مشحولة عن التحول الثالث .

والواقع أنه ليست لهذه الأحوال المتناقضة من أهمية إلا من الناحية السيكولوجية فقط . فإن نظام الزراعة المحدد المعالم في البحر المتوسط، الذي عمَّ إيطاليا وجنوب غالة وأسبانيا وشمال إفريقيا زمن حكم الرومان ، بما اتم به من الفردية والاكتفاء الذاتي والملكية المطلقة للأرض ، كان خير معوان لأهداف نظام الضرائب وتحديد الوضع الاجتماعي للأفراد ، على الرغم من أن عبارات القانون الروماني الطنانة ، قد أخفت الحوافي الخشنة لكثير من صنوف الشذوذ . ومع ذلك ، فإن الأحوال الطبيعية في الشمال تمخضت عن عقلية تعاونية ، وعن عالم فكري ، حقوق الملكية فيه غامضة ومعرضة لصياغة مبهة عسيرة الفهم . وكان للدورة الزراعية واختلاط الأنصبة في الحقول والشيوع في استخدام الغابات والمياه والمشاركة في منتجعات الرعي ، وعادات الحياة التي تولدت من أمثال هذه التقاليد ، — كل ذلك كان له الفضل في خلق اقتصاد ريفي أكثر مرونة وعدم انتظام من إقتصاد منطقة البحر المتوسط . وقد رُسخت عناصره المميزة إبان العهود الكلتية لغالة وبريطانيا واستمرت إلى ما بعد الفتح الروماني (على الرغم من أن نظام الضياع (الفيلات) المركزية سار أشواطاً في سبيل التقدم بكل من القطرين ، إذ وجد فيها تربة صالحة لنموه) . وتتضح هذه العناصر في كل مرحلة من مراحل الزراعة الجرمانية ابتداءً من الاحتلال المؤقت في أثناء عهد الهجرات حتى التطورات الكاملة النمو بإنجلترا في عهد الأنجلوسكسون . وقد تركت تلك العناصر أثرها في حياة القرية وفي نظم الحكم الذاتي المحلية الشائعة في المصور الوسطى ، وهي تشكل عنصراً جوهرياً في نمو الضيعة (Manor) (أى دائرة حكم النبيل) ، إذ إنها عطلت بل منعت تماماً في كثير من الأحيان ذلك التماثل التام الذي ربما فرضته — لولاها — المؤثرات الإقطاعية .

الطبقات الاجتماعية

وربما كان هناك شيء من زائف التبسيط في مد ظلال هذا التباين على أوائل العصور الوسطى وعرض المسألة على اعتبار أنها اختفاء ما للألمان من حرية شخصية ونظم ديمقراطية في غمرة ما للرومان من المفاهيم الفقهية التي أقامتها قرون طويلة تعرضت فيها الطبقات الدنيا لظلم منظم، والتي غذتها الفكرة السائدة في البحر المتوسط عن تفاهة حياة الإنسان وزهادة العمل البشري .

أجل إن هذه الفترة تتميز بما سادها بصفة عامة من : « إهدار لكرامة طبقة العامة وتخطيم لحياتها »^(١) فإن الفلاح الصغير (Bonde) لم يظل مستقلاً أئني قادراً على الاحتفاظ بحقوقه إلا في أقصى الشمال في بلاد النرويج والسويد . ولكنه في الدانيمرك وإنجلترا لا يصبح فلاحاً (Husbandman) أجيراً فحسب ، بل عبداً رقيقاً (Bondman) . وهنا تتحول اللفظة الفرنجية فيلانوس (Villanus) أى العامل بالضيعة إلى لفظة (Villein) السائدة في العصور الوسطى ، والتي يقصد بها « رجل وضع الأصل رقيق الحال » . وتختفى الطبقات الوسطى من المجتمع في مملكتي كنت ووسكس ، مخلقة وراءها ثغرة هائلة بين طبقتي النبلاء والدماء . وحدثت هذه العملية أيضاً بمناطق أخرى . ومع ذلك فإن التقاء الاتجاهات عند الجالين الرومانى والجرمانى ، مهد الطريق لهذا « التحول الأرستقراطى للعجاجة البشرية » . وقد أفضى سقوط الحكم الرومانى إلى انتقال السلطة الحقيقية — على الرغم من أنها لم تكن بأسرها دستورية — إلى أيدي الأعيان المحليين الذين أصبحوا سادة صغاراً على فلاحهم يتولون النظر في شئون مستأجرهم القضائية ويقررون عليهم الضرائب .

(١) انظر (Cambridge Medieval History) مج ٢ ص ٦٥٢ (كبريدج ١٩١٣)

ومع ذلك فإن ما حل بالإمبراطورية من هبوط اقتصادى ، وإن أدى إلى تحول صفار الملاك إلى أتباع لمالك الأرض ، وقيد حرية حركتهم ، قد جعلهم شيئاً ضرورياً لا يستغنى عنه نظراً لندرة اليد العاملة ، وبذلك أتاح لهم ميزة القدرة على المساومة . وفى الحين نفسه أدى تحسن الوضع الاجتماعى للرفيق ، الذى يرجع إلى التشريعات ذات النزعة الإنسانية أولاً ، ثم ذات الصبغة المسيحية فيما بعد ، — إلى التقريب بين وضع الفلاح الصغير (Colonus) ومكانته ، وبذلك أسهم فى تكوين طبقة كبيرة شبه حرة ، هى طبقة العمال (Laborantes) التى ألفت مع رجال الكنيسة (Orantes) والنبلاء (Bellantes) العناصر التى يتركب منها المجتمع فى غرب أوروبا^(١) .

وإذا حولنا أبصارنا إلى الجانب التروتوى من الصورة لم نجدته يمثل بأية حال المثل الأعلى للحرية والديمقراطية البدائية ، كما تصور ذلك وأعلنه أحياناً . بعض المتحمسة من مؤرخى القرن التاسع . ويشير الأستاذ فينوجرادوف أنه : «لاشك أن الرجل القبلى المسلح الحر كان يستمتع بقسط لا بأس به من الحقوق ، وإن لم تكن هناك أدنى علاقة بين الاعتراف بوضعه الاجتماعى وبين النظريات الديمقراطية العصرية» . وقد كان المحاربون فى أى مجتمع بدائى كبلاد الإغريق أو روما فى عهودها الأولى ذخراً ثميناً تعتز به الدولة ، ومن ثم لم يكن بد من استرضائهم ، حتى لقد كان لهم فى بعض الأحيان نصيب فى تدبير السياسة . ومع ذلك لم يكن بين الجرمان حتى فى زمن تا كيتوس نفسه مساواة فى المكانة ، وعندما استقرت نهائياً القبائل المهاجرة ، زاد الإقطاع ومنح الأراضى للمقطعين فى مدى التفاوت بين الطبقات . وكلما ازدادت سلطة الملك ، حل مكان طبقة النبلاء الوراثة طبقة نبيلة أخرى قامت على أساس ما تؤديه من الخدمات . على أن هذه الطبقة الجديدة من النبلاء لم تكن تلبث حتى تصبح وراثية ، وإنا لنجد منذ

(١) انظر تذييل ب .

أبكر أيام الاستقرار وإلى جوار القرى الحرة ، أن رقعة أملاك النبلاء ورؤساء الأديرة يطرد نموها . فإذا حلت الفوضى التي وقعت في عصر الميروفنجيين أورثت أوروبا من النتائج ما أورثته لها انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وعندئذ أنزل الرجال الأحرار أنفسهم منزلة الأتباع ليحصلوا على حماية أحد الملوك الأقوياء ، على حين أن السلطة المركزية ظلت على الدوام تجرى المساومات والمقايسات على سلطاتها أو التخلي عنها . ومع ذلك فإن العملية التي يعتبر النظام الإقطاعي ذروتها ، سارت ببطء . ففي أيام شرلمان كان اتساع ما في حوزة صغار الملوك والمجتمعات الحرة من الأراضي يفوق في مساحته مساحة الضياع الكبيرة ، بل الواقع أن مناطق الأملاك الكبيرة يتجلى فيها بوضوح وجود سلطة الضياع الريفية (Manorial) جنباً إلى جنب مع الوحدات والنظم الشعبية المعروفة منذ القدم .

ومن الطبيعي أنه لا يجوز أن نتطلع في قرون الفوضى والاضطراب إلى النظريات السياسية المكتملة التطور التي تتولد دائماً من الظروف المعاصرة، وذلك لأن عصور الفوضى تكون فيها المحافظة الفعلية على الأمر الواقع (De facto) وعلى السلطة أهم كثيراً مما للشخص الذي يمارسها من دعاوى شرعية (De jure) ، ومع ذلك ففي الإمكان أن نلاحظ في أفكار الناس عن الدولة تغييرين أساسيين، تولداً عن سقوط الدولة الرومانية في أوروبا الغربية ، وقدر لها أن يؤثر في العصر الوسيط بأكمله . وأول هذين التغييرين هو العلاقة الجديدة المتغيرة بين السلطين العلمانية والإكليروسية (الكنسية) ، تلك العلاقة التي لم يكتمل وضوحها إلا بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية . أما التغيير الثاني فهو انتشار العادات الفكرية المستمدة من الظروف القبلية^(١) لدى البرابرة . فإن السكان المختلطين أصولاً ، المتفاوتين في درجة الثقافة ، النازلين بالملك الرومانية الجرمانية أناروا مشاكل عسيرة في الإدارة ، لم ينهياً حلها إلا باتخاذ المبدأ العجيب

(١) انظر س. م. في (The Growth of Political Thought in Europe) من ص ١٧١ ع ٥ . (لندن ١٩٣٢) .

المعروف « بشخصية القانون »^(١) . إذ كان كل إنسان يعيش وفق قانون قومه ، سواء كان رومانيا أو برجنديا أو من القوط الغربيين أو من الباثاريين أو من الفرنجة السالين أو الريبواريين . يقول أجويارد الليوني مدافعاً عن ضرورة وحدة النظام القانوني في إمبراطورية الفرنجة : « لو أن خمسة رجال يجلسون أو يمشون معاً ، لما كان لأحدهم من القانون ما لزميله ورفيقه »^(٢) . ولا مراء أن عملية المزج بين هذه النظم تعد مرآة لما نالته أوروبا الغربية من ازدياد في التطور الثقافي . فإن الشخصية كبداً تخلق مكانها فعلاً للإقليمية ، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد أن تؤدي الفرض منها في ضمان بقاء نواحي العرف القانونية المتضاربة في أثناء مرحلة انتقال حرجة . والواقع أن الأمر ينتهي بأن يصير « العرف » هو القانون النهائي ، وبهذا الوضع الجديد يتضح لنا انتصار الفكرة الجرمانية القديمة عن القانون القبلي ، الذي اكتسب طابعه منذ الأزمنة السحيقة والتزم به الملك والرعية جميعاً^(٣) . ومما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة سيادة القانون هذه ، فكرة الملكية « التي تقوم أساساً على خدمة الأمة »^(٤) . وهذا المبدأ الأول مبدأ السيادة المسؤولة ، الذي يتعارض ويتنازع على نوع الحكم في أوروبا مستقبلاً مع نظيره الأسوي ، وهو المبدأ الثاني الذي يجعل الملك يحكم بمقتضى الحق الإلهي ، وبوصفه نائباً عن الله في الأرض من الناحية الروحية الكهنوتية ، هذا المبدأ الأول إنما هو بالضرورة مبدأ جرماني ، على الرغم من أنه ليس جديداً على الغرب بحال . وذلك لأنه متأصل أيضاً في روما الجمهورية ذاتها^(٥) ، التي كانت

(١) انظر ما قبله ص ١١٦ بعنوان الممالك الرومانية الجرمانية .

(٢) M. G. H. Legg. iii, 504.

(٣) Tac. Germ. c. 7. Nec regibus infinita aut Libera potestas .

(٤) ميكيلون في الموضع السابق ص ١٧٥ .

(٥) إن إريذور الأصبلي الذي عاش في القرن السابع يلحظ الترتيب الرومانية القديمة للأطفال ونصها (Rex eris si recte, facies, sinon facies, noneris) وعن صورة قديمة أكثر لهذه الترتيب انظر Hor. Ep. i. i. 59 « Atpueri Ludntes rexeris » aiunt ' Sirecte facies ' .

تفوض السلطة العليا إلى موطين منتخبين ، وبقي هذا النظام معمولاً به حتى
آماد طويلة من عهد الإمبراطورية في صورة قانون السيادة (Lex de imperio)
ومراسم هتاف الجيش والشعب اعترافاً بشرعية الإمبراطور الجديد .
ولو أرجعنا البصر إلى العصور البيزنطية المتأخرة ، يوم بدا أن التصورات
والأفكار الهلينية والعبرانية عن الملكية قد أحرزت انتصارها النهائي ،
لوجدنا الأفكار الرومانية لا تبرح متشبثة بمكانها في الألقاب الإمبراطورية
وما ارتبط بالحاكم من واجبات وفضائل تقليدية . فأما في الغرب ، فإن آباء
الكنيسة كانوا متفرقي الكلمة بين ميلهم إلى نظام الحكم الثيوقراطي
(الديني) وفق ما ورد بالعهد القديم ، وبين فكرة شيشرون عن الدولة^(١) ،
وبذا أصبح من المحتمل الاعتراف بالعامل الجرماني لاستمرار اتحاد السلطة
والمستولية ، الذي مهد السبيل لما أعقب ذلك في بلاد الغرب من تطورات
دستورية .

الحكومة الثيوقراطية

ولعل ما هو أهم من ذلك ، بالنظر إلى التنبؤات الهائلة التي أدخلها
قسطنطين ، يوم طابق بين مصالح المسيحية والإمبراطورية ووحدهما ، أنه
جعل الكنيسة شريكاً له في الحكم ، وزاد في قوة المسحة الدينية للسلطة
الحكومية . فإن الكنيسة أصبحت منذ تلك اللحظة بفضل ما خوله لها من
ولاية وسلطة ، جهازاً من أجهزة الإدارة ، كما أن الفجوات والفراغ الذي تخلف
عن الاختباء التدريجي لسلطة الإمبراطور في إيطاليا ، كان يسد ثغراتها على الدوام
نمو النظام البابوي المطرد . ولم يفت ملوك البرابرة على الرغم من موقفهم

(١) انظر ج. د. ر. و. كارليل في (History of Medieval Political Theory in the West) مج ١ ف ١٨ (لندن ١٩٠٣) .

المستقل أو الحافل بالتهديد نحو البابوية ، أن يستفيدوا من الكنيسة في خدمة أغراضهم القومية ، وذلك لأن رجالها كانوا المرجع الوحيد الذى يجدون لديه من المصروفة بطرائق الرومان ونظمهم القدر الكافى لمعالجة المشاكل المعقدة فى مجتمع منحضر . على أن نقطة التحول فى هذه العملية لم تتم إلا بذلك التغيير العظيم فى الخطط السياسية الذى يسميه المؤرخون باسم «تغيير القلب» والذى استحدثه بالنسبة « للبرابرة » جريجورى الكبير فى السياسة البابوية . وربما صح عند كل من ليو الأول وأوغسطين وجرىوم أن تكون رسالة الكنيسة عالمية من الناحية النظرية ، غير أنها كانت فى الواقع محددة بمجدول الإمبراطورية الرومانية^(١) . وقد كان الغزاة المغيرون يعتبرون حتى فى نظر سالفين نفسه الذى اشتهر بالإشادة بما اتصف به الألمان من فضائل ساذجة ، — سوط عذاب من الله ، كما أن ما يرتدونه من ثياب وما ينبعث من أجسادهم من روائح كان كفيلا بأن يجعلهم خارج نطاق المجتمع الإنسانى المتحضر . وقد وضع جريجورى حداً لذلك كله بما قام به من نشاط تبشيرى وديبلوماسى فى أوروبا الغربية ، فهدى بذلك السبيل لإمكانات جديدة لم تدر بأحلام الناس ، وكلما زاد النفوذ البابوى فى الممالك الجديدة ، ترتب عليه بالتبعية تسوية الانفصال عن بيزنطة عقلياً ، وهى المركز الإمبراطورى للعالم . فقد هيمنت فى أسبانيا المجامع الأسقفية على مملكة القوط الغربيين إبان السنوات الأخيرة من وجودها . فأما فى إنجلترا فإن الحكم الإنجليز السكسونيين اعتمدوا فى حكمهم على مشورة مستشاريهم الرومانيين وما يبذلونه لهم من معاونة فى السياسة والتشريع . كما أنه حدث فى فرنسا أن رجال الكنيسة لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمة الفرنجة — وبفضل تعاونهم تيسر كل

(١) انظر ل. كاسبارى (Geschichte des Papsttums) مج ١ ص ٥٥٨

(تيونجن ١٩٣٠) .

ما تم من الفتح من عهد كلوفيس إلى عهد شارل مارتل — وأخذ شرلمان نفسه بواصلة التقاليد المبروثنجية ، فاحتفظ للكنيسة بمركزها بوصفها أداة هامة جوهرية للحكم ، وإن كانت خاضعة لسلطان الملك في كل الأمور . ولم يكن بد من التخلص من مساوئ الكنيسة ، حتى تستطيع القيام بوظيفتها الأساسية في فرض الصبغة المسيحية على تفكير الرعايا الفرنجية وطبائعهم . ومن ثم وضعت بأيدي رجال الكنيسة شئون التعليم والإدارة بل القمع (كما حدث في سكسونيا) . ولا مرأى أن الطابع الديني (الشيوقراطي) في نظام شرلمان بلغ من القوة والبروز ما بلغه في عهد جستنيان وخلفائه . وكان أباطرة القرن التاسع بشرق أوروبا وغربها سواء ، يحكمون رعاياهم باعتبارهم مفوضين من قبل الله ، وتمسك الرجل العادى بقواعد الديانة الرسمية وأحكامها ، تمسكا لا بد أنه يثير دهشة أى مواطن روماني ممن عاشوا في العصر السابق لقسطنطين .

التغير الثقافي

ربما جاز وصف طابع التحول الثقافي الذى تولد في تلك القرون عن انهيار الحكم الرومانى في الغرب ، بأنه مجرد « فتنة » وتحلل للقشرة الخارجية للحضارة . وعلى الرغم من أن أجزاء بعضها من تلك القشرة ظلت حية ومتماسكة في بعض الأماكن أو تكاد ، فإنها لم تعد بأية حال من الأجزاء الأساسية التى يتألف منها الإطار العام . إذ برزت عند ذاك إلى السطح للمرة الثانية تقاليد إقليمية أقدم عهدا طمسها لعدة قرون تلك الخطط النظامية المرسخة الأصول التى ابتدعها الجهاز الإمبراطورى الرومانى وغير بها تلك التقاليد ولم تلبث أن تجلت نتائج خائر جديدة ثورية كانت تعمل في الخفاء مدة طويلة .

فن الناحية الاقتصادية ، انحلت روابط التجارة العالمية ، وحل محلها

نظام الاكتفاء الذاتي المحلي . ومن الناحية السياسية ، تمزقت الأقاليم الغربية ، ونحوت إلى ممالك جرمانية رومانية . واتحدت تلك الممالك أمداً قصيراً من الزمان تحت تاج شرومان ، ثم عادت فتمزقت عدداً من الدويلات المتعادية . وفي مجال التعليم ترتب على اختفاء الإدارة الرومانية ، أن زال الباحث على تعلم البيان . واختفت من الوجود المدارس والجامعات باختفاء ما كان يساندها من نظام سيماسي واقتصادي ، على حين أن الطبقات الناعمة بالمتعة والفراغ التي تبادلت من الرسائل الرشيقة الحافلة بالتلميحات والإشارات ما حفظ للأدب مكانته الاجتماعية ، لم يعد لها وجود باعتبارها طبقة المفكرين الأوربيين . ولاشك أن عدداً كبيراً منهم هلك في أثناء الغزوات أو انحدر إلى مرتبة الفلاحين . كما هاجر إلى بيزنطة عدد كبير من الأسر النبيلة . وانزلت عائلات أخرى منهم في دورهم الريفية المنيع ، فشفلوا أنفسهم بالقبص والطراد أو انضموا إلى حرفة الجندي ، وهي الحرفة الوحيدة المجزية في مثل ذلك العصر . وكانت الأديرة تفتح أبوابها أمام قلة من هذه العائلات اتخذتها ملاذاً ، على أن حياة الأديرة وخدمة الكنيسة لم تكن لتهيئ الفرص لتلقى التعليم العلماني .

ومن الناحية الفنية ينحط الطراز الرسمي للإمبراطورية الذي ظهر في أسوأ صوره في أنواع « الإنتاج الصناعي الكبير » الذي كان يصدر إلى الأقاليم النائية (كأواني ساموس الفخارية وما أشبهها) بتداعي الأسباب التي دعت إلى إنتاجه وتوزيعه ، كما أن التقاليد المحلية غير الرومانية استمر تأثيرها في بعض المناطق — كالتماذج السكلتية المرنة والجواهر النيوتونية الضخمة ، والتصاميم الخيالية المعجبة التي ابتدعها يد الصانع الأسكنديناوي في الخشب والمعادن . وفي روما ذاتها يتجلى الانتقال من العصور القديمة إلى العصور الوسطى بمقارنة النقوش البارزة ل عهد تراچان (حوالي ١٠١ م) التي كانت تولى في الماضي جزءاً من منصة الخطيب في الفوروم (السوق) بما يماثلها

في الموضوع من نقوش بارزة رسمت على قوس قسطنطين (حوالي ٣١٥ م) وفيها تتجلى بوضوح^(١) الخصائص الطرازية البيزنطية . والنقش الأول يصور الإمبراطور تراجان وحاشيته بأقصى غاية المهارة في التمثيل كالمعالجة الدقيقة الثياب ، والبراعة في تأخير المستويات للتناحية ، وهي الأمور التي ترتبط بالطراز اليوناني الروماني . وفي النقش الثاني ، يتصدر قسطنطين المشهد ممثلاً في صورة جامدة في قمة سلم الوظائف ، ويعلو صفوفاً ضئيلة مصغرة ومكتلة من رجال السناتو والرعيا . ولا شك أن التباين بين الحالين بالغ الوضوح . إذ تتجلى خشونة النهج القوي وضافته ، كما يتجلى التركيب الشكلي المبالغ في «سيمتريته» فضلاً عن الانقصار إلى الحاسة التشكيلية والميل إلى سوء معالجة الأشكال باستخدام الخطوط المتكررة بالأزميل ، اعتماداً على قيام اللون بملء التفاصيل ، وهو تحول ظاهر من طرائق النحات والنحت إلى طرائق المصور والتصوير . على أن من الخطأ اعتبار هذا الوضع «تداعياً»^(٢) ، أو تطوراً أصيلاً يقوم على ما للتطور من خطوط فنية بحتة ، ارتبطت بمسائل فنية لا بد من حلها . أما الانحطاط الحقيقي في الفن القديم فيظهر في تلك التماثيل التي تماثل في واقعيتها الصور الفوتوغرافية والتي تمثل صيادي الأسماك المصابين بالروماتيزم والمجانز الناحلات والملاكين الوحشيين — التي ترضى مطالب الجمال الروماني في القرن الثالث^(٣) . ومن المؤكد أن في إمكاننا أن نستنتج وجود الانحطاط في كل من المهارة والدق العام ونعرف عليه من نقوش قسطنطين البارزة ، ولكن التغير يكمن فيما هو أعمق من هذا . ذلك بأنه تغير الروح والنظرة ،

(١) انظر هـ . لايرمان في Sitz. d. Preuss. Akad. d. Wiss)

(٢) انظر ل . فون . سيل في (Shättrömische Sculpture) مج ١ ص ٤٥ ع ١٩٠١ .

(٣) انظر أ . و . لورنس في (Classical Sculpture) ص ٣٧٠ (لندن ١٩٢٩)

تغلغل في كل ناحية من نواحي الحياة ، وهو يسعى هنا باحثاً عن وسيلة التعبير عن نفسه ، وذلك بصورة غلب عليها التردد في البداية ، وليست كما تطور فيما بعد حتى وصل إلى الظفر الراسخ المحقق المتمثل في الغنين البيزنطي والرومانسكي والسمة الغالبة في هذا التطور شرقية . وقد تجلى التغيير في الحقل الديني في انتشار العبادات والنحل الباطنية (ذات الأسرار الخفية) ، كما يتجلى في النصر النهائي لأعظم هذه النحل جميعاً ، وهي المسيحية . وفي ميدان الفكر ، يمكن ترسم تغيير جاء في صورة تطور مصاحب للرمزية الشرقية . فإذا انتقلنا إلى مضمار الفن ، وجدنا النظرة المسيحية والصوفية تحدث تغييراً في الداخل في ثمار التقاليد الكلاسيكية ، ويعززها من الخارج المؤثرات المادية للأساليب والتسكينيات الآسيوية^(١) . ثم يصبح هذا المؤثر بعد أن تركزت الإمبراطورية في بيزنطة ، أشد ثباتاً وأعظم قوة ، ويتخض تفوق العاصمة الثقافية والاقتصادي عن انتشار إنتاجها الفني في كل أرجاء أوروبا المتبربرة ، حيث صارت نماذج يحتذيها تطور الفن في العصور الوسطى أو يصحح عليها أوضاعه .

الآداب واللغة

وهناك اتجاهات مماثلة تتمثل في انشاق الأشكال والصور الشعبية القديمة وتأثير خيائ جديدة ، وهي تتجلى فيما أحدثته في الأدب واللغة من التغيير . فإن أناقة وأرستقراطية أوزان الشعر اليوناني بما تفرق في مقاطعها المتسقة السك والعدد من موسيقى رقيقة ، قد احتفظت لنفسها بسيطرة فلكة على الشعر اللاتيني ، الذي تعمقت جذوره الطبيعية في إيقاعات الفلاحين القوية عن أرضين يبادر الحبوب وعن عجلة المغزل والرقصة الترفيحية ، والأقوال المأثورة

(١) بطبيعة الحال ، ليست الرمزية بأي حال منافاة لأشد أنواع الواقعية تصلياً . وهذه حقيقة تتجلى بوجه خاص بمدرسة أنطاكيا . وتتجلى آثار الفن السامي في التمثيل بالصور في فريسكوهات ديورا (Dura) التي ترجع إلى القرن الثالث الميلادي .

التي ينطق بها الوحي الربى ، وما يصدر عن أقدام جند الكتائب من وقع
ثقل . ويتعالى صوت الغناء من جوقة المنشدين الإمبراطوريين ، ولكن
جناذات صغيرة من هذا الشعر الشعبي تستطيع الأذن التقاطها من دون صوتهم
المتعالى ، ومن الشذرات ترنيمة للطفولة أو قفشة مفعشة عن جنود قيصر
المسرحين أو سطر من الشعر الغرامى كتب على جدار بأحد شوارع يومبىاى .
وقد تبنت هذا الشعر المشدد النبر والإيقاع فى أثناء القرن الثانى الميلادى
جماعة من الأدباء المجددين ، وعن تلك الحركة ازدهر الفن الرائع المسى باسم
التهجد فى عبادة فينرس (Pervigilium Veneris) ولا شك أن ما أصاب
للعابرين الثقافية من الضعف قد شجع على ظهور هذه التطورات . كما أن الروح
الجديدة استكشفت وسيلة مناسبة للتعبير القدانى هى الإيقاعات القوية وما لها
من مؤثرات عاطفية عريضة . وكانت أسبانيا وإفريقية تربة صالحة مثمرة لهذا
التطور فى الأوزان . ومما له دلالة القوية على تغير الظروف ما كتبه أوغسطين
ضد الدوناتيين من أناشيد فجأة لى تؤديها الجماعات المحتشدة بطريقها الخشنة
فى التشطير والتقطيع وجوقاتها الزاعقة ، وذلك فى حين أن ترانيل برودنتوس
فى الموابك الرسمية رغم تفوقها فى الجمال والروعة ، ليس بوسعها أن تحفى
أطراد الإيقاع المنتظم للأشعار الشعبية تحت الألحان الواهنة والانسجام
الموسيقى المتنقل . وهنا يبرز فى وقت واحد كل من الروى والسجع مجتمعين
معاً ، وهما من الظواهر المعروفة فعلا فى الشعر الشعبي^(١) ، وبذا يستكمل
ما للمصور الوسطى من ترانيم أشكاله وصوره .

أما النثر فقد سار فى الاتجاه نفسه ، على الرغم من أن انعدام التشطير
الثابت فيه يحول بيننا وبين تتبع مراحلته التالية . ومع ذلك فإن نبوة الضغط
المشدد وتصغير حجم الفقرات تتجلى فى الخواتيم (Clausulae) ، أو ما يرد من

(١) انظر ل. نوردون فى (Die antike künstprosa) ص ١١٨ (ليزج ١٨٩٨)

إيقاع شكلى فى ختام الجمل والفقرات ، التى استخدمها كتاب الحقبة المتأخرة من القرن الرابع الميلادى ، واكتملت فى عهد جريجورى الكبير مرحلة الانتقال من النثر المسجوع إلى النثر الإيقاعى ^(١) .

أما لغة الحديث نفسها ، فتمرضت لتغير مماثل . وهنا أيضاً كان الأصل فى التغير سيكولوجياً . على أنه لابد من التزام الحيلة فى معالجة أداة كهذه لها مثل تلك المرونة والتعرض للفناء ، غير أن بعض النزعات البارزة تبدو فيها واضحة على أن الأساس الجوهري للفرقة بين اللاتينية العامية واللاتينية الأدبية الراقية ، هو نوع الفكر الذى تعبر عنه . وعلى الرغم من أن اللاتينية العامية لا بد أنها تأثرت بما سلفت الإشارة إليه من التفكير اليونانى ، الذى تطرق إلى لغة المتعلمين كتابة ^(٢) وحديثاً ، فإن روحها حافظت على مناعتها إزاء كل أثر للعصر اليونانى القديم ، وبنا ظلت ملكاً خالصاً للعامية ، ودامت طويلاً بعد تفكك الغرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، ولم تلبث بعد ذلك أن تفرعت إلى مختلف لغات الرومانس . على أن اللاتينية المهلنة (أى المتأثرة باليونانية) لم تستطع أن تعيش ولا أن تموت بعد سقوط دولة الرومان بفضل حفظها محنطة جامدة فى قالب الآداب . فظلت باعتبارها لاتينية متوسطة تعيش حياة غير طبيعية بين أروقة الكنائس والمدارس وفى بطون الأوراق ، وعلى ألسنة الدارسين ^(٣) وآذانهم . وعلى الرغم من أن الأغاني الجولياردية هبطت بها حتى

(١) انظر ١ . س . كلارك فى (The Cursus in Medieval of Vulgar Latin)

ص ١٣ (أوكسفورد ١٩١٠) .

(٢) وهى اللغة الحضرية (Sermo urbanus) بالمناقضة مع اللغة العامية (Sermo)

(plebius Vulgaris) انظر ف . ف . أبوط فى (Classical Philology) ، ١٩٠٧ ،

ص ٤٤٤ — ٤٦٠ .

(٣) انظر ك . فوسلر فى (The Spirit of Language in Civilization)

ص ٥٧ — ٧٥ (لندن ١٩٣٢) .

اقتربت قليلا من الأرض ، فإنها ظلت معلقة بين الأرض والسماء بعيداً عما
لحديث الناس الجارى من تيارات لا شك أنها هي القوى المؤثرة في تطور اللغة.
وفي تلك الأثناء ، كانت لغة العامة - بعد أن تخلصت من ضغط الطرائق
الأجنبية في التفكير - عرضة لمؤثرين توأمين متلازمين ظهرا في ذلك الزمن :
انتعاش التقاليد المحلية وتأثير البواعث المنبهة الجديدة . والواقع أن ما حدث
من تغيرات في المحصول اللغوي والصرف ، مرآة تعكس ما يقابل ذلك من تغير
في العقلية . ومحبب اختفاء ما كان للحياة من اتجاه رواقى أرسقراطي شخصى ،
زوال ترتيب الكلمات وضبطها ، فضلا عن الإعراب الذى يتيسر به هذا
الترتيب . وحل محلها الأسلوب غير الشخصى الذى يهدف إلى التواصل بين
الناس لا التعبير الذاتى ، ويتمثل ذلك الأسلوب في المبالغة في التعبير التى
يتسم بها حديث غير المتعلمين ، وفي التغير الذى ألم بمعنى المستقبل الذى لم يعد
الناس يتقبلونه بالاستسلام ولا بالعزم المقود ، ولكنه أضفى موضع المخاوف
والآمال الحارة . وأشد ما يتجلى فيه التباين هو الفجوة الواضحة التى تفصل بين
الأسلوب الذاتى الرصين الذى يكتب به كبار الكتاب القدامى (الكلاسيكيين)
وبين ما يتميز به في الوقت الحاضر خلفاؤهم من أبناء عصرنا من الفرنسيين
والإيطاليين من اختلافات دقيقة رغم اشتراكهم في التراكيب اللغوية .
« ولو قارنا بين صفحة مما سطر ليثى أو تاكيتوس أو فرجيل وبين لغات
الرومانس العصرية جميعاً . . . لبدت الثانية كأنما هي كتيب ساذج بالمقارنة
إلى لوحة من البرونز ^(١) » .

التطورات اليونانية

ربما زادتنا تطورات الأدب واللغة عند اليونان قدرة على استجلاء
ما سبق إجماله من الاتجاهات . فإن دراسة لغة الحديث وطريقة النطق تعتبر

(١) انظر ك فوسلر في الموضع السابق .

دائماً من الأعمال الفنية كما أن إحلال النثر محل الشعر لأغراض معينة لم يزد على أن أتاح المجال للاكتمال الفني . وقد ظهر في عصر عظمة أثينا أسلوب نثرى باهر ظل متحكماً في الكتابة اليونانية ألفاً وخمسمائة سنة ، بعد أن نجح في مقاومة جميع المؤثرات الشرقية التي ابتدأت بحكم خلفاء الإسكندر (Diadochi) ، وعاش طويلاً بعد الفتح الروماني ، وتبناه مع قدر ضئيل نسبياً من التغيير - سلسلة طويلة من مؤلفي بيزنطة^(١) في العصور الوسطى . على أن لغة الحديث لم تبلغ هذه الدرجة من الحصانة إزاء تأثير التطورات السياسية والاقتصادية ، ومن ثم يمكننا هنا اكتشاف تغيرات مماثلة لتلك التي حدثت في اللاتينية . إذ إن لغة مشتركة تتألف إلى حد كبير من لغة أتيكية محرفة ، طفت على اللهجات المحلية ، وأصبحت أداة للتفاهم بين الناس في أرجاء الشرق الهليني قاطبة . وصحب ما أصاب الثقافة الإغريقية من وهن وضعف ، تعرض اللغة لخطر بالغ الشدة : فأخذ التغيير يداخل طريقة النطق بالكلمات وركبت حروف العلة المفخمة المعروفة في عصر بركليس حتى استحالت إلى أصوات حرف « e » ، التي ظهرت في اليونانية المتأخرة وهي عملية امتد أثرها إلى الحروف الساكنة نفسها ، ولم يلبث التمييز بين المقاطع الطويلة والقصيرة أن اختفى مع دخول نبرة تشديد أجنبية^(٢) .

إن هذه التغيرات التي أملت بلغة الكلام استأصلت أسس الشعر والنثر اليوناني القديم اللذين كانا يقومان على الكم العددي وعلى الطبقة الموسيقية . ومنذ تلك اللحظة أخذت الفجوة تنسع بين اللغة الشعبية وبين فني المتبحرين في العلم : - قرض الشعر والبيان ، إذ ما برحت الدوائر المحافظة بالجامعة والحياة الرسمية ، تظهر بالغ الاهتمام وتقدر بمزيد الإعجاب قرناً بعد قرن وتشيد بعلم

(١) انظر إ . نوردين في الموضوع السابق ص ٣٦٧ ع ٥ .

(٢) عن تخطيط معجب لهذه التطورات انظر ه . ليتزمان بالموضوع السابق .

ميلاد العصور الوسطى

العروض وتكييف الصوت المعروفين في الأيام الخوالي ، وهو تقليد لم ينقطع عنه الناس يوماً واحداً كما حدث في الغرب . وربما جاز لنا أن نستنتج أن من كان كريكزوستوم وباسيل يجتنبانهم من جماهير المصلين من أبناء الطبقة الراقية إلى كنيسيتيهما في القرن الرابع الميلادي ، لم يكن يجتنبهم إليهما فقط حديث هذين المبشرين الزاكي في وصف الأخلاق المعاصرة وشذرات علمي النبات والحيوان التي كانا يستخدمانها مداراً للتربية الخلقية ولشرح الكتاب المقدس ، بل كان يجتنبهم كذلك إليهما مهارتهما البارعة في استخدام جميع الخصائص الفنية الموسيقية التي طبعت عليها الخطابة الكلاسيكية . ومع ذلك ، فإن خواتيم العبارات التي كان باسيل يلقيها تحتوي من الدلائل ما يشهد بظهور بوادر الإيقاع المشدد الجديد ، حتى إذا انتهى القرن الرابع ، صارت هذه الخواتيم هي الصورة السائدة .

وظل الشعر المنظوم في الأوزان القديمة بكل ماله من مقاطع محدودة العدد وما تحكم فيه من قواعد الكم ، بعيداً عن التأثير بالنبرة الديناميكية الإضافية أو المشددة ، وإن كان طابعه المصطنع يتجلى في الزلات ، التي يقع فيها أحياناً بعض من مارسوه بعد القرن الرابع . بيد أن روح التصوف المسيحي التمسث لنفسها متنفساً بابتكارها بعض الإيقاعات الجديدة التي استلهمت من النماذج السورية ، التي زخرت بها تراتيل ذلك العصر ، بما حوت من مرجعات شرقية وعاطفة لشواعة حارة ، والتي بلغت ذروة التطور فيما تردد تحت قبة كنيسة القديسة صوفيا من تراتيل رومانوس الفخمة .

وقد كان للتراث الجذل المصحب لفكر المبرانيين ودينهم الذي تبنته الكنيسة المسيحية في أثناء القرن الأول من حياتها ، أعرق الأثر في تشكيل الطقوس الدينية المسيحية . غير أن هذا التراث لم يكن إلا مظهرًا واحدًا من مظاهر الإحساس الديني أي تعرفًا إلى سر الله الباطن غير المرئي ، اشترك فيه

سكان الشرق الأدنى ، وينبئ التماس أصوله في الماضي السحيق ، فيما كان لمصر وبابل من تقاليد^(١) . على أن التأمل السلبي المتمعن في الجوهر الإلهي ، والحرص على نبذ الفردية ، اللذين يميزان التدين الشرقى عما اتصفت به المفاهيم الإنسانية للفكر اليونانى من النشاط والحس العملى ، يتطلبان للتعبير عن نفسيهما إيقاعات عاطفية جديدة ، ويستلزمان مفردات لغوية جديدة بل يحتاجان إلى تركيب جديد للجمل . وفى إمكاننا أن نتعقب فى شعر الكنيسة المسيحية وطقوس صلواتها بعض المظاهر المشتركة فى العهد القديم والقرآن والبرديات السحرية ، وكما هو الحال فى فلك الفنون ، حيث حدث أن الانقلاب تشكّل بالشكل اليونانى الرومانى الذى نقله إلينا ، حدث هنا بالمثل أيضاً أن ما كان للإله من صفات سلبية غير معقولة وانصراف التعبد إلى طبيعة الله وذاتيته ، لا إلى مظاهر نشاطه ، كل ذلك جرى التعبير عنه ، فى تراكيب العبارات بالجلل الوصفية والحالية وصلة الموصول ، كما جاء فى شكل مواظ عجيبة ، ومختارات شعرية مهوشة حرة الحركة ، أدت آخر الأمر لاسيما فى حالة الطقوس إلى خلق شكل جديد من النثر الشعرى اليونانى .

وكان للوثرات الشرقية فى فن عالم البحر المتوسط وديانته وأدبه ، أثر دائم وقوى لا يتفاوت إلا فى مدى شدته ، وهو أثر يرجع إلى ما قبل التاريخ من أزمنة . فالعقائد الباطنية التى ترجع إلى أصل شرقى ، إنما دخلت منذ زمن مبكر فى تركيب الديانة اليونانية ، كما أن ما اشتهرت به مصر وآسيا الصغرى وسوريا من الشعائر العاطفية الخفية ، التى أدخلها فى أعقاب الفتوح الرومانية كل من كتائب الجند والأرقاء والتجار ، سرعان ما انتشرت فى أنحاء الغرب وتحكمت فى أخيلة السكان^(٢) . ومع ذلك فعلى الرغم من أن العقيدة الرومانية

(١) انظر ل . نوردون فى (Agnostos Theos) ص ٢٢٢ (برلين ١٩١٣) .

(٢) وكتابات فرسيكوس مارتوقوس ترجمى إلينا صورة أخذة للصفة الحقة للوثنية الشعبية

فى القرن الرابع الميلادى .

انهزمت تماماً أمام العبادات الآسيوية ، فإن السيكولوجيا الدينية في الغرب احتفظت بظاها الأصلى ، كما أن فى الإمكان تفسير كثير من مظاهر المنازعات الدينية فى القرن الأول للمسيحية على أساس التباين والتناقض ، ليس فقط بين ما اشتهر به اتجاه اللاهوت اللاتينى من الصفة القانونية والحسية ، وما اتصف به كتاب اليونان من ميول خيالية ميتافيزيقية ، بل وأيضاً بين ما أكده الغرب فيما يتعلق بشخصية المسيح وأعماله فى سبيل الخلاص ، وبين ما اتصف به التفكير الشرقى من الاستغراق العاطفى فيما لطبيعة الله من جوهر مفرط الدنيوية .

الرمزية والمجازية

وأظهر الغرب نواحى خلاف أخرى مماثلة باستخدامه الرمزية والمجازية ، اللتين تعتبران على وجه الجملة العمليتين العقليتين المميزتين لتلك الحفبة . فإن التأويلات الساذجة بل المضحكة أحياناً لآيات الكتاب المقدس التى لعبت التأييد من جريجورى الكبير ، ترتبط تقريباً بأخيلة أوريجين الشعرية الرفيعة بنفس الطريقة التى ترتبط بها الأخيلة النائرة الصاخبة والجمال الواقعى المائل فى المصغرات والنحات الرومانسكية ، بما عرف فى الفن البيزنطى من معالجة للرموز تنصف ببالح الرقة والتجريد والكبح . ففى ذلك الفن ، ازداد الضيق فى تحديد إنتاج الصانع لعدة أسباب متنوعة فى كل من الموضوع والأسلوب . ذلك بأن النظر إلى ما وراء اللغة ، وإلى ما وراء العالم المرئى الذى يدركه العقل والحواس ، والتطلع إلى لغة أخرى خفية ، وإلى عالم سرى لا يعرفه إلا « المريد الدينى Initiate » ، إنما هو الامتياز الذى اختص به الشاعر والمتصوف فى كل العصور . وقد استخدم أفلاطون الرطازة (Myth) مع إحساسه بتحديددها ، لتزيد فى توضيح ما ليس فى الاستطاعة التعبير عنه

باللفظ . على أن فلاسفة آخرين قبله حاولوا الاحتفاظ بما كان للعقائد البالية السالفة من تعبير مقدس ، بالإشارة رمزاً أو مجازاً إلى سخاقتها أو استحالة وقوعها . ومع ذلك فإن الطريقة (Subject metha) القاتية طريقة شديدة الخطر ؛ فإن الفرد نظراً لافتقاره إلى الضوابط الموضوعية ، يظل عرضة على الدوام لتيارات زمانه الخفية . وقد حدث أن مذهب اللاحيائية البدائي - (وهو الاعتقاد بوجود روح Mana في الألفاظ والأفعال والأشياء غير الحية) الذى عاد من جديد فى صورة إحياء الشعوذة والتنبؤ - نفذ إلى الأفلاطونية الحديثة ، حينما ضعفت قواها وقدرتها الشعرية على التنظيم ، واختفى التمييز بين الرمز وبين ما كان يمثل^(١) ، وكان لذلك الاختفاء عواقب وخيمة . ودمر السحر وهو شىء مادى فى جوهره ، ما كان للإشارة المجازية من أساس روحى . وكانت نتيجة اضمحلال الطاقة الفكرية والخيالية القضاء على ما كان للرمز من وضع سليم مناسب^(٢) وقد حاول فيلون اليهودى المتهلن التوفيق بين التوراة السبعينية وبين الأفكار السائدة فى عصره بإدخاله تحريفاً شعرى الجوهر على المعنى الحرفى للتوراة ؛ مثال ذلك أن الأباريق والطسوت وغيرها فى الأثاث والمتاع الموجودة بهيكل سليمان ، كانت عنده بمثابة مألوس الروح النقية من فضائل وسجاياء . وحرص الشراح المسيحيون على نقل طرائقه ، وبلغ الأمر بالقدس أو غسطين نفسه وهو يجادل بشدة أحد أتباع المانوية حين سأله عن المفزى الخلقى فى قصة داود

(١) انظر أ . فون . هرنالك فى (History of Dogma) مج ٢ ص ١٤٤ (أدنبره ١٩٠٧) . إن مفهوم كلمة « رمز » لدينا فى هذه الأيام ليس ما مثله تلك الكلمة ، فى ذلك الوقت (القرن الثانى الميلادى) كانت كلمة « رمز » تدل على شىء هو نفسه بشكل ما ، عين ما يدل عليه معناه .

(٢) انظر الانحراف الذى طرأ على الفكر الأفلاطونى فى سفر الحكمة (Ecclesiastieus) من الأسفار المحذوفة الإصحاح ٣٣ . آية ١٥ ، « تأمل فى كل ما صنع العل ، وهناك اثنتان واثنتان أحدهما بنسب الآخر » . وإصحاح ٤٢ آية ٢٤ ، « كل الأشياء مزدوجة أحدهما ضد الآخر » .

وَيَشْبَعُ، أَنَّهُ اسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَكِّدَ أَنَّ دَاوُدَ هُوَ الْمَسِيحُ وَأَنَّ أَوْرِيَا هُوَ الشَّيْطَانُ، وَأَنَّ بَشْبَعَ وَهِيَ تَغْتَسِلُ عَلَى سَطْحِ الْبَيْتِ، لِأَنَّهَا تَمَثِّلُ الْكَنِيسَةَ الَّتِي سَرَعَانَ مَا مَسْتَبِيحُ الْعُرُوسِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي تَتَطَهَّرُ مِنْ أَجْدَانِ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ . وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَهْمَلُوا اسْتِخْدَامَ الرَّمْزِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَشْرُوعِ . إِذْ إِنَّ أَوْرِيَجِينَ وَهُوَ شَاعِرٌ حَقًّا، وَلَعَلَّهُ أَعْظَمُ الْمَفْكَرِينَ الْمَسِيحِيِّينَ الْأَوَّالِينَ، حَاوَلَ التَّوْفِيقَ بَيْنَ اخْتِلَافَاتِ الْمُهْدِينَ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ وَبَيْنَ كِتَابِ الْأَنْجِيلِ الْأَرْبَعَةِ (مَتَّى وَمَرْقُسُ وَلُوقَا وَيُوحَنَّا) وَبَيْنَ الْاِخْتِلَافَاتِ الْوَارِدَةِ فِي كِتَابَاتِ بُولْسَ وَرَفَاةَ، بِمَا جَاءَ إِلَيْهِ مِنْ اسْتِعَارَةِ مُوسِيقِيَّةِ أَبْرَزْهَا فِي لَحْنِ إِيَقَاعِي سِيمْفُونِي^(١)، وَهَذَا يُمْكِنُ التَّقْرِيبَ بَيْنَ الْأَنْفَاقِ الْمُنْتَفِرَةِ بِوَسْطَةِ مِمَارَسَةِ مَا قَدْ يَصِلُ إِلَى الْخَيَالِ الشَّعْرِيِّ، كَمَا أَنَّ فِي الْإِمْكَانِ إِسَاقَةُ مَفَاهِيمَ بَدَائِيَّةٍ كَالْمَعْنَى الْحَرْفِيَّةِ لِلْأَيَّامِ السَّتَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا الْعَالَمَ، وَذَلِكَ بِاللَّجْأِ إِلَى التَّفْسِيرَاتِ الْخَيَالِيَّةِ الْأَسْطُورِيَّةِ . وَكَانَتْ نَتِيجَةُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِفْسَاحُ الْمَجَالِ لِدَكَاءِ الْأَذْكَاءِ، وَفَتْحُ بَابِ الْأَمَلِ فِي اسْتِحْدَاثِ تَطَوُّرَاتٍ جَدِيدَةٍ : وَلَكِنْ لَمْ يَقْدِرْ لِهَذَا أَنْ يَحْدُثَ، كَمَا أَنَّ زَيْدِيَّاتِ الْجَوْءِ إِلَى اللَّعْنَاتِ، وَاسْتِنْدَادِ جُودِ الْمَقَامِدِ، وَاتِّخَاذِ حُلُولٍ مَذْهَبِيَّةٍ مُخَالَفَةٍ لِلْمَعْقُولِ، اجْتَمَعَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَقَطَعَ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَفْكَرِ الْمُسْتَقِلِّ^(٢). وَتَرْتَبُ عَلَى انْتِهْيَارِ الثَّقَافَةِ الْعَامَّةِ، أَنَّ مَا كَانَ لِلْأَلْفَافِ مِنْ مَعْنَى أَخَذَ يَتَرَاوَعُ رَوِيدًا رَوِيدًا إِلَى الْأَوْهَامِ بَعْدَ أَنْ حَرَّمَ مِنْ ضَبْطِ الْعَقْلِ لَهُ، وَعَلَى هَذَا الْإِسَاسِ أَقَامَ الْعَقْلُ فِي الْمَصْغُورِ الْوَسْطِيِّ بِنْيَانَهُ . وَلَا تَزَالُ مَقَارَنَةُ جِيرُومِ الدَّقِيقَةِ الضَّلِيلَةِ لِمَخْطُوطَاتِ التَّوْرَةِ السَّبْعِيْنِيَّةِ تَحْتَفِظُ بِأَهْمِيَّةِ الْحَقِيقَةِ التَّارِيخِيَّةِ، بِوصْفِهَا شَيْئًا مُمِيزًا عَنْ تَفْسِيرِهَا، غَيْرَ أَنَّ أَتْبَاعَ الْكُتُبِ الَّذِينَ حَرَّصُوا عَلَى التَّمَسُّكِ بِتَعَالِيمِ مُعَلِّمِهِمْ دُونَ الْإِهْتِمَامِ بِمَارَسَتِهَا،

(١) انظر خياله الأوركسترا العجيب في (Philokalia) ٦ ، ٢ (P. G ١٣)

بحوم ٨٣٢) .

(٢) تذييل ب .

لا يعتبرون من الإنجيل مقدساً ، فإنهم لحرصهم الشديد على نبذ القشور المادية واستخلاص ما في الكتب المقدسة من معنى روحي^(١) ، أظهروا استعداداً لإدخال التغييرات وإضافة العبارات التي تتفق مع آراء الشراح من آباء الكنيسة^(٢) . ولم يكن المؤلفون الوثنيون أحسن منهم حالاً ، إذ إنهم استخدموا المجازية باستخفاف في الإفادة من محتويات تلك الكتب بقصد التهذيب . فقد بلغ بهم الأمر أن حرفوا معنى الكلمات التي استهلت بها الإنيابة وهي : « إني أتقنى بمديح الأسلحة والرجال » (Arma Virumque Cano) فجعلوها سمة خلقية . فإن كلمة « الأسلحة » قد عد بعض الناس أن معناها الفضيلة ، وأن المقصود بالرجال هو « الحكمة »^(٣) . والواقع أن هذه الطرق لم يكن الغرض منها إلا اختصار الطريق للوصول إلى الهدف البعيد الذي جعلته الكنيسة نصب عينها - وهو الدأب على إعادة تشكيل المعرفة القائمة وبذل الجهد الهائل لبنائها في مشروع شامل مناسك للفلسفة المسيحية . وكان مفكرو القرون الأولى هم الذين بدءوا بالعملية ، ولكن نظراً لما يقسم به الخيال الرمزي من عناد والتواء لم يحدث بعد ذلك أي تقدم عام لمدة تقارب ٦٠٠ سنة ، وهي الفترة التي بدأت فيها الحركة (ولم يكن بدؤها خلوًا من أثر الإلهام الإسلامي في أسبانيا الذي حفظت به الترجمات العربية بعض نواح معينة للفكر الإغريقي) التي بلغت ذروتها بكتاب النهاية (Summa) الذي ألفه توماس الأكويني ، وبالتعبير الأسمي لمسيحية القرون الوسطى ، وهو كتاب الكوميديا الإلهية (Divina Commedia) .

(١) انظر بيده في : Retecto cortice Litterae, altius et sacratius in medulla sensus spiritualis invenire .

(٢) انظر هـ . هـ . جلز في (History of the Vulgate in England from Alcuin) (كبردج ١٩٣٣) .

(٣) ان رادبرتوس (M. G. H. Epist vi 6 - 16 , 143) لا يفتح حتى بهذا ، ولكنه يرغب في استبعاد فرجيل من قائمة المؤلفين الذين يلبى دراستهم .

الكنيسة والحركة الإنسانية

ومن المقطوع به أن الكنيسة المسيحية بمجموعها كانت في أثناء عصور الانتقال تخشى العلوم الوثنية وترتاب فيها ؛ غير أن موقفها ذاك تخللته بعض الاستثناءات البارزة ، على أن تقاليد تروتوليان البالغة الصلابة كانت أقوى ، وهي التي كانت لها الغلبة في النهاية بفضل تأييد جريجورى لها . على أن رد الفعل الطبيعى لما أصيبت به الكنيسة في « العصور المظلمة » من امتنان ، أن يشتد التأکید في الآونة الأخيرة على ما اتسمت به الكنيسة من روح إنسانية في العصور الوسطى ؛ ولكن المبالغة في هذا الرأى ليست من الأمور المستبعدة ، وذلك لأن من المؤكد أن الغرض الوحيد من التعليم ببلاد الغرب في ذلك العصر ، هو إعداد الكنيستين للاضطلاع بواجباتهم^(١) . وكانت المعرفة اللازمة لفهم الصلوات اللاتينية - وفي حالة التلاميذ الذين هم أكثر تقدما - دراسة المعلومات الضرورية للإحاطة بالأدب المسيحى الجدلى والتفسيرى ، وحساب عيد القيامة وسائر الأعياد ودراسة نظام الكنيسة القانونى والإدارى ، كل ذلك يؤلف في حالات عديدة منهجا تعليمياً رائعا . هذا إلى أن الحياة النظامية التي تسود الدير بما لها من ساعات عمل منظمة ومكتبة خاصة وحياة اقتصادية مستقرة ، قد هيا من الفرص للمحافظة على الثقافة إبان عهود الأخطار والأزمات ما لم يهينه أى نظام آخر . ولكن ما أئمه علماء أفذاذ مثل بيده وأولدلم من منجزات خارقة ، والمستوى الفكرى العالى الذى بلغته - حسباً يترأى من المعايير المعاصرة - كل من كنتربرى وبورك ووير ماوث وچارو بإنجلترا في القرن السابع ، بل بلغته مناطق أقل أهمية مثل مالبرى ونيرسلنج وبيشوبس والثام-

(١) انظر . روجر في (L' Enseignement des Lettres classiques en

France d' Ausono d' Alucin) ص ٣٧ ع (باريس ١٩٠٥) .

كل ذلك ينبغي ألا يخفى عنا أن ما ندين به من صنون الأدب الكلاسيكي من يد الدمار وما نحس به على ذلك من الشكران ، كان من الأمور التي تستثير سخط السلطات الكنسية^(١) الشديدة المحافظة على سلامة الكنيسة . كما ينبغي ألا يدفعنا إلى الاستهانة بالنفرة الضخمة التي تفصل بين علوم عصرنا هذا وبين علم جيروم ، فضلا عن علم أوريجين ، يوم كانت جميع موارد الحضارة القديمة لا تزال بين أيديهم . وقد ظلت هذه الموارد في تناقص مستمر أمد قرون عديدة ؛ وذلك فوق ما قامت به الكنيسة من التقليل مما يتزود به الدارسون من علم . وانقطع الفكر الخلاق منذ أمد بعيد ؛ وانصرف اهتمام الناس في أثناء ذلك العصر إلى المختصرات والمختارات وكتب النحو (الأجرومية) والمراجع العامة . واختفى من الغرب تماما كل تمكن حق وإجادة أصيلة للسان اليوناني ؛ فلم يظهر أحد بعد بويثيوس أية قدرة حقة على تمثيل الفلسفة الهلينية وفهمها . أجل إننا نقرأ في المخطوطات الأارلندية على بعض الأحرف الإغريقية مستخدمة كحلية وزخرفة ، وعلى بعض العبارات المنعزلة ، وبعض الكلمات المنقولة من المعاجم ، كما أن بيده ينفرد بصفة استثنائية بإظهار شيء من المعرفة بالتوراة السبعينية^(٢) . ولكن ليس ثمة أمانة واحدة تدل على استخدام اليونانية استخداما يتجلى فيه الخلق والابتكار . والواقع أن العلماء الموسوعيين السليبيين أمثال إيزيدور الأشبيلي ورايان ماور ، لمعالم النتاج الذي تتميز به مطالع العصور الوسطى ؛ وذلك أكبر شاهد على الضرورة القاسية الملحة ، التي تدعو إلى المحافظة على المعرفة القائمة درءاً لخطر البربرية التي تهدد بابتلاعها .

(١) أي جريجوري الأكبر ومدرسته القوية النفوذ . انظر التذييل ب .

(٢) عن معرفة الإغريقية في ذلك الأوان انظر م . ل . و . لا ستروفي (Thought of Letters in Western Europe) ٥٠٠ — ٩٠٠ لليلاد ص ص ١٢٥ ع ع ، ١٩ ع (لندن ١٩٣١) .

وكان ختام القرن السادس مسرحا لانهميار أكيد للثقافة بفرنسا ومعها إيطاليا أيضا ، ولكن بدرجة أقل . ومن آيات ذلك أن جريجورى أسقف تور أعظم كتاب غالة لم يكن يستخدم أحد التعبيرات البيانية حين نعى افتقاره إلى النحو والتعليم^(١) ، ولا يخفى أن الأجيال التى أعقبته تردت فيما هو أعمق من ذلك من مهوى البربرية^(٢) وقد انحطت اللاتينية الفصحى لغة الأدب ، وهى وسيلة التفكير ، فأصبحت رطانة عجبية ، كما يتجلى ذلك من الوثائق القليلة التى ترجع إلى ذلك العهد ، كما أن أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة كانوا يقرضون أشعارهم اللاتينية بلسان غريب عنهم لا يقل فى أعمجيمته عنه لدى أى تلميذ فرنسى فى أيامنا هذه . وفى الحين نفسه وجد كثير من الاعتقادات والمخرفات الشعبية طريقها إلى التعاليم الرسمية للكنيسة الغربية ، ولقيت التأييد من جريجورى الكبير^(٣) بما كان له من سلطان ونفوذ قوى . وعلى الرغم من إدراك أوغسطين لما تنطوى عليه عبادة المقدسات والآثار الديلية من أخطار ، فإنه أجازها فى أشد صورها تطرفا^(٤) حتى إذا انقطعت المواصلات واضطربت ظروف العيش وغلب الارتباك على المعايير والثقافات ، انتعشت بواعث الإشاعات وسرعة التصديق ، وقوى الاعتقاد فى الأعاجيب والشياطين وفى قوة مفعول السحر وأدواته .

(١) مما هو جدير بالذكر أنه ليس لدينا مخطوط كلاسيكى واحد يمكن إظهار أنه نسخ فى غالة فى أثناء ذلك القرن . انظر س . ك . كروفورد فى (Anglc Saxon Influencce in Western Christendom) ، ٦٠٠ - ٨٠٠ - ٨١ (أو كسفورد ١٩٢٣) .
(٢) م . بونيه فى : (Le Latin de Gregoire de Tours) ، ص ٨٦ .
(بارس ١٨٩٠) .

(٣) ١ . فون هارناك فى (Dog men geschichte) ، ٣ ، ص ٢٥٧ ع (الطبعة السادسة توبنجن ١٩٢٢) .

(٤) انظر ج . تسلينجر فى (Augustin und die Volksrommigkeit) ، ص ٣٤ (برلين ١٩٣٢) .

الوثنية والخرافات

على أنه لا يجوز لنا أن نعتقد أن الأميين كان يسود بينهم قبل ذلك شيء من الاتجاه العقلي . إذ إن العالم القديم كان به من الآلهة ما يزيد على عدد الناس ، ولم تتمكن الديانات الرسمية ولا جهود المتعلمين في التقريب بين الأديان من القضاء على العبادات المتأصلة في الريف من أقدم الأزمان . وكان الجميع حتى الفلاسفة أنفسهم يعيشون ويتحركون في جو ظلت فيه التقاليد البالية وطرائق الفكر القديم كل دار ، والراجح أنهم حملوا على أحقة الأدب الشعبي (فولك لور) واغتيال الجليل - وكانوا شبه مصدقين لها إن لم يكونوا مصدقين تماما . على أن هذه التزعزعات لم تنوار من الدنيا عند نهاية القرون الوسطى : إذ إن الشعوذة بلغت فيما يرجح أقصى غاية تطورها عند نهاية القرن السادس عشر . ومع ذلك فإن المسيحية لم توفق إلى تغيير الوضع في هذه الناحية . وكما أن الدولة الرومانية قد أضفت في النهاية قدراً كبيراً من نظمها وطرأتها على الكنيسة المسيحية المظفرة ، فكذلك فعلت الوثنية في القرون الوسطى ، حيث نفضت على العقول ميراثها وهي تلفظ آخر أنفاسها . وفوق هذا ، فإن انتشار المسيحية بأوروبا في أثناء تلك القرون لم يكن مستكلاً بأي حال . إذ إن روما مثلاً وكثيراً من عائلاتها السناشورية ظلت زمناً طويلاً معقلاً حصينا للعبادات القديمة ^(١) وكانت المناطق الشمالية من إيطاليا فضلاً عن النسا

(١) انظر ف شلندر في (Rom und Romgedanke im Mittelalter)

(ميسونج ١٩٢٦) - هناك مشال راثع على استنرار الأعراف الوثنية في روما هو (Cornomania) فنذ ٨٧٠ حتى زمن جريجوري السابع كان عميد (Séchola Contorum) يقوم على الملأ يوم السبت الذي يعقب عيد الفصح برفقة عجيبة في ميدان اللاتيران . ويضع على رأسه في أثناء الرقص لأكليلا له قرون وتلوح يده بصلصل ذي أجراس . وعندئذ ينثر أوراق النار وهو يصيح : (iaritan, iaritan, iarari iastri, raphayn, iercoin, iariasti)

وجنوب فرنسا لا تزال تقيم العبادات لأرباب العصور الكلاسيكية القديمة . ولم تبرح الوثنية حتى عام ٦٥٠ تزدھر جهازا بكل ما أوتيت من معابد وتماثيل بجميع أصقاع غالة ، بل لقد ظلت تواصل بعد ذلك التاريخ نفسه نشاطها شمال نهر السين وبمناطق نهر الراين حتى القرن الثامن أو التاسع . واتخذ آلهة اليونان بمنطقة البحر الأبيض المتوسط أشد ثياب التنكر والاستتار شفوفا . وكل ما حدث من التغبر هو أن ما ينسب إلى الآلهة المحلية والينابيع المقدسة من قدرة على الشفاء ، نقلت مجذافيرها دون أدنى تغيير إلى القديس المختص ، كما أن الهيرون (Heroon) وهو ضريح الإله أو شبه الإله عند الوثنيين ، أصبح يسمى في أحوال كثيرة دار الشهداء (Martyreion) ، ومركز الحج الذي يحتوى على مخلفات الشهيد المسيحي ^(١) ذات الأثر الفعال . وكان الشيء الكثير من هذه التغييرات متعمدا - وينطوى على حق تنازلت عنه الكنيسة لإرضاء لقوة المشاعر الشعبية ، وللحاجة الماسة إلى مصدر ظاهر للساوى ، ومرفاً مادي تلوذ به الأنفس . ولذا فإن أوغسطين يوضح أن تحويل عبادات الأبطال الموسمية إلى أعياد القديسين إنما هو إذعان حتى لما يعلأ جوانب الإنسان من ضعف وثنى . ففي غالة يحل الاستفناح ^(٢) بالكتاب المقدس (Sortes Biblicae) محل النبوءات عند الوثنيين ؛ كما أن عادة الفرنجة في المحاكمة بواسطة الحنة والابتلاء أصبحت عملية مستساغة لها ما لقضاء الله وقدره من السلامة والصحة ، على حين أنه حدث في إنجلترا أن مليتوس أسقف لندن تلقى التعليمات من البابا جريجورى بعدم منع التضحية بالثيران قرباناً « للشياطين » ، بل يأمر قومه أن يعمدوا -

(١) وعن الحاجة النافعة إلى الحذر في أثناء تمقب مثل هاته البقايا الوثنية انظر هـ . ديليهي (Les Legendes hagiographique) ص ١٤٠ ع ح (الطبعة الثالثة بروكسل ١٩٢٧) .

(٢) الاستفناح فتح الكتاب في أية صفحة استبشاراً به . (المترجم) .

عند الاحتفال بعيد الشهيد الذى تقدس خلفاته محليا لديهم — إلى إقامة الجواسق حول كنائسهم ، وأن يولوا الولائم مجتمعين « وينحروا الذبائح شكراً لله » (١). ومع ذلك فإن تبني مثل هذه الممارسات وغيرها من العادات الفكرية ، غالباً ما كان نتيجة لنزعات لاشعورية ، ترجع إلى ما أحاط بالمسيحية فى القرون الأولى من بيئة وثنية ، وإلى جهل رجال الكنيسة وإعوازهم فى المعرفة مهما علا شأنهم ، وإلى اعتناقهم مبادئ مسيحية غير مفهومة تماماً وإدخالها فى حياة أقوام سادتهم أنظمة اجتماعية أقدم عهداً .

على أن بعض الانحرافات لقيت من الكنيسة معارضة صريحة . مثال ذلك أن الرقص وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطقوس البدائية أوشك فى أحد الأزمنة أن يضر الطقوس الدينية المسيحية بمصر ، فند ٥٨٩ إلى ١٦١٧ انعدت عدة مجالس كنسية متعاقبة وأجمع الوعاظ والمبشرون على تحريم الرقصات المغربية بما ارتبط بها من الأجراس والنقارات والتمثيل التنكرى ، وبما فيها من مخنئين وسارية مايو للرقص وارتداء أقنعة على هيئة رأس الغزال والكرنفالات والأهازيج (٢) . ونددت المجمع أيضاً بأغاني الحب التقليدية ؛ وحرم على المسيحيين (٣) تمجيد عاطفة الحب الرومانسى والإشادة بما يشيع فى الأساطير الكلتية والساجا النورسية من الفرغ الضارى بالمعارك الحربية . واتهم اللسان الجرمانى نفسه ، وهو وسيلة الأفكار الوثنية ، بأنه لغة الشيطان .

بيد أن الوثنية ظلت رغم ذلك حية طوال العصور الوسطى ، إذ بقيت فى صورة عالم مستتر ذى أساليب ملتوية ومعتقدات مخلطة ، نشأت عن شعوب

(١) بيده فى (Hist. Eccl) ١ ، ٣٠ .

(٢) انظر ما كتبه اللوم جوجو بنووان (Las Danse dans Les Egli ses)

فى : (Rev. d'hist. eccl) مج ١٥ ، ١٩١٤

(٣) وجه النقد إلى الرهبان النورمانيين لتسكهم بأغان مثل « أغنية بيوولف » .

متنوعة وطبقات اجتماعية متباينة ، وجمعت بين الاعتقاد الإيطالي في أرواح النبات ، وبين أرواح الماء وعفاريته عند الكلتيين ، وبين معتقدات النيتوتون في الفيلان وجنيات الغيري . وبين وحوش السكنديناويين ، فضلا عن آلهة اليونان الجميلة الرشيقة في صورتها المصغرة الضئيلة . ومن دون جميع هذه التغيرات التي أملت بالأسماء والمراسم ، طفق الفلاح يقيم حفلاته الموسمية العتيقة ، ويقدم الولاء لأرواح الخصب والنماء المرتبطة بأوقات البذار والحصاد . ولم تفارق أسماء ريستان وبيوولف وأبطال المآثر (نبلونجنايد Nibelungenlied) الألمانية ألسنة الناس وأفواههم ^(١) ، بل إن أعمال الاسكندر وقصة طروادة القديمة لم تنس نهائيا . ومع ذلك ، فإن هذه الصور التي كانت تتناقلها الألسن في العصور الوسطى عن التاريخ الكلاسيكي القديم ، وهي تحريفات وهمية لموضوعات شوهت من قبل في أزمنة التاريخ الروماني المتأخرة ، — كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة . فإن صورة فرجيل الساحر صانع المعجائب ، والإسكندر بطل مجموعة القصص الشرقية الخالصة كقصص ألف ليلة وليلة ، ليست إلا انعكاساً مبهماً عن شخصية كل منهما الحقيقية . والواقع أن الناس في تلك العصور كانوا كمن ينظر من خلال منظار معتم إلى أشكال العالم القديم وأحداثه البعيدة ، وهي أشياء بعيدة عن ظروف عيشهم وأحواله بعد أوروبا العصور الوسطى عن أوروبا في زمننا الحاضر . أما روما ذاتها فلم تعد عند الحاج المحتلئ النفس بالرهبة ، تنطوي على ذكرى العاصمة العريقة النابضة بالحياة والتجارة والرخاء . بل كانت مدينة مقدسة حافلة بالمزارات وذكريات

(١) عن الإحالات الكثيرة إلى ساجا بيوولف في المواضع التي ألفت في المدة المتأخرة من العصور الوسطى . انظر ر . ر . اوست في (Pulpitin Medieval England Literature) ص ١١١ (كبرديج ١٩٢٣) .

الاستشهاد والشهداء ، فضلا عن كونها مدينة خرائب تسكنها الأشباح ،
ومدينة أساطير وأحداث عجيبة ارتبطت بماضٍ مدهش ، وكانت بلداً يطرد
البابوات فيه بالرقى الشعابين الجالبة للطاعون ، أو يصفدون الوحوش والتنانين
بالأغلال تحت الكاينول بما يتلونه من تماويذ

تراث روما

ومع أن الحصول على صورة واضحة لليهود العتيقة ربما كان أبعد منالاً
على عقول الناس في العصر الوسيط منه على العقول المعاصرة ، فإن حضارة
الإمبراطورية الرومانية لم تبرح هي الغالب الذي تصاغ على غرارهِ القوانين
والنظم وأنماط الفكر التي كانت تتحكم في الحياة البشرية في أثناء العصور
الوسطى ، والتي قدر لها آخر الأمر أن تعم أوروبا كلها . وكان المثالون
والمعماريون بكل من إيطاليا وجنوب فرنسا مصدر الإلهام لخلقهم في العصور
الوسطى . واعترف الناس جميعاً أن الحكمة البشرية كلها قد اجتمعت
للمؤلفين القدماء ، كما أن أدب عصر أوغسطس كان يستهوى بقوة خيال
القارئ وإن كان غير راغب فيه إلى حد ما . واحتفظت الكنيسة لنفسها
بإطار التنظيم الروماني وهيكله ، وعلى الرغم من أن المثل الأعلى للوحدة
الأوربية بكل ما بشر به في نشوء ثقافة أوربية مشتركة قد تحطم عند وفاة
شرلمان ، فإنه ظل حافلاً بالآمال في الانتعاش والنهوض في خاتمة المطاف .
وما ذلك إلا لأن ذلك المثل الأعلى أقام لنفسه حصناً منيعاً بفرنسا والأقطار
المحيطة بها تحطمت عليه الموجات العاتية من أعاصير الفكيكنج والمجر والمسلمين
وأوهنت على صخورهِ قوتها بغير طائل ، حصناً كان يحوط بحراسته مانحويه
أديرتها وقصورها من كنوز روحية ومادية ، انتزعت بغاية العجلة والاضطراب
الشديد من بين حطام العالم المهيبد .

تذييل (١)

الجهاز الإمبراطوري في القرن الرابع الميلادي

١ — الإمبراطور

لا يزال من الناحية النظرية ينتخبه السناتور والجيش — والواقع أن مبدأ وراثته العرش كان يقوم إلى حد كبير على الأسرات ، وذلك نظراً لأن الإمبراطور في أثناء حكمه كان يستطيع تعيين خلفه بصورة غير مباشرة بمنحه لقب أوغسطس .

٢ — مجلس الشيوخ (السناتو)

كانت العضوية فيه إما لأبناء أعضائه ممن شغلوا منصب برايتور (Praetor) ، وهي وظيفة كان أهم أعمالها في ذلك الوقت دفع نفقات الألعاب أو الأشغال العامة ؛ وإما لأعضاء الهيئات الثلاثة (Illustres, Shecktabiles, Clarissimi) التي تولوها بحكم مناصبهم أو مكافأة لهم عند التقاعد . على أنه لم يكن يحظى بالعضوية إلا عدد قليل بتفضل خاص من الإمبراطور (adlectio) .

٣ — المجلس

كان مجلس الدولة المعروف باسم (Consistorium) تطوراً وامتداداً لمجلس (Consilium) الذي أسسه هادريان . وكانت العضوية فيه آنذاك دائمة (Comites Consistoriani) ، وتشمل كبار الموظفين ، ويقوم بخدمة الإمبراطور ويجتمع دائماً لإسداء المشورة حول سياسة الحدود والمشكلات التشريعية والإدارية . وكان يتولى أيضاً محاكمة من يتهمون بالخيانة .

٤ — الموظفون الإمبراطوريون

كان أهم الموظفين الذين في خدمة الإمبراطور هم :

(أ) كبير الموظفين (Magister Officiorum) ، وهو يتولى الرئاسة على عدد من الإدارات المتنوعة ، التي تعالج الاسترحامات والالتماسات والسفارات والمراسيم ويريد الدولة ومصانع الدولة للأسلحة . وكان يقود كذلك الحرس الملكي المسمى « بالاسكلارية » (Scholarian) (انظر ما بعده) ورجال المخبرات (Agents in rebus) الذين يوفدون في مهام دقيقة والذين درجوا بوجه خاص على كتابة التقارير حول سوء تصرفات الموظفين في الأقاليم .

(ب) كوايستر القصر المقدس (Quaestor Sacri Palatii) . وهو أكبر مستشار للقانون ، ويتولى وضع مشروعات القوانين والمراسيم الإمبراطورية .

(ج) كونت الخزانة المقدسة (Comes Saerarum Largitionum)

وهو وزير المالية الذي يرأس موظفي الخزانة ودارسك النقود والجمارك وجميع الجهاز المالي في الأقاليم . وكان كونت الأملاك الخاصة (Comes Rerum Privatarum) يدير إيرادات مزارع الإمبراطور . والراجح أنه بعد أن يدفع أجور مروسية كان يسلم ما تبقى من الإيراد لكونت الخزانة المقدسة ، مثلما كان يفعل البرايتوريون الذين كان لكل منهم خزانة (Fiscus) .

(د) وكان هناك من الناحية العملية موظف لا يقل عن هؤلاء أهمية هو كبير الأمناء (الحجاب) (Praepositus Sacri Cubiculi) وهو في العادة خصي ، وله عادة نفوذ شخصي عظيم على الإمبراطور ، وإن كان في ذلك خروج على الدستور ، وهو الذي يتولى الإشراف على موظفي القصر وشئون الدور الإمبراطورية .

ميلاد العصور الوسطى

٥ - الجيش

كانت القيادة العليا في أيدي مقدمي الجند (Magistri Militum) . وكان هناك في الشرق خمسة مقدمين للراكية والراجلة (Magistri equitum peditum) يعني الفرسان والمشاة ، كان اثنان منهما يقيمان بالقسطنطينية في خدمة الامبراطور المباشرة (in praesenti) ، وكل منهما يتولى قيادة نصف حرس القصر . فأما القواد الثلاثة الباقون فيتولون الشرق وتراقيا والليرية . وكان هؤلاء الخمسة متساويين جميعاً . وكان هناك في الغرب مقدمان للجند يقومان على الخدمة (in praesenti) ، وهما يقيمان بإيطاليا : أحدهما لقيادة المشاة والآخر لقيادة الفرسان . وكان مقدم المشاة أهم كثيراً من رفيقه ، ثم أصبح قرب نهاية القرن الرابع القائد الأعلى لجميع القوات العسكرية بالغرب ، وقد اتخذ لقب مقدم الخدمتين (Magister utriusquemili) . وهو الذي يقرر إلى حد كبير سياسة الدولة في الغرب ، حيث أصبح الإمبراطور في الغرب مجرد ظل أو دمية . وكان النظام المتبع في الشرق وهو نظام القواد المتعادلين يحول في العادة دون نشوء مثل هذه التطورات .

ويمكن تقسيم الجيوش على الجملة إلى :

(أ) جيش الميدان أو الرفقاء (Comitalenses) (وهو جيش الميدان المتحرك الذي يتكون منه حاشية الإمبراطور أو الرفقاء Comiratus) . وهو القوة الرئيسية الضاربة التي تصحبها عادة جماعات ضخمة من جند المتبريرين المسماة بالجند المحالفين (Foederati) .

(ب) جند الثغور الثابتون (جيش الأطراف (L mitanei or ripenses) وهم جند يرابطون دوماً على الحدود بقيادة أدواق ، وهم تابعون لمقدمي الجند كما أنهم أدنى مرتبة ونوعاً من القوات المتحركة .

(ج) حرس القصر ، الاسكلارية (Scholarii, Palatini) ، وهي كنياب متنوعة من جند حراسة « الدار » الإمبراطورية ، منها ما يتخذ للزينة ويستخدم في المواكب ، ومنها ماله قيمة عسكرية بالغة . ومنهم من كان تحت القيادة المستقلة لناظر الدواوين وحده (Magister Oficiorum).

٦ — حكومة الأقاليم

لتحقيق أهداف الإدارة المدنية ، قسمت الإمبراطورية إلى أقسام كبرى أربعة ، وولايات (Prefectures) (اثنتان منهما في الغرب واثنتان في الشرق) ، وبحكمها أربعة ولايات برايتوريين .

(أ) إقليم الغاليين ، ويشمل إلى جانب غالة ، بريطانيا وأسبانيا والركن الشمالى الغربى لإفريقيا .

(ب) إقليم إيطاليا ، ويشمل إلى جانب إيطاليا سويسرة والأقاليم الواقعة بين الألب والدانوب ، فضلا عن المناطق الساحلية بشمال إفريقيا .

(ج) إقليم الليرية (Illyrieum) ويشمل شبه جزيرة البلقان عدا تراقيا .

(د) إقليم الشرق ويضم تراقيا ومصر ، وجميع الأراضي الآسيوية التابعة للإمبراطور . وانقسم كل إقليم من هذه الأقاليم إلى دوقيات (Dioceses)

مجموعها سبع عشرة دوقية ، وينوبى الحكم فى كل منها فيكار أى وال ، وكانت كل دوقية تنقسم بدورها إلى مقاطعات (مخافطات) . كان لحكامها

ألقاب مختلفة هي القنصلارى والكريكثورى والرئيس Cossulares,

(Correctores, Fraesides) . وهناك مناطق ثلاث بقي فيها منذ أيام الجمهورية

للقب القديم : البروقنصل ، وهي إفريقيا وآسيا وأخيا .

وكان من اختصاص الولاية الأربعة (بأمر الإمبراطور) تعيين ولاية

المقاطعات والإشراف على أعمال كل من المحافظين والفيكارية ، وشتون المثونة والأرزاق والجيوش المرابطة في أقاليمهم ، وكانوا هم كبار قضاة الاستئناف ، ومن حقهم إصدار القرارات (البرايتورية) في كل الأمور النقصيلية . ويعتبر الواليان البرايتوريان في الشرق وإيطاليا أعلى موظفي الإمبراطورية مكانة . وكانت لولاية الدوقيات (الملقين بالفيكرات) ولحكام المحافظات سلطات قضائية وإدارية ، كما أنهم كانوا يشرفون على جميع الضرائب . ولم يكن لأحد من هؤلاء الموظفين اختصاصات عسكرية . إذ كان الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية من أهم إصلاحات عهد دقلديانوس وقسطنطين .

٧ - العواصم

كانت كل من روما والقسطنطينية في ذلك الوقت مركزا للحكومة مزدوجة متوازية تدير الأجزاء الشرقية والغربية من الإمبراطورية الرومانية . على أن هاتين العاصمتين وأرباضهما تخرجان عن اختصاص الولاية البرايتورين ، بل تتبع كل منهما إلى المدينة (Præfectus Urbi) دون غيره ، الذي هو أيضاً رئيس مجلس السناتو وكبير قضاة الجنايات ، كما كان يهيمن على الشرطة (Vigiles) بطريق مباشرة أو غير مباشرة ، فضلا عن الإشراف على السقايات والأسواق وتزويد المدينة بالقمح وعلى نقابات الصناعات (Collegia) .

٨ - الضرائب

(١) الضريبة السنوية (Annona) • وتؤديها الإمبراطورية كلها عينا وأحيانا بالنقد . وكانت القيمة الكلية الواجب جبايتها تملن كل سنة بقرار (Indictio) يصدره الإمبراطور . وعندئذ يتقاسم الولاية البرايتوريون هذا القدر ويتحمل كل نصيبه . وتمسح الأراضي وتقدر قيمتها حسب قدرتها

الإنتاجية ، ولذا فإن الوحدات (Juga) كانت مساحتها تختلف تبعاً لخصوبة التربة ونوعها . والوحدة الضرائبية (Jugum) من الناحية النظرية قدر من الأرض يكفي لإعالة فلاح واحد (Caput) وأسرته .

(ب) الضرائب الغترية (التي تؤدي في أزمئة معينة) : عند تولية الإمبراطور الجديد على العرش وعند انتهاء فترة كل خمس سنوات ، كان الناس يطالبون بسداد مبالغ طائلة لتمنح هبة للجند . وكانت تلك المبالغ تجمع على الأوجه التالية :

١ — الهدايا الإجبارية (Aurum oblativum) وهي هبات يبذلها أعضاء السناتو

٢ — هدية التيجان (Aurum Coronarium) وهي هبة مماثلة للسابقة يقدمها حكام المدن (Decuriones) وكانت تصنع في الأصل على شكل تيجان ذهبية .

٣ — الضريبة (أو المساهمة) الحسية (Lustralis Collatio) (وتدفع كل خمس سنوات) وهي ضريبة على الأرباح التجارية .

(ح) ضريبة (Collatio glebalis) وتدفعها الطبقة السناتورية ، وهي ضريبة مدرجة على الأملاك ، يسميها الشعب عادة باسم ضريبة الأكياس (Follis) لأنها كانت تؤدي في أكياس (ومعنى لفظة Follis هو كيس العملات الصغيرة) .

(د) للضرائب غير المباشرة وغيرها . ومنها الضرائب الجمركية والنتاج ومصانع الدولة وإيرادات وأرباح الضياع الإمبراطورية الضخمة .

تذييل (ب)

(ص ٢٧) : (١) الاقتصاد النقدي والاقتصاد الطبيعي

إن مسألة الانتقال من الاقتصاد النقدي في القرنين الأولين للميلاد إلى الاقتصاد الطبيعي في مطالع القرون الوسطى قام بدراستها ج . مكفتز في : (Geld und Wirtschaft im römischen Reich das 4 Jahrh. n. Chr., Helsingfors, 1933) والراجح أنه حتى في القرن الرابع الميلادي نفسه لم تخل المالية الخاصة بوصفها مقابلا لمالية الدولة عن الأساس النقدي . ولذا فإن التضخم المالي ، الذي حدث في أخريات القرن الثالث لم يكسب الاقتصاد الطبيعي ، أية ميادين أخرى جديدة ، واقتصر على مجرد زيادة انتشاره في الدوائر التي سبق أن شغلها - حتى أنه لم يبد في إيطاليا في عهد ثيودوريك نفسه إلا تغيير قليل في نظام المالية العام . فإن مملكة القوط الشرقيين لا تزال بعيدة عن الأحوال الاقتصادية في دول أوروبا الغربية في مستهل القرون الوسطى . (انظر جاييس في Geld und na uralwirtschaftliche Erscheinungsformen im staatlichen Aufbau Italiens während der Gotenzeit) (شتوتجارت ١٩٣١) .

وهناك مسألة معقدة لا تزال بحاجة إلى توضيح وهي : إلى أي حد كان نظام التبادل في الغرب في أثناء القرون التي أعقبت تأسيس الممالك المتبربرة قائماً على النقود ؟ ذلك أن المقايضة كانت تعيش على الدوام جنباً إلى جنب مع استخدام وسيط في العملة ، وحق لدويش في كتابه (Natural-und Geldwirtschaft) (فيينا ١٩٣٠ ص ١١٠) أن ينكر الرأي القائل بأن الجرمان دمروا النظام الاقتصادي القائم على النقد في أواخر عهد الدولة الرومانية ، وأنهم أحلوا

مكانه اقتصاداً طبيعياً أنسب لحاجاتهم البدائية. إذ الواقع أن النقود ظل استخدامها شائعاً بين الناس طوال عهد الميروفينجيين والكارولينجيين (وبخاصة في جنوب فرنسا وإيطاليا وفي دفع الغرامات والضرائب) غير أن ما أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب من تفكك نظام الحكومة واضطراب للتجارة، أدى رويداً رويداً إلى قيام مجتمعات محلية تعيش على الاكتفاء الذاتي، والراجح أن وسيلة المبادلة السائدة كانت المقايضة المباشرة. كما أن الجزاء على الخدمات التي تؤدي لم يكن بالنقد.

(ص ٣٠٣) (٢) معركة تحطيم الصور وما دار فيها من جدل

كان رد دعاء التحطيم على الاتهامات المذهبية التي كان يوجهها إليهم خصومهم قائماً أيضاً على الأصول السليمة لعلم طبيعة المسيح. إذ إن الطرفين اعترفاً أن كل ما يتعلق بالله لا يمكن تمثيله بالصور بغير التعرض للكفر. وللمسيح طبيعتان: طبيعة بشرية وأخرى ربانية. فادعاء تمثيل الطبيعة البشرية وحدها كان يناقض الاعتقاد باستحالة انفصال الطبيعتين، وفيه انزلاق إلى ما يسمى بالزندقة النسطورية. على أن الزعم بإمكان تمثيل الطبيعتين معاً في صورة، يكاد ينادي إنكار تمايز الطبيعتين إحداهما من الأخرى، وبهذا يصل إلى الاتفاق مع الهرطقة المقابلة، وهي هرطقة وحدة الطبيعة (المونوفيزيتية). وذلك ينطوي أيضاً على ضرب من الكفر، نظراً لدلالته على الرغبة في تمثيل شيء إلهي. وبهذا يصبح كل تمثيل للمسيح مستحيلاً، وذلك لأنه كان يخالف الأسس الجوهرية للعقيدة المسيحية. انظر ج. أوستروجرورسكي (Rom und Byzanz im Kampfe um die Bilderverehrung", Seminarium Kondakovianum, Vi) (براغ ١٩٣٣ ص ٦٢)

(ص ٣٨٤) (٣) التقسيم الثلاثى لمجتمع العصور الوسطى

تتجلى الطبقات الاجتماعية الثلاث تماما فى التأملات الشخصية التى أدرجها الملك ألفريد الأكبر فى ترجمته لكتاب بوثينيوس : « سلوى الفلاسفة » ، « De Consolatione » . وفى تلك التأملات يقول إن المادة الغفل وأدوات الحكم لأى ملك إنما هى : بلاد أهله بالسكان وقسيسون يقيمون الصلوات ، وجند يشنون الحروب ، وعملة يقومون بالأعمال . ومن العجيب أن اقتراب التحلل هذا الطراز من المجتمع ، عند نهاية العصور الوسطى توضحه فقرة فى إحدى العظات (exemplum) الواردة فى مخطوطة إنجليزية من القرن الرابع عشر (انظر ج . ر . أوست فى Literature & Pulpit in Medieval England) (كبردج ١٩٣٣ ص ٥٥٣) . « خلق الله رجال الدين والفرسان والعمال ، ولكن الشيطان خلق اللصوص والمرايين » . ولما أن ازعج الواعظ إزاء النظام المتغير الذى كان يحس فى إيهام بما يلم به من تغير ، مثل انقسام المجتمع إلى ثلاثة أقسام على أنه جزاء إلهى ، على حين أنه نظر بعين الخوف والكراهية إلى نمو التجارة الذى يؤذن بنهاية العصور الوسطى .

(ص ٤٠١) (٤) بين العقل والاعتقاد

يثاقش أ.ج. ماكونلد فى كتابه (Authority & Reason in the Early Middle Ages) (أو كسفورد ١٩٣٣) التطورات التالية . فالقواعد المنطقية التى كان يعلمها بوثينيوس للناس والتى أرست أسس الفلسفة المدرسانية ، قد أسىء استخدامها إبان القرون التالية ، غير أن فئة قليلة من المفكرين الأذكياء أمثال برينجار ويوحنا الاسكتلندى استطاعوا استخدامها بصورة نافعة فى التفسير العقلى للكتاب المقدس . وكان برينجار يرى أن العقل أو الإدراك

السليم ينبغي أن يكون الفيصل في شأن أية فقرة من الكتاب المقدس : وهل ينبغي أن يكون تفسيرها حرفياً أو مجازياً أو خليطاً يجمع بين الاثنين . ومن هنا فإن عبارة « Hoc est corpus meum » تفسر فيها الكلمات حرفياً بالخبز ومجازياً بجسم المسيح ولكن السلطات لم تكن تطبق قبول هذه الآراء ، ومن ثم استنزلت كنيسة العصور الوسطى اللعنة على أعمال الرجلين . واكتشفت البابوية في ادعائها الحق في الفصل في المذاهب المذهبية ، سلاحاً قوياً تشهره في صراعها مع الإمبراطورية ، ومن ثم فإن تدخلها الذي كل بالنجاح في قضية برينجار يعتبر مرحلة في توطيد هذا الادعاء . وتم النصر نهائياً بالتعريف الذي وضعه أنوسنت الثالث لمذهب العشاء الرباني في المجمع الرابع باللاتيران في (١٢١٥). وبذلك تهيات الوسائل إلى مجمع ترنت وإلى مجمع الفاتيكان في (١٨٢٠) « وإذ صار هذا التعريف حكماً يرجع إليه في مسائل الإيمان بصورة مستقلة عن تقاليد آباء الكنيسة والتقاليد المتأخرة ، فإنه أقر مبدأ التقاليد وبذلك استبعد العقل من مجال العقيدة » . (انظر الموضوع السابق ص ١١٢) .

(ص ٤٠٤) (٥) إيرلندة والمحافظة على الدراسات القديمة

استلقت الطابع الكلتى لإحياء العلوم والآداب بنورغمبريا أنظار الناس إليه في الآونة الأخيرة (انظر ل . جوجوه في . Christianity in Celtic Lands) (لندن ١٩٣٢ ص ٥٠ - ٥٥) . ونظراً لأن الأديرة الإيرلندية كانت تقع في بلاد ظلت على الدوام خارج دائرة الإمبراطورية ، فإنها خلت من كل أثر للعقائد اليونانية الرومانية ، ولذا لم تكن نخشى كثيرها ما ارتبط بالآداب القديمة (الكلاسيكية) من ارتباطات وشوائب وثنية . ونظراً لما اشتهر به مسيحيو إيرلندة من سعة الاطلاع واستيعاب ما كتبه قدماء المؤلفين وشغفهم

بنظامهم القومى وأنجاهم الاستقلالى الذى لا يضارعه سوى ولهم بدراسة الأسفار المحذوفة (من الكتب المقدسة) التى تنكرها روما وتمنعها ، كل ذلك جعل منهم مدرسة فكرية متميزة ، وخطراً يهدد السلطة المركزية للبابوية ، لم يستأصله إلا ما حل بهم من هزيمة فى مجمع هويتى (٦٦٤) ، غير أن تلك الهزيمة لم تصبهم إلا بعد أن تمكنوا بمساعدة ثيودور وهادريان (وكلاهما لا ينتمى إلى مدرسة جريجورى) من تمثيل قدر كبير من تراث العلوم القديمة ، ونقلها إلى العلماء الإنجليز السكون ومنهم إلى فرنسا الكارولنجية ، وهى علوم لولا الإيرلنديون لتعرضت للدمار . وقبل ذلك الأوان بزمن مديد كان الأثر الكلتى يتغلغل فى أوروبا حتى فورتزبرج وسالسبرج وبويو ، ولذا فإن الجانب الأكبر من المحافظة على الثقافة الكلاسيكية فى الغرب فى أثناء هذه الفترة ، إنما يرجع بحق إلى الكنيسة الكلتية الخارجة على الأرثوذكسية .

(ص ١٩٩) (٦) النصوص القانونية الثلاثة

لم تكن «الفصول الثلاثة» فى الأصل سوى ثلاثة نصوص وردت فى مرسوم أصدره جستنيان فى ٥٤٣ ، رعى به إلى مصالحة أصحاب مذهب وحدة الطبيعة وندد فيه ببعض الكتابات التى كتبها ثلاثة من رجال اللاهوت فى القرن الخامس ، اتهموا ببعض الميول النسطورية . ولم يلبث اسم «الفصول الثلاثة» أن انتقل من هذه النصوص إلى الكتابات ذاتها ، واستخدم الاسم هنا فى معناه الأخير ، ولكن مجمع خلقدونية (٤٥١) الذى لعب فيه ليو الأكبر دوراً رئيسياً والذى لقى فيه أتباع مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيون) الهزيمة ، قد رد الاعتبار إلى رجال اللاهوت الثلاثة الذين دار حولهم النزاع ،

وبذلك أدخل في الأمر نقطة خلاف رئيسية بين الاسكندرية وبين الكاثوليك
الغريبيين . ولما لم ينجح جستنيان في الوصول إلى نتيجة بإقضاء البابا عن
الكرسى البابوى ، دعا في (٥٥٣) إلى عقد المجمع الثانى بالقسطنطينية ، وفيه
حقق رغبته رسمياً باعلان بطلان « الفصول الثلاثة » . على أن قرارات المجمع
لقيت مقاومة عنيفة فى الغرب ، ومع ذلك فقد اعترف الغرب نفسه بأنه مجلس
مسكونى ، وأنه صحيح ، له من الصحة ما للمجالس الأربعة السابقة ، وذلك فى
عهد جريجورى الكبير .

الآباطرة والبابوات

البابوات	الآباطرة
٣٦٦ داماسوس الأول	٣٧٩ ثيودوسيوس الأول (الكبير)
٣٨٥ سيريكوس	٣٩٣ هونوريوس (في الغرب)
٣٩٩ أناستاسيوس الأول	٣٩٥ اركاديوس (في الشرق)
٤٠١ انوسنت الأول	٤٠٨ ثيودوسيوس الثاني (الشرق)
٤١٧ زوسيموس	٤٢٥ فالنتينيان الثالث (الغرب)
٤١٨ بونيفاس الأول	٤٥٠ مارقيان (الشرق)
٤١٨ (يولاليوس ، البابا المناهض)	٤٥٥ ماكسيموس ، افيثوس (الغرب)
٤٢٢ سيلستين الأول	٤٥٧ ماجوريان (الغرب)
٤٣٢ سيكتستوس الثالث	٤٥٧ ليو الأول (الشرق)
٤٤٠ ليو الأول (الكبير)	٤٦١ سيفيروس (الغرب)
٤٦١ هيلاري	٤٦٧ اثيسيموس (الغرب)
٤٦٨ سيمبليكيوس	٤٧٢ أوليبريوس (الغرب)
٤٨٣ فيلكس الثالث	٤٧٣ جليكرسوس (الغرب)
٤٩٢ جيلاسيوس الأول	٤٧٤ بولوس نيبوس (الغرب)
٤٩٦ أناستاسيوس الثاني	٤٧٤ ليو الثاني (الشرق)
٤٩٨ سيماخوس	٤٧٤ زينون (الشرق)
٤٠٨ (لورنس ، البابا المناهض)	٤٧٥ رومولوس أوغسطولوس (الغرب)
٥١٤ هورميداس	٤٩١ أناستاسيوس الأول
٥٢٣ يوحنا الأول	٥١٨ جستين الأول
٥٢٦ فيلكس الرابع	٥٢٧ جستينان
٥٣٠ بونيفاس الثاني	٥٦٥ جستين الثاني
٥٣٠ (ديوسقوروس ، البابا المناهض)	٥٧٨ تييريوس الثاني
٥٣٣ يوحنا الثاني	٥٨٢ مورقيوس
٥٣٥ اجابيتوس الأول	٦٢٢ فوفاس
٥٣٦ سيلفيريوس	٦١٠ هرقل
٥٣٧ فيجيليوس	٦٤١ قسطنطين الثالث هرقلوناس ،
٥٥٥ يلاجيوس الأول	قسطنس الثاني
٥٦٠ يوحنا الثالث	٦٦٨ قسطنطين الرابع (پوجوناتوس)
٥٧٤ بندكت الأول	٦٨٥ جستينيان الثاني

البابوات	الأباطرة
٥٧٨ ييلاجيوس الثاني	٦٩٥ ليونتيوس
٥٩٠ جريجورى الأول (الكبير)	٦٩٨ تيريوس الثالث
٦٠٤ ساينيانوس	٧٠٥ جستنيان الثاني يعود للعرش
٦٠٧ بونيفاس الثالث	٧١١ فيليب باردانس
٦٠٧ بونيفاس الرابع	٧١٣ اناستاسيوس الثاني
٦١٥ ديوسديديت	٧١٦ ثيودوسيوس الثالث
٦١٨ بونيفاس الخامس	٧١٧ ليو الثالث (الإيسورى)
٦٢٥ هولوريوس الأول	٧٤٠ قسطنطين الخامس (كوبرونيوس)
٦٣٨ سيفرينوس	٧٧٥ ليو الرابع
٦٤٠ يوحنا الرابع	٧٨٠ قسطنطين السادس
٦٤٢ ثيودور الرابع	٧٩٧ إيرين تخلف قسطنطين السادس
٦٤٩ مارتى الأول	٨٠٢ تقيفور الأول
٦٥٤ يوجين الأول	٨١١ ميخائيل الأول
٦٥٧ فيتاليان	٨١٣ ليو الخامس
٦٨٢ اديوداتوس	
٦٧٦ دمتوس أو دومس الأول	
٦٧٨ أجاثو	
٦٨٢ ليو الثاني	
٦٨٣ (٤) بندكت الثاني	
٦٨٥ يوحنا الخامس	
٦٨٥ (٤) كونون	
٦٨٧ سرجيوس الأول	
٦٨٧ (بسكال ، البابا المناهض)	
٦٨٧ (ثيودور ، البابا المناهض)	
٧٠١ يوحنا السادس	
٧٠٥ يوحنا السابع	
٧٠٨ سبسينيوس	
٧٠٨ قسطنطين	
٧١٥ جريجورى الثاني	
٧٣٠ جريجورى الثالث	
٧٤١ زخارياس	
٧٥٢ استيفن الثاني	
٧٥٧ بولس الأول	
٧٦٧ (قسطنطين ، البابا المناهض)	
٧٦٨ استيفن الثالث	
٧٦٢ هادريان الأول	
٧٩٥ ليو الثالث	

جدول تاريخي

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
ح ٣٣٠ وفاة إيايبيكور ٣٤٠ وفاة يوسيبوس	٣١٢ مرسوم ميلان ٣٢٥ مجمع نيقية ٣٢٨ - ٧٤ تأسيس أسقف الإسكندرية	٣٣٠ إنشاء القسطنطينية	٣٥٧ - ٨ حملات جوليان على الراين
٣٧٩ وفاة ناسيل أسقف قيصرية	٣٧٤ - ٩٧ امبروس أسقف ميلان	٣٧٦ عبور القوط للدانوب ٣٧٨ معركة أدرنة	
٣٨٨ وفاة أوليلاس ح ٣٩٥ وفاة أوسونيوس	٣٨١ مرسوم القسطنطينية ٣٩٨ كيرلسوس أسقف القسطنطينية	٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الكبير	
ح ٤٠٠ وفاة أميانوس ماركيليوس ح ٤٠٦ وفاة بروذنتيوس		٤٠٠ تمرد جانياس	٣٩٩ معركة إفريجيدوس
ح ٤٠٨ وفاة كلوديان			٤٠٦ تأسيس المملكة البرجندية على الراين ٤٠٦ - ٧ الوندال ينزفون غالة ٤٠٨ إعدام استيليكو ٤٠٩ الوندال والألان والسوي في أسبانيا

الأوضاع المخشاة	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الغرب	في الشرق
٤١٩ وفاة جيروم		٤١٠ استيلاء الأريك على روما ٤١٢ القوط الغربيون في غالة	٤١٣ بناء أسوار القسطنطينية البرية
		٤١٦ - ١٨ القوط الغربيون بأسبانيا	
		ح ٤٢٠ - ٤٢٠ الأنجلو سكسون ببريطانيا	
	٤٢٨ نسطوريوس أسقف القسطنطينية	٤٢٨ ارتقاء جايستريك العرش	٤٢٨ - ٦٣٣ المسك الفارسي بأرمينية
٤٣٠ وفاة أوغسطين	٤٢٩ بنة التبشير الجرمانية إلى بريطانيا	٤٢٩ الوندال في إفريقية	
	٤٣١ جمع إفيسوس	٤٣٣ ارتقاء أنيلا العرش	
٤٣٨ قانون ثيودوسيوس		٤٣٦ نهاية الملكة البرجندية الأولى	
		٤٣٩ الوندال يستولون على قرطاجنة	
	٤٤٤ وفاة كيرلس الإسكندري		
	٤٤٩ لاتركليوم في أنفيوس		
	٤٥١ جمع خلقدونية	٤٥٠ وفاة ثيودوسيوس الثاني	
		٤٥١ معركة سهل موريك	
		٤٥٤ اغتيال أنتيوس	
		٤٥٥ جايستريك يهبط روما	
		٤٦٨ ارتقاء يوريك	
	٤٦١ وفاة ليو الكبير	٤٧٢ وفاة ريكيمير	
		٤٧٦ خلق رومولوس أوغسطولوس	

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الغرب	في الشرق
ج ٤٨٣ وفاة سيدونيوس أبوليناريوس	٤٨١ الشقاق الديني بين روما والقسطنطينية ٤٨٢ زينون يصدر رسالة الاتحاد	٤٨١ - ٥١١ عهد كلوفيس	
		٤٨٦ كلوفيس يهزم سياجر يوس ٤٨٨ القوط الشرقيون يغلبون نحو إيطاليا ٤٩١ ارتفاع أناستاسيوس الأول	
	٤٩٦ تعميد كلوفيس	٤٩٣ - ٥٢٦ حكم ثيودوريك بإيطاليا ٤٩٦ كلوفيس يهزم الألمان ج ٥٠٠ القومبارديون بن التيس والدانوب	
٥٠٦ صدور قانون أاريك		٥٠٧ معركة فوجيل. كلوفيس يفتح أكيثانيا ٥٠٨ استيلاء القوط الشرقيين على بروقانس	
	٥١٨ نهاية الانشقاق بين روما والقسطنطينية	٥١٨ ارتفاع جستين العرش	
٥٢٣ إعدام بونثيوس		٥٢٧ ارتفاع جستينيان	
٥٢٩ إغلاق مدارس أثينا ٥٢٩ إنشاء دير مونق كاسينو		٥٣ - ٧٩ عهد كسرى	٥٣١ الفرنجة يدمرون المملكة الثورنمية ٥٣٢ - ٤ الفرنجة يفتحون برجيدا
٥٣٣ نشر الموزن القانون		٥٣٣ بلساريوس يفتح إفريقية	

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الغرب	في الشرق
٥٣٧ بناء كنيسة القديسة صوفيا		٥٣٦ - ٧ بليساريوس في روما	
		٥٤٠ الفرس يستولون على أنطاكية	
	ح ٥٥٠ وفاة بندكت من نورسيا	ح ٥٥٠ الآفار والبلغار على الدانوب الأدنى	
	٥٥٣ يجمع القسطنطينية	٥٥٢ نارسيس يعمد فتح إيطاليا	٥ الفرنجة يخضعون بافاريا
ح ٥٦٢ وفاة بروكوبيوس		٥٥٤ القرار التنظيمي	
ح ٥٦٥ كولومبا يؤسس دير أيونا		٥٦٥ وفاة جستنيان	
		٥٦٦ - ٧ اللومبارد والآفار يدمرون مملكة الجيبيد	
	ح ٥٧٠ مولد محمد (س)		٥ تقسم فرنسا إلى أوستراسيا ونوستريا وبرجنديا
			٥ اللومبارديون في شمال إيطاليا
ح ٥٨٤ وفاة كاسيودوراس			٥٧٢-٦١٣ وصاية برنهيلا على العرش
	٥٨٦ ريكارد حاكم أسبانيا القوطي الغربي يعتنق الكاثوليكية		٥٨ - ٩٠ أوثاري ملكا على اللومباردين
	٥٩٠ جريجوري الكبير يتولى البابوية		٥٨ نهاية مملكة السويف في شمال أسبانيا
			٥٩١-٦١٦ ايجيولف ملكا على اللومبارد

ميلاد العصور الوسطى

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
٥٩٤ وفاة جريجورى أسطر تور	٥٩٧ نزول أوغسطين	٦١٠ ارتقاء هرقل العرش	٦١٣ اتحاد أوستراسيا وبرجنديا
٥٩٧ وفاة كولومبا	٦٠٣ اللومبارديون يحتلون الكاثوليكية	٦١٤ العرب يتولون على دمشق وبيت القدس	
٦١٣ تأسيس دير القديس جال	٦٠٤ وفاة جريجورى الكبير	٦١٩ العرب يغزون مصر	
٦١٥ وفاة كولميان مؤسس ديرى بويو ولكم	٦٢٠ الهجرة النبوية	٦٢٦ حصار الآفار والفرس للسلطانية	
	٦٢٢ - ٨٠ معركة وحدة إرادة المسيح	٦٢٨ هرقل يهزم الفرس نهائيا	٦٢٩ - ٣٩ حكم داجوبرت
	٦٢٧ نورثمبريا تنصهر	٦٣٣ - ٩٣ حكم بزنطة بأرمينية	
	٦٣٢ وفاة محمد (ص)	٦٣٤ خلافة عمر	
	٦٣٦ مدور وثيقة الإيمان المجديد (Ekthesis)	٦٣٤ العرب يغزون فلسطين	
٦٣٦ وفاة إيزيدور الأشم		٦٣٦ معركة اليرموك	
		٦٣٧ معركة القادسية	
		٦٣٩ - ٤١ العرب يفتحون أرض الجزيرة	

الأوضاع المضاربة	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
		٦٤٢ سقوط الإسكندرية ٦٤٢ - ٣ العرب يفتحون فارس	٦٤٣ - ٥٦ جرميالك ناطراً للقصر في أوستراسيا
	٦٤٨ صدور قرار الإمبراطور المعروف بالصورة (Type)	٦٤٧ العرب يفتحون طرابلس	
	٦٦٤ مجمع هونيي ٦٦٩ - ٩٠ ثيودور أسقف كنتربري	٦٤٩ العرب يفتحون قبرص ٦٦١ - ٧٥٠ خلافة الأمويين بدمشق ٦٦٤ العرب يغزون البنجاب	
	٦٧٨ بدء تنصير فريزيا ٦٨٠ مجمع القسطنطينية	٦٧٣ العرب يهاجمون القسطنطينية	ح ٦٨٠ الصلح بين اللومبارد والبيزنطيين ٦٨٣ مقتل لبروين
	ح ٦٨٦ تنصير مملكة ساسكس		٦٨٧ معركة ترمزي
	ح ٦٩٠ - ٧٣٩ ويليبرورد في الأراضي المنخفضة ٦٩٢ مجمع ترولا	٦٩٣ - ٨٦٢ حكم العرب بأرمينية	
ح ٧٠٠ بيولف ٧٠٩ وفاة ألدهيلم			٧٠٩ - ١٠ حملات بينين على الألمان

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
ح ٧١٠ إنشاء المسجد الأم بدمشق			٧١٢ - ٤٤ ليونجيانغ ملك لومبارد ٧١٣ - ٣٤ العرب يفتحون إسبانيا كلها أستورياس ٧١٤ وفاة بينين
	٧١٥ - ٣١ جريجوري الثاني	٧١٧ إرماء ليسو الثالث (الإيسوري) العرش ٧١٧ - ١٨ حصار القسطنطينية	٧١٧ - ٤١ شارل مارتل عائداً للقصر ٧٢٠ - ٥٩ العرب في أرونة
٧٢٤ إنشاء دير ريشناو		٧٢٥ ليو الثالث يبدأ حملة تخلع الصور القديمة	
	٧٣١ - ٤١ جريجوري الثالث		٧٣٢ معركة تور براتيبه
	٧٣٣ إخراج جنوب إيطاليا وصقلية وإليرية وكريت من التبعية الكنسية لروما		٧٣٥ شارل مارتل يخضع أكيثانيا وجنوب برجنين
٧٣٥ وفاة ميده	٧٣٩ جريجوري الثالث يلتبس معمنة شارل مارتل		
٧٤٠ صدور الإكلوجا		٧٤٠ وفاة ليو الثالث	٧٤٣ - ٥١ تفلديك الثالث آخر ملوك المبروفنجيين

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
			٧٤١ - ٨٨ تأسيس لو آخر دوق مستقل لباناريا
		٧٥٠ سقوط الأمويين	٧٥٠ اللومبارديون يستولون على رافنا
٧٥٣ وفاة يوحنا الدمشقي	٧٥٢ - ٧ استيفن الثاني		٧٥٠ استيفن الثاني يعبر الألب
	٧٥٤ وفاة بونيفاس مؤسس الكنيسة الجرمانية		٧٥٠ البابا يتوج بيبين
		٧٥٦ - ٦٥ الحملات على البلقان	٧٥٠ عبدالرحمن أميراً لأسبانيا
			٧٥٠ وفاة امستولف
			٧٥١ - ٧٤٤ ديسيديريوس ملكاً على اللومبارد
	٧٥٧ - ٦٧ بولس الأول		٧٥٧ - ٩٦ ألفا ملك مرسيا
			٧٦٠ - ٨٨ بيبين يخضع أكيثانيا
٧٦٣ تأسيس دير لورش		٧٦٣ بغداد تصبح عاصمة الدولة العباسية	
	٧٦٤ - ٧١ اضطهاد عبدة الصور		
			٧٦٨ ارتفاع شريمان وكارلومان
			٧٧١ وفاة كارلومان
			٧٧٢ - ٨٠٤ حروب السكسون
			٧٧٤ سقوط مملكة اللومبارد
			٧٧١ معركة روليسيفال
		٧٨٠ - ٩٠ وصاية الإمبراطورة لمريفي	
		٧٨٦ - ٨٠٩ هرون الرشيد	

الأوضاع الحضارية	الأحوال الدينية	الأحوال السياسية	
		في الشرق	في الغرب
	٧٨٧ إمبري تعيد عبادة الصور		٧٨٧ شرلمان يخضع بنفنتو ٧٨٨ قيام مملكة الإدارة بمراكش
	٧٩٠ الرسائل الفرنجية		٧٩١ - ٦ حملات شرلمان على الآدار
٧٩٣ الدانمركيون يهبون ديم لندس فارن	٧٩٤ داييت فرانكفورت ٧٩٥ - ٨١٦ ليو الثالث	٧٩٧ مصرع قسطنطين السادس	٧٩٧ مهسوم سكونيا ح ٨٠٠ استقلال تونس ٨٠٠ تنويع شرلمان
ح ٨٠١ وفاة بولس الشمامس		٨٠٢ - ١١ نفقور الأول إمبراطورا	
٨٠٤ وفاة ألكوين		٨٠٩ غزوات البلغار	
	٨١٥ جمع القسطنطينية وتحطيم الصور	٨١٤ وفاة كروم حاكم البلغار	٨١٣ لويس النقي يتوج في آخن ٨١٤ وفاة شرلمان
٨٢١ وفاة ثيودولف الأورلياني	٨٢٦ وفاة ثيودورس رئيس دير ستوديون		

الفهرس الأبحدى

أربوس ٦٨، ٦٩، ١٣١
 الأربوسية (مذهب) ٦٧، ٦٨، ٧٧،
 ١٣١، ١٩٥—١٩٧، ٢١٢، ٢٢٦
 أسبار ١١١، ١١٢
 أسبانيا ١٦، ١٩، ٤٠،
 الوندال بها ٧٥، ٩١
 القوط الغربيون بها ٨٧، ٩١، ٢٥٥
 علاقة جستنيان بها ١٨٦
 الفتح الإسلامي ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٦٤
 شلمان وعلاقته ٣٥٣
 إسبوليتو ٣٣٥، ٣٧٠
 استرابون ١٨
 الاستضافة (نظام) ١١٨، ١٢٤
 استيليكو، ٣٨، ٤١، ٧٦، ٧٩، ٩٩
 ٢٨٧
 الإسكندر ٣٣
 الإسكندرية ١٦، ٢٩، ٦٢، ١٦٠،
 ٢٥٣
 إسكندريتاوه ٧١، ٧٥، ٨٤، ٢٩٨
 الإسلام ٩، ٢٣٩
 الإغريق
 لغتهم ١٩
 هجرة السكان ٢٠
 بسوريا ومصر ٢٠

(١)

آتيوس ٩٦، ١٠٨، ١١١
 آخن ١٥٦، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٦٩
 أبو بكر ٢٥٩
 أبو العباس السفاح ٢٦٢
 آبيون ٦١
 الاتحاد (كتاب)
 أثولف ٢٨٧
 آتيل ٥٦، ٩٥، ٩٧، ١٠٩
 أجوبارد ٢٨٦
 الإخمينيون ٢٦٧
 الأدب
 الإسلامي ٢٧٣
 السرياني ٥٧
 القبطي ٥٧، ٦١، ٣٢٣
 إدريس بن عبد الله ٢٦٣
 أدرنة (معركة) ٤٢، ٢٦، ٨٥، ١١٠
 أربوجاست ٨٥
 أرسطوفاليس ٦٥
 أرسطو ٣٣، ١٧٢
 أركاديوس ٣٧، ٥١، ١٠٢، ١١١
 إرلندة ١٦، ١٥٥، ١٥٦، ٣٢٨
 إرماتريك ٨٣

الألامان ٤١، ٧٥	القوط الغربيون ببلادهم ٤١، ٨٤
ألفريد ١٢٧	١٠٥
ألكوين ٣٩١، ٣٣١، ٣٤٧، ٣٦٦	الصقالبة بينهم ٢٩١
أليزية ٤٦، ٤٧، ١٠٧	الآفار: ٢١٦، ٢٨٨
أمالاسونثا ١٣٠، ١٧٧، ١٧٨	علاقتهم بين نقطة ٢٣٣، ٢٣٤
أمبروز ١٨٥	باللومبارد ٢١٦
الإمبراطورية الرومانية ٢١، ٢٦	وبالصقالبة ٢٩٥، ٢٩٨
الإمبراطورية الرومانية الشرقية ٣٧، ٢٢	وبالفرنجية ٢٩٨، ٣٥٤
أموداريا ٤٣	إفريقية، ولاية ١٦
الأمويون ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٧	الحدود ٤٠
أناستاسيوس الإمبراطور ٥٠، ١٣٠	الوندال فيها ٩١
١٣٨، ١٥٠، ١٧٨	إعادة فتحها ١٦٩—١٧٢
الأنجلوسكسون	هرقل يبحر منها ٢٣١
غزواتهم ٢٨٣، ٢٨٤	الفتح الإسلامي لها ٢٥٤—٢٥٥
مالكهم ٢٨٥	الأسر الإسلامية المألكة ٢٦٢
نظمهم ٢٨٦	أفلاطون ٣٣
عاداتهم ٢٩٢	الأفلاطونية الحديثة ٣١، ٣٢
الانشقاق الصغير ٢٠١	أفلوطين ٣١
أنطاكية ١٦، ١٧، ٢٩، ١٥٦	إفيسوس (مجمع) ٧٠
أنطونيوس ٧٣	أكاكيوس ٧٤
إفيسوس ٢٩	أكتينايا ١٦، ٧٦، ٩١، ١١٣، ٣٧٠
أبيكي (أمره أنيكيدس) ٦١	الارليك الأول ٣٩، ٨٦، ٩٠، ٩٩
الأوجستينوم ١٤٤، ١٤٨، ١٦٤	١٠٦، ١١٠، ١٩٤
أورليان ٢٥، ٢٦، ٥٧	الارليك الثاني ١١٦، ١١٩، ١٩٥
أودواكر ٣٨، ١٠٠، ١٠٦	الالان ٧٦، ٩١، ٩٧
أوستراسيا ٣١٤	

أوسونيوس ٦١، ٦٤، ٦٧، ٣٦٠	مجمع خلقدونية ٧٢
أوغسطس ١٥، ٢٣، ٤٣، ٢٠٤	ثيودوريك والبابوية ١٣٧-١٣٨
أوغطين ١٥، ٣٦، ٢٩، ٣٢٩	جستنيان معها ١٨٧
٣١٨	اللومبارد معها ٢١٣
أوغطين من كانتبري ٢٢٦،	مناهضة عبادة الصور معها
٢٩٠، ٣٢٨	٣٠٤-٣٠٥
أوفافا ٢٨٦، ٣٤٤	الكارولنجيون معها ٣١٧
أوفيد ٣٦٤، ٣٦٩	تطورات بالقرنين السابع والثامن
أولفيلاس ١٣١	٣٢٦
أيامليكوس ٣٢	جرميجوري الكبير ١٨٧، ٣١٧،
إيزيدور الأشيلي ٢٩٦	٣٢٦، ٣٨٨
أيستولف ٣٣٩	بانريك ٤١
إيسوريا والإيسوريون ٤٧،	باخوميوس ٧٣
الأسرة ٣٠٠	البارثيون ٢٤، ٤٥
إيطاليا ١٦، ٢٠، ٢٥	باسيليوس ٧٣
الآريك بها ٨٤-٨٥، ١٠٦	بافاريا ٧٥، ٣٠٩، ٣٤٨، ٣٧٠
أنيلا بها ٩٧	البحر الأحمر ١٨
تحت ثيودوريك ١٢٤	البرابرة ١٧، ٢٥، ٤٢، ٧٥
إعادة فتحها ١٧٨، ١٨٤	برانييلدا ٢٢٦، ٢٢٧، ٣١٢،
إيطاليا البيزنطية ٢٠، ١٨٥-١٨٦،	٣١٣، ٣٤٣
٢١٦ - ٢١٩	البربر ٢٠٣، ٢٥٤، ٢٥٥
اللومبارد ٣٣١	برترادا ٣٤
الفرنجية بها ٣٣٦، ٣٣٩	برجنديا والبرجنديون
آينهارت ٣٦٩، ٣٧٠	على الراين ٤١، ٧٥، ٧٧، ٨٤،
(ب)	١١٠
البابوية	في سافوي ١٢٤، ١٢٧
حتى القرن الرابع ٢٦-٢٧، ٦٨	

٢٩٨ — ٢٩٩ ، ٣٠٢	متحالفون مع الفرنجة ١٣٠ ، ١٣٢
البليون ٢٠٢	تحت الميروفنجيين ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
بليدا ٩٥ ، ٣٣١	٣١٢ ، ٣١٣
بليساريوس ٤٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،	عالمهم المستقلة ١٠٨ ، ١٢٦ ،
١٧٩ ، ٢١١	٣٧٠
بنجا يوس ٦٤	برقة ٤٣ ، ٧٤
بنديكث ١٨٥	برودونتيوس ٦٥
بنيفنتو ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٣١ ،	بروفالس ١٦ ، ٤٢ ، ١٢٩
٣٣٤ ، ٣٧٠	القوط الغربيون بها ١١٢ - ١١٤ ،
بواتيه (معركة) ٨٨ ، ٣١٥	٢٣
بوثيوس ١٢٧ ، ١٢٩ ، ٢٨٧ ،	القوط الشرقيون بها ١١٥ ، ١٢٩ ،
بورديو ٨٨	١٣٣
بوخيريا ٧٢	الفرنجة بها ١٨٥
بونطش ٢٠٧	غارات المسلمين ٢٥٦
بونيفاس ٩٢ ، ٣١٨ ، ٣٣٠ ، ٣٥١ ،	حكم الكارولنجيين ٣١٥
البونيون ٤٣	بروكويوس ٤١ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
بوهيميا ٢٩٨	١٧٣ ، ١٧٣ ، ١٨٢
بيين الاول ٣٣٩	بريتاني ٤١
بيين الثاني ٣١٤	بريسكوس ٦٥
بيين الثالث ٣٣٩	بريطانيا ١٥ ، ١٦ ، ٤٠٠ ، ٧٥ ،
بيده ٤٩١ ، ٣٦٥	٢٨٣ - ٢٩٠
بيزنطة (انظر القسطنطينية)	بعلبك ١٩٦
بيسكوب ٣٣١ ، ٣٦٥	بغداد ٢٦٢ - ٢٧٥ ،
بيلاجيوس ٢٠٠	بلاد العرب ١٦ ، ١٦٠ ، ١٨٨ ،
(ت)	٢٣٩ - ٢٤١
تاكيثوس ٤٧ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٢٨٤ ،	البلغار ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٣١٣ ،

ثيودور الإستوديومي ٣٠٨، ٣٠٠	التجارة
٣١٩	الرومانية ٢٤١، ٢٥٠، ١٧
ثيودورا (الإمبراطورة) ١٧٢، ١٥٠	المروفتجية ٣٣٩
٣٠٥، ٢١٠	الفارسية ١٦٢
ثيودوريك استرابون ١١٢	الإسلامية ٢٧٠-٢٤١
ثيودوريك الأكبر ٨٣، ٣٩، ١٠٣	الكارولنجية ٢٧٢، ٢٧١
٣٧١، ٣٣١، ١٧٧، ١٣٧، ١٢٤	البيزنطية ١٦٠
ثيودوسيوس الأكبر ٤٢، ٣٧، ٢٩	الخلاصة ٣٧٥
٣٤٧، ١٠٣، ٨٥، ٦٧	تخطيم الصور ٣٣٨، ٣٤٣
ثيودولف الأورلياني ٣٦١، ٣٦٠	تدمر ٢٥
٣٦٩، ٣٦٧، ٣٦٣	تراجان ٨٤، ٥٨، ٣٧
(ج)	تراقيا ٣٩
جائناس ١١٠، ١٠٧	ترتري (معركة) ٣١٥، ٣١٣
جالابلاسيديا ١٠٨، ٨٨، ٨٧	الترك ٢٧٦، ٢٥٧، ٢٥١
جالينوس ٢٦	ترولان (مجمع) ٣٣٥
جاندوباد ١٣٦، ١٣٥	ترويس (معركة) ٩٣
جراكوس ٢٣٣	تريف ١٢١، ٧٩
جرمانئوس ١٧٥	توتيل ١٨١، ١٧٧
الجرمان ٧٨، ٤٥، ٤٤، ٤١	التوحيد المشوب ٣١
ألمانيا ٧٧-٨٢	تور (معركة) ٣١٣، ٢٥٦
الملكية عندم ١١٦، ٧٩، ٧٧	تيريوس الثاني ٢٢٩
٣٥٦، ٢٨٩، ١٢٤	التيوتون ٤١
الضرائب ٣٥٥، ٣١٦	(ث)
القوانين ٣٨٣، ٣٦٠، ٣١٩	ثورنجا ١٢٧
مذهبهم الآريوسي ١٣٠	ثوسيديس ١٥٢
جروود ٢٠٤	ثيوداهاد ١٧٨، ١٧٧
	ثيودليندا ٣٣٢

جوليان ٢٠٧٠، ٨٩٠، ٤١٣٣٠
جيون ١٦٢
جيتشنج ٨٨
جيروم ٣٨٨٠، ١٨٥٠، ٤٠٠، ١٧
جيليمر ١٧٤٠، ١٧٣
جييد ٢١٢٠، ١٣٠٠، ٩٥٠، ٧٥

(ح)

الحبشة ١٦٣٠، ١٦٢٠، ١٨
حدود الراين ٧٧
حلبة السباق ٤٩
حير ٢٠٢
الحيرة ٢٧٠

(خ)

الخضر والزرق ٢١١٠، ١٤٨
خلفدونية
يجمع ١٩٩٠، ٧٣
الفرس فيها ٢٣٣-٢٣٠
العرب فيها ٢٥٧

(د)

داجوبرت ٣١٣
داماسيوس ٦٨
دارا ٢٢٩
داكيا ٢٩٥٠، ٨٤٠، ٧٥
الدانوب وحدوده ٣١٢٠، ٢٤٩٠، ٤٢٠
ديسديروس ٣٤٠

جرميجورى (أسقف نور) ٣٢٠
٣٦٠، ٣٢٤
جرميجورى الكبير ١٨٧-٣٢٧، ٣٢٦، ٣١٧، ٣١٢
جرميوالد ٣١٥
جستنيان ١٤١٠، ٧٢٠، ٤٧٠، ٢٦

١٥٠٠، ١٤٤

القسم الثانى بمواطن متفرقة

فتنة نيقا ١٦٩

سياسته الدينية ١٩٥

خلقه ١٦٩

حروبه مع فارس ٢٠٨

حروبه مع الوندال ١٧٤

حروبه مع القوط ١٨٢٠، ١٨١

نظامه الإدارى ١٨٨، ١٩٠

تشريعه ١٩١

ديپلوماسيته، وفاته ٢١١

جستنيان الثانى ٣٣٧

جستين الاول ١٣٠٠، ١٣٨٠

٢٠٥٠، ١٦٩٠، ١٥٠

جستين الثانى ٢٢٨

جزيريك ٣٧٠، ١١٧٠، ٩٢٠، ١٣٣

الجلادون ٥٧

جندريك ٨٣

جوديجيل ٩٠

جوفينال ٦٣

الرمزية (مذهب) ٣٩٩ : ٤٠٠	دقلديانوس ٣٧٠٢٦ ، ٤٤٠ ، ٤٩٠ ، ٥٣٠
رهبانية (انظر ديرية) ٧٣	٣٧٨ ، ٨٥
الرواتيون ٣١	دمشق ١٨٠١٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٧١
روفينوس ١١٠	دولة المدينة ٥٨
روما (مدينة) ١٥ ، ٢٠	الدوناتى (الانشقاق) ٥٦ ، ٢٢٤
اضمحلالها ١٨٤ ، ١٨٦	الدوناتيون ١٧٤ ، ١٩٧
سقوطها ٥٦	ديدالوس ٦٤
تحت حكم ثيودوريك ١٢٤	الدية ١١٦ ، ١٩٠ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢
بليساريوس بها ١٧٩	الديرية ٧٣ ، ٧٤ ، ١٧٢
بيزنطة (علاقتها) ٢١٦ ، ٣٣٤	الديكيو ٣٤١
البابوية (تحت) ٢٩٠ ، ٣٦٠ - ٣٦١	ديوسقوروس ٧١
الوثنية بها ٢٨	(د)
الرومانيون ٢٩٦	راداجايوس ٩٩
رومولوس ٤٠ ، ١٠٩	رافنا ٥٢ : ١٠٨ ، ١٥٥ ، ٢١٧
رويسيفال ٣٥٥	قصة الإمبراطورية ٣٩ ، ٥١
ريكاريد ١٣٦ : ٢٢٦	حصار القوط الشرقيين لها ٨٣
ريكييمير ١٠٦ ، ١٠٩	بليساريوس بها ١٧٩
رينهات ٣٦٤	بيزنطة (علاقتها) ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢١٦ ، ٣٣٤
(ز)	استيلاء اللومبارد ٣٣٩
الزراعة ٢٥ ، ٣٨ ، ٣٨٢	منحها للبابوية ٣٣٩
زنوبيا ٢٥	تحت حكم ثيودوريك ١٢٤
زينون (الإمبراطور) ٢٧ ، ٧٢ ، ١٠٠ ، ١٧٧	الراين (حدود) ١٥ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٣٥١
زيوس ٣٠	الراطازات ٣٠
(س)	الرفيق ٣٨٤
ساييليوس ٦٩	

السوييف ٧٦، ٧٧، ٨٩	الساسانيون ٤٤، ٢٠٤، ٤٠٨، ٢٤٩
سياجريوس ١١٤	سالفيان ٥٦، ٣٨٨
سيد الجند ٥١، ٨٤، ١٠٥، ١٢٤	سالونيك ٢٩٥
١٧٧	سامو ٢٩٦
سيدونيوس ٧٤، ٨٣، ١٢٢	ستيفن (البابا) ٣٤٠
٣٦٠، ٣٦٩	سجسموند ١٢٩
السيرك ١٤٩، ١٥٢	سرجيوس ٢٣٤
سيفيروس ٩٢	سرميوم ٩٨، ١٢٩
سيلان ١٨، ٦٢	سكسونيا ٣٤٩، ٣٥٢
سيخوس (البابا) ١٣٨	السكسون (مرسوم إعلان التسليم) ٣٥١
سيخوس (السناتور) ١٣٩	السكسوني (الساحل) ٤٠
سيخوس (زعيم الوثنية) ٦٦، ٦٧	السناتو (مجلس الشيوخ) ٤٩،
سينيسوس	١٢٤، ١٤٣
(أسقف برقة) ٤٣، ٧٤	سقيط ٧٣
(ش)	سمعان العمودي ٦٧
شارل مارتل ٣١٥، ٣١٧، ٣٢٨	سوريا ٢٢
٣٣٠، ٣٣٩	لغتها ٢٠
شرمان ١٥٦، ٢٨٦، ٣٤٠	تجارها ١٦، ١٧، ٢٦، ٣٧٥
بايطاليا ٣٤٤	سكانها ٢٠
تنويجه ٣٤٦	متجاتها ١٥
حروب ٣٤٨، ٣٥٥	قوميتها ١١٠
حكومته ٣٥٦	غازات الفرس ١٨٩، ٢٠٨،
خلقه ٣٦٩	٢٠٩، ٢٣١
بلاطه ٣٦٤، ٣٦٨	الفتح الإسلامي ٢٤٧، ٢٥٠،
وفاته ٣٦٩	٢٦١
سياسته ٣٧٠، ٣٧١، ٣٨٩	سولومون ١٧٥

(ع)	شيشرون ١٨٥
عبادة الإمبراطور ٣٠	الشيعة ٢٦١
العباسيون ٢٦٤	شيلريك ٣١٢
عثمان ٢٥٩	(ص)
العرب ١١٣، ٢٥٠، ٢٦٥	الصرب ٢٩٨، ٣٠٥
على بن أبي طالب ٢٦٠	الصقالبة ٢٩٨، ٣٠٥
عمر بن الخطاب ٢٥٩	على البريت ٧٦، ٢٩٣
عمرو بن العاص ٢٥٣	تحت القوط الشرقيين ٩٧
العملة (الرومانية) ٢٦، ١٦٠، ٣٧٥	بالبلقان ١٨٩؛ ٢٢٨
(غ)	تحت الآفار ٢٦٥
غالة ١٦، ٢١، ٢٥، ٤٧، ٧٧، ١٠٨	توسهم ٢٩٥
(ف)	على الإلب ٣٥٢
فارس ٢٠؛ ٤١؛ ١١٠	صناجلة ١٢٤
أثرها في روما ٢٦، ٤٨، ١٥٧	الصور (تخطيطها) ٢٠٢
جستين وجستنيان ١٦٠، ٢٠١	صوفيا (كنيسة القديسة) ١٤٣؛
٢٠٢-٢١٠	١٥٣، ١٥٥
هرقل ١٣١	الصين ١٨، ١٦٠، ٢٥١، ٣٧٤
الفتح الإسلامي ٢٤٧؛ ٢٤٩	(ض)
في حكم العباسيين ٢٦١-٢٦٢	ضريبة ٥٤
فاروس ٨٥	الضيافة ١٨٨، ١٢٤ (أنظر استضافة)
فاكوندوس ٢٠١	الضيعة (ضياح) ٣٨٢؛ ٣٨٥
فالز ٣٧	(ط)
فالتنيان الثالث ٣٧، ٤١، ١٠١	الطبقات الاجتماعية ٣٨٣
١٠٦، ١٠٧	الطبيعة الواحدة (مذهب) ٦٨،
فاليريان ٢٤	٧٢، ١٧١، ١٩٧، ٢٣٠
الفرات ٤٣	طرايزون ٢٧٢

الإسكندري ١٥٩	فرانكفورت (مجمع) ٣٤٥
الكلقي ٣٢٨	فرجيل ١٨٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩
الميروفنجي ١٢٠ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،	فردان (معاهدة) ٣٧٣
٣٢٣	فرفوربوس ١٢٧
البيزنطي ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ،	الفرنجية ٤١ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٣٠٧
٣٩٢	الساليون والريبواريون ٨٩ ، ١٥٥
القوطي ١٥٨	على الراين ٧٥ ، ٨٩
الإيراني ١٥٨ - ١٥٩	في غالة ٧٦ ، ١١٣
الإسلاي ٢٧٥	غارتم الإيطالية ٢١٣
الروماني البريطاني ٢٩٠	القرن السادس إلى السابع
الأنجلو سكسوني ٢٩١	٣٠٧ - ٣٢٣
الكارولنجي ١٥٦ ، ١٥٩	القرن الثامن ٢٨٨ - ٣٠٢
المسيحي ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٧٨	فرنسا
الخلاصة ١٥٥	القرن الثالث ٢٢ - ٢٣
فوجل (معركة) ١٢٩ ، ١٣٥	الوندال بها ١٠٦
فوقاس ١٨٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨	فتح الفرنجية ١١٣
فيجيليوس ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠	الميروفنجيون ١١٦ - ١٢٢
فيدياس ١٤٧	القرنان السادس والسابع
الفينكج ٨١ ، ١٩١	٣٠٧ - ٣٢٥
(ق)	الكارولنجيون ١٥٤ - ٣٧٠
القاديسية (معركة) ٢٤٦ ، ٢٥٠	فنبازيان ٨٥
قانون جستنيان ١٩١ - ١٩٢	الفصول الثلاثة ١٩٩ ، ٢٠٠
القانون القبطي ٣٨٦	فم الذهب (يوحنا) ٦٣
القانون الكارولنجي ٣٦٠	الفلاح الصغير ٦٠ ، ١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٨٣
القانون اللومباردي ٣٣٣	فلافيانوس ٦٦
قرطاجة ٢٠ ، ٩٣ ، ١٧٤ ، ٢٣١ ،	الفن
٢٥٤	

غزواتهم ٨٤-٨٩، ١١٠
 بفرنسا، آسيايا ١١٣، ١٢٣، ٣٢٦
 فتح المملكه ٢٥٤
 قباذ ٢٠٨
 القيروان ٢٢٥
 قيصر ٧٨، ٧٥
 قيصر يوس ١٣٤، ١٣٦
 (ك)
 كتاب المشيكات ٧٢، ١٥٦، ٣٥٨
 الكارولنجيون ٣١٢-٣١٨،
 ٣٣٩-٣٥٣
 كاسيودوراس ١٢٦، ١٨٥، ٣٢٧
 كرا كلا ٢٠
 الكروات ١٩٨
 كريساقيوس ٧٢
 كسرى ٢٠٨، ٢٢٨، ٢٣٣
 الكلث (الفن) ١٦، ٥٥
 الشعوب ٧٥
 الزراعة ٣٨٠
 كلوديانوس (الشاعر) ٣٩، ٦٧
 كلوديوس ٥٧
 كلوفيس ١١٤، ١٢١، ١٢٦، ١٣٧،
 ٣٠٧، ٣١٧، ٣٢٦، ٣٧٢
 كوزماس ١٦١، ١٦٢، ٢١٩،
 كولخيس ٢٠٥
 كولومبا ٣٢٧

قسطنطين الأكبر ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣،
 ٣٧٨، ٣٢٠
 منحه ٣٢٥، ٣٤١، ٣٤٩
 قسطنطين الخامس ٣٠٥
 القسطنطينية
 تأسيسها ٢٨
 نموها ٣٩
 أوليتها الإكليرسية ٣٩
 مجمعها الديني ٧٠
 أزمتها ضد الجرمان ٨٤، ١١٠
 وصفها ١٤٦-١٤٨، ١٦٤-١٦٨
 حصار الآفار والفرس لها ١٦٨،
 ٢٣١-٢٣٣
 الحصار الإسلامي ٢٥٧، ٣٠٠
 قسطنطين (المغتصب) ٤٢
 قسطنطيوس (القائد) ٨٤، ١٠٨
 القلزم ١٦١
 القوط الشرقيون
 على الدستور ٧٦
 بايطاليا ١٣٨
 أصلهم ٧٥
 تحت الهون ٩٣
 غزواتهم ٩٧، ١٠٠، ١١٣
 بايطاليا ١٧٧
 القوط الغربيون
 على الدانوب ٨٤، ١١٣

مجمع ترولا ٣٢٧	كوينيليان ١٨٥
مجمع فرانكفورت ٢٤٥	(ل)
مجمع الموص ٧١	لازيكا ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩
مجمع نيقة ٦٨، ٦٩، ١٣١، ٢٤٥	لغة ٦١، ٣٢٣، ٣٣٢
مجمع هويلي ٣٢٩	لورانس ١٢٦
محمد (ص) ٢٣، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٧٠	اللومبارد ٧٦، ٨٢، ٢١٣
المدائن ٢٦٦	بايطاليا ٣٣١
المدينة ٢٤٥، ٢٥٩	البابوية ٣١٧، ٣٢٦، ٣٣٣
مرسوم إعلان تسليم السكسون ٣٥١	فتح القرينجة ٣٣٩
مرسيا ٣٢٩، ٣٦٦	لونجينوس ٢٠٢
مريقان ٦٣	لويس الورع (التقى) ٣٧٠، ٣٧٣
مزرك ٢٠٨	ليانيوس ٦٥
المسيحية ٢٨	ليجير ٥١٤
مصر ٢٢	ليسينيوس ١٤٧
التجارة والزراعة ١٥ — ١٨	ليو الإيسوري ٢٥٨، ٢٩٩، ٣٠٠؛
٣٧٠، ٥٥	٣٠٦، ٣٦٧
السكان ٢٠ — ٢١	ليو الكبير (البابا) ٧٢، ٩٧، ٣٨٨
الدين ٢٥ — ٢٦، ٧٠	ليوتبراند ٣٦٧، ٣٣٩
الثقافة ٢٠، ٥٥	(م)
النظام الإداري ٦٠، ٢٦٢	ماجوريان ٦٠، ١٠٩
الديرية ٧٤	ماراتون ٢٤
التبشير البيزنطي ٢٠١	مارتيال ٦٣
الفتح الإسلامي ٢٣١، ٢٥٠	ماركوس أوريليوس ٢٣
الفتح الفارسي ٢٣١	ماركومان ٨٩
الفتح الفاطمي ٢٦٢	المتبررون (انظر برابرة)
معاوية ٢٦٠	مجلس الشيوخ (في سناتو)

نيكيتيوس ١٢١	المغاربة ٤٣
(هـ)	مقدم الجند (في سيد)
هادريان ١٢٢ ، ٣٦٦	مقدونيا ٤١ ، ٧٦
المرطقة (المرطقة) ١٩٥	مكة ٢٤٣ ، ٢٤٥
هرقل ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٤٨ ٢٢٣ ،	موريك (معركة) ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٧
٢١٣ ، ٢٩٩ ، ٢٥٠	موريقيوس (موريس) ٢٠٤ ،
هرقلية (أسقفية) ٣٩ ، ٧٠	٢٢٢ ، ٢٢٨
هرون الرشيد ٢٧١ ، ٣٦٨	مومسن ٤٩
هلديراند ٣٤٧	ميدان السباق ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٩
هلدياد ١٧٧	الميروفتجيون ١١٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٥
الهلينستي ١٦	(ن)
الهند ١٨ ، ٢٥	نارسيس ٤٥ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢١٣
هوراس ٦٣ ، ٨٥	نخل الخفايا والأسرار ٢٨
الهون ٤٢ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١١٠ ،	النساطرة ومبشروهم ٢٢٨
٢٠٤	نصيين ١٦٣
هونريك ١٣٣	نظار القصر ٣١٣
هونوريوس ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٥١ ،	النقابات ٥٧ ، ٢٢٠
٨٧ ، ١٠١ ، ١٠٦	نفس ٦٧
هويثي ٣٢٩	النوياد ٢٠٢
هيرودوت ٢٦٧	نورمبريا ٣٢٩ ، ٣٦٦
الهيرول ٧٦ ، ٩٨ ، ١٢٩	النورمان ٢٩٢
(و)	نوستريا ٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٣١٤
واليا ٨٨	نوسطوروريوس ٧٠
الوثنية ٢٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٧٤ ،	نيوس ١٠٩
٢٢٤	نييلونجيليد ١٠٨
وحدة طيعة المسيح ٦٨ ، ٧٢	نيقا (قن) ١٦٩

(ى)	وسكس ٣٦٦
اليرموك ٢٤٧، ٢٥٠	الوندال ٧٥، ٧٦، ٨٨، ١٠٦
الين ١٦٠، ٢٠٧، ١٤١، ٢٧٠	على الراين ٤٠
اليهود ١٩٧	على الدانوب ٩٠
يوتروبيوس ١٠٥، ١١٠	في غالة وأسبانيا ٧٥، ٨٩
يوتيوخوس ٧١	غزواتهم ٨٩؛ ٩٨
يوثاريك ١٣٠، ١٣٨	غزاتهم على صقلية ٩٨
يوحنا التروجلي ١٧٥	علاقتهم ببيودوريك ١٢٩
يوحنا القبادوقى ١٦٩، ١٧٢، ١٩٠	بإفريقية ٥٧؛ ١٣٣
يودوكسيا ١١٠	علاقتهم بجستنيان ١٤٦
يوريك ١١٤، ١١٦، ١٣٣	وبتيجز ١٨٠
يوليوس نيبوس ٥٠	وينوكند ٣٥١

اقرأ في هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند راسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ي . رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس مكسلى
الجغرافيا في مائة عام	ت . و . فريمان
الثقافة والمجتمع	رايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر . ج . فوردس
الأرض الغامضة	ليسترديل راي
الرواية الانجليزية	وانثرال
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د . قدرى حفى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقاد	ديفيد وليام ماكداول
الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية - مقال فى النوع الادبى	د . محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س . بى . كركس
الانسان ذلك الكائن الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	جول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د . عبد المعطى شعراوى
على محمود طه	انور المعداوى
القوة النفسية للأمراض	بيل شول وادبنيت
فن الترجمة	د . صفاء خلوصى
تولستوى	رالف تى ماتلو
سنتدال	فيكتور برومبير

بادى اونيمود	افريقيا الطريق الآخر
فيليب عطية	السحر والعلم والدين
جلال عبد الفتاح	الكون ذلك المجهول
محمد زينهم	تكنولوجيا فن الزجاج
مارتن فان كريفله	حرب المستقبل
سوندارى	الفلسفة الجوهرية
فرانسيس ج . برجين	الاعلام التطبيقى
ج . كارفيل	تبسيط المفاهيم الهندسية
توماس ليبهارت	فن المايه والبانتومايم
الفين توفلر	تصول السلطة (٢ ج)
ادوارد ويونو	التفكير المتجدد
كريستيان سالين	السيناريو فى السينما الفرنسية
جوزيف . م . بوجز	فن الفرجة على الافلام
بول وارن	خفايا نظام النجم الامريكى
جورج ستاين	بين تولستوى وديستوفسكى (٢ ج)
ويليام ه . ماثيوز	ما هى الجيولوجيا
جارى ب . ناش	الاحمر والبيض والاسود
ستالين جين . سولومون	انواع الفيلم الامريكى
عبد الرحمن الشيخ	رحلة الامير رودلف ٣ ج .
عبد العزيز جاويه	رحلات ماركوبولو ٣ ج
محمود سامى عطا الله	الفيلم التسجيلى
يالكو لافرين	الرومانتيكية والواقعية
ليوناردو دافنشى	نظرية التصوير
جوزيف ليدهام	لاربع العلم والحضارة فى الصين
ه . ليوبوسكاليا	الحب
ت . ج . ه . جيمز	كثوز الفراعنة
د . السيد نصر الدين	اطلالات على نازمن الاتى
مالكولم براد برى	الرواية اليوم
يوسف شرارة	مشكلات القرن الحادى والعشرين

- السيتما العربية
دليل لتنظيم المتاحف
سقوط المطر وقصص أخرى
جماليات فن الإخراج
التاريخ من شتى جوانبه (٢ ج)
الحملة الصليبية الأولى
التمثيل للسيتما والتليفزيون
العثمانيون في أوروبا
صناع الخلود
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)
رحلات فارسيما
أثهم يصنعون البشر (٢ ج)
في انتقد السيماني الفرسي
السيتما الخيالية
السلطة والفرد
الأزهر في ألف عام
رواد الفلسفة الحديثة
سفر ثامة
مصر الرومانية
كتابة التاريخ في مصر
القرن التاسع عشر
الاتصال والهيئة الثقافية
مختارات من الآداب الآسيوية
كتب غيرت الفكر الآساني (٥ ج)
الشموس المتفجرة
مدخل الى علم اللغة
حديث النهر
من هم التتار
ماستريخت
معالم تاريخ الآسانية (٤ ج)
الحملات الصليبية
حضارة الإسلام
رحلة بيرتون (٣ ج)
- أعده / موني براخ وآخرون
آدامز فيليب
٨ نادين جورديمر وآخرون
زيجمونت هبئر
ستيفن أوزمنت
جوناثان ريلي سميت
توني بار
بول كولنر
موريس بير براير
الفريد ج ٠ بتر
رودريجو فارتيجا
فانس بكاره
اختيار / د ٠ رفيق الصبان
بيتر نيكولز
برترانه راسل
بيارد دودج
ريتشارد شاختر
ناصر خسرو علوى
نفتالى لويس
جاك كرايس جونيور
هربرت شيلر
اختيار / صبرى الفضل
أحمد محمد الشفواني
اسحق عظيموف
لوريتو توه
أعداد / سوربال عبد الملك
د ٠ إبرار كهرم الله
أعده / جابر محمد الجزار
٨ ج ٠ ٠ ولسن
ستيفن رانسمبان
حوستاف جرونييساوم
ريتشارد ف ٠ بيرتون

- الحضارة الإسلامية
الطفل (٢ ج)
رسائل واحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات فى مضمار
الفيزياء الذرية)
القرات الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائى عند تولستوى
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
اعلام العرب فى الكيمياء
فكرة المسرح
الجسيم
صنع القرار السياسى
التطور الحضارى للآسان
هل نستطيع تعميم الأخلاق للأطفال
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
الفصل والطب
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوماً فى السنة
المصحافة
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الإنحياز فى عالم متغير
الفكر الاوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
- أدمز متز
أرنولد جيزل
نيكتور موجو
فيرنز هيزنبرج
سدى هول
ف . ٠ ع أدنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د . نعمة رحيم المزوى
د . فاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
هنرى باربوس
السيد عليه
جاكوب برونوفسكى
ه . ٠ روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . ٠ سبنسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف دامموس
ه . لينوار تشامبرز رايت
ه . ٠ جون شنفيلر
بيير البيير
د . غبريال وهبة
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين ل . ٠ باومز
شوكوت الربيى

- التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
صور افريقية
المخدرات حقائق اجتماعية وفلسية
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية أسماك الزيتة
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
الفكر التاريخي عند الإغريق
قضايا وسلامح الفن التمسكيلي
التغذية في البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات في مصر الإسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
للكون
الارهاب
اختاتون
القبيلة الثالثة عشرة
التوافق النفسي
الدليل البيليوجرافي
لغة الصورة
الثورة الإصلاحية في اليابان
العالم الثالث غدا
الانقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الأوركستراالى
الشاهنامة (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
كتابة التاريخ في مصر
- ٥٠٠ محيى الدين أحمد حسين
دوركاس ماكلينتوك
بيتر لورى
بوريس فيدروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
جمعها : جون ر ٠ بورر
وميلتون جولد ينجر
ارنولد توينبى
٥٠٠ صالح رضا
٥٠٠ م كنج وآخرون
جورج جاموف
٥٠٠ السييه طه ابو سديرة
جاليلى جاليلىه
اريك موريس وآلان هو
سيريل الدريد
آرثر كيستلر
توماس ٠ هاريس
مجموعة من الباهثين
روى أرمز
تاجاى متشيو
بول هاريسون
مبخائيل البنى ، جيمس لفلوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
الفردوسى الطوسى
بيرنون بورتر
جياك كرابس جونيور

ادواره ميرى	عن اللقد السيتمالى الأمريكى
اختيار / د. فيليب عطية	ترانيم زرادشت
ج. دادلى اتدرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونه	مختارات من الادب القصصى
د. جوهان دورشنر	الحياة فى نكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريكىين	حرب القضاء
د. السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د. مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
حبرى الفضل	مختارات من الادب اليابانى
فرانكلين ل. باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٤ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دايت مويون	كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكى ف. س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرخاوى	اجهزة تكييف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س. م. يسورا	التجربة اليونانية
د. عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية
رونالد د. سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
د. أنور عبد الله	الشارع المصرى والفكر
والث وتيمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س. هيس	تبسيط الكيمياء
جون يوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
آلان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياحى
فريد هويل	البذور الكونية
شاندرا ويكراما ماسينج	دراما الشائنة (٢ ج)
حسين حلمى المهندس	

المراة الفرعونية	كريستيان ديديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السي	روبرت لافرو
الكيمياء فى خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمّل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بوشنيدر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز القراعنة	ت . ج . هـ . جيمس
البرنامج النووى الاسرائيلى	د . معدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوير
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوتنا المتمدد	ايفورى شاتزمان
الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا	نومان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٨٢٢ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977-01-5506-3

تهدف الهيئة المصرية العامة للكتاب من مشروع الألف كتاب
الثانى أن تواصل مسيرة المشروع الأول لتكوين مكتبة متكاملة للقارئ
العربى فى شتى جوانب المعرفة عن طريق الترجمة والتأليف فضلاً
عن إعادة طبع أهم الأعمال الفكرية والعلمية والأدبية التى أسهمت فى
تكوين الثقافة المصرية والعربية فى العصر الحديث والتى بات
الإطلاع عليها اليوم متعزراً لشباب هذا الجيل لقدم طبعاتها.

وفى هذا الإطار يسعى المشروع إلى إلقاء الضوء على كتب التاريخ، ومن أهم ما
صدر منها فى هذا المجال:

- (١) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (٢) تاريخ الشعوب العربية
- (٣) التاريخ وكيف يفسرونه (٤) التاريخ من شتى جوانبه
- (٥) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

(انظر قائمة الإصدارات فى آخر الكتاب)

وهذا الكتاب الذى بين يدي القارئ يتعرض لحقبة طويلة من الزمن تبلغ قرونًا
أربعة تبدأ بانهيار الحضارة الرومانية فى أوروبا على أيدي القبائل البربرية
وهى الفترة المعروفة بالعصور الوسطى. وينقسم الكتاب إلى أربعة أقسام:

القسم الأول العلاقة بين الرومان والبرابرة، أما القسم الثانى فيتحدث عن عصر
جستنيان وتناوله من جميع نواحيه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية
والعسكرية، كما أفرد للإسلام قسماً كاملاً، فتحدث عن مآثره العسكرية وفتوحه
وثقافته وحضارته. وفى القسم الرابع تناول عصر شرلمان وأفرد فصلاً كاملاً
للقرنجة والجرمان وعاداتهم، وتحدث أيضاً عن البابوية وعلاقتها بالأحداث
والشعوب. ومن الظواهر الرئيسية التى عالجها المؤلف مسائل العراك بين
السلطتين الزمنية والدينية بعد القتال الدموى الذى نشب بين المسيحية والوثنية.